التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

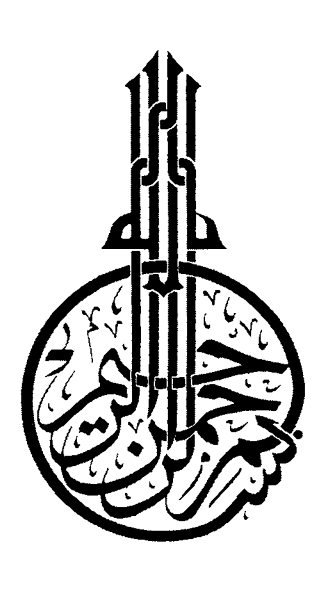
المجلد الأول:

ويحتوي على تفسير هذه السور

الفاتحة - البقرة - آل عمران

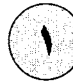


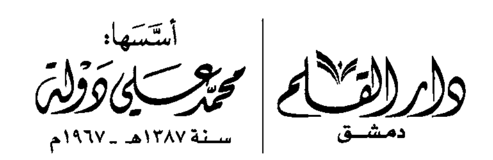
دمشق



التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم





الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

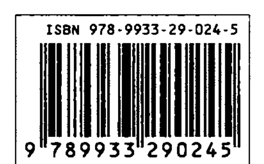
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

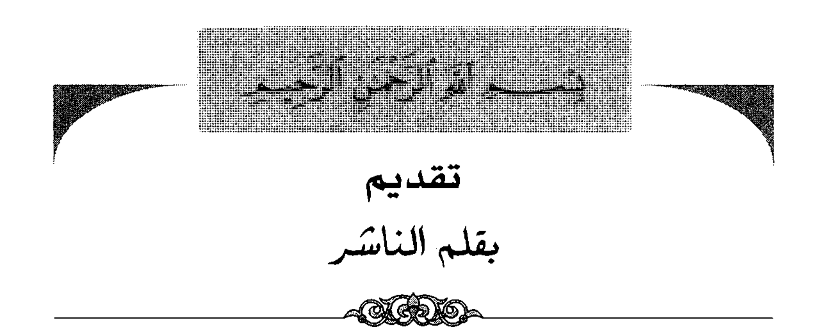
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤


ISBN 978-9933-29-024-5



تقديم
بقلم الناشر

الحمد لله مُنَزِّل القرآن الكريم، والصلاة والسلام على من أرسله الله مُبَيِّناً لهذا الذكر الحكيم، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فإن علم التفسير من العلوم الإسلامية الأساسية الرائدة، أقبل عليه العلماء منذ العهد الأول لهذا الدين الحنيف، فقد كانوا يرجعون من أجل فَهْم أحكام دينهم ومعرفة حلاله وحرامه أولَ ما يرجعون إلى كتاب الله ﷻ، ومن هنا نشأ علم التفسير، وعُرف بين علماء المسلمين جَماعةٌ يُقال لهم: المفسرون.

وقد انصرف اهتمام المفسرين منذ البداية إلى فَهْم معاني آيات الكتاب الكريم، وتفننوا في ذلك، بل أبدعوا فيما كتبوه في هذا الأمر، وقدَّموا لأمتهم وما يزالون كتباً قيِّمة في هذا المجال، أُطلق عليها اسم «التفاسير».

وكان من هذه الكتب التي أفاد منها أهل العلم إفادة كبيرة التفاسيرُ الاثنا عشر الآتية أسماؤها، والتي كانت طيلة قرون المرجع الأول للمسلمين في تفسير آيات القرآن الكريم. وهذا تعداد لأسمائها، وذكرٌ لسني وفاة مؤلفيها، عليهم رحمة الله جميعاً:

١ ـ تفسير الطبري: الذي سمّاه مؤلفه «جامع البيان في تفسير آي القرآن»، وكانت وفاة الطبري في بغداد سنة (٣١٠هـ).

٢ ـ تفسير البغوي: وقد سمَّاه مؤلفه «معالم التنزيل»، وقد توفي هذا المفسِّر سنة (٥١٠هـ).

٣ ـ تفسير ابن عطية: الذي سمَّاه مؤلفه «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وكانت وفاة مؤلفه سنة (٥٤٦هـ).

٤ ـ تفسير الفخر الرازي: «مفاتيح الغيب»، توفي مؤلفه فخر الدين الرازي سنة (٦٠٦هـ).

٥ ـ تفسير القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن»، توفي مؤلفه سنة (٦٧١هـ).

٦ ـ تفسير ابن كثير: وقد سمَّاه مؤلفه «تفسير القرآن العظيم»، وتوفي مؤلفه سنة (٧٤٠هـ).

٧ ـ تفسير الخازن: «لُباب التأويل في معاني التفسير»، توفي مؤلفه سنة (٧٤١هـ).

٨ ـ تفسير «الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور»، مؤلفه جلال الدين السيوطي، المتوفَّى سنة (٩١٠هـ).

٩ ـ تفسير الخطيب الشربيني: واسمه «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربِّنا الحكيم الخبير»، وقد توفي الخطيب الشربيني سنة (٩٧٧هـ).

١٠ ـ تفسير روح المعاني: واسمه الكامل كما سماه مؤلفه: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» للآلوسي، توفي مؤلفه سنة (١٢٧٠هـ).

١١ ـ تفسير المَراغي: واسم مؤلفه أحمد مصطفى المراغي، وقد توفي في سنة (١٣٧١هـ).

١٢ ـ في ظلال القرآن: وقد كتبه الداعية الكبير «سيد قطب»، الذي قَضَى شهيداً ـ إن شاء الله ـ في سنة (١٩٦٦م).

* * *

تأصَّل علم التفسير على مدى قرون عديدة، وألَّف العلماء فيه عشرات من كتب التفسير زيادة على الاثني عشر تفسيراً، التي أتيتُ على ذكر أسمائها. وكان دأب المفسرين طيلة هذه القرون الاشتغال في التعمق في فهم آيات الكتاب المبين، واصطياد معانٍ جديدة لهذه الآيات، لم يَسْبق للمفسرين السابقين أن أتَوا عليها.

بَيْد أنه ظهر في العصر الحديث اتجاه جديد في التفسير أُطلق عليه اسم «**التفسير الموضوعي**»، حيث لم ينصرف المفسرون فيه إلى ذكر معانٍ جديدة للآيات لم يُسبقوا إليها، بل كان اهتمامهم منصرفاً إلى تفسير الآيات التي تتمحور حول بعض الموضوعات الاجتماعية التي تُعاني منها المجتمعات الإسلامية.

وأسوق الآن أمثلة لذلك: فماذا جاء في الآيات القرآنية عن (المرأة)؟ وماذا جاء أيضاً في تلك الآيات عن (اليتامى)، وعن (الزواج)، وعن الاشتغال بـ (التجارة) وبـ (الصناعة)؟.

إذن فقد كانت عناية التفسير الموضوعي بالقضايا الاجتماعية.. إنه لم يُعْنَ باستنباط المزيد من المعاني في الآيات التي سُبق إلى تفسيرها.

وهذه جملة من الموضوعات والقضايا الإسلامية التي هي بحاجة ماسَّة لدراستها دراسة قرآنية، ولتناول أبعاد تلك الآيات القرآنية التي عالجتها:

١ ـ القرآن والمرأة.

٢ ـ القرآن والغنى والفقر.

٣ ـ القرآن والزراعة والصناعة.

٤ ـ القرآن والجرائم التي تفتك بالمجتمع.

٥ ـ القرآن والاختلاط بين الرجال والنساء.

٦ ـ القرآن ومكافحة الأمراض الجسدية.

٧ ـ القرآن وترغيبه بالزواج.

٨ ـ القرآن والعقوبات.

٩ ـ القرآن والأيتام.

١٠ ـ القرآن والمال.

* * *

هذا وقد كانت لفضيلة شيخ الأزهر الأسبق: محمود شلتوت رحمه الله ـ الذي

شغلَ مشيخة الأزهر من سنة (١٩٥٨م) إلى سنة (١٩٦٣م)، حيث استقال من منصبه، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلَى عن سبعين عاماً ـ كانت له مشاركة رائدة وقيّمة في قضية التفسير الموضوعي.

وقد تحدَّث عن هذا اللون من التفسير فقال: «هو أن يعمد المفسِّر إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد، ثم يضعها أمامه كمواد يحلِّلها، ويفقه معانيها، فيتجلَّى له الحكم، ويتبين له المرمَى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع».

وقد بيَّنَ رَحِمَهُ اللهُ أهمية هذا النوع من التفسير، وأنه الطريقة المُثْلَى للتفسير، خاصة للدعاة إلى الله تعالى، إذ به تبرز هداية القرآن في مختلف مناحي الحياة.

هذا وقد كتب الشيخ شلتوت في التفسير الموضوعي كتابين؛ هما: «القرآن والمرأة» و«القرآن والقتال»، وشجَّع أهلَ العلم بتأليف هذين الكتابين على معالجة كثير من الموضوعات وإدراجها في منهج التفسير الموضوعي.

* * *

وبعد الشيخ شلتوت لَفَتَ العالِمُ الجليل والشيخ الفاضل: عبد الحميد محمود طهماز[1] نظرَ أهل التفسير إلى جانب آخر من جوانب التفسير الموضوعي، فقام بدراسة تفسيريَّة للقرآن الكريم، أثبت فيها أن كل سورة من سوره تعالج فكرة محدّدة، ترتبط فيها جميع آيات هذه السورة.

وقد أخرجتْ له دار القلم بدمشق منذ حوالي ربع قرن الطبعة الأولى من تفسيره هذا، وكان تحت عنوان: «من موضوعات سُوَر القرآن».

---

(١) **الشيخ عبد الحميد طهماز**: عالم من بلاد الشام، ومن أهل حَماة، ألَّف كثيراً من الكتب، ويأتي في مقدمتها: تفسيره الجليل المفيد لكتاب الله ﷻ، الذي أطلقنا عليه اسم «التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم»، توفي رَحِمَهُ اللهُ في سنة (١٤٣١هـ) الموافقة لسنة (٢٠١٠م)، ودُفن في مدينة الرياض، ولسوف نُورد له ترجمة موجزة في نهاية هذا التفسير إن شاء الله تعالى.

وهذه عناوين ستة أجزاء من هذا التفسير:

١ ـ الإسلام لله تعالى في سورة البقرة.

٢ ـ التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران.

٣ ـ حقوق الإنسان في سورة النساء.

٤ ـ الحلال والحرام في سورة المائدة.

٥ ـ المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.

٦ ـ العواصم من الفتن في سورة الكهف.

وقد لقي هذا التفسير قبولاً جيداً من طلاب العلم، وهذا ما دعاني إلى التفكير في إعادة طباعته في عدد محدَّد من المجلدات، بدلاً من الأجزاء الصغيرة التي أُخرج بها في طبعته الأولى والتي اقتربت من الثلاثين.

وكتبت إلى المؤلف أُعْلمه برغبتي في إعادة طباعة تفسيره، ورغبتي إليه في أن يُعيد نظره فيه، وأن يضيف إلى طبعته الثانية زيادات وتنقيحات جديدة، كما أخبرته أنني سوف أضع له الاسم الجديد الآتي: التفسير الموضوعي لسُوَر القرآن العظيم.

وراقت الفكرة للمؤلف، وأعجبته التسمية الجديدة، فأعاد النظر في تفسيره، وطلب مني أن أبدأ في هذا الإخراج الجديد. فأقدمت على هذا العمل معتمداً على الله تعالى.

وأعان الله ﷻ على إخراج هذه الطبعة الثانية لهذا التفسير، فله الحمد والمنَّة سبحانه وتعالى على كريم فضله، وعظيم عطائه.

وهنا أجد أنه يتوجَّب عليَّ أن أقدِّم للقارئ ـ ولو ـ شيئاً وجيزاً عن مزايا هذا التفسير كما أراها، وهذا ما سيجده القارئ في الصفحتين الآتيتين؛ بعون الله تعالى وتيسيره.

❁ ❁ ❁

من مزايا هذا التفسير



١ ـ انصبَّ اهتمامُ المؤلف على تقديم معاني الآيات القرآنية، وعَرْضها على القارئ بعبارات واضحة وأسلوب سَهْل مُيَسَّر، وأجد أنه يجب علي أن أعترف أنني حينما أحتاج لفهم معنى آية من كتاب الله ﷻ فإني أراجع ما لا يقل عن عشرين تفسيراً تحتويها مكتبتي المتواضعة، لكني أشهد أن معنى هذه الآية أو الآيات لا أتبينه ولا أصل إليه بالسهولة واليسر اللّذَين أجدهما في هذا التفسير الذي صاغه الشيخ عبد الحميد طهماز، جزاه الله خيراً.

٢ ـ لم يشغَل المؤلفُ القارئَ بقضايا لُغوية أو فقهية أو كلامية، بل كان مِحْور اهتمامه أن يوصل إلى القارئ فهم معنى آيات الكتاب الكريم واستيعاب ما تحتويه بكلام موجز مفيد.

٣ ـ اعتنى المؤلفُ عند تفسيره لآية ما بأن يأتي في هذا التفسير بما يشبهها من الآيات الأخرى التي تُعنى بالفكرة نَفْسها، وبذلك جاء بتفسير موضوعي ـ حسب تعريف العلماء له ـ للمسألة التي تتناولها هذه الآية ومثيلاتها.

٤ ـ تعرَّض المؤلف لعدد من القضايا العلمية المبثوثة في هذا الكون العجيب، الذي أبدعته قدرة الله ﷻ، والتي كشف عنها العلمُ الحديث، وذلك حينما تناول تفسير بعض الآيات التي أشارت إلى هذه القضايا، واستطاع أن يوضحها ويقربها من القارئ بحيث لا يشعر أنه انتقل من تفسير للقرآن الكريم إلى القراءة في موضوعٍ علمي بَحْت!.

وانظرْ في هذا المجال تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

وانظر نقله الجيد من كتاب «بين ميزان الشرع ومنظار العلم» لأسباب تحريم

لحم الخنزير، وذلك في تفسيره للآية (١١٥) من سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ .

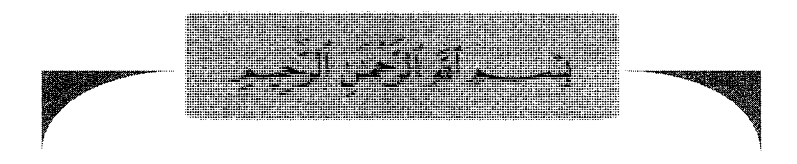
٥ ـ انظر إيراده لقصة ذي القرنين ورحلاته والسدِّ الذي أقامه، ومن هم يأجوج ومأجوج؟، وهي من القضايا التاريخية الغامضة، التي استطاع أن يعرضها ويقربها للقارئ بكل يسر وسهولة.

٦ ـ هذا التفسير يصلح لأن يكون مرجعاً جيداً للمسلم المعاصر مهما كانت درجته من العلم، ولسوف يجد فيه القارئ ضالته إن شاء الله.

وفي ختام هذا التقديم لهذا التفسير الجديد فإن دار القلم بدمشق يُسعدها أن تقدِّم للمسلمين عموماً تفسيراً موجزاً ميسَّراً، خالياً من المعوِّقات والصوارف عن هَدْي القرآن الكريم، وترجو الله ﷻ أن ينفع به عامة المسلمين، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء.

١ محرم ١٤٣٥هـ
٤/ ١١/ ٢٠١٣م

الناشر
محمد علي دَوْلَة



مقدمة التفسير

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد النور المبين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ المدينة المنوّرة في الحقيقةِ هي بلدُ الروح والفتوح، فعندما أكرمني ربي ﷻ بسُكنى المدينةِ المنوَّرة، وشرَّفني فيها بجوارِ سيد المرسلين ﷺ، وذلك في العام الرابع بعد الأربعمئة والألف من هجرته عليه الصلاة والسلام، عزمتُ على تأليف كتابٍ في بعض شمائل سيدنا رسول الله ﷺ وبعضِ خصائصه التي خصّه اللهُ تعالى بها تكريماً وتشريفاً.

ووجدتُ بعدَ البحثِ والنظر الطويلينِ أنَّه ما أحاطَ بشمائله ﷺ ـ على كثرة مَنْ كتبَ وألَّفَ فيها على مدى العصور الإسلامية المتوالية حتى عصرنا الحاضر ـ إلا ربُّه ﷻ، الذي أدَّبه فأحسن تأديبه، وجمَّله بأعلى الصفات، وخصّه بأسمى الغايات، ورفعه إلى أرفع الدرجات، وشرَّفه بأعظم الأمانات، وحمّله أكرمَ الرسالات، وجعل سبحانه أخلاق نبيه ﷺ العالية وصفاته الكاملة دليلاً على صدقِ رسالته، وصحّةِ نبوته، حتى قال تعالى في معرض الإنكار على الكافرين المعرضين عن الإيمان به والإذعان لرسالته: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

وقال أيضاً يبيّنُ شدّة الحُجُبِ التي حجبتهم عن الاستجابة لدعوته مع أنهم أبصروه بأعينهم، وسمعوا كلامه بآذانهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ

كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يُونس](١).

فيممتُ وجهي إلى كتاب الله تعالى مستهدياً بنصيحة أُمِّ المؤمنين **السيدة عائشة** رضي الله تعالى عنها وأرضاها عندما سألها سَعْدُ بنُ هشام عن خُلُق رسولِ الله ﷺ فقالت: ألستَ تقرأُ القرآنَ؟ قال: بلى. قالتْ: «**فإنّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كانَ القرآنَ**» [انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم (٧٤٦)].

وزاد **البيهقي** في «**دلائِله**»: «**يرضى برضاه، ويسخط بسخطه**».

ومن المعلوم أنّ الله تبارك وتعالى جمع في القرآن الكريم مكارم الأخلاق كلَّها، وقد اجتمعت كلُّها في رسول الله ﷺ، وذكر الله هذه الشهادة الربَّانية في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] في سياق القَسَمِ الإلـٰهي بالقلم وما يسطرون، فدلّ على أنّ أعظم المقدّرات التي كتبها القلمُ في لوحِ المقادير بأمرِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: ٤].

فقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخُلُقِ العظيم في أصلِ فطرته الكريمةِ، مع امتثاله لما في القرآنِ الكريمِ من الأخلاق الكريمة، والمُثُلِ الإنسانيّةِ الرفيعةِ، وهذا ما جعل السيدةَ عائشة رضي الله عنها ـ وهي أقربُ الناسِ إليه ـ تقول: «**إنّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ ﷺ كانَ القرآنَ**».

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: «**كان رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقاً**» [رواه مسلم (٢٣١٠)].

وقد بعثه الله تعالى ليكمّلَ للبشريةِ مكارمَ الأخلاقِ، قال رسول ﷺ: «**إنّما بُعِثْتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**» [رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وأحمد(٢/ ٣٨١) والحاكم (٢/ ٦١٣) ومالك في «الموطأ» بلاغاً (أي: بلغني) (٢/ ٩٠٤/ ٨)].

قال القاضي عياض رحمه الله: وكان في ما ذكره المحقّقون مجبولاً عليها من

---

(١) أكرمني الله تعالى بتأليف كتاب: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

أصلِ خِلْقَتِهِ وأوَّلِ فطرتِهِ، لم تحصل له باكتسابٍ ولا رياضةٍ إلا بجودٍ إلـٰهيٍّ وخصوصيةٍ ربانية[١].

ففتح الله تعالى عليَّ بموضوع سورة الأحزاب، فوجدتُ آياتها تدور في فلك النبيِّ ﷺ في أهم ميدَانَينِ من ميادينِ حياته الشريفة الزاخرة بجلائل الأعمال:

أولهما: ميدان الجهاد ومواجهة المخاطر والصعاب.

وثانيهما: ميدان الأسرة ومعاملة الأزواج.

وما دار بخلدي حينئذٍ أنَّ هذا الكتاب سيكونُ فاتحةً لهذا التفسير المبارك لموضوعات سور القرآن العظيم، الذي تتابع بعد ذلك وتوالى لا على وفق ترتيب السور في المصحف الشريف، وإنّما بحسب ما مَنّ الله علي من الفتوح، فبرز بعدَ ذلك كتابُ «**المعجزة والإعجاز في سورة النمل**»، ثم كتاب «**الحلال والحرام في سورة المائدة**»، ثم كتاب «**العواصم من الفتن في سورة الكهف**»، وهكذا توالت عليَّ النعمُ، وغمرتني المننُ، حتى وافيتُ بحمد الله ومعونته وتأييده إلى آخر السور حسبَ ترتيبها في المصحف الشريف، فبلغت ستة وعشرين كتاباً، تمَّ بحمد الله تعالى نشرها على مدى خمسة عشر عاماً تقريباً.

ولمّا كان من سنَّته ﷺ القولية والفعلية أنَّه «**لا يشكر اللهَ من لا يشكرِ الناسَ**» [رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (٢٠٣٧)]، فإني أتوجَّه بالشكر إلى كُلِّ مَنْ ساهم في نشر هذا التفسير المبارك، وتعريف الناس به، وأخصُّ بالذكر مَنْ صبر عليَّ كلَّ هذه الأعوام وحثني كثيراً على متابعة تأليف أجزاء هذا التفسير ـ وأريد به صاحب دار القلم بدمشق الأستاذ محمد علي دولة، الذي جمع الآن أجزاء الكتاب في مجلّداتٍ، بإخراجٍ جديدٍ يتناسَبُ مع شرف محتواها، وعلوِّ موضوعها وعزَّتِهِ، تحت اسم: «**التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم**». أسأل الله ﷻ له التوفيقَ والتسديدَ، وأن يجعلَ عملنا خالصاً لوجهه الكريم، إنه وليُّ ذلك والقادِرُ عليه.

---

(١) الشفا في حقوق المصطفى: ١/ ٥٤٥.

أولاً: التفسير والتأويل:

وينبغي التنبيهُ في هذه المقدّمة إلى الفرق بين التفسير والتأويل:

فالتفسير: البيانُ والتوضيحُ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] أي: لا يأتونك بشيءٍ يعترضونَ به على صِحّة نبوَّتك إلا نزل القرآنُ الكريمُ يردُّ اعتراضهم، ويبيّنُ الحقَّ أوضحَ بيانٍ وأفصحَه.

قال الجرجاني في «التعريفات»: **التفسيرُ**: في **اللغة**: هو الكَشْفُ والإظهارُ، وفي **الشرع**: توضيحُ معنى الآيةِ وشأنِها وقصّتِها، والسببِ الذي نزلتْ فيه بلفظٍ يدلُّ عليه دلالةً ظاهرةً.

والتأويل: في **اللغة**: الترجيع، وفي **الشرع**: صرفُ اللفظِ عن معناه الظاهرِ إلى معنًى يحتمِلُه إذا كان المحتمَلُ الذي يراه موافقاً للكتاب والسُّنَّة، مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥] إن أرادَ به إخراجَ الطيرِ من البيضةِ؛ كان تفسيراً، وإن أراد إخراجَ المؤمنِ من الكافرِ؛ أو العالمِ من الجاهل؛ كان تأويلاً.

وقد يأتي التأويلُ بمعنى **بيان ما يؤول إليه النص، وتحقّق وقوع ما أخبر عنه**، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فالتأويلُ هنا **بمعنى المآل والعاقبة، فهو مأخوذٌ من: آلَ يؤولُ.**

وقال الخطابيُّ: أوّلتُ الشيءَ: رددتُه إلى أوّلِهِ. فاللفظةُ مأخوذةٌ من الأول، حكاه النقّاشُ.

وقال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ الله: أوّلتُ معناه: طلبتُ أوّلَ الوجوهِ والمعاني(١).

فالتأويلُ أعمُّ من التفسير، وهو مرادِفٌ له في اصطلاح بعض المفسِّرين، وبعضُهم يرى أنَّ التفسيرَ يخالِفُ التأويلَ بالعموم والخصوص فقط.

---

(١) تفسير ابن عطية: ٥/٥٢٣.

فالتأويلُ: بيانُ مدلولِ اللفظِ بغير المتبادَرِ منه.

والتفسيرُ: بيانُ مدلولِ اللفظِ مطلقاً.

وبعضهم يرى أنَّ **التفسيرَ**: هو القطعُ بأنَّ مرادَ اللهِ تعالى كذا، **والتأويلُ**: ترجيحُ أحدِ المحتملات دونَ قطعِ نظرٍ.

وفي الحديث الشريف: عن السيدة **عائشة** ﵂ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يكثِرُ أن يقولَ في ركوعه وسجوده: «**سبحانَكَ اللهمّ ربَّنا وبحمدِكَ، اللهمَّ اغفرْ لي**» يتأوَّل القرآنَ. [رواه البخاري (٤٩٦٨)]. أي: يفعلُ ما أُمِرَ به في القرآنِ.

وقَصَدَتْ ﵂ بذلك بيانَ ما يؤولُ إليه النصُّ، وهو قوله تعالى في **سورة النصر**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

ولعلَّ هذا المعنى هو المرادُ من قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يُونس: ٣٩].

ثانياً: المنهج الملتزَم:

ويظهرُ المنهجُ الذي التزمته في جميع موضوعات السور من خلالِ النقاطِ التاليةِ:

١ ـ تفسير القرآن الكريم بالقرآن نفسه:

القرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ويكمِّلُ بعضُه بعضاً: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وكما تكفّلَ الله تعالى بإنزاله على النبيِّ ﷺ تكفّل أيضاً ببيانه: إما في القرآن نفسه، أو بما أوحاه إلى النبي ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيامَة].

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

٢ ـ تفسير القرآن الكريم بالسُّـنَّة الشريفة الصحيحة:

النبيُّ ﷺ هو خيرُ منْ بيَّنَ مرادَ الله تعالى في آياته، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فلا يجوزُ لأحدٍ مهما أوتي من العلم أو الفهم أن يتجاوزَ ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ في تفسير أيِّ آيةٍ من القرآن الكريم، إذ هو أعلمُ خَلْقِ الله تعالى بمعاني ما أنزل الله عليه من الآيات.

٣ ـ الالتزام في تفسير الكلمات القرآنية بمعانيها في اللغة العربية:

لسانُ القرآن الكريم عربيٌّ، كما هو مصرَّحٌ به في آياتٍ كثيرةٍ:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء].

ومنها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

ومنها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزّخرُف: ٣].

٤ ـ مراعاةُ ما صحَّ من أسباب النزول في فهم الآية الكريمة مع ملاحظة أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحُكم:

إنَّ معرفةَ سببِ النزولِ ـ كما قال ابنُ تيميةَ رحمه الله ـ يعينُ على فهم الآيةِ، ولنتأمَّلْ كيفَ بيّنَ سببُ النزولِ مرادَ الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]:

فقد أخرجَ [أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢) والنَّسائيُّ في السنن الكبرى (٢٩٧٢) وغيرُهم] من طريقِ **أسلم بن عِمْران** قال: كُنّا بالقسطنطينيةِ، فخرجَ صفٌّ عظيمٌ من الروم، فحملَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم، حتى دخل فيهم، ثمَّ رجع مقبلاً، فصاحَ الناسُ: سبحان الله! ألقى بيدِهِ إلى التَّهْلُكَةِ. فقال **أبو أيوب**

الأنصاري رضي الله عنه: أَيُّها الناسُ! إنّكم تُؤَوِّلونَ هذه الآية على هذا التأويلِ، وإنَّما نزلت هذه الآيةُ فينا معشرَ الأنصارِ، إنّا لمَّا أعزَّ اللهُ دينَه، وكثُرَ ناصروه، قلنا بيننا سرّاً: «إنَّ أموالنا قد ضاعتْ، فلو أنّا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاعَ منها.. فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكة الإقامة التي أردناها».

٥ ـ تفسير القرآن الكريم بالمأثور الصحيح من أقوال الصحابة والتابعين:

قال ابن كثير رحمه الله: «فإذا لم تجدِ التفسيرَ في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ، ولا وجدته عند الصحابةِ، فقد رجعَ كثيرٌ من الأئمة إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنَّه كان آيةً في التفسير، وسعيد بن جُبيرٍ، وعِكْرمةَ مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيِّب، وقتادة، والضحَّاك وغيرهم من التابعين ومَنْ بعدهم»[١].

٦ ـ مراعاة الاتساق بين الكلمات والجمل في الآية الواحدة، ومراعاة الاتساق والاحتباك أيضاً بين آيات السورة الواحدة من خلال موضوع السورة:

لا ينبغي أن تُفسَّر الآيةُ دونَ النظر في سباقها وسياقها وموضوع السورة التي ذكرت فيها، وهذا في رأيي وجهٌ آخرُ من وجوه الإعجازِ في القرآن الكريم، أحمدُ الله تعالى أنْ وَفقني لإبرازِه في هذا التفسير المبارك إن شاء الله، وقد كان هذا من أهمِّ البواعث التي دفعتني إلى كتابة ما كتبتُ.

٧ ـ إبراز ما أشارت إليه بعض الآيات الكريمة من الحقائق العلمية التي توصَّل إليها الناس في العصر الحاضر:

في هذا تصديقٌ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

---

(١) انظر: مقدمة التفسير، لابن كثير.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فلم أفرط في هذا الجانب كما فعل غيري من الكتّاب المعاصرين، فالقرآن الكريم **كتابُ هدايةٍ وتشريعٍ، لا كتابَ علومٍ وفنونٍ فحسب**، فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: ٨٩] أي: نزَّلنا عليك الكتابَ تبياناً كاملاً **لكلِّ شيءٍ من أمور الدين والتشريع**، فهو الطريقُ القاصِدُ الذي تكفَّل الله ببيانه في صدر **سورة النحل** [٩] عندما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

والمراد من الكتاب في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٧] لوحُ القَدَرِ، ففي الحديث: عن الوليد بن **عُبادةَ بن الصامت** قال: دعاني أبي حين حضره الموتُ فقال: إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أوَّل ما خلقَ اللهُ القلم فقال: اكتبْ، قال: يا ربِّ، وما أكتبُ؟ قال: اكتبِ القَدَرَ وما هو كائِنٌ إلى الأبد**» [أخرجه أحمد (٥/٣١٧) والترمذي (٢١٥٥ و٣٣١٩) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

فلا ينبغي ـ كما قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله ـ أن نُدخِلَ الآيات الكريمة في هذه المضايق من الفهم، وهي بروحها تنبو عنها، فالقرآنُ الكريمُ له اتجاهه في الهدى والإرشاد، فلا ينبغي لنا أن ننزله على كلِّ جديدٍ، والحوادثُ تقبِلُ وتدبِرُ، وتحقُّ في نظر الناس تارةً، وتَبطلُ أخرى، والقرآن الكريم قائم صراطه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت][1].

٨ ـ اجتناب الإسرائيليات:

تجنبتُ الاستشهادَ بما حفلت به كتب التفسير من الإسرائيليات المنسوبة إلى

---

(١) ردود على أباطيل: ١/ ١٤١.

كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما؛ إذ لا حاجة إليها؛ فصحيحُ السُّنّةِ والمأثورِ من أقوال الصحابة والتابعين يغني عنها.

وقد صحَّ عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﵄ التحذيرُ من سؤال أهل الكتاب، والأخذِ عنهم فقال: «**كيفَ تسألون أهلَ الكتابِ عن شيءٍ وكتابُكُم الذي أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ أحدثُ، تقرؤونه محضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم أَنَّ أهلَ الكتابِ بدّلوا كتابَ اللهِ وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتابَ، وقالوا: هو مِنْ عندِ اللهِ، ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عَنْ مسألتهم؟! لا واللهِ ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم**» [رواه البخاري (٧٣٦٣)].

٩ ـ منهج تفسير الآيات المتشابهة:

التزمتُ في تفسير الآيات المتشابهة كآيات الصفات مذهب السلف، الذين آمنوا بكلِّ ما وَصَفَ اللهُ تعالى به نفسَه في كتابه وسنّةِ رسولِهِ ﷺ، على الوجه اللائق بكمالِهِ وجلالِهِ، وانصرفوا عن تأويلها، وفوّضوا معانيها إلى الله تعالى مِنْ دونِ تشبيهٍ أو تعطيلٍ.

فمذهب السلف اعتقادُ التنزيه، ونفيُ التشبيهِ والتعطيلِ، وتفويضُ المتشابِهِ، والوقوفِ عليه كما وردَ، ما لم يحتجْ إلى تقييدٍ، فيقيّدُ بما ينفي شبهته بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

وفي الحديث الشريف: عن **السيدة عائشة** ﵂ قالت: تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**فإذا رأيتَ الذين يتّبعونَ ما تشابه منه فأولئكَ الذين سمَّى اللهُ فاحذروهم**» [رواه البخاري (٤٥٤٧)].

١٠ ـ ملاحظات وتصويبات لأشياء وقع فيها صاحب الظلال رحمه الله:

لا بدّ لي أخيراً أن ألفتَ نظرَ القارئ إلى أنَّ ما أبديتُه مِنْ بعضِ الملاحظات والأخطاءِ التي وجدتُها فيما كتبه سيد قطب رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن» ـ عندما كُنت أرجِعُ إليه أحياناً، لأطلع على رأيه رحمه الله في موضوعاتِ بعض السور ـ جاء عفواً دونَ قصدٍ، فما تعمدتُ تتبُّعَ ما في «الظلالِ» من أخطاء علمية، لعلمي أنَّه رحمه الله كتبه في ظروفٍ عصيبةٍ قاسيةٍ، عندما كان في السجن، وليته عرضها على بعض العلماء قبلَ نشرها، ولكن أبى اللهُ العصمةَ لكتابٍ غير كتابه، ولأحدٍ غير أنبيائه عليهم الصلاة والسلام[١].

أسأله سبحانه وتعالى أن يعلّمني ما ينفعني، وينفعني بما علمني، وأن يجعلَ عملي خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله أولاً وآخراً.

مكة المكرمة في ١٥/ ٤/ ١٤٢١هـ الفقير إلى الله تعالى

الموافق ١٧/ ٧/ ٢٠٠٠م **عبد الحميد محمود طهماز**

---

(١) ممَّا يجدر ذكره هنا أنَّ المؤلِّف وقد أبدَى بعض الملاحظات على ما ذكره سيد قطب في تفسيره لبعض الآيات في كتابه الرائع: «في ظلال القرآن الكريم»؛ قد أشاد في مواضع كثيرة في تفسيره هذا: المسمّى «بالتفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم» بما كتبه سيد قطب حول بعض الآيات الأخرى في كتابه «الظلال»، واستشهد بكلامه وأبدَى إعجابه به، فهو ـ أثابه الله ـ قد لاحظ وانتقد من ناحية، وأثنى واستحسن من ناحية أخرى، وبذلك آثر الصواب والعدلَ إن شاء الله.

ورحم الله سيِّد قطب وعبد الحميد طهماز وغيرهما من العلماء والكتَّاب والمفكِّرين، وجَمَعنا بهم في دار كرامته، في جنَّة الخلد المقيم. (الناشر: محمد علي دَوْلة).



تفسير سورة الفاتحة

الثَّناء والدُّعاء في سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

في فضل سورة الفاتحة وموضوعها

الفاتحةُ أولُ سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، وهي بحقّ مقدِّمةُ القرآن الكريم وفاتحتُه، جاءت بآياتها السبع الموجزةِ بمثابة عنوانٍ له، ترشِدُ إلى أُصوله الكبرى، وأُسسه العظمى؛ ولهذا قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

قال القرطبي ﵀: سُمِّيت بذلك لتضمُّنها جميعَ علوم القرآن، وذلك لأنّها تشتمل على الثناءِ على الله ﷻ بأوصافِ كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعباداتِ والإخلاصِ فيها، والاعترافِ بالعجز عن القيام بشيءٍ منها إلّا بإعانته تعالى، وعلى الابتهالِ في الهدايةِ إلى الصراط المستقيم، وكفايةِ أحوال الناكثين، وعلى بيان عاقبة الجاحدين، إلى جانب ما تضمَّنته من تقريرٍ للمسؤوليةِ والحسابِ في يوم الدين.

فهي أعظمُ سورةٍ في القرآن الكريم، ففي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد بن**

المعلَّى رضي الله عنه قال: كنتُ أُصلّي، فدعاني النبيُّ ﷺ فلم أُجبْهُ، قلتُ: يا رسول الله إنّي كنتُ أُصلّي، قال: «**ألم يقل الله**: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟» ثم قال: «**ألا أُعلِّمُكَ أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن تخرجَ من المسجدِ؟**» فأخذَ بيدي، فلمّا أردنا أن نخرجَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنّكَ قلتَ: لأعلّمنَّكَ أعظمَ سورةٍ في القرآن، قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه**» [رواه البخاري (٥٠٠٦)].

قال ابن حجر: «(**أعظم سورة**): المرادُ به عِظَمُ القدرِ بالثوابِ المرتَّب على قراءتها، وإن كان غيرُها أطولَ منها، وذلك لما اشتملت عليه من المعاني المناسبة لذلك»(١).

وقيل لها: **المثاني** من التثنيةِ، لأنّها تتكرّرُ في الصلاة، أو من الثناءِ؛ لاشتمالها على ما هو ثناءٌ على الله ﷻ.

وعَطَفَ (**القرآنَ العظيم**) على (**السبع المثاني**) مع أَنَّ المراد بهما واحدٌ، لما عُلِمَ في اللغة العربية من أنَّ الشيء الواحدَ إذا ذُكِرَ بصفتين مختلفتين، جاز عطفُ إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلةَ تغايُرِ الذات(٢).

وذهبَ فريقٌ آخر من المفسّرين إلى القول بأنَّ الله تعالى أعطى النبيَّ ﷺ سورةَ الفاتحةِ، وأعطاه أيضاً القرآنَ العظيمَ، فيكون العطفُ من قبيل عطفِ العامّ على الخاصّ، وهذا لا يتعارَضُ مع ما ذُكِرَ في الحديث النبويّ السابق، إذ يمكن أن يقال: إنّ تسميةَ الفاتحةِ بالمثاني وبالقرآن العظيم لا ينافي وصفَ القرآنِ كلِّه بذلك أيضاً، وقد وصف الله تعالى القرآنَ بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٥٤.

(٢) أضواء البيان: ٣/ ١٩٥.

رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مثانٍ من وَجْهٍ، ومتشابهٌ من وجهٍ، وهو القرآن العظيم أيضاً[(١)].

* * *

وتسمّى أيضاً **أُمَّ القرآن**؛ لأنها مفتَتَحه ومبدؤه، فكأنّها أصلُه ومنشؤه؛ ولذلك تُسمَّى أساساً، أو لأنها تشتمِلُ على ما فيه من الثناء على الله تعالى، والتعبُّدِ بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده[(٢)].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: **أن النبيّ** ﷺ قال: «**مَن صلّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القرآنِ فهي خداجٌ**» ثلاثاً، غيرُ تمامٍ، فقيل لأبي هريرة: إنّا نكونُ وراءَ الإمامِ؟ فقال: اقرأ بها في نفسِكَ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**قالَ اللهُ تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفين، ولعبدي ما سألَ. فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قال الله تعالى: حمدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، قال: مجّدني عبدي، وقال مرّةً: فوّض إليّ عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**» [رواه مسلم (٣٩٥)]. والمرادُ بالصلاة في هذا الحديث: الفاتحةُ.

* * *

وهي **شفاء ورُقية**، ففي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدريِّ** رضي الله عنه

(١) انظر: تفسير سورة الحجر (الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحِجْر)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ١٧.

قال: كنّا في مسيرٍ لنا، فنزلنا، فجاءتْ جاريةٌ فقالتْ: إنَّ سيّدَ الحيِّ سليمٌ (أي: لديغٌ)، وإنَّ نفرنا غُيَّبٌ، فهل مِنْكُمْ راقٍ؟ فقام معها رجلٌ ما كنّا نأبنه برقيةٍ (أي: نتّهمه بأنّهُ راقٍ) - فرقاه فبرأ، فأمَر لنا بثلاثينَ شاةً، وسقانا لبناً، فلمَّا رجعَ قلنا له: أكنتَ تُحسِنُ رُقيةً أو كنتَ ترقي؟ قال: لا، ما رقيتُ إلّا بأُمِّ الكتابِ، قلنا: لا تُحْدِثُوا شيئاً حتى نأتيَ أو نسألَ النبيَّ ﷺ، فلمّا قَدِمنا المدينةَ ذكرناه للنبيِّ ﷺ فقال: «**وما كان يدريهِ أنَّها رُقيةٌ؟! اقسموا واضربوا لي بِسَهْمٍ**» [رواه البخاري: (٥٠٠٧)].

* * *

وإذا كان موضوع سورة البقرة هو الإسلام لله تعالى، والانقياد لأحكامه الشرعية والقَدَرية، فسورة الفاتحة إعلان لهذا الإسلام، وعنوانٌ لهذا الانقياد، ولا عجبَ أنّ الله تعالى أنزل مَلَكاً خاصّاً على النبيِّ ﷺ يبشّره بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**بينما جبريلُ قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسَه فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يُفتَحْ قطُّ إلّا اليومَ، فنزلَ منه مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ، لم يَنْزِلْ قطُّ إلّا اليومَ، فسلَّمَ وقال: أَبْشِرْ بِنورينِ أوتيتَهُما، لم يُؤْتَهُمَا نبيٌّ قبلكَ، فاتحةِ الكتابِ وخواتيمِ سورةِ البقرةِ، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلّا أُعطِيتَهُ**» [رواه مسلم (٨٠٦)].



تفسير سورة الفاتحة
الثناء والدعاء في سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ افتتح الله تعالى سورة الفاتحةَ بالبسملةِ، كما افتتحَ بها جميع سُوَر القرآن الكريم، عدا سورة التوبة، والمعنى: باسم اللهِ أقرأُ أو أتلو، وقُدِّرَ المحذوفُ «أقرأ» أو «أتلو» متأخِّراً تعظيماً لاسمه تعالى، فهو المقدَّمُ على القراءةِ، وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسمِ اللّاتِ، وباسمِ العُزَّى، فوجب أن يقصدَ الموحِّدُ معنى اختصاص اسم الله ﷻ بالابتداء، ويكون هذا بتقديمِهِ، وتأخير الفعل، وقدّم الفعل في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لأنّها أولُ سورةٍ نزلت، وكان الأمرُ بالقراءةِ أهمَّ، فكان تقديم الفعل أوقع[١].

﴿ٱللَّهِ﴾ هو اسمُ علمٍ خاصٌّ باللهِ تعالى، تفرَّدَ به الباري ﷻ، ليس بمشتق،

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٩.

ولا يشركه فيه أحدٌ، وهو الصحيح المختارُ، دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] يعني: لا يقالُ لغيره: الله.

وقيل: هو مشتقٌّ من (أَلِهَ، يَأْلَهُ، إلاهةً) مثل: عَبَدَ الرجلُ، يَعْبُدُ، عبادةً، دليله: ﴿وَيَذَرَكَ وإلـٰهتك﴾ [الأعراف: ١٢٧][١] أي: وعبادتك، ومعناه: المستحقّ للعبادة دونَ غيرِه.

وقيل: مِنَ (الوَلَهِ)، وهو الفَزَعُ؛ لأنَّ الخَلْقَ يولهونَ إليه، أي: يَفْزَعونَ إليه في حوائِجهم.

وقيل: أصله (أَلَه)، يقال: ألهتُ إليه، أي: سكنتُ إليه، فكأنَّ الخلقَ يسكنونَ إليه، ويطمئنون بذكرِه[٢]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسمائه الحسنى، يدلّان على كثرة إحسانه، وسَعَة فضله وجوده ﷻ، معناهما: ذو الرحمة.

والرحمة في اللغة: رقّةُ القلبِ، وانعطافٌ يقتضي التفضُّل والإحسان، ومنه الرَّحِمُ لانعطافها على ما فيها، وأسماءُ الله تعالى إنّما تؤخذ باعتبار الغايات، التي هي أفعال، دون المبادئ، التي تكون انفعالات[٣]، لتنزُّهه سبحانه عن الحدوث والتغيُّر.

واختصاصُ التسميةِ بهذه الأسماء يدلُّ على أنَّ المستحقَّ لأن يُستعانَ به في جميع الأمور هو المعبودُ الحقيقيُّ، الذي هو مولى النِّعَم كلّها، عاجِلِها وآجِلِها، جليلِها وحقيرِها[٤].

ثمَّ أثنى الله على ذاته المقدَّسة بقوله ﷻ:

---

(١) وهي قراءة منسوبةٌ لابن عباس ﷺ، انظر: تفسير القرطبي.
(٢) تفسير الخازن: ١/ ٢٠.
(٣) تفسير البيضاوي: ١/ ٢٤.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٥.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدلُّ هذا الثناءُ على وجوبِ اتّصافه تعالى بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحقُّ للحمدِ بذاته؛ لأنّه سبحانه وحدَه المتّصفُ بجميع صفات الكمال، وهو ثابتٌ له تعالى بطريق البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا، ولهذا فسّر بعضُهم ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بالإحاطةِ بأوصاف الكمال[1].

ولمّا كانت كمالاتُه سبحانه غيرَ متناهيةٍ، ولا يحيطُ بها أحدٌ من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه بنفسه، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقد ورد في بعض أدعية النبيِّ ﷺ: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ**» [رواه مالك، وأبو داود (١٤٢٧) والترمذي (٣٥٦٦)].

ولمّا سُئِلَ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه عن معنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الحمدُ للهِ، كلمةٌ رضيها لنفسِه[2].

فما عرفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ أحدٌ، وما أحاطَ بكمالاتِهِ غيرُه تعالى، تقدَّستْ ذاتهُ، وتباركتْ أسماؤه، وتسامتْ صفاتُه.

واستحقاقه سبحانه للحمدِ ثابتٌ ودائم، قبل إيجاده للخلق وبعده، وسواء حمده العبادُ أم كفروه وجحدوا فضله، لأنّ صفات كماله وجماله وجلاله أزليةٌ أبديةٌ غيرُ حادثةٍ، لا يطرأ عليها تغييرٌ أو تبديلٌ، فهو سبحانه خالقٌ قبل أن يخلقَ الخلق؛ لأنّه قادِرٌ على الخلق أزلاً، ورازق قبل أن يرزقَ الخلق؛ لأنه قادرٌ عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**اللَّهمَّ لكَ الحمدُ كلُّه، ولك المُلْكُ كلُّه، ولكَ الخَلْقُ**

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٢/ ٧.

(٢) فتح القدير: ١/ ٢٠.

كلُّه، وإليكَ يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّه، أسألُكَ من الخيرِ كلِّه، وأعوذُ بِكَ من الشرِّ كُلِّهِ» [رواه البيهقي في «سننه»].

وأمر الله تعالى عبادَه أن يثنوا عليه به في ضمن هذا الثناءِ الذي أثنى به على نفسِه، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنّ الله ليرضى عن العبدِ أَنْ يأكلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمدَهُ عليها**» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ أثنى به على نفسِه، وفي ضمنه أمرَ عبادَه أن يثنوا عليه، فكأنّه قال: قولوا: الحمد لله. وهو ثناءٌ على المحمودِ بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكرُ لا يكونُ إلّا على المتعديةِ، وهو نقيضُ الذمِّ، وأعمُّ من الشكر، والشكر: الثناء على المُحْسِنِ بما أولاه من المعروفِ»(١).

ثم بيّن تعالى موجب استحقاقه للحمد بقوله:

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: مالك العالمين، يقال: ربُّ الدار، وربُّ الشيء، أي: مالكه.

ومنه: قول صفوان بن أُميّةَ، عندما سمع أخاه في غزوة حُنين يقول: ألا بطلَ السِّحْرُ اليومَ، فقال له صفوان: اسكتْ فضَّ اللهُ فاكَ، فواللهِ لأن يَرُبَّني رجلٌ من قريشٍ، أحبُّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن(٢).

والرَّبُّ في اللغة: مصدرٌ بمعنى الإصلاح والتربية، وهو تبليغُ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ووصفُ الحَقِّ به للمبالغةِ، كما وُصِفَ بالعدلِ، فهو سبحانه مالك العالمين ومربّيهم ومُصلِحهم.

ولا يُطْلَقُ الربُّ معرّفاً إلّا على الله وحده، وإذا أُطلقَ على غيره قيّد بالإضافة: نحو ربُّ الشيء، ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٦٥.

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعُ عالَم، لا واحد له من لفظه، مشتقٌّ من العلم أو العلامة، وإنّما سُمِّي بذلك؛ لأنّه دالٌّ على وجودِ الخالق ﷻ[١].

فالعالَمون كلُّ ما سواه من الموجوداتِ، فإنَّها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثّر واجبٍ لذاته، تدلُّ على وجودِه، وإنّما جُمِعَ بالياء والنون ـ المختصِّ بصفاتِ العقلاء ـ لما فيه من معنى الوصفية، وهي الدلالةُ على معنى العلم[٢].

وقيل: اسمٌ وضعَ لذوي العِلم من الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وتناوُله لغيرهم على سبيل الاستتباع.

وقيل: عنى به الناس هاهنا، فإنّ كلَّ واحد منهم عالَمٌ؛ من حيث إنّه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يُعلَم بها الصانع، كما يعلم بما أبدعه في العالم؛ ولذلك سوّى بين النظر فيهما فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١][٣].

وقال أيضاً: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وإلى هذا المعنى ذهبَ القائلُ:

وتَحْسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيْرٌ وَفِيْكَ انطوى العَالَمُ الأكْبَرُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

وقد مرّ ذكرُهما في التسميةِ، واستدلّ بذلك القائلون بأنّ التسمية ليست هنا من الفاتحة، إذ لو كانت من الفاتحةِ لما ذكرهما سبحانه مرّةً ثانيةً.

وقد يكونُ التكريرُ لبيانِ كثرةِ رحمتِه، وتوالي إحسانه على خَلْقِهِ، فمنه

(١) تفسير الخازن: ١/ ٢٦.
(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٦.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٢٦.

الإيجادُ والإمدادُ ﷻ، ورحمتُه وسِعتْ كلَّ شيءٍ في الوجود، والكلُّ مفتقِرٌ إليها، قائمٌ بها.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

﴿مَٰلِكِ﴾ وهي قراءة عاصمٍ والكِسائي ويعقوب، وقرأ الآخرون: (**مَلِك**).

و(**المالك**): هو المتصَرِّفُ في الأعيانِ المملوكةِ كيفَ يشاء، و(**المَلِك**): هو المتصَرِّفُ بالأمرِ والنهي في المأمورين[١].

فهو سبحانه المالك الذي لا يُسْأَلُ عمّا يفعل، وهو الذي يتصَرَّفُ في ملكه كما يشاء، وهو سبحانه المَلِكُ الذي له الحُكْمُ والأمر، والتحليل والتحريم، فالحاكمية المطلقةُ له جلّ وعلا.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، فالدِّينُ الجزاء والحساب؛ ولهذا قيل: «كما تدين تُدان».

ومنه: قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣].

وفي الحديث الشريف: «**الكيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لما بَعْدَ المَوْتِ**» [رواه أحمد (١٧٢٥٣) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠)].

فهو سبحانه مالكُ الأمرِ كلِّه يومَ الحسابِ والجزاءِ،وهو يوم القيامة، والتخصيصُ بيوم الدين لأنَّ الأمرَ فيه يكونُ للهِ وحدَه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالمَلِكُ في الحقيقةِ هو الله ﷻ، وأمّا تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ وفي الحديث الشريف: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يَقْبِضُ اللهُ تعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقولُ: أنا المَلِكُ، أينَ ملوكُ الأرضِ؟!**» [رواه مسلم (٢٧٨٧)].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٢٧.

ودلت الآية على مسؤولية المكلّفين جميعاً أمام الله تعالى يوم القيامة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

انتقلت الآيات مباشرة من الغيبة إلى المواجهة؛ لأنّ صدرها ثناءٌ على الحقِّ جل وعلا، وذيلها ضراعةٌ ودعاءٌ، كما مرَّ في الحديث الشريف: «**قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصْفَيْنِ...**» [رواه مسلم (٣٩٥)].

ولأنّه لما أثنى على الله تعالى، فكأنّه اقتربَ وحضرَ بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

ويشيرُ إلى هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلامُ إنّي أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسأَلِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتَعِنْ باللهِ**» [رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦)].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبدُ سواك؛ لأنّكَ وحدَك المستحقُّ للعبادة، وهو إعلانُ الإسلام لله تعالى، والخضوعِ والانقيادِ لأحكامه.

والعبادةُ أقصى غايةِ الخضوعِ والتذلل، فكأَنَّ العبدَ يقول لمولاه: أَنتَ الحقيقُ بالحمدِ والثناءِ، والتعظيمِ والتمجيدِ، ونحنُ حقيقونَ بالتذلّلِ والخضوعِ لكَ وحدَكَ، وعِزٌّ وشرفٌ لنا أن نعبدَك وحدَك، فلا نعبدَ سواك.

فالعبوديةُ مقامٌ عظيمٌ، يَشْرُفُ بها العبدُ، وهي أعظمُ مقامٍ يَصِلُه باللهِ جلّ وعلا، وقد سمّى ﷺ رسولَه محمّداً بعبدِه في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجنّ: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣.

فسمّاه عبداً عندَ إنزالِ القرآنِ عليه، وعند قيامِهِ للدعوةِ، وعند إسرائه به(١).

ولا شكّ أنّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أبلغُ في التواضع مِنْ: إياك عَبْدنا، وفيها أدرجَ الفردُ عبادته في تضاعيفِ عبادةِ العابدين الخاضعين لله تعالى، لعلّها تُقْبَلُ ببركتهم أو ببركة واحدٍ منهم، كما ورد في الحديث الشريف في فضل مجالس الذكر: «... **فيقولون: ربِّ فيهم فلانٌ عبدٌ خطّاءٌ، إنّما مرَّ فَجَلَسَ معهم، قال: فيقول: وله غفرتُ، همُ القومُ لا يَشْقَى بِهِم جَلِيْسُهُمْ**» [رواه مسلم (٢٦٨٩)].

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نطلبُ المعونَةَ مِنْكَ وحدك، كما مرّ آنفاً في الحديث الشريف: «**وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ**».

وطَلَبُ المعونةِ من اللهِ إقرارٌ بالافتقارِ إليه، وقُدِّمَتِ العبادةُ على الاستعانةِ؛ لأنَّ العبادةَ إعلانُ الاستسلامِ الكاملِ للهِ تعالى، والخضوعِ له ﷻ، فتكونُ وسيلةً إلى الإقرارِ بالعجزِ والضعفِ والافتقارِ إلى معونته وإحسانه ورحمته.

وحتى العبادة فإنها لا تكونُ إلّا بمعونته تعالى وتوفيقه، فهي مِنَ الله تعالى وإلى الله تعالى، فالفضلُ له سبحانه أولاً وآخراً، والحمدُ له تعالى بَدْءاً وختاماً، فهذا وجهٌ من وجوه استحقاقه سبحانه للحمد، فتأمل.

ثم بيّنت الآياتُ أهمَّ معونةٍ مطلوبةٍ يحتاجُ إليها الناسُ في حياتهم:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾.

أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، وأرشدنا إلى النهج القويم.

والهداية: دِلالةٌ بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وإذا ما استعملت في غيره يرادُ بها حينئذٍ التهكُّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

والمرادُ منها في القرآن الكريم:

- إمّا **هدايةُ البيانِ والإرشادِ**: وذلك بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكُتبِ، كما في

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٣.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ـ **وإما هداية التوفيق من الله تعالى للتمسّك بالحق والثبات عليه**: كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقوله أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وهذه الهداية أهم ما يحتاجُ إليه الإنسان في حياته، فلا صلاح لحياته إلّا بها، ولا استقامة له إلّا بالتمسّك بحبلها؛ إذ طرقُ الضلالِ في الحياة كثيرةٌ، وإليها أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولهذا علّمنا سبحانه، وهو الرحمن الرحيم والبرّ الكريم، أن نسأله هذه الهداية في كل يوم مرّات كثيرة، كلّما وقفنا بين يديه مصلّين خاشعين.

والصراط المستقيم هو طريقُ الإسلام، الإسلامِ للهِ تعالى وحدَه، والانقيادِ والإذعانِ لحكمه وشرعه، وهو دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، دلّ على ذلك قوله تعالى في تعريفه:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مننتَ عليهم بنعمتِكَ العُظمى والكُبرى، نعمةِ الهدايةِ، وهم الأنبياءُ والمرسلون، ومَن تبعهم، وسارَ على طريقهم، الذين ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النِّساء].

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط الذين غضب الله عليهم، بسبب إعراضهم عن صراطه المستقيم، وعنادهم، وجحودهم، ومنهم اليهود.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وغير صراط التائهين الشاردين عن الصراط المستقيم، الذين غلبتْ عليهم أهواؤهم وشهواتهم، فحجبت بصائِرَهم عن دلائل الحق وحججِه، فتاهوا، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ومنهم النصارى.

فأصحابُ الصراط المستقيم هم الذين سَلِمُوا بفضل الله تعالى من أسباب غضبه سبحانه، ومن أسباب الضلال والشرود عن ساحته وفضله ورحمته.

ومِنَ السُّنَّة أن نختم الفاتحة بأن نقولَ: (آمين)، لما ورد في الحديث الصحيح عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إذا قالَ الإمامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فَمَنْ وافقَ قولُه قولَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدّمَ مِنْ ذنبِهِ**» [رواه البخاري (٤٤٧٥)].

وآمين: ليست من القرآن، ومعناها: استجب يا رب.





٢

تفسير سورة البقرة

الإسلامُ للهِ تعالى فِي سورةِ البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

في موضوع السورة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن موضوعَ سورة البقرة **الإسلامُ لله تعالى**، بمعنى الاستسلام الكامل لأحكامه القَدَريَّة والشرعية، والانقياد والإذعان لها، هذا هو الموضوع الأساس لسورة البقرة، الذي دارت آياتها كلُّها في فَلَكِهِ.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الله الذي أنزله على الأنبياء والمُرسلين جميعاً، فكلّهم دَعَوْا أُممَهم إلى الإسلام لله تعالى، والانقياد لأحكامه جلّ وعلا.

وفي الآيات الأولى للسورة التي تبيّن أهمّ الصفات الأساسية الكبرى للمتّقين، ذكرَتْ أنّ أوّل صفة من صفاتهم أنّهم **يؤمنون بالغيب**، والمرادُ به الغيبُ الذي أخبر الحقُّ سبحانه عنه، وهذا يدلّ على استسلامهم الكامل له جلّ وعلا، علماً وعملاً، قلباً وقالباً.

وركّزت الآياتُ حديثَها بعد ذلك على **الجاحدين المُعاندين**؛ إبرازاً لحقيقة

الإسلام لله تعالى وكيفيته، فرسمت لهم هرماً للجحود والعناد، وضعت على قمته **الكافرين** جحوداً وعناداً، الذين لا يؤمنون، سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم.

ثم وضعت في وسطه **المنافقين**، الذين يخادعون الله ورسوله ﷺ، والذين مهما رأوا من الأدلّة والبراهين لا ينتفعون بها، فهم الصمُّ البُكْمُ العُمْيُ الذين لا يرجعون عمّا هم فيه من باطل وضلال.

ثم وضعت في قاعدته **أهل الكتاب**، وخاصةً بني إسرائيل، وأفاضت الآيات في ذكر مواقف جحودهم، وعنادهم، التي صدرت عنهم منذ زمن نبيّهم موسى عليه السلام، إلى زمن التنزيل الحكيم للقرآن الكريم في عهد نبيّنا محمد ﷺ.

ثم تحوّلت الآياتُ فعرضت في مقابل مواقف الجاحدين والمعاندين، **مواقف المسلمين** المستسلمين لأحكام الله تعالى الشرعية والقدرية، فذكرت في مقدمتهم **إمام الموحدين إبراهيم** عليه السلام، وأبرزت استسلامه الكامل لله تعالى عندما ابتلاه بما ابتلاه به من أنواع البلاء، وعندما ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٣١].

وعندما كان يرفع قواعد بيت الله الحرام مع ولده إسماعيل، وهما يرفعان إلى الله تعالى الدعوات المباركات، ليجعلهما من الأمة المسلمة.

ثم ذكرت الآيات **وصيّة يعقوب** عليه السلام لأولاده وقد حضره الموت، وهو يقول لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢].

ثم بيّنت الآيات **فضل المستسلمين** لأحكام الله تعالى القدرية، **والصابرين** على البلايا والمصائب والمحن، والصابرين على نقص الأموال والأنفس والثمرات، ومهّدت بذلك السبيل للشروع في عرض أحكام الشريعة التكليفية، شريعة الإسلام خاتمة الشرائع الإلٰهية وأعظمها وأكملها وأتمّها.

وسارت الآيات على طريق **عرض الأحكام الشرعية في الشريعة الإسلامية**، وهي تُبرز أُسسها وخصائصها ومزاياها، فاستوفت كلَّ الجوانب العملية التكليفية

فيها، إما تأصيلاً أو تفريعاً، فالسورة بحق كما قال رسول الله ﷺ: «**سنام القرآن**» [رواه أحمد (٥/ ٢٥) والترمذي (٢٨٧٨)]، وكادت أن تحصيَ القرآنَ كلَّه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ بعثاً، وهم ذو عددٍ، فاستقرأهم، فقرأ كلُّ رجلٍ منهم ما مَعَهُ من القرآنِ، فأتى على رجلٍ مِنْ أحدثهم سنّاً، فقال: «**ما مَعَكَ أنتَ يا فلانُ؟**» فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «**أمعكَ سورةُ البقرةِ؟**» قال: نعم، قال: «**اذهبْ فأنتَ أميرُهم، فإنَّها إنْ كادَتْ لتستحصي الدينَ كلَّه**» [رواه الترمذي (٢٨٧٦)].

وللسورةِ في أثناء عرضها لأحكام الشريعة بعض الوقفات والتعقيبات، شدّتنا فيها إلى موضوعها الأساس، وهو موضوعُ الإسلام لله تعالى والاستسلام لأحكامه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

واستمرت الآياتُ على هذا النهج إلى أن توّجت خاتمتها بإبراز استسلام الصحابة رضي الله عنهم لأحكام دين الله، وبيّنت ارتباط ذلك بيُسْر الشريعة وسماحتها، كما سيأتي معنا في تقرير أساس مبدأ التكليف العظيم فيها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وذلك في مقابل ما سبق عرضه في آياتها من تعنّت بني إسرائيل وجحودهم، وخاصة في قصة موسى عندما أمر قومه بذبح البقرة، التي سُمّيت السورة كلّها باسمها، إشارة إلى تعنّتهم وتقاعسهم عن الانقياد لأحكام الله تعالى.

ونظراً لما أبرزته السورة من مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من أُصولِ هذه الشريعةِ وكثيرٍ من فروعها، أوصى النبيُّ ﷺ بالإكثار من قراءتها، وقرنها مع سورة آل عمران.

ففي الحديث الشريف: عن **أبي أمامة الباهلي** رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآنَ، فإنّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعاً لأصحابِهِ، اقرؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقرَةَ وسورةَ آلِ عمران، فإنَّهما تأتيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غمامتانِ، أو كأنّهما غيايتانِ، أو كأنَّهُمَا فِرْقَانِ من طيرٍ صَوَاف، تحاجّان عن أصحابهما،**

اقرؤوا سورةَ البقرةِ، فإنَّ أخذَها بركةٌ، وتركَها حَسْرَةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ» [رواه مسلم (٨٠٤)].

وقوله: «**كأنهما غمامتان، غيايتان**» المراد ثوابهما، وهما كل شيءٍ أظلَّ الإنسان فوق رأسه. «**فرقان من طير**»: قطيعان وجماعتان. «**البطلة**»: السحرة.

وقد جاء تفسير هذه السورة بفضل الله تعالى في تسعة فصول، متوالية حسب تسلسل آيات السورة، كما يلي:

الفصل الأول: القرآن والإنسان.

الفصل الثاني: التوراة وبنو إسرائيل.

الفصل الثالث: بنو إسرائيل من السلف إلى الخلف.

الفصل الرابع: التوحيد وإبراهيم عليه السلام والبيت الحرام.

الفصل الخامس: العقيدة والشريعة.

الفصل السادس: إسلام واستعلام: أسئلة الصحابة.

الفصل السابع: الأسرة وتشريع الطلاق.

الفصل الثامن: أخبار وقصص من التاريخ.

الفصل التاسع: مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي.

ولله تعالى الحمد بدءاً وختاماً، وأسأله جلّ وعلا أن يوفّقنا إلى ما يحبّه ويرضاه، وأن يهدينا صراطه المستقيم، ويثبتنا عليه. اللّهمّ آمين.

وصلِّ اللّهمّ وسلّم على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الأَوَّل

القرآن والإنسان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ
عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ
غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤۡمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (٩) فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا
تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا
يَشۡعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ
ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ
قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (١٥)
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمۡ
كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا
يُبۡصِرُونَ (١٧) صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (١٨) أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ
يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩) يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ
أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي
رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ
مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ
مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا
فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا
ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا
فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ
قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ
ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ
كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ
سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ
أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ
تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ
عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾».

- **الحروف النورانية:**

﴿الم ﴿١﴾﴾.

افتتح الله تعالى سورة البقرة بهذه الحروف الثلاثة: **ألف، لام، ميم**. وهي أكثر الحروف وروداً في فواتح السور، ويسمِّيها العلماءُ الحروفَ المقطّعةَ، والحروفَ النورانيَّة، والحروفَ الهجائية.

ومعانيها أسرارٌ تحيَّرتْ فيها الأفكارُ، فهي كما قال الإمام **الشعبيُّ**: سرُّ هذا القرآن، وفي هذا المعنى قال **عليُّ بنُ أبي طالبٍ** رضي الله عنه: إنَّ لكلِّ كتابٍ صفوة، وصفوةُ هذا الكتابِ حروفُ التهجّي. وقال **أبو بكر الصدّيق** رضي الله عنه: في كلِّ كتابٍ سرٌّ، وسرّه في القرآنِ أوائلُ السورِ[١].

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عِمرَان: ٧].

فكلامُ العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه، ولا تُحَدُّ فرائدُه وفوائدُه، وهذا وجهٌ من وجوه إعجازِه، ينفردُ به عن سائر الكلام، ولهذا قالوا: إنَّ الحروفَ المقطَّعةَ التي في أوائلِ بعض سوره تدلُّ على إعجازِه، وعجزِ الخلقِ عن الإتيانِ بمثل سورة من سوره، وحروفُه قريبةٌ منهم، وفي متناولِ أيديهم.

ولقد انتصرَ لهذا الرأي ابنُ كثير في تفسيره، فبعدَ أنْ ذكره، وذكر العلماء

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، عن: الإتقان، للسيوطي، ص٢٣٦.

الذين ذهبوا إليه، قال ﷺ: «ولهذا كُلُّ سورةٍ افتُتِحَت بالحروفِ فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصارُ للقرآنِ، وبيانُ إعجازِه وعظمتِه، وهذا معلومٌ بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة] وغير ذلك من الآياتِ الدالّة على صِحّةِ ما ذهبَ إليه هؤلاء لِمَن أمعن النظر»[(١)].

وقد اعترضَ بعضُهم على استقراءِ ابن كثير بثلاثِ سُوَرٍ، افتُتِحَتْ بالحروف المقطَّعة، ولم يُذْكَرْ فيها الانتصارُ للقرآنِ، وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم.

إلّا أنّ هذا الاعتراضَ يسقطُ إذا تأملنا كلَّ آياتِ هذه السور، ففي بعضِها ذكرٌ للقرآن الكريم، وتأكيدٌ على أنّه كلام الله تعالى، كقوله في [مريم: ٩٧]: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

وقوله في [العنكبوت: ٥١]: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى في [القلم: ٥٢]: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

- **الكتاب الكامل:**

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: القرآن الكريم، هو الكتابُ الكامِلُ الحائِزُ على كل كمال، فهو وحدَه المستحقُّ أن يُوصَفَ بالكتاب بالنسبة لما عداه، كما يقال: هو الرجُلُ الكاملُ في الرجولية، الجامع لما يكونُ في الرجال من الخصال الحسنة، وعليه قول مَن قال:

هم القوم كُلُّ القومِ يا أُم خالدِ[(٢)]

(١) انظر: تفسير ابن كثير، المقدمة.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١/ ٢٤.

وأُشيرَ إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للدلالةِ على علوِّ شأنه، وكونه في الغايةِ القُصوى من الفضل والشرف.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ فيه مطلقاً، فـ(لا) نافيةٌ للجنس، دلّت على نفي أيِّ ريبٍ عن صحة وصدق القرآن الكريم، وأنه نزل من الله تعالى، كما قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

فلا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، وسيمر معنا أن الذين ارتابوا فيه لا صحة لريبهم، وما ارتيابهم إلّا عنادٌ وجحود: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: دلالةٌ للمتّقين، يدلّهم على العقيدةِ والشريعةِ التي كلَّفهم الله تعالى بها، فهو مَصْدَرٌ، من قولك: هديتُ فلاناً الطريقَ، إذا أرشدته إليه، ودَلَلْتُه عليه، وبيّنته له، أهديه هدًى وهدايةً[١].

وأصل **التقوى**: التوقّي ممّا يكره، **والمتّقي** اسمُ فاعل من الوقاية، وهي فرطُ الصيانةِ، فهو الذي يصون نفسه عمّا يضرّه.

وسأل عمرُ بن الخطاب أُبيَّ بن كعب رضي الله عنهما عن التقوى، فقال له: أما سلكتَ طريقاً ذا شوكٍ؟ قال: بلى، قال: فما عملتَ؟ قال: شمّرتُ واجتهدتُ، قال: فذلك التقوى.

وأخذَ هذا المعنى ابنُ المعتزّ فقال:

خَلِّ الذُّنُوبَ صغِيْرَها وكَبِيْرَها ذاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أر ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغِيْرَةً إنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وتدورُ أقوالُ العلماءِ في التقوى حولَ هذا المعنى.

فعن **عليٍّ** رضي الله عنه قال: التقوى تركُ الإصرارِ على المعصيةِ، وتركُ الاغترارِ بالطاعةِ.

---

(١) جامع البيان: ١/٧٦.

وعن **الواقدي**: أنْ تُزيِّنَ سرَّكَ للحقِّ كما زيّنتَ ظاهِرَكَ للخلقِ.

وقال **الإمام الطبري**: «إنّهم الذين اتّقوا اللهَ تباركَ وتعالى في ركوبِ ما نهاهم عن ركوبِهِ، فتجنّبوا معاصيه، واتقوه فيما أمرَهُم به مِنْ فرائضه فأطاعوه بأدائها»[(١)].

وتخصيصُ الهدى بالمتّقين لأنّهم المنتفعون بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولاحظَ **الإمامُ الرازيُّ** التناسقَ بين هذه الجمل الأربعة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة]، فقال: «نُبِّهَ أولاً على أنّه الكلامُ المتحدّى به، ثم أُشيرَ إليه بأنّه الكتابُ المنعوتُ بغايةِ الكمالِ، فكانَ تقريراً لجهةِ التحدّي، ثم نُفِيَ عنه أن يتشبث به طُرَفُ مِنَ الريبِ، فكان شهادةً بكمالِهِ، ثم أُخْبِرَ عنه بأنه هدًى للمتّقين، فقرّر بذلك كونه يقيناً، لا يحومُ الشكُّ حوله»[(٢)].

والجديرُ بالذكر أنَّ التقوى هي التعبيرُ العملي عن حقيقة الإسلام لله تعالى والاستسلام لأحكامه، ولهذا سنجدُ الآياتِ الكريمة للسورةِ تربطُ بين الأحكام التشريعية وبين التقوى.

• **الإيمان بالغيب:**

ثم بيّنت الآياتُ الصفاتِ الأساس الكبرى للمتّقين، وهي:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يصدِّقون بكلِّ ما أخبر الله تعالى به مما غاب عنهم.

فالغيب لغةً: كلّ ما غابَ عن الإنسان، إذ الإنسان مخلوقٌ محدودٌ عقله،

---

(١) جامع البيان: ١/ ٧٧.

(٢) تفسير الرازي: ٢/ ٢٥.

والحقيقةُ لا تُعْرَفُ كلّها من خلال عقله وفهمه، بل ثمّةَ مصدرٌ آخر أعظمُ وأجلُّ من عقل الإنسانِ، وهو الخبرُ الصادقُ عن الخالق العظيم جلّ وعلا، الذي وسِع كلَّ شيءٍ علماً، فهو سبحانه وحدَه عالمُ الغيب والشهادة، كما سيأتي معنا في قصة بَدْءِ خلقِ الإنسانِ عند قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وعالَمُ الغيبِ أعظمُ بكثير من العالَم المُشاهَدِ المنظور المحسوس، والإنسانُ لا يزالُ يجهلُ كثيراً من بنيته المادية والروحية، وسيبقى الجزءُ الهامّ في الإنسان غيباً عن الإنسان نفسه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فضلاً عن العوامل الخارجة عنه.

والإيمان بالغيب شرعاً: التصديقُ بكلِّ ما أخبرَ اللهُ عنه، ولا شكَّ أنَّه تعالى أوثقُ مصدرٍ لمعرفةِ الحقيقة، والمؤمنون بالغيبِ لا يبنونَ إيمانهم على مجرّدِ التخمين والحَدْسِ والأوهامِ والتخيّلات، فهذه أمورٌ لا تصلحُ أنْ تكونَ أساساً لإيمانٍ وتصديقٍ، ولهذا ندّد سبحانه بأولئك الذين يبنون عقائدهم على مجرّدِ الظنِّ والتخمين والتقليد: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]. وقال قبل ذلك في السورة نفسها: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

فالمراد من قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الذي دلَّ عليه الدليلُ حتى أصبحَ بمنزلةِ المشاهَدِ المحسوس، فالغيبُ إما أن يكون ممّا دلّ عليه الدليل، أو ممّا ليس عليه دليل، والمراد من هذه الآية مدح المتّقين بأنّهم يؤمنون بالغيب الذي دلّ عليه دليل، بأن يتفكروا ويستدلّوا فيؤمنوا به، وعلى هذا يدخلُ فيه العِلْمُ بالله تعالى وبصفاته، والعلم بالآخرة، والعلم بالنبوّة(١).

والإيمان بالغيب هو العتبةُ التي يجتازها الإنسانُ، فيتجاوز مرتبةَ الحيوانِ،

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٢/ ٣١.

الذي لا يدرِكُ إلّا ما تدركه حواسه، إلى مرتبةِ الإنسان، الذي يدرك أنَّ الوجود أكبرُ وأشملُ من ذلك الحيِّز الصغير المحدّد، الذي تدركه الحواسُّ، أو الأجهزة التي هي امتدادٌ للحواس، وهي نقْلَةٌ بعيدةُ الأثرِ في تصوُّرِ الإنسان لحقيقةِ الوجود كلِّه، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكونِ وما وراءَ الكونِ من قدرة وتدبير، كما أنّها بعيدةُ الأثر في حياته على الأرض، فلَيس مَنْ يعيشُ في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسّه كمن يعيش في الكونِ الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته.

ولقد كان الإيمانُ بالغيبِ هو مفرق الطريق في ارتقاءِ الإنسانِ عن عالم البهيمة، ولكنّ جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كلِّ زمانٍ، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى إلى عالم البهيمة، الذي لا وجودَ فيه لغير المحسوس، ويسمّون هذا تقدُّميةً، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إيّاها، فجعل صفتهم المميزة صفة الذين يؤمنون بالغيب(١).

والمراد من قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون، فالتصديقُ هو المعنى اللغوي لكلمة الإيمان.

قال ابن كثير: «الإيمانُ في **اللغةِ** يطلَقُ على التصديق المحض، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦].

فأمّا إذا استُعْمِل مطلقاً، فالإيمان المطلوبُ لا يكون إلّا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب أكثر الأئمةِ، وحكاه الشافعيُّ وأحمد إجماعاً، **أنَّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص**»(٢).

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٣٩ - ٤٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٩.

وقال أبو السعود العمادي: «وهو في **الشرع** لا يتحقَّقُ من دونِ التصديق بما علم ضرورةً أنّه من دينِ نبيّنا عليه الصلاة والسلام، كالتوحيدِ، والنبوّةِ، والبَعْثِ، والجزاءِ ونظائرها.

وهل هو كاف في ذلك، أو لا بدَّ من انضمامِ الإقرارِ إليه للمتمكن منه؟:

الأول: رأي الشيخ الأشعري ومَن شايعه، فإنّ الإقرار عنده منشئٌ لإجراء الأحكام.

والثاني: مذهب أبي حنيفة ومَن تابعه، وهو الحقّ، فإنّه جعلهما جزأين له، خلا أنّ الإقرارَ ركنٌ محتمل للسقوط بعذر، كما عند الإكراه.

وهو عند جمهور المحدّثين والمعتزلة والخوارج مجموعُ ثلاثةِ أمورٍ: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بموجبه، فمَن أخلّ بالاعتقاد وحده فهو **منافق**، ومَن أخلّ بالإقرار فهو **كافر**، ومَن أخلَّ بالعمل فهو **فاسق** اتفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارجٌ عن الإيمانِ غيرَ داخلٍ في الكفر عند المعتزلة»[١].

والإيمان بالغيب الذي أخبرَ اللهُ تعالى في كتابه أنَّه صفةُ المتّقين، يدلُّ على ثقتهم الكاملةِ بالله تعالى، وبكلِّ ما يخبرهم عنه جلَّ وعلا، كما يدلّ على الإسلام والاستسلام، والانقياد لدينه وشرعه سبحانه؛ ولهذا ذكره سبحانه في أوَّلِ صفات المتّقين، إذ هو أساسُ التقوى ومصدرها.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدّون الصلاة بشكل مستقيم على الوجه المشروع الذي كُلِّفوا به.

والصلاة في الأصل: الدعاء، وأيُّ صلاة يؤدّيها العبد لا تخلو عن الدعاء، وهي أعظم العبادات البدنية الدالّة على كمال الإسلام لله تعالى والخضوع له، ولهذا خصّها الله تعالى بالذكر هنا، كما ذكرت في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها من السور.

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/ ٣٠؛ وانظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٤٤.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم من المال ينفقون في وجوه الإنفاق المشروعة.

وإنفاق المال في الوجوه المشروعة عبادة يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى، وهي العبادة المالية التي تدلّ على الإسلام لله تعالى والخضوع لدينه وشرعه.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة وإنفاق المال، فإن **الصلاة** حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكّل عليه، **والإنفاق** هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّي إليهم[(١)].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ والزبور، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين.

وهي الصفةُ اللائقةُ برسالة الإسلام، الخاتمةِ للرسالات الإلٰهية، وقيمة هذه الصفة تظهر في الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسالات رُسلِها، التي هي رسالة الإسلام لله تعالى وحده، وهو موضوعُ السورة الأساس كما ذكرنا.

فالمسلمون يؤمنون بالأنبياء والمرسلين جميعاً، الذين أخبر الله تعالى عنهم في القرآن الكريم، لا يفرّقون بينهم، كما أخبر سبحانه في آخر **سورة البقرة** [٢٨٥]: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

- **الإيمان بيوم القيامة:**

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: ويصدّقون تصديقاً كاملاً لا شكّ فيه بالحياة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٠.

الآخرة يوم القيامة، وبما يكونُ فيها من إحياء للأموات، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وحسابهم، ودخولهم إمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النار.

واليقين: العلمُ المسبوقُ بالشك، ولذلك لا يوصَفُ به الله تعالى.

والإيمان بالآخرة مظهرٌ عملي للإيمان بالغيب؛ لأنّ الله تعالى أخبرَ عنها، فالإيمان بها مبنيٌّ على الخبر الصادق، وهو من أعظم قضايا الإيمان؛ لاتصاله اتصالاً وثيقاً بالإيمان بالله تعالى ووحدانيته وكماله جلّ وعلا، ولا يعرفُ الإنسانُ قيمةَ وجوده، وحكمةَ الله تعالى من خلقه إلّا إذا آمن بمسؤوليته أمام خالقه جلّ وعلا يوم القيامة، فهو مفرقُ الطريق بَيْنَ مَن يعيش بين جدران الحسِّ المغلقة، وبين مَنْ يعيشُ في الوجود المديد، ومَن يشعر بأنَّ حياته على الأرض ابتلاءٌ يمهِّدُ للجزاء، وأنَّ الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحَيِّزِ الصغير المحدود(١).

هذه هي الصفات الأساس الكبرى للمتّقين، وهذه هي سماتُ عقيدتهم وعبادتهم وشريعتهم؛ ولهذا التفتت الآياتُ بأسلوبِ التقريرِ إلى الثناءِ على المتّصفين بها بقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أي: أولئك المتّصفون بهذه الصفات، المتميزون بها عن غيرهم من الناس، على هدًى من ربهم، لأنّهم تمسكوا بتعاليم الكتاب المنزل عليهم من ربّهم، الذي وصفه تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وأفاد معنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ تمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق أو على الباطل(٢).

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٤١.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٤٨.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾أي: الناجون الفائزون، نجوا من عذاب الله تعالى، وفازوا برضوانه وجنّته.

وأفاد تكرار اسم الإشارة، وتوسيط ضمير الفصل، اختصاص المتّقين بالهدى والفلاح، فهم وحدهم المهتدون الفائزون.

• **هرم الجحود والفساد:**

تبيّن لنا من خلال الصفات التي ذكرتْها الآياتُ للمتّقين، أنّهم المستسلمون لله تعالى، والخاضعون لجلاله علماً وعملاً، عقيدةً وشريعةً.

وشرعت الآياتُ في مقابل المستسلمين له تعالى، تتحدَّثُ بأسلوب التقرير عن الذين لم يتّصفوا بهذه الصفة، فقسَّمتهم إلى ثلاث فئات:

الأولى: الكافرون جحوداً وعناداً.

والثانية: المنافقون، وهم نوعٌ مخصوصٌ من الفئة الأولى.

والثالثة: أهل الكتاب، وهم أيضاً نوعٌ مخصوص من الفئة الأولى.

ويلاحِظُ المتدبِّرُ للآيات الكريمة أنّها أوجزتِ الحديثَ عن الفئة الأولى، ثم فصّلت بعض الشيءِ أحوالَ الفئة الثانية، ثم بعد ذلك فصّلت وأفاضت في بيان أحوال ومواقف الفئة الثالثة، وكأنَّ الآيات بهذا رسمت هرماً، وضعت على قمته **الكافرين**، ثم جعلت وسطه **للمنافقين**، وخصّصت قاعدته العريضة **لأهل الكتاب**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا وأنكروا صحّةَ الكتاب الذي لا ريبَ فيه، وهو القرآن الكريم، وأصلُ الكُفْر في كلام العرب: السترُ والتغطيةُ، ومنه قول الشاعر:

في ليلةٍ كفرَ النجومَ غَمَامُها

أي: سترها، ومنه سُمّيَ الليلُ كافراً؛ لأنه يغطّي كلَّ شيءٍ بسواده، والكافِرُ: الزارعُ، والجمع كفّار، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني الزرّاع، لأنهم يغطّون الحَبّ بالتراب[١].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: متساوٍ لديهم.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أي: خوّفتهم وحذّرتهم، **والإنذارُ**: إعلام مع تخويف[٢].

﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بسبب عنادهم وجحودهم.

وهذا يدلّ على كمال علم الله تعالى، فهو سبحانه عليم بأحوال الناس، ومدى استجابتهم لدعوة رسُله قبل أن يرسِلَ إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، ولكنّه سبحانه لا يعامِلُ الناسَ بحسب علمه بهم جلّ وعلا، إنّما يعاملهم بحسب أعمالهم، وما يكون من اختيارهم وكسبهم؛ ولهذا أرسل إليهم الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب، وبيّن لهم الشرائع، وجعل لهم مشيئةً واختياراً، وزوّدهم بوسائل التمييز والتمكين: العقل والسمع والبصر، فلا حجّة لهم بعد كل ذلك إنْ أعرضوا عن الحق، وجحدوا أدلّته وشواهده التي لا ريب فيها، ولم يوجِّهوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها.

- **خَتَمَ وطَبَعَ:**

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: طَبع عليها وغطّاها، فلا تعي خيراً ولا تفهمه.

والختم: مصدر ختمتُ الشيءَ ختماً فهو مختومٌ، ومعناه: التغطية على الشيء والاستيثاق منه، حتّى لا يدخلَه شيء، ومنه: ختم الكتاب والباب.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ١٨٣.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ٥٠.

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ أي: وجعل على أبصارهم غشاوة، وهي الغطاء.

والمراد بالختم والغشاوة هنا المعنويان لا الحسيّان، أي: لمّا كانت قلوبهم غير واعية لِما وصل إليها، والأسماع غير مؤدية لِما يطرقها من الآيات البيّنات إلى العقل على وجهٍ مفهوم، والأبصار غير مهدية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جُعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسيّاً[(١)].

فسبب الختم والتغطية نابعٌ من داخل نفوسهم، من كسبهم واختيارهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال ابن جرير الطبري: «والحقُّ عندي في ذلك ما صحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبه، فإنْ تابَ ونزعَ واستغفرَ صُقِلَ قلبُه، وإن زادَ زادتْ حتى تعلوَ قلبَه، فذلك الرّانُ الذي قال الله تعالى:** ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» [رواه الترمذي (٣٣٣١) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤١٨) وابن ماجه (٤٢٤٤) وقال الترمذي: حسن صحيح].

فأخبر ﷺ أنّ الذنوبَ إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختمُ والطبعُ من قِبَلِ الله تعالى، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ، ولا للكفرِ عنها مخلَصٌ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾»[(٢)].

فالقوم هم الذين عطّلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن شواهد الحق

---

(١) انظر: فتح القدير: ١/ ٣٩.

(٢) جامع البيان: ١/ ٨٧.

وأدلّته، كما صرّحت الآية الكريمة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم وإعراضهم عن شواهد الحقّ وأدلّته.

• **المنافقون:**

ونزلت الآيات من قمة هرم الجحود والعناد، إلى نوع مخصوص من أنواع الكفر جحوداً وعناداً، وهم المنافقون الذين يُبطِنون الكفر ويُظهِرون الإيمان، ووقفت الآيات عندهم تفصّل أحوالهم، وتبيّن بعض مواقفهم، وتضرب لهم بعض الأمثال الكاشفة لحقائقهم، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وبعض الناس.

﴿مَن يَقُولُ﴾ بلسانه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: آمنّا بالله الواحد الأحد، وبالمسؤولية والحسابِ والجزاءِ أمامَ يوم القيامة، والإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر أعظمُ قضايا الإيمان وأهمُّ أركانه، ولهذا خصّهما سبحانه بالذكر، وكان المنافقون يعلنون إيمانهم بالله واليوم الآخر أمام المؤمنين، لأنهما يدلّان على صحّة الإيمان وتمامه.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ في الحقيقة والواقع، وبهذا نفى سبحانه عنهم الإيمان نفياً قاطعاً، وكذّب ادّعاءهم، كما قال في [المنافقون: ١]: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

فلا يصحّ الإيمانُ إلّا إذا وافقَ القلبُ اللسانَ، وكان انقيادُ الإنسان قلباً وقالباً، علماً وإذعاناً وسلوكاً.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ في زعمهم، لأنّهم يظنون أنّ الله سبحانه ممّن يصحّ خداعه، وقرئ: **(يخدعون)**.

والخديعةُ: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة: الإخفاء، والمخادع يُظهِر ضدّ ما يُضمِر[(١)].

ومخادعة المنافقين ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ويخادعون الذين آمنوا لكي يعاملوهم معاملة المسلمين.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وفي قراءة: **(وما يخادعون)** لأنّ ضرر المخادعة يعود عليهم، فمَن خدع مَن لا يُخدَع فإنّما يخدع نفسه، لأن الخداع يكونُ مع مَن لا يعلمُ البواطن، وأمّا مَن عَلِمَ البواطن فمَن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه، ودلّ هذا على أن المنافقين ما عرفوا الله تعالى، إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يُخدَع[(٢)].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصل خداعهم يرجع عليهم.

والشعور: علم الشيء علم حسّ، ومشاعر الإنسان حواسّه، لأنها آلات الشعور، فهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حسّ له[(٣)].

فما أشدّ غفلتهم، وما أقبح اغترارهم بأنفسهم!.

• مرض وفساد:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: في قلوب المنافقين شك ونفاقٌ، وحقد وحسد.

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/٥٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١/١٩٦.

(٣) تفسير النسفي: ١/٥٧.

والمرضُ: ضدّ الصحّةِ، وهو اسمٌ لكل فساد وخلل، والمنافقون هم أصحاب القلوب المريضة، ولا شكّ أنَّ النفاقَ والشك والحقد والحسد أمراض معنوية، هي أشدُّ خطراً من الأمراض الحسيّة؛ لأنها تؤدّي إلى خلل واضطراب في دين الإنسان وسلوكه وخلقه.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: زادهم شكّاً وكفراً ونفاقاً وضلالاً... إلخ، والجزاء من جنس العمل، وهو كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقد يكون المعنى المراد دعاء عليهم جزاء نفاقهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يومَ القيامة، فهم أشدُّ أهل النار عذاباً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والنفاقُ من أخطر الآفات التي تصيبُ المجتمعات، فإذا ما انتشر في المجتمع أفسده، وأحدث فيه الخلل والاضطراب والفتن؛ لأنَّ المنافقين يعملون على نشر الفساد، وإحداث الفتن بين الناس، وإفشاء أسرار المجتمع إلى أعدائه، وإذا ما نصحهم ناصحٌ بأن يتّقوا الله تعالى، ويكفّوا عن الفساد والإفساد، ادّعوا لأنفسهم صفة الإخلاص والصلاح، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: لا ينبغي مخاطبتنا بذلك؛ لأنَّ شأننا ليسَ إلّا الإصلاح.

وردّ الله تعالى دعواهم هذه أبلغ ردّ، مما يدلّ على شدّة سخطه سبحانه عليهم، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لا يشعرون أنهم مفسدون، فما هم عليه هو مصدر الفساد وبؤرة الشر، ولكن لفرطِ جهلهم وحماقتهم لا يعلمون أنّه شرٌّ وفسادٌ.

• **سفهٌ وجهل:**

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: آمنوا إيماناً خالصاً لا شكّ فيه ولا نفاق، كما آمنَ أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ أجابوا بتكبّر وعنادٍ:

﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؟! أي: لا نؤمنُ كما آمن السفهاء، فالاستفهامُ في كلامهم للإنكار.

وأصلُ **السفهِ** في كلام العربِ الخفّةُ والرقّةُ، يقال: ثوبٌ سفيهٌ، إذا كان رديءَ النسج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً، وتسفّهت الريحُ الشجرَ: مالت به، وتسفّهتُ الشيءَ: استحقرتُه، والسّفَهُ ضدُّ الحلم(١).

والسفهاءُ: الجهّالُ الخُرقاء المتّصفون بقلّة العقل والخِفَّةِ والاضطراب.

ولا يخفى ما في كلامهم من تعريضٍ بالمؤمنين، فلا بدّ أن يكون قد صدر عنهم سرّاً أو فيما بينهم، وقد ردّ سبحانه عليهم أبلغ ردّ فقال:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السفهاء، وبهذا وصفهم الله تعالى بصفتي السّفَه والجهل.

ومما يدلّ على أنهم كانوا يقولون ذلك سرّاً لا جهراً، أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين:

﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ أي: آمنّا بما آمنتم به، أو آمنّا إيماناً كإيمانكم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٢٠٥.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي: إذا انفردوا مع رؤسائهم بالكفر والنفاق، كعبد الله بن أبيّ ابن سلول، أو مع أحبار اليهود ورؤسائهم الذين تعلّموا النفاق منهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في العقيدة الفاسدة والكفر والشرك فاطمئنّوا، فنحن ثابتون على ما أنتم عليه، وما أظهرنا الإيمان إلا استهزاء وسخرية.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مستخِفُّون بالمؤمنين.

والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، ولا شك أنّ المستهزئ بالشيء منكر له.

وتدلّ الآيةُ على أنّ الشياطينَ يكونون من الإنس كما يكونون من الجنّ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وسُمّوا بذلك لشدّة تمرّدهم وكفرهم.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، ويعاملهم سبحانه معاملة المستهزئ بهم، وينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم.

وإنّما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاءً مع كونه عقوبة ومكافأة، مشاكلةً، وقد كانت العربُ إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه، وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠][(١)].

وسيأتي مَعنا قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وبيّن تعالى كيف يستهزئ بهم فقال:

---

(١) انظر: فتح القدير: ١/ ٤٤.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يمهلهم ويتركهم في ضلالهم يتحيّرون ويتردّدون، فلا يعاجلهم سبحانه بالعقوبة كي يزدادوا ضلالاً وحيرة وقلقاً واضطراباً، كما قال في **سورة مريم** [٧٥]: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهدى، واستبدلوها به، وفضّلوها عليه، فأخذوا الضلالة، وأعرضوا عن الهدى.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ بل خسروا خسارةً كبيرةً لا تعوّض، شأنهم كشأن الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ في تجارتهم، فقد يخسر التاجر، ويكون على هدًى في تجارته، غير مستحق للذمّ في تصرفه، فنفى الله تعالى عن المنافقين الأمرين، فما ربحوا، ولا أحسنوا التصرّف، مبالغة في ذمّهم(١).

- **قلق وحَيْرة:**

واهتمامُ الآيات بالمنافقين وتفصيلِ أحوالهم، يدلُّ على خطورة النفاق، وعمق تأثيره بالمجتمع، وتأكيداً لهذا الخطر ضَربت الآيات للمنافقين المثالين التاليين؛ أما المثال الأول، ففي قوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: حالهم كحال الذي أوقد ناراً، ويبدو

---

(١) انظر: زاد المسير: ١/٣٨.

أنه كان في ظلمة ووحشة وخوف، وأنه أوقد النار لكي يستضيء بها، ويأنس بنورها ويأمن.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: فلمّا أنارت النار ما حول مُوْقِدِها، وبدّدت الظلمةَ المحيطة به، وزالت عنه الوحشة، وشعر بشيء من الأمن والأنس.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أي: أخذ الله تعالى نورهم، وأمسكه، وعادوا إلى الظلمات كما كانوا قبل ذلك.

وانتقلت الآيةُ من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع لتبيّن أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبَّهوا بذات المستوقد، حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، وإنما شبّهت قصّتهم بقصة المستوقد(١).

﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ الشكّ والكفر والنفاق والحيرة، والظلمة الحادثة بعد الضوء أشدّ على الإنسان من ظلمة لم يسبقها ضياء.

﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ ما حولهم ولا يهتدون إلى سبيل خير ورشاد.

والتشبيه هاهنا في نهاية الصحَّة؛ لأنّهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حَيْرة عظيمة، فإنّه لا حَيْرَةَ أعظمُ من حَيْرَةِ الدين(٢).

وإلى جانب ما هم فيه من ظلمات الكفر والنفاق والحيرة، فهم متّصفون بتعطّل جوارحهم عن الانتفاع بها، فَهُم:

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾.

﴿صُمُّۢ﴾ عن استماع الحق، جمع أصمّ، وهو الذي لا يسمع.

﴿بُكۡمٌ﴾ عن التكلّم به، جمع أبكم، وهو الذي لا يتكلم.

﴿عُمۡيٞ﴾ عن رؤية أدلة الهدى وشواهد الحق، جمع أعمى، وهو الذي لا يبصر.

---

(١) تفسير الرازي: ٢/ ٨٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٨١.

فهم كالمختوم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كما مرّ معنا [انظر: سورة البقرة: ٧] في وصف حال الكافرين جحوداً وعناداً.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يعودون إلى الهدى ما داموا متّصفين بهذه الصفات. وقد يكون المعنى أنهم بمنزلة المتحيّرين المتردّدين، يقفون في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون[(١)]؟!.

● **الخائفون من النور:**

وأما **المثال الثاني** ففي قوله تعالى:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مثل المنافقين مع الكتاب الذي لا ريبَ فيه كمطرٍ من السحاب، فكلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء.

والصيّب: المطرُ الذي يصوَّبُ، أي: ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيِّبٌ أيضاً، ودلّ تنكيره على أنه مطر شديد هائل[(٢)].

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ أي: معه ظلمات، ظلمةُ تكاثُفهِ، وظلمةُ سحابِهِ، وظلمةُ الليلِ.

﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوتُ الذي يُسمَعُ من السحاب، لاصطكاك أجزائه.

﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو الذي يلمع من السحاب، من: برق الشيء بريقاً إذا لمع.

هذا ما ذكره كثير من قدماء المفسّرين، كالفخر الرازي والبيضاوي والنسفي، وهو قريبٌ من النظرية العلمية المعاصرة في تفسير ظاهرة الصاعقة، وما يصاحِبُها من رعد وبرق، التي تقول: الصاعقةُ هي عمليةُ تفريغ كهربائي، تحصلُ خلالَ طقسٍ عاصفٍ، بين غيومٍ مشحونة كهربائيّاً، بعضُها موجِبٌ،

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٢/ ٨٤.
(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٦٩.

وبعضها سالِبٌ، فتنتج عن عملية التفريغ هذه ظاهرة مرئية مضيئة تُعرَف بالبرق، وظاهرةٌ أخرى صوتية تسبّبها موجاتُ الضغطِ الناتجة عن عملية التفريغ، ويُعرَف هذا الصوت بالرعدِ.

والطقسُ العاصفُ هذا يسبّبه سوق المَلَكِ للسحاب وزجرُه؛ كما ورد في الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن الرعد ما هو؟ فقال: «**مَلَكٌ من الملائكةِ مُوكَلٌ بالسحابِ، معه مخاريقُ من نارٍ يسوقُ بها السحابَ حيثُ شاءَ الله**» فقالوا: فما هو الصوت الذي نسمع؟ فقال: «**زَجْرُهُ بالسحابِ إذا زَجَرَهُ حتى ينتهيَ إلى حيثُ أمر**» [رواه الترمذي (٣١١٧) وقال: حسن صحيح غريب][1].

لكنّ ظواهر الآيات القرآنية تدلُّ على أنَّ السحاب تسوقه الرياح، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وللتوفيق بين النصوص القرآنية وبين الحديث الشريف، **نقول**: إنّ الرياح تحمل بتقدير الله تعالى السحاب من الآفاق البعيدة، إلى حيث يشاء الله تعالى نزول المطر، وأما اضطرابُ السحابِ واحتكاكُه المؤدّي إلى ظاهرتي الرعد والبرق فيكون بفعل المَلَك المُوكَل بذلك، والكلّ بتقديره جلّ وعلا وتدبيره.

أو **نقول**: إنّ للرياح أيضاً ملائكة مُوكَلَة بها، توجّهها وتحرّكها كما يشاء الله تعالى العليم الحكيم، وما هذه النواميسُ والقوانينُ التي يفسِّر العلماءُ بها هذه الظواهر، إلّا أسبابٌ أبدعها خالق الأسباب والمسبّبات جلّ وعلا.

ثم وصفت الآياتُ حال هؤلاء الناس عند نزول المطر عليهم، ومعه الرعد والبرق، بقوله تعالى:

---

(١) قرّة العينين على تفسير الجلالين، ص٣٢٢.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ وهذا يدلّ على شدّة خوفهم من الصواعق، جمع صاعقة، وهي جسم ناري مع قصفة رعد هائل، يهلك مَن يُصابُ بها، وتطلقُ أيضاً على صيحة العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصّلَت: ١٣].

وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوفاً من الموت والهلاك.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم في قبضة قدرته سبحانه لا يفوتونه.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يذهب بأبصارهم ويسلبُها بسرعةٍ.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أي: كلما لمع البرقُ مشوا في نوره.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أي: وقفوا متحيّرين.

وهذا تمثيلٌ لشدّة الأمر على المنافقين، كشدّته على أصحاب الصيِّب، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقةً، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصةً فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين مقيّدين عن الحركة[١].

ثم بيّن الله تعالى كمال قدرته فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: ولو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمّهم، وفي ضوء الرعد فأعماهم.

(١) تفسير الرازي: ٢/ ٨٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

ولعلّ هذا المثال يبيّن شدّة الصراع المحتدم في صدور المنافقين؛ بين أنوار الشواهد القرآنية الساطعة، وبين ظلمات الكفر والنفاق والعناد والجحود، التي تملأ قلوبهم ونفوسهم.

• **قضيتان هامّتان:**

وبعد أن أنهت الآياتُ حديثها عن المنافقين، استطردت إلى بيان قضيتين هامتين، قبل أن تنزل إلى قاعدة هرم الجحود والعناد، وتشرع في الحديث عن مواقف أهل الكتاب:

الأولى: بيان عموم وشمول الرسالة الإسلامية: وعرض بعض مؤيدات صحَّتها وصدقها.

والثانية: بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان: ووحدة الأصل الإنساني، وكيف شرّفه الله تعالى باستخلافه في الأرض، وتكليفه وجعله مسؤولاً أمامه يوم القيامة.

واستهلّت الآيات الحديثَ عن **القضية الأولى**، بهذا النداء الإلٰهي الموجَّه إلى جميع الناس، وهو أول نداء في القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والمرادُ منهم كل الناس الموجودين في عصر التنزيل، ومَن يأتي بعدهم.

فالخطاب متجدّد دائماً إلى كل جيل من أجيال الناس؛ لأن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لكل الأجيال، وتكفّل بحفظه، وسيبقى هذا الكتابُ الذي لا ريب فيه محفوظاً، يخاطِبُ الناس بأسلوب الأمر الصريح الملزم قائلاً:

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: أطيعوا ربّكم بتوحيده والتزام دينه وشريعته،

والاستسلام لأمره، فهو ربكم الذي خلقكم ويربّيكم بما يمدّكم به من أسباب العيش والحياة، لا ربّ لكم سواه جلّ وعلا.

قال القرطبي رحمه الله: «﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ أمر بالعبادة، والعبادةُ هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه، وأصل **العبادةِ** الخضوعُ والتذلّل، يقال: طريق معبّدة، إذا كانت موطوءة بالأقدام، **والعبادة** شرعاً: الطاعة»[1].

والربّ: المربّي بالإيجاد والإمداد، ولهذا قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: الذي أوجدكم وأنشأكم، والذين من قبلكم، فالخالق واحد لا شريك له جلَّ وعلا.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتّقين.

فكلمة (**لعلّ**) للترجّي والإطماع، ولكنّه إطماعٌ من كريمٍ، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه[2].

وتشير الآية إلى أن العابد ينبغي ألّا يغترَّ بعبادته، بل يكون ذا خوف ورجاء في وقت واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ودلّت الآية على أن التقوى أعلى درجات العبادة، وقد مرّ معنا في أول السورة [٢] أنه تعالى أنزل القرآن الكريم هدًى للمتّقين، وذكرنا هناك أنَّ التقوى هي التعبير العملي عن إسلام الإنسان لله تعالى.

- **الإنسان والأرض والسماء:**

ثُمَّ بيّنت الآيات بعض الأدلّة الدالّة على وجوده سبحانه، وعلى جوده وفضله وإحسانه، وكيف أنه أمدّ الإنسان بكل الأسباب التي يحتاج إليها في حياته ومعيشته على الأرض فقال تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ١/ ٢٦٦.
(٢) تفسير النسفي: ١/ ٧٥.



﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: الذي جعل لكم الأرض كالفراش، تتقلّبون عليها، وتنامون عليها كما تتقلّبون وتنامون على الفراش.

والمرادُ أنّه: سبحانه جعلها ملائمة لحياتكم، ومسخّرةً ومذلّلةً لمعيشتكم عليها، وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

ومنها: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: وجعل السماء كالسقف للأرض، أو كالقبّة المضروبة فوقها، ويقال لسقف البيت: بناء، وقد سمّى سبحانه السماء سقفاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ويقال: بنى على أهله ـ والعامّةُ تقول بنى بأهله، وهو خطأ ـ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضربُ عليها قبّةً ليلةَ دخوله بها، فقيل لكل داخل بأهله: بانٍ(١).

فالبناءُ فيه معنى الرفع، كما في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل من السحاب الذي في جهة السماء ماء.

فالمطر ينزله الله تعالى من السحاب، بصريح قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النُّور: ٤٣].

وإنزالُ المطرِ من الظواهر الكونية الدالّة على وحدانيته جلّ وعلا، وعلى فضله وإحسانه، فالمطر ضروري لحياة الإنسان، منه شرابه وغذاؤه، كما قال

---

(١) تفسير القرطبي: ١/ ٢٢٩.

تعالى في **سورة الفرقان**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾.

ولم يستطع الإنسان في كلّ عصوره حتى عصرنا الحاضر أن يستغنيَ عن ماء المطر، رغم ما أُوتي من وسائل التمكين والقوّة، فلم تغنه السدود التي أنشأها، والمياه الجوفية التي استخرجها عن ماء السماء، فلا يزال المطرُ أعظمَ وأهمَّ مصادر المياه العذبة بالنسبة للإنسان، ولا تزال الآيات الكريمة تقرع مسامع البشر بأسلوب التحدّي: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ٣٠].

ويتوقف أيضاً طعام الإنسان على ماء المطر:

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بماء المطرُ.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من ألوان الثمار وأصناف النبات.

﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾: فأنتم أيّها الناسُ المنعَم عليكم، والمطر أنزله الله تعالى من أجلكم، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتستسلموا لأحكام دينه وشريعته:

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ أي: فلا تجعلوا لله تعالى أمثالاً وأكْفَاء ونظراء، فهو سبحانه وحده الخالق المنعم، المستحقُّ للعبادة والطاعة.

والندّ: المثل، ولا يقالُ إلّا للمخالف المماثل في الذات، من: ندّ ندوداً إذا نفر، وناددت الرجل: خالفته، قال حسّان رضي الله عنه:

أتهجوهُ ولستَ لَهُ بِنِدٍّ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[1]

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه سبحانه هو الخالق المنعم، فهو إذاً وحده المستحق للعبادة والطاعة، يتنزّه عن الندّ والضدّ والشريك والولد.

ودلّت الآيةُ أنَّ على الإنسان أن ينظرَ ويفكّر، ويبني إيمانه على الدليل والبرهان، لا على مجرّدِ التقليد الأعمى الذي لا نظر معه ولا استدلال، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا المعنى في آيات السورة.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٧٧.

• **التحــدِّي بالقرآن:**

وكما أنزل الله سبحانه المطر حياة لأبدانكم وغذاء لأجسامكم، أنزل القرآن الكريم حياة لقلوبكم وغذاء لأرواحكم، فهو الكتاب الذي لا ينبغي لأحدٍ أن يرتابَ في صدقه وصحته؛ لأنّه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحمل في كلِّ سورةٍ من سوره مؤيدات صدقه، وأدلّةِ صحته، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: وإن جعلكم العنادُ والجحودُ في رَيْبٍ من القرآن الكريم الذي نزّلناه على عبدنا محمد ﷺ، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: هاتوا مما يماثله مقدارَ سورةٍ من سوره، وهو أمرُ تعجيزٍ وتحدٍّ.

والسورةُ: اسمُ مجموعةٍ من آيات القرآن الكريم مقرون بعضها ببعض بشكل تستقل به عن غيرها، ويربطها موضوع واحد تدور في فلكه.

ولفظُ **السورةِ** لغةً منقولٌ من سور المدينة، لأنّها محيطةٌ بطائفة من القرآن، أو من السورة بمعنى الرتبة والمنزلة الرفيعة، فسور القرآن منازِلُ ومراتِبُ، يترقّى فيها القارئ، أو سُمّيت بذلك لكمالها وتمامها، فلكلّ سورةٍ موضوعها الأساس، ولها أيضاً أسلوبها المميّز، وَجَرْسُها الخاصُّ بها. وفي القرآن الكريم مئة وأربعَ عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر، وفي الألفاظ والمعاني، وفي الأساليب والنظم والجرس، أطولها **سورة البقرة**، وأقصرُها **سورةُ الكوثر**.

ويدلُّ قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ على أنّه جلَّ وعلا تحدّاهم بمقدار سورة الكوثر، وهو أدنى درجات التحدّي، إذ تحدّاهم سبحانه أولاً بأن

يأتوا بمثل القرآن الكريم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطُّور].

ثم تحدّاهم بمقدار عشر سور مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هُود: ١٣].

ثم نزل بهم إلى مقدار سورة من قصار سوره، كما في قوله هنا: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقوله في [يونس: ٣٨]: ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعمُّ كلَّ سورة في القرآن، طويلة كانت أو قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعمّ، كما هي في سياق النفي، عند المحققين من الأصوليين، كما هو مقرر في موضعه، فالإعجازُ حاصِلٌ في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلمُ فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً»(١).

ولا يزال هذا التحدّي قائماً يتردَّدُ صداه في جنبات الدنيا، يدلّ على أنَّ القرآن كتابٌ لا ريبَ فيه، وأنَّه كلامُ اللهِ تعالى، المُنزَّل على سيّدنا محمد رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولِوَصف النبيِّ ﷺ بصفةِ العبوديةِ في هذا الموضع دلالات متنوّعة متكاملة، فهو أولاً **تشريفٌ للنبيِّ ﷺ**، وتقريبٌ بإضافةِ عبوديته لله تعالى؛ دلالةً على أنَّ مقام العبودية لله هو أسمى مقام يُدعى إليه بشر، ويُذْعِنُ به كذلك، وهو ثانياً **تقرير لمعنى العبودية** في مقام دعوة الناس كافّة إلى عبادة ربّهم وحده، واطّراح الأنداد كلها من دونه، فها هو ذا النبيُّ ﷺ في مقام الوحي، وهو أعلى مقام، يدعى بالعبودية لله، ويشرُفُ بهذه النسبة في هذا المقام(٢).

وفي ذكر النبيِّ ﷺ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة، تنبيهٌ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣.
(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٤٨.

على عظيم قدره، واختصاصه به، وانقياده لأوامره، وفي ذلك غاية التشريف والتنويه بقَدرِه ﷺ.

لا تَـدْعُـنِـي إلَّا بِـيَـا عَـبْـدَهـا فَـإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَـائِـي[1]

ولم يقتصر التحدّي على المعارضين المعاندين وحدهم، وإنّما امتدّ إلى كل مَن يؤيدهم، ويشهد معهم، فقال:

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ادعوا إلى المعارضة مَنْ حضَرَكم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنّكم وآلهتكم غير الله ﷻ[2].

فالشهداءُ: جمعُ شهيدٍ، بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر أو الإمام، وكأنّه سُمِّيَ به لأنّه يحضر النوادي، وتبرم بمحضره الأمور، ومنه قيل للمقتول في سبيل الله: شهيد؛ لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه[3].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ من كلام البشر، وأنَّ محمداً ﷺ تقوّله من نفسه!.

- **ترهيب وترغيب:**

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ وعجزتم عن معارضته بمثل سورة من سوره.

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ مع شدَّة حرصكم على معارضته وإطفاء نوره.

و﴿لَن﴾ لنفي المستقبل نفياً مؤبداً، وهو غيبٌ لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وما أكثر أعداء الإسلام، وما أشدّ حرصهم على إطفاء نور القرآن! ومن

---

(١) روح المعاني: ١/ ١٩٣.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٨٠.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه.

المعلوم أنَّ الكافرين بالقرآن أكثر بكثير من المؤمنين به، ولو أنّهم جاؤوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجيّةُ القرآن الكريم، ولكنّهم عجزوا حتى الآن عن معارضته، ولن يتمكَّنوا من ذلك، وفي عجزهم هذا الذي استمرّ حتى الآن أربعة عشر قرناً دليلٌ واضحٌ على أنّه كلام الله تعالى علّام الغيوب.

وقال سيّد قطب رحمه الله: «والتحدّي هنا عجيبٌ، والجزمُ بعدم إمكانه أعجبُ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما مِنْ شكٍّ أنَّ تقرير القرآن الكريم أنّهم لن يفعلوا، وتحقّق هذا كما قرّره، هو بذاته معجزةٌ لا سبيلَ إلى المماراة فيها»(١).

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: فآمنوا به ـ يعني القرآن ـ واتقوا العذابَ المعدّ لمَن كذب به، وأعرض عنه.

﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: حطبُها الناسُ المكذّبون برسالة القرآن الكريم، والأصنامُ المصنوعةُ من الحجارةِ، التي عُبِدت من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

ولا شكَّ أنَّ النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ نارٌ عظيمةٌ هائلةٌ.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: هُيِّئَتْ لهم، وهذا دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ ومهيأةٌ لاستقبال الجاحدين والمعاندين.

ومن أساليب القرآن الكريم التربوية أنّه يقرن الترهيب بالترغيب، فكلّما ذكر سبحانه آياتِ رهبةٍ أتبعها بآياتِ رغبةٍ، لعلّ الذي لا تربّيه الرهبةُ أن تربّيه الرغبةُ، ولهذا قال تعالى في سياق الترهيب الذي مر معنا، وقد أتبعه بالترغيب:

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٤٨.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين أسلموا أنفسَهم لله تعالى، قلباً وقالباً، وعلماً وعملاً.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ في الجنّة، التي هي دارُ النعيمِ والثوابِ.

والجنّة: البستانُ ذو الظلال الكثيفة الممتدّة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار.

وهذا وصف للجنّة بأقصى ما يتصوّره الإنسانُ من الجمال، وإلّا فنعيمُ الجنّة لا يُقاس بشيء من جمال الدنيا وزينتها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

ويكفي لنعلمَ أنّ أنهار الجنّة ليست كأنهار الدنيا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وتختلفُ أيضاً ثمارُ الجنّة عن ثمار الدنيا؛ ولهذا قال تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قال أهلُ الجنّة: هذا مثل الذي رزقنا من قبل في الدنيا؛ لأنّه سبحانه جعلَ ثمرَ الجنّة يشبه ثمر الدنيا في الصورة لتميل النفس إليه أول ما تراه.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: يشبه ثمرُ الجنّة ثمرَ الدنيا بالاسم والصورة فقط.

ويمكن أن يكون المعنى: وأُتوا بثمرِ الجنّة يشبهُ بعضُه بعضاً في الصورة، ولكنّهم يفاجؤون عند تناوله باختلافٍ في طعمه ورائحته، فتكون اللذةُ المفاجئةُ أحلى وقعاً على قلوبهم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من أي عيب ونقص في خَلْقهنّ وخُلُقهنّ.

فنساءُ الجنّةِ كاملاتٌ في جمالهنّ وأخلاقهنّ. وفوق كل هذا النعيم:

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: باقون فيها أبداً، لا يخرجون منها، ولا يموتون، كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

• الأمثال في القرآن الكريم:

ويبدو أنّ المشركين بدل أن يستجيبوا لتحدّي القرآن الكريم، أثاروا بعض الشبهات حول بعض أمثاله، وذكر المفسّرون أنّ بعضهم اعترض على بعض الأمثال الواردة في القرآن الكريم، فأنزل الله تعالى ردّاً على اعتراضهم قوله الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: إنّه سبحانه لا يتركُ ضربَ أيّ مثل إذا كان محكماً مفيداً، فالأمثال القرآنية تقرِّبُ المعاني للناس، وتساعدهم على تعقّلها وفهمها، فهي تدلّ على رحمته سبحانه بعباده، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد ضرب تعالى مثلينِ بالذُّباب والعنكبوت، فقال:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

٢ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ومع أنّ هذين المثلين في غاية الإحكام والبلاغة والفصاحة والإتقان، إلّا أنّ بعض أهل الكتاب من اليهود بسبب جهلهم وعنادهم، اعترضوا عليهما وقالوا: ما هذا من الأمثال، ولهذا قال تعالى في معرض الردّ عليهم:

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: بعوضةً وما هو أعظمُ منها في الجُثّة، أو بعوضة وما دونها وأصغر منها، وهذا القولُ أقربُ إلى المعنى المراد من الآية، وهو أنه تعالى لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الصغير الحقير(١).

والبعوضةُ: واحدةُ البعوضِ، وهو صغارُ البقِّ أو الناموس، وهي حشرات صغيرة مضرّة، لا يمتنع منها الصغيرُ والكبيرُ، وكم امتاحت من أجسام الأحياء الدماء، وزرعت فيها مسبّبات الهلاك والفناء، وقد اكتشف الإنسانُ في العصور المتأخرة وجود عوالم كثيرة لمخلوقات صغيرة، لا تُرَى إلا بواسطة المناظير المكبِّرة، تدلُّ على عظمة صانِعها ومكوِّنها جلّ وعلا، مما يجعلنا نميلُ إلى أنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها في الصغر.

والجدير بالذكر أنَّ النبيَّ ﷺ ضربَ مثلاً بجناح البعوضة للدنيا فقال: «**لو كانتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماءٍ**» [رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حسن صحيح].

• عقول منفتحة وعقول منغلقة:

ثم بيّن تعالى ما يترتب على ضرب المثل من الحِكَم والمواعظ فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: يعلمون أنَّ المثلَ حقٌّ ثابتٌ لا سبيل إلى إنكاره أو الاعتراض عليه؛ لأنه من الله تعالى، وأنّ له حِكَماً وفوائد

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/ ٩٠.

يتفهمونها ويستفيدون منها، ولهذا قال تعالى بعد المثل الذي ضربه بالعنكبوت: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ودلّت الآيةُ على أنّ المؤمنين هم المستفيدون من ضرب الأمثال، فهم أصحابُ الفهمِ والتعقّلِ الذين يتدبّرون آيات الله تعالى، ويتفهّمون ما فيها من حِكَمٍ وأحكامٍ ومواعظَ، فهم أصحابُ العقول المنفتحة، المتطلعة إلى اكتساب المعارف النافعة، والمتشوّفة لإدراك الحقائق المفيدة.

وسجّلت الآيةُ على الكافرين عنادَهم ومكابرتهم، وانغلاق عقولهم عن إدراك الحقائق بقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ﴾ أي: أيُّ شيء أرادَ الله تعالى بهذا المثل؟! يقولون ذلك بأسلوبِ الإنكارِ والاعتراضِ على الله تعالى، مما يدلّ على جحودهم وعنادهم.

ولهذا عدل تعالى في الردِّ عليهم عن قسيم قوله الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: وأمّا الذين كفروا فلا يعلمون، بل بيّن تعالى جهلهم الناشئ عن عنادهم ومكابرتهم فقال:

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ أي: أراد سبحانه بضرب المثل إضلال كثير من الناس، وهداية كثير من الناس.

وبيّنت الآيةُ سببَ إضلالهم، وأنّه نابعٌ من كسبهم واختيارهم، بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته تعالى، والمُعرِضين عن دينه وشرعه.

والفسق: أصلُه في كلام العرب الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها[1].

ومنه: قوله تعالى في إبليس عندما خرج عن أمر ربه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ﴾ الآية [الكهف: ٥٠].

---

(١) تفسير القرطبي: ١/ ٢٤٥.

• من صفات الفاسقين وقبائحهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ أي: يخالفون ويتركون.

وأصلُ **النقضِ**: الفسخُ وفكّ المركَّب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ الآية [النحل: ٩٢].

﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: أمر الله الذي ألزمهم به.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: مِنْ بعدِ عقده وتوكيده وبيانه في كتابه المُنزَل.

وللعلماء أقوالٌ في العهد المُراد:

أولها: العهدُ الذي أخذه سبحانه على أهل الكتاب باتّباع محمّدٍ ﷺ إن أدركوا زَمَنَه.

وثانيها: عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي معرفة الله تعالى وتوحيده، والذي ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وثالثها: العهد المأخوذ على الناس بالعقل، وهو حجَّته سبحانه على عباده الدالّة على توحيده وصدق رسله.

ورابعها: دينه سبحانه وشرعه في كتابه الذي لا ريبَ فيه، المؤيّد بالدلائل والبراهين.

ولعلّ آخرَها هو المرادُ؛ إذ هو أعمّها وأشملها، فأيُّ خروج على دين الله وشريعته يُعدُّ نقضاً للعهد، ويؤكد هذا المعنى صيغة ﴿يَنقُضُونَ﴾ الدالّة على التجدّد والاستمرار، ولا شكَّ أنَّ شأن الفاسقين وديدنهم مخالفة دين الله تعالى، والخروج على أحكام شريعته.

• **تقطيع الروابط الإنسانية:**

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: يقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بصلته وفعله، كصلة الأرحام، والمحافظة على حقوق الجيران وأهل الإيمان.

فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط، إنّما يعيشُ في ظل عقيدة الله وشريعته، التي نظّمت علاقة الناس مع بعضهم، وأقامت بينهم روابط ووشائج لا ينبغي قطعها أو إهمالها.

فمن **صفات المؤمنين** التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

ومن **صفات الكافرين** التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وعندما تتغلّب الأنانيةُ والأَثَرَةُ على الناس ينتشرُ الفسادُ في الأرض، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: ينشرون الفساد في الأرض بسبب خروجهم على دين الله وشريعته، وخضوعهم لأهوائهم ومصالحهم، ممّا يؤدّي إلى الاضطراب والفساد في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وهو الواقع المُشاهَد في المجتمعات البشرية المعاصرة، وصدق الله تعالى في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخسارة الحقيقية التي لا تعوّض، أفسدوا دنياهم وخربوا آخرتهم.

• **ميتتان وحياتان:**

وتساءلت الآياتُ بأسلوبِ التعجُّبِ والإنكار وهي تخاطِبُ الكفّار:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده سبحانه، وكلُّ الأدلّة والبراهين تدلّ عليه؟!.

أو: كيف تعبدون غيرَه وهو وحدَه المستحقُّ للعبادة والطاعة؟!.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ وكنتم عندَ بَدْءِ تكوينكم أجساداً لا حياةَ فيها، فخلق فيكم الحياة، وبثّ فيكم الأرواح.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تنتهي حياتكم وتحين آجالكم المقدّرة لكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يومَ القيامةِ، ويبعثكم من قبوركم.

فدلّت الآيات على أنّ الإنسانَ يميته الله مرَّتين، ويحييه مرتين أيضاً، وهو ما حكاه سبحانه عن الناس يوم القيامة بقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

ثم بيّنت الآياتُ فضل الله تعالى على الإنسانِ، وأنّه تعالى خلقَ للإنسان كلَّ ما يحتاجُ إليه في حياته على الأرض، قبل أن يوجِدَه عليها، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فكلُّ ما في الأرض مخلوق من أجلكم، لمنافعكم ومصالحكم، فالأرضُ هي البيئة المناسبة لحياة الناس ومعيشتهم.

وقد أدرك الناسُ في العصر الحاضر هذه الحقيقة، وأخذوا يستشعرون الخطر الداهم الذي يهدّدُ حياتهم ووجودهم على الأرض، بما يطرأ على

الأرض من تلوّث وخلل، وذلك بسبب سوء استغلال الناس لموارد الأرض الطبيعية، وغلبة الطمع والجشع عليهم، وقيام الحروب المدمّرة بينهم.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد وعمد سبحانه إلى خلق السماء.

مما يدلّ على أنه تعالى خلق الأرض قبل خلق السماء، وهو ما أخبر عنه تعالى أيضاً في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت].

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: خلقهنّ سبع سماوات مستويات، لا خلل فيهنّ ولا نقص.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فخلْقُه سبحانه خلق تامٌّ مُحكَمٌ؛ لأنّه أتى على حسب علمه الكامل جلّ وعلا.

بهذه الآيات الكريمة، التي بيّن سبحانه فيها عمومَ الرسالة الإسلامية، رسالة الكتاب الذي لا ريبَ فيه، والتي عرضَ فيها بعضَ أدلة وجوده ووحدانيته، وتمام مشيئته وكمال علمه، مهّد سبحانه للقضية الثانية، وهي وحدةُ الأصل الإنساني لعامّة البشر، وكرامة الإنسان ومكانته في الشريعة الإسلامية، ومكانته التي أنزله فيها من مخلوقاته جلّ وعلا، وحكمة خلقه ووجوده على الأرض، وكيف جعل وجودَه على الأرض اختباراً وابتلاءً، فشرّفه بالتكليف، وابتلاه بعداوة الشيطان، وجعلَ له حرية واختياراً في الطريق الذي يسلكه. ويظهر لنا من خلال كل هذا مدى التناسق والاحتباك بين آيات السورة، فكل آيةٍ تتّصل بما قبلها، وتمهّدُ لما يأتي بعدها.

• مكان الإنسان ومكانته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أخبر سبحانه الملائكةَ بما

سبق به علمُه، وتعلّقت به إرادتُه، أنه سيجعل في الأرض مخلوقاً جديداً، يستخلفه فيها، وبهذا بيّن تعالى مكانَ هذا المخلوق الجديد ومكانته.

فمكانُ هذا المخلوق الجديد في الأرض، وأشارت كلمةُ ﴿جَاعِلٌ﴾ إلى أنّ ابتداء خلقه وتكوينه لم يكن في الأرض، ولكن مآله بعدَ خلقه إلى الأرض.

ودلَّ ظاهرُ الحديث الشريف الصحيح الآتي أنَّ خلقَ الإنسان الأول تمّ في الجنّة، فعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لمّا صَوَّرَ اللهُ آدمَ في الجنةِ تركه ما شاءَ اللهُ أن يتركَهُ، فجعلَ إبليسُ يُطيفُ به، ينظرُ ما هُوَ، فلمّا رآه أجوفَ عرفَ أنّه خُلِقَ خَلْقاً لا يتمالَكُ**» [رواه مسلم (٢٦١١)].

ويؤكد هذا المعنى أنّه تعالى أسكنه بعد أن أتمّ خلقَه في الجنّة، ثمَّ أهبطه منها إلى الأرض ـ كما سيأتي معنا ـ ولا شك أن بنيةَ الإنسانِ الجسدية المادية، خلقَها الله تعالى من تراب الأرض، كما صرّحت بذلك آياتٌ كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ الآية [الحج: ٥].

فالبنية المادية للإنسان من ترابِ هذه الأرض، وهي موطنُ حياته ومعيشته الأولى.

ودلّت كلمةُ ﴿خَلِيفَةً﴾ على مكانة الإنسان، **فللإنسان مكانةُ الخلافة في الأرض**، وقد تفضّل الله تعالى عليه بهذه المكانة؛ تشريفاً له وتكريماً، لا لحاجته جلّ وعلا إلى مَن يخلفُه في الأرض، وينوبُ عنه، وهو معنى الكلمة اللغوي، فاستخلافه سبحانه للإنسان محضُ تكريم له، تفضّلَ به عليه، ألا ترى كيف نوّه سبحانه بتكريم نبيّه داود عليه السلام، في قوله له: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [صَ: ٢٦].

ولكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ معنى آخر ذكره ابن كثير رحمه الله فقال: أي: قوماً يخلفُ بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٦].

ودلّت الآية على أن عالم الملائكة أسبق في الخلق والوجود من عالم الإنسان.

- **استفهام واستعلام:**

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكة.

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ وقولهم هذا لمحضِ الاستفهام والاستعلام، لا للاعتراض على الله سبحانه، إذ الاعتراضُ على الحقِّ تعالى سوءُ أدب، لا يصدر مثْلُه عن الملائكة، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، كأنّهم قالوا: يا ربّنا ما الحكمةُ في خلق هؤلاء، مع أنَّ منهم مَن يُفْسِدُ في الأرض ويسفك الدماء؟[1].

ويكون **الإفساد في الأرض** بعبادة غير الله تعالى، والخروجِ على طاعته وأحكام شريعته ـ كما مرّ معنا ـ وأما **سفك الدماء** فيكونُ نتيجةَ التنازع والاقتتال، والسفك: الصبّ والإراقة، ولا يستعمل إلّا في الدم، أو فيه وفي الدمع[2].

وبعد أن وصفوا الإنسان بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، قالوا على سبيل المقارنة:

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ أي: ونحنُ ننزّهك عن كلِّ ما لا يليقُ بك، مع إقرارنا بكمالك وإحسانك وإنعامك، ونقدّسك تقديساً يليق بجلالك وعلوّك وعزّتك.

فالتسبيحُ: نفي ما لا يليقُ به تعالى.

والتقديسُ: إثباتُ ما يليقُ به[3].

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٩.

(٢) انظر: روح المعاني: ١/ ٢٢١.

(٣) انظر: تنوير الأذهان: ١/ ٤٨.

وقد يكون معنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ونطهِّر أنفسنا لك[١]، بمعنى: أننا لا نعبدُ سواك، ولا نتوجّه إلّا إليك، وينسجمُ هذا المعنى مع الأصل اللغوي لكلمة (نقدِّس)، فالتقديس معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوا۟ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١] أي: المطهّرة.

وقال ﷻ: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي: الطاهر[٢].

ولا بدَّ أن **نتساءل** كما تساءل علماء التفسير: كيف عَلِمَ الملائكةُ ما سيكونُ من أمر هذا المخلوق الجديد، وأنه سيفسدُ في الأرض ويسفك الدماء؟.

أجاب ابن كثير على هذا التساؤل بقوله: كأنّهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنّه أخبرهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٨]، أو فهموا من الخليفة، أنه الذي يفصِلُ بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم[٣].

وذكر بعض المفسّرين **جواباً آخر**، وهو أنّ الملائكةَ قاسوا المخلوق الجديد على الجنّ، الذين خلقهم سبحانه قبل خلق الإنس، وأسكنهم في الأرض، فأفسدوا فيها واقتتلوا، وسفك بعضُهم دماءَ بعضٍ، فبعث الله إليهم إبليسَ في جندٍ من الملائكة، فقتلهم، وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال[٤].

ولعلّ القول الثاني الذي ذكره ابن كثير أقواها؛ إذ يعضدُهُ ما مرَّ معنا في الحديث الشريف السابق، فما دام إبليس قد عرف طبيعة هذا المخلوق ونقاطَ الضعف فيه، عندما أخذَ يطيفُ فيه، ويتأمل بُنْيته المادية، لا بدّ أن يكون الملائكةُ أيضاً عرفوا عن هذا المخلوق مثلما عرف إبليس عنه.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أعلمُ من الحِكَمِ في خلق آدم وذرّيته ما

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٩٩.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٢٧٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٤٩.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٢٧٤.

لا تعلمون، ففيهم الأنبياء والصديقون والعلماء والصالحون، والذين يجاهدون في سبيلي، ويبذلون أرواحهم وحياتهم لإعلاء كلمتي.

• قابلية الإنسان للتعلُّم:

ثم أظهر الله تعالى للملائكةِ فضلَ الإنسانِ وشرفَه، بأسلوب واقعي عملي، وأخبر تعالى عن ذلك بقوله:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: علّمه سبحانه أسماء الأشياء كلها؛ لأنَّ الأسماء لا تطلقُ إلّا على المسمّيات.

قال ابن كثير رحمه الله: «والصحيحُ أنه علّمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، ولهذا قال البخاري [٤٤٧٦] في تفسير هذه الآية: **عن أنس** رضي الله عنه: عن النبيِّ ﷺ قال: «**يجتمعُ المؤمنون يومَ القيامةِ، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربِّنا، فيأتون آدمَ فيقولونَ: أنتَ أبو الناس، خلقَكَ اللهُ بيده، وأسجدَ لكَ ملائكته، وعلّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، فاشفعْ لنا عندَ ربِّكَ، حتى يُريحنا من مكاننا هذا...**»، فدلّ هذا على أنه علّمه أسماءَ جميعِ المخلوقات»[١].

وقال العلّامة البيضاوي رحمه الله: «ألهمه معرفةَ ذواتِ الأشياء وخواصِّها وأسمائها، وأصول العلوم، وقوانين الصناعات، وكيفية آلاتها»[٢].

ويفيدُ هذا الكلامُ أنّ آدمَ عليه السلام علّمه الله تعالى كلَّ العلوم التي سيهتدي إليها أبناؤه وذريّته من بعده.

وقد يقول قائل: ما دام ربُّنا سبحانه هو الذي علّمه كلَّ هذه العلوم، فأيّ فضل وشرف لآدم في هذا؟.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥١.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ١٠٢.

فأقول: إنَّ فضل آدم عليه السلام يظهر في قابليته للتعلّم، وفي استيعابه لكلِّ هذه العلوم، وهذا أعظمُ ما يتميّزُ به الإنسان عن الحيوان، وهي خصوصية من أجلِّ الخصائص التي أنعم الله بها على الإنسان؛ إذ جعله قابلاً للتعلّم، وهداه إلى الوسائل التي يستعينُ بها على اكتساب العلوم والمعارف، كما قال تعالى في أوّل آيات التنزيل الحكيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات التي علّم آدم أسماءها على الملائكة.

ولا ينبغي الخوض في تفصيل كيفية العرض، يكفينا أن نقول: عرضها تعالى على الملائكة كما أخبرنا، وقد توصل الإنسان المعاصر إلى وسائل متعددة لعرض الأشياء، سواء كانت حاضرة بذواتها أم كانت غائبة بعرض صورها.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمِكُم أنّي أستخلفُ في الأرض مفسدين سفّاكين للدماء، وفيه ردٌّ عليهم، وبيانُ أنَّ فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية، التي هي أصولُ الفوائد كلّها، ما يستأهلون لأجلِه أن يُستخلفوا(١).

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تتنزّه عن أن يخفى عليك شيءٌ، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك وتقديرك.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وهو اعترافٌ بعجزهم وقصورهم، وفضلِه سبحانه عليهم، ودلّ اعترافُهم هذا على أنَّ سؤالهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً.

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٠٢.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي وَسِعَ علمُه كلَّ شيءٍ، ما كان، وما هو كائنٌ، وما سيكون.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ ولا يأمرُ إلّا بما فيه حكمة بالغة.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: أعلمهم بأسماءِ هذه الأشياء، التي عرضها سبحانه على الملائكةِ.

وفعل آدمُ عليه السلام ما أُمرَ به، وأظهرَ اللهُ بذلك ميزةَ هذا المخلوق، التي خصّه تعالى بها بالنسبة للمخلوقاتِ الأرضيةِ، وهي قابليتُه للتعلُّمِ واستيعابُ العلوم.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه وحده المتّصف بالعلم الكامل، فلا غيبَ بالنسبة لعلمه، وإنّما الغيبُ بالنسبة لعلم المخلوقِ المحدودِ، فإنّه مهما تعلّمَ يبقى علمُه محدوداً، ويبقى محتاجاً إلى مصدر علوي، يعلّمه ما غاب عنه من العلوم.

ولهذا لا بدّ للإنسان أن يؤمنَ ويصدّقَ بكل ما أخبر عنه الحق سبحانه، في الكتابِ الذي لا ريبَ فيه، وعلى لسانِ النبي ﷺ الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحى، وهذا الإيمانُ هو الصفة الأساس الأولى للمتقين، التي ذكرتْها الآياتُ في أول السورة، عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [٢] فارجع إليها لتعرفَ سرَّ الاتّساقِ والاحتباكِ بين الآيات.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: وأعلمُ ما تظهرونَ وما كنتم تسرّون، فالخواطر والهواجس في القلوب، يعلمُها الحقُّ سبحانه علّام الغيوب.

والآيات هنا تركِّزُ في عرضها لقصةِ بَدْءِ خلق الإنسان على بيانِ كمالِ علم الله تعالى، وعلى محدوديةِ علم المخلوق، ولو كان من الملائكةِ، لتبيّنَ حاجة الإنسان إلى الإيمان بالغيب، الذي غابَ عنه، وقام الدليل على وجوده بالخبر

الصادق من عالِم الغيب والشهادة جلّ وعلا، وهو مظهرٌ عملي لإسلام الإنسان المؤمن بالغيب لله تعالى، وانقياده لأمره وشرعه(١).

• **سجود التحية والتكريم:**

ثم أمر الله تعالى الملائكةَ بالسجود لآدم سجودَ تحيةٍ وتكريم، بعد أن أظهرَ لهم كرامته وشرفه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ اعترافاً بفضله وأداء لحقه.

والسجودُ في اللغة: التذلّل والخضوع، مع التطامُنِ.

وفي الشرع: وضعُ الجبهةِ على الأرض بقصد العبادة.

والسجود الذي أُمرت به الملائكة سجود تحية وتكريم، لا سجودَ عبادةٍ(٢)، كسجود إخوة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الآية [يوسف: ١٠٠]، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وقد حرّمه الإسلام؛ لقوله ﷺ: «**لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِهَا**» [رواه الترمذي (١١٥٩) وقال: حسن صحيح].

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ أي: الملائكة، امتثالاً لأمر الله تعالى وخضوعاً له، كما قال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: امتنع عن السجود لآدم استكباراً؛ إذ كان يرى

---

(١) لقد عُرِضَتْ قصةُ بَدْءِ خلق الإنسان في عدّة مواضع من القرآن الكريم، وتبرز الآياتُ في كلِّ موضعٍ الجانبَ الذي يتّصل بسياقها وسباقها، وقد بيّنتُ هذا عندما تحدثت عن موضوع كلٍّ من سورة الأعراف والحجر وطه، فارجع إليها لتتبيَّنَ لك حكمةُ تكرير بعض قصص القرآن الكريم بأسلوب واقعي واضح.

(٢) **قلت:** هو سجود عبادة لله إذ هو الآمر بالسجود، وسجود تكريم لآدم عليه السلام (الناشر).

نفسه أفضل من آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهذا دليلٌ على أنّه لم يكن من الملائكةِ؛ إذ الملائكة خلقهم الله مِنْ نورٍ، كما في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نُوْرٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِنْ مَارِجٍ من نَارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممّا وُصِفَ لكم**» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

وشمله الأمر الإلٰهي بالسجود مع الملائكة؛ لأنه كان يعيش بينهم، بسبب كثرة عبادته لله تعالى.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وصار من الكافرين؛ لأنّه رفضَ الإذعانَ لأمر الله تعالى وتكبّر.

ومن رحمته تعالى بالإنسان وعنايته به، أن قدّر له قبلَ هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها، أن يمرّ بتجربةٍ يتزوَّدُ فيها بذخيرةٍ من العِبَر والدروس والمواعظ، يمكن أن ينتفعَ بها في حياته الدنيوية الأرضية، ويظهر له من خلالها بشكل عملي شدّة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله، وإبعاده عن عبادة ربّه وطاعته، كما تسبّب في إبعاده عن جنّته، فأسكنه تعالى أولاً الجنّة مع زوجته.

- **الإهباط إلى الأرض:**

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أسكنهما الله فيها، وأباحَ لهما أن يتمتعا بكلِّ ما فيها من طعامٍ وشرابٍ.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: كُلا منها أكلاً واسعاً من أيِّ مكان فيها، دون جهدٍ وتعبٍ. **فالرغد**: العيشُ الطيّبُ الهنيء، الذي لا عناء فيه.

وحذّرهما سبحانه من الاقتراب من شجرة معينة، حظر عليهما أن يأكلا منها، فقال:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تَدْنُوَا من هذه الشجرة، نهاهما تعالى عن الاقتراب منها حتى لا يقعا في المحظور المحرَّم عليهما، وهو الأكلُ منها.

ولهذا قال النبيّ ﷺ: «**إنَّ الحلالَ بيّنٌ، وإنَّ الحرامَ بيّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فمَن اتقى الشبهاتِ استبرأَ لدينِهِ وعرضِهِ، ومَنْ وقعَ في الشبهاتِ وقعَ في الحرامِ، كالرّاعي يرعى حولَ الحِمَى، يوشِكُ أن يرتعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملكٍ حمًى، ألا وإنّ حِمَى اللهِ محارِمُه، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مضغةٌ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له].

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسكما بمخالفة أمره سبحانه ومعصيته.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: جعلهما الشيطان يقعان في الزلّة، بسبب الأكل من الشجرة.

والزلّة: الخطيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وفي قراءة: (**أزالهما**) أي: صرفهما عمّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

وتمكّنَ الخبيثُ من تزيين المعصية لهما، بوسوسته التي ألقاها إليهما من خارج الجنة، وأتاهما من أكبر نقاط الضعف عند الإنسان، وهي حبّ السيطرة والقوة والبقاء، وقد فصّل الله تعالى ذلك في **سورة الأعراف**، فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبهذا تمكّن من التغرير بهما وخداعهما، حتى وقعا في المحظور، كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢][١].

﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ من النعيم والعيش الكريم في الجنّة.

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ أي: انزلوا إلى الأرض، والخطاب لآدم وحوّاء.

وخوطبا بصيغة الجمع لأنّهما أصل العنصر البشري كله[٢]، ودلّ عليه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ الآية [طه: ١٢٣].

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ أي: متعادين، يبغي بعضكم على بعض في الأرض.

وهو إخبارٌ من الله تعالى عمّا يقعُ بين البشر من عداوة واختلاف وصراع.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ أي: لكم في الأرض موضعُ قرارٍ يلائمكم ويناسبكم، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي: ولكم فيها متاع، بما خلق تعالى لكم فيها من أرزاق.

﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى أن تحينَ آجالُكُم، التي تنتهي بها حياتكم.

هكذا بيّن الله تعالى للإنسان الأول، السمات الكبرى لحياته على الأرض، عندما أهبطه إليها، فالصراعُ فيما بينهم، وبينهم وبين الشيطان أبرزُ هذه السمات، وهو من أهم أسباب الابتلاء والاختبار في حياة الإنسان على هذه الأرض.

- **التوبة والتكليف والمسؤولية:**

ومن رحمته تعالى بالإنسان أن فتحَ له باب التوبة والإنابة، ومكّنه من

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١٠٨/١.

الرجوع عن المعصية بتركها، والندم على فعلها، والاستغفار، وكانت توبةُ آدم عليه السلام أولَ توبةٍ بشرية رُفعت إلى الله تعالى؛ إذ فتح الله تعالى له باب التوبة، وعلّمه كيف يتوبُ إليه ويستغفره، وأوحى إليه بالكلمات التي يعلن فيها توبته، ويرجو بها مغفرة ربّه، فما أعظم رحمته سبحانه بالإنسان!.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ استقبلها عليه السلام بلهفة وشوق، بعد أن أحسَّ بشؤم المعصية وآثارها السيئة، وكان أول آثارها أنَّ الله نزعَ عنهما لباسَ أهل الجنّة، وكرامةَ أهلها، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

وبادر عليه السلام هو وزوجه إلى إعلان توبتهما وندمهما، والإقرار بخطئهما، بالكلمات التي أوحاها لهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ أي: قَبِل سبحانه توبته.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنه هو الذي يقبلُ التوبةَ عن عباده، كلّما تابوا واستغفروا، مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم، الرحيمُ بهم، والمُحسِنُ المتفضّل عليهم، جلّ وعلا.

وأصلُ **التوبةِ** الرجوعُ، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أُريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة(١).

ثم كرّر تعالى أمره بالهبوط إلى الأرض، ولكنّه جاء في المرة الثانية مقروناً بالتكليف فقال تعالى:

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ١١٠.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ أي: اهبطوا إلى الأرض مجتمعين.

ثم بيّن سبحانه لهم أن حياتهم على الأرض لن تكون عابثةً فارغةً عن المسؤولية والتكليف، بل سيكلّفون بعقيدة وشريعة، ويكونون مسؤولين عنهما:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: إن جاءكم منّي هدى رسولٍ أرسلُه إليكم، وكتابٍ أنزله عليكم.

وأفادَ الإخبارُ بصيغة الشك وعدم الجزم، أنَّ إرسالَ الرُّسل وإنزالَ الكتب غيرُ واجبٍ على الله تعالى، وإنّما هو بمحضِ رحمته وإحسانِهِ وفضلِهِ على الناس.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: تمسك به واستسلم له بإذعان وانقياد.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت وفي يوم القيامة.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا بعد مفارقتها.

وأما المُعرِضون عن دين الله تعالى وشريعته، والجاحدون المعاندون لها:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.



الفصل الثاني

التوراة وبنو إسرائيل

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ
فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي
فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ
مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ
أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ
فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ
ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ
ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ
أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ
عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ
فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا
وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ
ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا
تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ
أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ
وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ
ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ
عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ
ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ
يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ
بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا
يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

• **يَا بَني إِسرائيل!:**

عادت الآيات إلى قاعدة هرم الكفر والجحود، إلى كفّار أهل الكتاب، واستهلّت حديثها عنهم بدعوتهم إلى الإسلام لله تعالى، والإذعان لرسالة الكتاب الذي لا ريب فيه، ولمّا كان اليهودُ أشدَّ أهل الكتاب معارضةً لدعوة النبي ﷺ، توجّهت الآيات تخاطبهم بنداءِ الله تعالى لهم:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يا أبناء يعقوب، وهو نبيُّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وإسرائيل لقبُه، ومعناه في لغة اليهودِ: صفوةُ اللهِ، أو عبدُ الله، فإسرا: هو العبدُ، وإيل: هو الله[(١)].

خاطبهم الله تعالى بالخطاب الذي يحبّونه ويعتزّون به، وهو انتسابهم العرقي إلى إسرائيل[(٢)].

وفي هذا إشارة إلى أنَّ على الداعية أن يدعو الناسَ إلى الإسلام بما يحبّون، كي يقرّبهم إلى الدعوة، ويحبّبهم بها، ولا ينفّرهم عنها.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمه التي أنعم بها عليهم على وجه الإجمال فقال:

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: اشكروا نعمتي، وعبّر عن الشكر بالذكر، لأن مَنْ ذكرَ النعمةَ فقد شكرها، ومَن جحدَها فقد كفرها[(٣)].

ويستدعي شكر المنعم الوفاء بعهده:

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ الذي أخذته عليكم، بطاعتي، وامتثال أمري، فثمّةَ عهودٌ

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١١٢.

(٢) وهو نفسه الاسم الذي أطلقوه على دولتهم الغاصبة التي تمكنوا في عصرنا الحاضر من إقامتها في أرض فلسطين بدعم أعمى من الغرب الحاقد، وتخاذل العالم العربي المخزي.

(٣) تفسير الخازن: ١/ ١١٢.

مخصوصة بهم، أخذها الله تعالى عليهم، سيأتي تفصيلها، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ الآية [البقرة: ٦٣].

وعند قوله أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] وغيرها من الآيات.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي عاهدتكم عليه، وهو التوفيق والنصر في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: خافوني واحذروا غضبي وعذابي، **فالرهبة**: الخوف مع الحذر.

هكذا جمع الله تعالى في آية الخطاب الأول لبني إسرائيل بين الوعد والوعيد، وبيّن لهم وجوبَ الشكرِ والوفاءِ بالعهدِ، وألّا يخافوا أحداً غيره سبحانه، وأن يكونوا على حذر من غضبه وانتقامه.

ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة القرآن الكريم فقال:

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: يصدّق التوراة، ويشهد أنها منزلة على موسى ﵇، وأنَّ كل ما أنزل الله فيها حقٌّ وصدق.

فدعوة القرآن الكريم توافِقُ دعوةَ التوراة، فكلاهما يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته، والاستسلام لأمره وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فبنو إسرائيل أولى بالمسارعة إلى الإسلام من غيرهم، فعندهم من الدلائل التي تدلّ على صدق النبيِّ ﷺ، وصحة رسالته، ما لا يوجدُ عند غيرهم من الأمم، ولهذا قال تعالى لهم بأسلوب التعريض:

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن الكريم، بل الواجب أن تكونوا أول مَن آمن به.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا بآيات الله تعالى عوضاً يسيراً، وهو الدنيا وما فيها من شهوات، وهو ـ مهما كان ـ عوضٌ يسير وقليل بالنسبة لما عند الله تعالى في دار النعيم.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض كبير بهم، وبيان سبب كفرهم برسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه، ولعلّ الآية بدأت بالتعريض قبل التصريح، كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، لكسب المدعوين وعدم تنفيرهم.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اتقوا الله وحده بطاعته والاستسلام لحكمه وأمره.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا تخلطوا الحقَّ بالباطل.

وهذه الصفةُ من أبرز صفاتِ بني إسرائيل قديماً وحديثاً، فشأنهم الخداعُ والتزويرُ والغشُّ، يخلطون الحق بركامٍ من الباطل، حتى يضيعَ ويذوبَ فيه.

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ بإخفائه، وطمس معالمه، والمرادُ ما يتعلّق بصفات النبي ﷺ وأسمائه، التي صرّح بها أنبياؤهم، و ذكرها تعالى في الكتب التي نزلت عليهم، والتي أخذ الله تعالى عليهم العهد ببيانها للناس، وإظهارها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فكتمانُ الحقِّ جريمةٌ كبرى، سيأتي معنا شدّة الوعيد عليها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وأنتم عالمون بفظاعة وقبح ما تفعلون.

إنها مواجهة كبيرة وصريحة، واجههم الله تعالى بها مواجهة القاضي للمجرم بجريمته، التي ضُبط متلبساً بها، بحيث لا يستطيعُ إنكارها، ولا يمكنه أن يتملّص من مسؤوليتها.

- **الأمر بالمعروف وفعله:**

وبعد أن دعاهم إلى الإيمان، وحذّرهم من الكفر وكتمان الحق، دعاهم أيضاً إلى الانقياد لأحكام الإسلام وشرعه، وأداء أركانه الأساسية الكبرى التي سبق ذكرها في الصفات الأساسية للمتّقين في أول آيات السورة [١ ـ ٦]، فقال تعالى:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: صلّوا مع المصلّين من أُمة محمد ﷺ، فالإسلامُ دينُ المساواةِ، والناسُ أمامَ شرعِ الله سواء، لا امتيازَ لأحدٍ على أحد، كما يزعمُ اليهود لأنفسهم.

وأُريد بالأمر بالركوع الصلاة كلها، إذ يطلق الجزءُ ويرادُ به الكل، وقيل: إنما خصّ الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع(١).

والركوع: هو الانحناء حتى تصل اليدان إلى الركبتين، وهو ركن من أركان الصلاة، لا تصحّ دونه.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٤٥.

ثم اتجه الخطابُ إلى توبيخ أحبارهم ورجال دينهم، الذين يخالف قولُهم فعلَهم، بأسلوب التقرير والتعجب من حالهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أي: بفعل الخير والطاعة والعمل الصالح.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم، فلا تفعلون البرّ الذي تأمرون الناس به، فقد كانوا يأمرون الناس بالصدقة ولا يتصدقون.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وأنتم تتلون التوراة، فأنتم أولى بالمبادرة إلى فعل البرّ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح وشناعة ما تفعلون، وهو مخالفة أفعالِكم لأقوالِكُم.

فالآيةُ تذمّهم على ترك البرّ لا على الأمر به، فإنّ الأمرَ بالمعروف معروفٌ، وهو واجبٌ على العالِم، ولكن الواجب والأولى بالعالِم أن يفعله مع مَنْ أمرهم به، ولا يتخلّف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فكل من الأمر بالمعروف وفعلِه واجبٌ، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصحّ قولي العلماء من الخلف والسلف[١].

قال القرطبي رحمه الله: «اعلم وفّقك الله تعالى أنّ التوبيخَ في الآية بسبب ترك فعل البرّ، لا بسبب الأمر به، ولهذا ذمّ الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البرّ، ولا يعملون بها، ووبّخهم به توبيخاً يُتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ الآية. . .

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرتُ مجلسَ أبي عثمان الحيري الزاهد، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٩.

سكوته، فناداه رجل كان يُعرَف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟ فأنشأ يقول:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى طَبِيْبٌ يُدَاوِي والطَّبِيْبُ مَرِيْضُ

قال: فارتفعتِ الأصواتُ بالبكاءِ والضجيج»[1].

● **وسائل في التربية والتهذيب:**

ولمّا كانت نفوسُهم قد أدمنت على الشهوات، وأَلِفَت اتّباعَ الأهواء والنزوات، بيّن لهم تعالى الوسائلَ الناجعةَ لتهذيب نفوسهم، وتخليصها من آثامها ومعاصيها، فقال تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: استعينوا على تربية نفوسكم وتهذيبها بالصبر، وهو حبس النفس عن الشهوات المحرّمة.

ومعنى **الصبر** في اللغة: الحبس، يقال: قُتِل فلاناً صبراً، أي: قُتِل وهو محبوس مقيّد، وصبّرت نفسي على الشيء، أي: حبستها.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي: واستعينوا أيضاً بالصلاة، لأنّ الصلاةَ تمدُّ الإنسانَ بقوة روحية تساعده على القيام بالتكاليف والأعباء الشاقّة، وقد تكرَّر مثل هذا في هذه السورة عند قوله تعالى الذي سيأتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقـرَة: ١٥٣].

وقد «**كانَ النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى**» [رواه أبو داود (١٣١٩)].

ومن بواكير الآيات التي نزلت على النبيّ ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المـزّمل].

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

ونادتِ الملائكةُ السيدةَ مريم، وهي في محراب عبادتها، تأمرُها بمضاعفة صلاتها، استعداداً للمهمّة الثقيلة التي اختيرت لها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران].

ومن رحمته تعالى بنا تكليفنا بالصلاة، فهي تساعدنا على طاعته، والتزام أحكام شريعته.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي: وإنّ الصلاةَ لثقيلةٌ شاقّة، إلّا على الخاشعين، الذين يخافون الله تعالى، وتهتزّ قلوبُهم من خشيته، وهم يناجونه في صلاتهم.

والخشوع من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح والتواضع.

ودلّت الآية على أهمية الخشوع في الصلاة، فهو روحُ الصلاةِ، لأنه يروّض النفس ويهذبها، ويجعلها تتذوقُ لذّة مناجاة الله تعالى وذكره، فتُقبِل على الصلاة بهمّة ونشاط، وشوق إلى حلاوتها ولذّتها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**حُبِّبَ إِلي النساءُ والطِّيْبُ، وجُعِلَتْ قرةُ عيني في الصلاةِ**» [رواه النسائي (٣٩٤٠)].

فشأن الصلاة عظيم، ومَن عَرَفَ ما يَطْلُبُ هانَ عليه ما يَبْذُلُ.

- **من صفات الخاشعين:**

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: الذين يستيقنون لقاء الله تعالى ويرجون ثوابه يوم القيامة، فيكون نشاطهم إلى الصلاة وخشوعهم فيها على حسب ذلك.

وأمّا الذين لا يؤمنون بالجزاء، ولا يرجون الثواب، فإنهم يستثقلون التكاليف الشرعية، ولا يقومون بها، وإذا قاموا إليها قاموا متثاقلين، كما قال

تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وعادت الآياتُ إلى تذكير بني إسرائيل بنِعَم الله تعالى عليهم، مما يدلّ على كثرة هذه النِّعَم كما سيأتي، وشدّة جحودهم لها، فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

(فَضَّلْتُكُم): بالنِّعَم التي أنعمتُ بها عليكم دون غيركم من الناس.

كما جاء في قول موسى عليه السلام لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وذلك في الزمن الذي أنعم الله تعالى عليهم بهذه النِّعَم.

ولما قابلوا نِعَم الله تعالى عليهم بالجحود والعناد، نزع الله تعالى عنهم هذه النِّعَم، وغضب عليهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

واختار سبحانه للنبوّة والرسالة أمة غيرهم، وهي الأمة المسلمة المستسلمة لأمر الله وحكمه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة.

﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لأن المسؤولية فيه ـ يوم القيامة ـ مسؤولية شخصية، فلا تزر نفس وزر أُخرى، ولا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء، لأنّ الحساب والجزاء على حسب العمل، لا على النسب.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ ما دامت كافرةً بالله تعالى، جاحدةً لدينه وشريعته، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية، لأنها عادة تكون معادلة للمفدى، وهذا إن قدرت على الفدية يوم القيامة، والحقيقة أنها لا تقدر على فدية.

والمراد تعظيم وتهويل شأن هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يمنعون من العذاب، فالخطب يوم القيامة شديدٌ، إذ ليس فيه شفاعة ولا فدية ولا نصرة، إلّا لمن أذن الله له بالشفاعة، وهي للمؤمنين، ولا ينتفع بها الكافرون.

- **النجاة من الظالمين وإهلاكهم:**

وجاء بعد التذكير الإجمالي بالنِّعَم، التفصيل لها، مع بيان مواقف بني إسرائيل منها.

وقد فصل الله تعالى قصة نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون في عدد من السور الكريمة، واكتفت الآياتُ هنا بتذكير بني إسرائيل بهذه النعمة الكبيرة:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اذكروا إذ نجّيناكم من ظلم فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ينزلون بكم أشدّ العذاب وأسوأه.

ومن صور هذا العذاب:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الذكور صغاراً.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يتركونهنّ أحياء لكي يخدمنَ في قصور فرعون وحاشيته.

وتذكر بعض الروايات أنّ فرعون أمر بذلك بسبب رؤيا رآها، عبّرها له الكهنة والمعبّرون بأنّ هلاكه سيكون على يدِ غلامٍ يُوْلَدُ في بني إسرائيل.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: وفي نجاتكم من هذا الظلم نعمة عظيمة، ويختبركم الله تعالى بها، هل تشكرونه عليها أم تكفرون وتجحدون فضله سبحانه عليكم؟.

ويمكن أن يكون المعنى: وفي ظلم آل فرعون لكم اختبار عظيم من الله تعالى، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة، وعلى المحنة الشديدة، ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر، وعلى الشدّة بالصبر[(١)].

ولكن المعنى الأول أليق بسياق التذكير بالنِّعَم، ومواقف بني إسرائيل منها، فهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم].

ومن نعمة الله تعالى على بني إسرائيل أيضاً: أنّه أهلك عدوّهم فرعون وجنوده أمامهم، إذ أغرقهم الله تعالى في البحر، وهم ينظرون إليهم، وذلك أشفى لصدورهم وأذهب لغيظ قلوبهم، قال سبحانه في معرض الامتنان عليهم:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: اذكروا عندما فلقنا البحر، وفصلنا بعضه عن بعض لأجلكم، لتسلكوا طريق النجاة بين أمواجه العاتية، التي أمسكتها قدرةُ الله تعالى.

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ١٢٢.

وهي معجزةٌ عظيمةٌ جليلة، أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام، وشاهدَها بنو إسرائيل بأُمّ أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه].

وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشُّعَراء].

﴿فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أغرقنا فرعون وجنوده.

واقتصرت الآية على ذكر آل فرعون، لأنهم إذا أغرقوا، وهم رؤوس الضلال والعناد، فغيرهم أولى بذلك.

وقد صرّح سبحانه بغرق فرعون وجنوده في **سورة الإسراء**، فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وقال أيضاً في **سورة القصص**: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وهذا يدحض قولَ مَنْ يقولُ بنجاة فرعون، **فهو قول باطل**، يصادِمُ صريح الآيات القرآنية الكريمة، ولا متمسك لهم بقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]؛ لأن المراد: ننجي بدنك بعد موتك وغرقك، ونلقيه على ساحل البحر، ليراك الناسُ هالكاً صريعاً[١].

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى فرعون وجنوده، وهم في لجّةِ البحرِ يغرقون.

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

• **عبادة العجل الذهبي:**

ويلاحظ أنّ الآيات كلّما ذكّرتهم ببعض نِعَم الله عليهم، ذكّرتهم بعدها ببعض مواقف عنادهم وجحودهم، ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وفي قراءة: **(وَعَدْنا)** أي: اذكروا إذ وعدنا موسى بعد تمام أربعين ليلة، ليأتيَ إلى موضع المناجاة عند جبل الطور، لإنزال التوراة عليه.

وقد وعده تعالى أولاً ثلاثين يوماً يهيِّئُ نفسَه في أثنائها لمناجاة الله تعالى، ثم أمره أن يزيدها عشراً، قال تعالى: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: اتخذتم العجل الذهبي إلٰهاً عبدتموه من دون الله تعالى في غياب موسى.

وقد فصّلت الآيات في غير هذا الموضع قصة عبادتهم العجل، بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طٰه][1].

---

(١) انظر تفصيل قصة العجل في: تفسير سورة طه (سبيل السعادة في سورة طه)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

وعبادة بني إسرائيل للعجل من أقبح وأشنع جرائمهم ومواقف عنادهم وجحودهم، ولهذا تكرر ذكر الآيات لها في عدَّة مواضع كما سيأتي.

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسكم بعبادة غير الله تعالى.

فالشرك بالله تعالى أعظم أنواع الظلم، وأيّ ظلم أعظمُ من هذا الظلم؟! فبعد أن نجّاهم الله تعالى من ظلم فرعون، وأراهم مصرعه بأُمِّ أعينهم، أعرضوا عن عبادته تعالى وشكره، وعبدوا عجلاً مصنوعاً من ذهب، في غياب نبيّهم موسى عليه السلام، ومع ذلك فتح الله تعالى لهم باب التوبة والمغفرة، فقال:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

والعفو: محو الذنب والتجاوز عنه، والمعنى: عفونا عن ذنوبكم، وتجاوزنا عنها بعد توبتكم، كما سيأتي.

- **شريعة التوراة:**

ومن نعمه سبحانه الجليلة عليهم: إنزال التوراة على موسى عليه السلام، ليهتديَ بها بنو إسرائيل، ويحتكموا إلى شريعتها:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى مكتوبة في ألواح.

دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: آتيناه التوراة التي هي الفرقان، فهو وصف للتوراة، عطف على الكتاب عطف الصفة على الموصوف، ومعناه: الفارق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقد وصِفَ القرآن أيضاً بهذه الصفة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بما فيها، وتنتفعوا بأحكامها ومواعظها.

والجدير بالذكر أن شريعة التوراة لم تكن كالشريعة الإسلامية سهلةً سمحةً ميسّرة، فقد شدّد الله تعالى فيها على بني إسرائيل، لأنّهم ما كانوا يبادرون إلى تنفيذ أوامره، ولهذا شدّد الله تعالى عليهم، ولقد اهتمّت آيات سورة البقرة بإبراز هذا الموضوع في كثير من آياتها كما سيأتي.

ومن أحكام التوراة التي شدّد الله تعالى فيها على بني إسرائيل: أنه لا تقبل توبة المرتد منهم حتى تطبّق عليه عقوبة الردّة في الدنيا، وهي القتل، فإذا تاب المرتد منهم وسلّم نفسه للقتل قَبِل الله توبته، بينما الحكم في الشريعة الإسلامية أيسر وأسهل، فالمرتدّ إن تاب ورجع إلى الإسلام، قبلت توبته ونجا من القتل.

ولهذا قال تعالى بعد أن أخبر عن إنزال التوراة، يبيّن حكم المرتدّين عَبَدَة العجل الذهبي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى خالقكم الذي أحدثكم وأبدعكم وأخرجكم من العدم.

وأصل برأ مِنْ تبرى الشيء من الشيء، وهو انفصاله منه، فالخَلْقُ قد فصلوا من العدم إلى الوجود(١).

(١) تفسير القرطبي: ١/٤٠٣.

ومن معاني **البارئ** أيضاً: الخالق الذي خلق الخلق محكماً، بريئاً من التفاوت والنقص، ومميزاً المخلوقات بعضها عن بعض بصور وهيئات مختلفة[١].

﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بتسليم أنفسكم للقتل، والصبر عليه.

ويبدو أنّ الذين عبدوا العجل كانوا أكثرَ بكثير من الذين لم يعبدوه، بحيث لا يمكن تطبيق عقوبة القتل عليهم إلّا إذا سلّموا أنفسهم للقتل.

قال القرطبي رحمه الله: «وأجمعوا على أنّه لم يؤمر كل واحد من عَبَدَةَ العجل بأن يقتل نفسه بيده»[٢].

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ أي: الصبر على القتل خير لكم من الإصرار على الكفر، فلا توبة لكم إلّا بذلك.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: قَبِل سبحانه توبتكم بعد أن فعلتم ما أُمِرتم به، وأسلمتم أنفسكم لحكمه.

وهذه العقوبة الصارمة الشديدة التي أنزلها الله بهم، تدلّ على قسوة طباعهم، فلابدّ منها حتى تلين نفوسهم الغليظة الجافية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنه سبحانه هو الذي يتفضل بقبول التوبة والعفو عن الذنوب، الرحيم بعباده جلّ وعلا.

- **سؤال التعنّت والعناد:**

وإلى موقف آخر من مواقف تعنُّتهم وعنادهم:

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ﴾ ولمّا شرع موسى بمناجاة ربّه، وتلقّي وحيه، قالوا له:

﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدّقك بأنك تناجي ربَّك.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، وتفسير النسفي: ١/١٢٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١/٤٠١.

﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً.

هكذا واجهوا نبيّهم موسى عليه السلام وقابلوا الخير الذي أجراه الله تعالى على يديه لهم، والذين قالوا هذا القولَ هم خيارُهم، اختارهم موسى من صالِحِي بني إسرائيل، الذين لم يعبدوا العجل، ليذهبوا معه إلى موضع المناجاة، ويتضرّعوا إلى الله ويستغفروه ويسألوه أن يتوبَ على عَبَدَة العجل من بني إسرائيل.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: استولت عليكم، وأحاطت بكم، وهي الزلزلة الشديدة، فصعقوا بها وماتوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: ينظرُ بعضُكم إلى بعض، كيف يصعقون ويموتون.

وسؤالهم هذا سؤال تعنّتٍ وعنادٍ، وليس سؤال استرشادٍ، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدالّة على صدقه، وإنزالُ الصاعقة عليهم ليس لمجرّدِ الطلب، ولكن لما انضمّ إليه من التعنّتِ وفرطِ العناد[١].

ولهذا حذّر الله تعالى أصحابَ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام من مثل هذا السؤال المتعنّت، كما سيأتي في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

ومثل هذه المواقف هي التي أدّت إلى التشديد عليهم في شريعة التوراة.

وشعر موسى عليه السلام بالحرج بعد أن صُعِقوا وماتوا، كيف يرجع إلى بني إسرائيل من دونهم؟ وماذا يقول لهم؟ فتوجّه إلى الله تعالى ضارعاً، فأحياهم الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: تشكرون الله تعالى على نعمه بعد كفرانها وجحودها.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/ ٢٦٣.

وتابعت الآيات تذكيرهم ببعض هذه النِّعَم، وبمواقف العناد والجحود والكفران التي صدرت عنهم:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي: جعلنا الغمامَ يظلّكم ليَقيكم حرّ الشمس.

وذلك عندما ضرب الله عليهم التيه في صحراء سيناء، بعد أن خذلوا نبيّهم موسى، ورفضوا الجهاد معه لدخول الأرض المقدسة، وقالوا له كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة].

فحرمهم الله تعالى من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة، وجعلهم يتيهون في الصحراء في أثناء هذه المدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة].

ومن نعمه تعالى عليهم أيضاً في فترة التيه هذه أنه يسّر لهم الحصولَ على الطعام، وأغناهم عن عناء طلبه، والبحث عنه في الصحراء، وأنزل عليهم المنّ والسلوى:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ **والمنّ**: طعامٌ يشبه الكمأة، دلّ على ذلك الحديثُ الشريف: عن **سعيد بن زيد** رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**الكمأةُ من المنِّ، وماؤها شفاءٌ للعين**» [رواه مسلم (٢٠٤٩)].

وأما **السلوى**: فطائرٌ معروفٌ.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: كلوا من هذا الطعام اللذيذ النافع، الذي يسّره الله لكم، دون عناء وتعب.

وهو أمرُ إباحةٍ وامتنانٍ وإرشادٍ، ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى على هذه النِّعَم، بل قابلوها بالجحود والكُفران، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: لم يصل إلينا من معاصيهم وآثامهم نقصٌ ولا ضررٌ، فالله تعالى غنيٌّ عن طاعة عباده، ولا تضرّه معاصيهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنّ عاقبة ظلمهم تعود عليهم.

والجمع بين صيغتي الماضي ﴿كَانُوٓا۟﴾ والمستقبل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم عليه[1].

- **الزاحفون على مقاعدهم:**

ومن صور ظلمهم وعنادهم، ما فعلوه عندما أمرهم سبحانه أن يدخلوا إحدى القرى التي مرّوا بها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أمرهم الله أن يدخلوها، وأباح لهم ما فيها من طعام:

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: كلوا منها كما تشاؤون أكلاً موسَّعاً عليكم.

وأمرهم سبحانه عندما يدخلون باب القرية أن يدخلوه خاضعين خاشعين متواضعين، لا متكبرين متجبّرين، كما يفعل المعتدون الغاصبون:

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: خضَّعاً متواضعين.

أو: لعلّهم أُمِروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/ ٢٦٤.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنّا ذنوبنا وخطايانا، ويؤيده قراءةُ النَّصْبِ، ولهذا قال تعالى بعدها:

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَيَـٰكُمْ﴾ أي: نسترها عليكم ونتجاوز عنها، بسبب طاعتكم لله تعالى، وانقيادكم لأمره.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادتهم وطاعتهم، لأنهم يشعرون برقابة الله عليهم.

كما ورد في حديث سيدنا جبريل: قال: ما الإحسان؟ قال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨)].

هكذا أطمعهم الله سبحانه بالمغفرةِ إن هم انقادوا لأمره، وخضعوا لحكمه، ووعد المحسنين منهم المزيدَ من فضله وثوابه، ولكنّ بني إسرائيل هم بنو إسرائيل في جحودهم وعنادهم وفجورهم:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قالوا قولاً غير الذي كُلِّفوا به.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيلَ لبني إسرائيلَ: ادخلوا البابَ سُجّداً، وقولوا: حطّة؛ نغفرْ لكم خطاياكم، فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِم** (أي: مَقَاعِدِهم) **وقالوا: حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ**» [رواه البخاري (٤٦٤١)].

ودلّ الحديثُ على أنّهم لم يعصوا الله تعالى بتبديل الكلمات فقط، بل أضافوا إليها تبديل الهيئات، فبدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين لله تعالى، دخلوا يزحفون على مقاعدهم، ووجوهُهم وصدورهم إلى الأعلى، وبهذا استحقّوا غضبَ الله عليهم وعذابه:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: أنزلنا عليهم عذاباً من السماء، بسبب خروجهم على طاعة الله تعالى.

والرجزُ الذي أنزله الله تعالى عليهم هو وباءُ الطاعون، فعن **أُسامة بن زيد** رضي الله عنهما: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**الطَّاعُوْنُ رِجْزٌ أو عَذَابٌ أُرْسِلَ على بني إسرائيل، أو على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فإذا سَمِعْتُم بهِ بِأَرْضٍ فَلا تَقْدِمُوا عَلَيْهِ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تَخْرُجُوْا فراراً مِنْهُ**» [رواه مسلم (٢٢١٨)].

- **عيون الماء في الصحراء:**

الماءُ في الصحراءِ قليلٌ نادر، والحصولُ عليه من أصعب الأمور، ومن نِعَم الله على بني إسرائيل، وهم في الصحراء، أن يسَّرَ لهم الحصولَ على الماءِ من غير تعبٍ ولا عناءٍ:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي: دعا الله تعالى طالباً السقيا لقومه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أي: الحجرَ المعهودَ المعروفَ، ففعل عليه السلام.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: سال الماءُ بقوّةٍ من اثني عشر موضعاً في الحجرِ على عدد قبائلهم.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: المكان المخصَّص لشربِهم.

وهكذا يسّرَ الله تعالى لهم ما يحتاجون من الماءِ في الصحراءِ.

كما يسّر لهم الطعامَ، وقال لهم ممتنّاً عليهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾. وحذّرهم من العصيان والفساد، الذي يمكن أن يحدث بسبب الترف والتوسّع في المآكل والمشارب، وقال:

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تنشروا الفساد في الأرض. **والعثي**: أشدُّ الفساد، والمعنى: لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم[(١)].

وكأنه تعالى قال لهم: يكفي ما أنتم عليه من الفساد، فلا تعملوا على نشره في الأرض، والعجيبُ أنّ المستقرئ لأسبابِ الفسادِ في الأرض كلها، يجدها تتصل بهم، وتنتهي إليهم.

وأضافت الآياتُ موقفاً آخر من مواقف جحودهم وعنادهم، يدلُّ على وقاحتهم، وسوءِ أدبهم مع الله تعالى ومع نبيّه موسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ هكذا بكلِّ وقاحة ينادون نبيّ الله موسى عليه السلام باسمه، مجرّداً عن أيّ كلمة تدلّ على احترامهم له، وتقديرهم لمكانته:

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: لن نحبسَ أنفسنا على لونٍ واحدٍ من الطعام، لا يتغير ولا يتبدّل.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه تعالى في نظرهم ربُّ موسى وحده.

﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ وهو نباتٌ معروفٌ لا ساقَ له كالكرّاث والنعناع والبقدونس.

﴿وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ أي: وثومها.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾. ويبدو أنّها الأطعمة التي أَلِفوها واعتادوا عليها عندما

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/ ٢٧٢.

كانوا في مصر، ولهذا تشوّفت نفوسُهم إليها، دون أن يبذلوا أيّ جهد في مقاومة نفوسهم، وتعويدها على الحياة الجديدة في الصحراء، ولا خيرَ في أمةٍ تنقادُ لشهواتها، وتضعف أمام نفوسها.

وردّ عليهم موسى عليه السلام بأسلوب يدلّ على ضجره منهم:

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي: أدون: من الدنو أي قليل الثمن، وفي قراءة: **(أدنأ)** من الدناءة والخسّة.

﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: بمقابلة ما هو خير، فإن حرف الباء تصحب الذاهب الزائل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: انزلوا أيَّ قريةٍ أو بلدٍ لتجدوا فيها ما تريدون من هذه الأطعمة. وقد يكون مراد موسى عليه السلام مصر، البلد الذي كانوا فيه، ونُوِّن لسكونِ وسطه(١).

فما تطلبونه هيّن زهيد موفور في أيّ مِصْر من الأمصار، أو عودوا إذن إلى مصر التي خرجتم منها، عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة، إلى حياتكم الخانعة الذليلة، حيث تجدون العدسَ والبصلَ والثومَ والقثاءَ، ودعوا الأمور الكبار التي نُدِبتم لها. ويكون هذا من موسى عليه السلام تأنيباً لهم وتوبيخاً.

- **الذلّة والمَسكنة والغضب:**

وابتلاهم الله تعالى بسبب مواقف العناد والجحود والتعنّت، بالشتات والذلّة والصغار، وجعلها ملازمة لهم، وملاصقة بهم، مهما امتد الزمان، وتقلبت الدهور والعصور، عدا فترات قليلة لا تعدُّ شيئاً بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وأخبر تعالى علّام الغيوب عن ذلك فقال:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: جُعلت الذلّة محيطةً بهم، مشتملةً عليهم، كما

---

(١) انظر: البيضاوي والنسفي والخازن: ١/ ١٣٣.

تكون القبّة محيطة بمَن تُضرب عليهم، أو ألصقت الذلّة بهم كما يلصق الطين عندما يُضرَب على الحائط.

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الفقر والفاقة، وسُمّي الفقير مسكيناً، لأنّ الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

فترى اليهود وإن كانوا أغنياء ميسورين، كأنهم فقراء، لشدّة حرصهم على المال، ولتفاقرهم وتظاهرهم بالفقر، حماية لأموالهم وخوفاً عليها، ولا يزالون يتظاهرون بالفقر، حتى بعد أن أصبحت لهم قوة ومنعة في عصرنا الحاضر، بتأييد الدول الكافرة لهم، ولا يزالون يطلبون المساعدات، ويستجدون المعونات من الدول والمؤسسات والأفراد، وقوّتهم ليست نابعة منهم، بل هي مستمدّة من الناس الذين يؤيّدونهم، ويقفون وراءهم، كيداً بالمسلمين، ومكراً بهم، واستنزافاً لخيراتهم وقوّتهم، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢][١].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: صاروا مستحقّين لغضب الله تعالى، من باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي أنزلها في كتبه: التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فما مِنْ أُمةٍ أقدمت على قتل أنبيائها كما فعلت اليهود بأنبيائهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيدٌ لضخامةِ جريمتهم وشناعتها، وإلا فقتل النبيّين لا يكونُ بحقٍّ أبداً.

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٣٤.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرّهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيّين، فإنَّ صِغارَ الذنوب سببٌ يؤدي إلى كبارها[1]، ولهذا قال العلماء: الصغائر بريدُ الكفرِ، إذ الإدمانُ عليها يؤدّي بصاحبها إلى الكبائر فالكفر.

وأبوابُ الرحمةِ لا زالت مفتوحةً أمامهم، ودعوةُ الخير لا زالت تدعوهم وتناديهم، رغم كل ما تقدّم من مواقف العناد والكفران، وما أعقبها من ضرب الذلّة عليهم والهوان، فرسالةُ الإسلام رسالةُ الرحمةِ العامّة الشاملة لجميع الناس، فلا ينبغي اليأسُ والقنوطُ والاستسلامُ للذلّة والهوان، فهذه الصفات تُلازمهم ما داموا متمسكين بعنادهم وباطلهم، أما إذا فتحوا قلوبهم لدعوة الحق، وأسلموا نفوسهم لله تعالى، فطريق الحق مفتوح أمامهم، يمكنهم السير فيه، كما سار غيرهم، وقد استجاب لدعوة الحق بعض أفراد منهم، أسلموا، وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة رضي الله عنهما، وغيرهما، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: آمنوا بالله تعالى وحده قبل بعثة النبيِّ ﷺ.

أو: المراد آمنوا بألسنتهم قولاً، وهم المنافقون.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: تهوّدوا ودخلوا في اليهودية.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أي: الذين دخلوا في النصرانية، مفردها نصران، كندمان، ولحقت به الياء للمبالغة.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ أي: الخارجين على جميع المِلَل والعقائد، من صبأ، إذا خرج من الدين.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ١٣٤.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: وصدق بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

والإيمان بالله واليوم الآخر هما الركنان الأساسيان في عقيدة الإسلام.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بالتزام شريعة الإسلام، وتطبيق أحكامها.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالرسالة الإسلامية عامّة شاملة، والطريق مفتوح للجميع، وما على الذين يريدون النجاة إلّا السلوك فيه.

- **ميثاق الطور:**

وهو ميثاق مشهور من المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل، وطالبهم تعالى بالوفاء به في أوّل الآيات، عندما قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وكأنّ الآيات تعودُ مرةً ثانية ـ بعد أن بيّنت مواقف الجحود والعناد التاريخية ـ تجدّد دعوة الأجيال المتعاقبة منهم، فالميثاق ليس للجيل الأول من اليهود، الذي شهده، وإنّما هو ميثاق متجدّد لكل أجيالهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بالإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وأحكام شرعه.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: جبل الطور، رفعه الله تعالى بمشيئته وقدرته فوق رؤوسهم، حتى يذعنوا للميثاق، ويرضوا به.

وهذا يدلّ على أنّهم في أول الأمر لم يذعنوا له، ولم يقبلوا به، فأُكرهوا على ذلك، ورُفع الجبلُ فوقهم، حتى صار بمثابة المظلّة فوقهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: تمسّكوا بالشريعة التي كلّفناكم بها بجدٍّ وعزيمة، لا بكسل واسترخاء، فالتكليفُ يحتاجُ إلى عزم وجدّ واجتهاد.

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: تذكّروا ما يترتّب على هذه التكاليف من مسؤولية وحساب وعقاب وثواب.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعل هذا يجعلكم تتّقون الله تعالى وتخشونه، أو تتّقون عذابه وانتقامه.

ولا يزال اليهود ـ كما يقول العلماء ـ يسجدون على جانب من وجوههم، ونظرهم إلى الأعلى، منذُ أُخذَ عليهم الميثاقُ، ورُفِعَ الجبلُ فوقهم، ومع ذلك أعرضوا عن طاعة الله تعالى، وهجروا أحكام التوراة، وبدّلوا فيها وغيّروا ـ كما سيأتي ـ ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: أعرضتم عن الوفاء بهذا الميثاق.

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بإمهالكم، وتأخير العقاب عنكم.

﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: الهالكين.

ثم ذكّرتهم الآيات بحادثة تاريخية مشهورة من حوادث نقض الميثاق، وما ترتب عليه:

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ أي: ولقد علمتم العذابَ الذي أنزله الله تعالى بالخارجين على طاعته في يوم السبت، إذ أمرهم الله تعالى أن يتفرَّغوا للعبادة في هذا اليوم، وحرّم عليهم الاشتغال بأيّ عمل دنيوي فيه، فخالف بعضهم أمره، وضعفوا أمامَ الكسب المادي الذي لاحَ لهم في هذا اليوم،

فكانت الأسماك بتقدير الله تعالى تأتي إلى شواطئ بلدهم أيلة (قرب العقبة)، في يوم السبت، وتغيب مبتعدةً في أعماق البحر في الأيام الأخرى.

وقد فصّل الله تعالى خبرهم في موضع آخر فقال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ويدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وقوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] على أنّ حادثةَ أصحاب السبت مشهورةٌ ومعروفةٌ عند اليهود.

ولما طال بهم أمدُ المعصية، وأصرّوا عليها، ولم يتعظوا بمواعظ الصالحين فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] أنزل الله تعالى بهم عذابه الأليم، الذي ما أُنزل مثله على غيرهم قبلهم:

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ وهو أمرُ تحويل وتكوين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، فكانوا كما قال سبحانه، وتحوّلوا إلى قردة من غير امتناع ولا تأخير.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: مبعدين، أو صاغرين ذليلين.

وظلوا على ذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعشْ مسْخٌ قطُّ فوقَ ثلاثةِ أيامٍ، ولم يأْكُلْ، ولم يشربْ ولم ينسلْ[(١)].

وفي الحديث الشريف: **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، القردةُ والخنازيرُ هي ممّا مُسخ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ لم يهلكْ قوماً أو يعذِّب قوماً فيجعلْ لهم نسلاً، وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبل ذلك**» [رواه مسلم (٢٦٦٣)].

لقد مسخهم الله مسخاً حقيقيّاً لا معنويّاً كما زعم بعضهم؛ ومنهم سيّد قطب

---

(١) تفسير القرطبي: ١/ ٤٤١.

رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعاتُ الشعور والتفكير تعكِسُ على الوجوه والملامح سِمات تؤثّر في السحنة، وتلقي ظلها العميق»(١).

ولو كان المسخُ معنويّاً كما زعموا ما كان فيه عبرة لمعتبرٍ، وموعظة لمتعظ، ولما قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي: جعلنا هذه العقوبة عبرةً تنكِّلُ المعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل للقيد(٢).

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لما حولها من المدن والقرى الذين شاهدوا وعاينوا الممسوخين.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلناها موعظةً يتّعظ بها المتّقون وينتفعون بها على مدى العصور.

- **بنو إسرائيل والبقرة:**

ثم ساقت الآيات قصة بني إسرائيل مع البقرة، التي أُمروا بذبحها، لتبيّن مدى تعنتهم وتقاعسهم في تنفيذ أمر الله تعالى، الذي قال لهم عندما أخذ عليهم الميثاق: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وكشفت القصةُ سبب التشديدِ في شريعةِ التوراة، فالله سبحانه عليم حكيمٌ في كلِّ ما يشرعُ، وما شدّد تعالى عليهم إلّا بسببٍ نابعٍ من نفوسهم، فالقومُ ـ كما سنرى في القصة ـ لم يبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى، وشدّدوا على أنفسهم، فشدّدَ الله تعالى عليهم، بينما كان أصحابُ النبيِّ ﷺ على العكس من

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٧٧.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ١٣٨.

ذلك، كانوا يبادرون إلى تنفيذ أمر الله تعالى قائلين: سمعنا وأطعنا، فأكرمهم الله تعالى بالشريعة الإسلامية السَّمحَة الميسّرة، كما سيأتي في آخر آية في السورة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ﴾ فالأمر من الله تعالى، وهو صريحٌ وواضحٌ، ومع ذلك لم يبادروا إلى تنفيذه، و:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾؟! أي: أتستهزئُ بنا؟! وجاء قولُهم بصيغة الاستفهام الإنكاري؛ فجمعوا به بين سوءِ الأدبِ مع نبيِّ الله موسى عليه السلام، وعدم الثقة به، كأنّه عليه السلام يتقوّلُ على الله تعالى، وحاشا لنبيٍّ كريمٍ أن يفعلَ هذا.

فقولهم دليل على سوء اعتقادهم بنبيّهم، وتكذيبهم له، أو جرى على نحو ما هم عليه من غِلَظِ الطبع والجفاء والمعصية[١].

وبادر عليه السلام إلى تبرئة نفسه ممّا اتهموه به:

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لأن الهزءَ في مثل ذلك جهل وسفه[٢].

فهو رسول كريم، يؤدّي رسالة الله تعالى، ويبلّغهم أمره، فالموقف خطير جدّاً، فكيف يكونُ مستهزئاً به؟! ولهذا نفاه عليه السلام بأسلوب الاستعاذة بالله تعالى من الاتّصاف بصفة المستهزئ.

وكان عليهم بعد هذا البيان أن يشعروا بخطئهم، ويدركوا سوء أدبهم، ويعتذروا من موسى عليه السلام، ويبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى تائبين مستغفرين، ولكنّ بني إسرائيل هم بنو إسرائيل ـ كما مرّ معنا ـ ظلّوا متمسّكين بعنادهم، مستمرين على سوء أدبهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يبيّن لهم حقيقة البقرة وصفتها:

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/ ٢٨٦.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ١٣١.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وهي وقاحة ثانية، وسوءُ أدبٍ آخر، سبقت الإشارة إليهما من قبل، كأنه تعالى ربّ موسى وحده.

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما حالها وما صفتها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلو اعترضوا بقرةً فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكنْ شدّدوا، وتعنّتوا على موسى، فشدّد الله عليهم[(١)].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا كبيرةٌ ولا صغيرةٌ لم تلد.

﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نَصَفٌ، بين الكبيرة والصغيرة، وهي التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقرِ وأحسنه[(٢)].

وأضاف عليه السلام إلى البيان تكرير الأمر:

﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وكأنه عليه السلام قال لهم: نفّذوا الأمر، ولا تكثروا من السؤال.

ولكنهم عادوا مرَّة ثانية إلى السؤال:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾.

واضطرَّ موسى عليه السلام مرةً ثانيةً إلى دعاء ربّه، وجاءهم الجوابُ يشدّد عليهم، ويفرض قيوداً وشروطاً ما كانوا مكلّفين بها:

---

(١) جامع البيان: ١/٢٦٨.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١/٤٤٩.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: شديدةُ الصُّفرةِ، أو صافيةُ اللون.

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: يعجبهم حسنها وصفاء لونها.

ولم يفطنوا إلى أنّ هذه التشديدات تسوءُهم، وفي غير مصلحتهم، فما أغباهم!.

وعادوا مرّة ثالثة يسألون:

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ كرروا السؤال الأول نفسه، وأضافوا هذه المرَّة اعتذاراً عنه قائلين:

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: التبسَ واشتبهَ أمرُه علينا، لكثرة وجود هذه الصفات فيه.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المطلوبة.

والاستقصاء في مثل هذه الأحوال شؤم، إذ هو تكلّفٌ وتنطّع، حذّر تعالى منه المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

وأتاهمُ الجواب بشروطٍ وقيودٍ وأوصافٍ لا تجتمع إلّا في بقرة واحدة:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: إنها بقرة غير مذلّلة ومدرّبة على العمل، فهي لا تثيرُ الأرضَ، أي: لا تفلحها، ولا تسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: خالية عن العيوب وآثار العمل.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ أي: لا يخالِطُ لونَها لونٌ آخر.

وأخيراً عرفوا البقرة المطلوبة، و:

﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي: الثابت الواضح الذي لا لُبْس فيه ولا غموض.

وشرعوا يبحثون عنها، ولابدَّ أنهم تعبوا كثيراً حتى وجدوها، واستغلَّ صاحبُها الفرصةَ، وهو شأن بني إسرائيل، يستغلّون المواقف، وينتهزون الفُرص، فزاد في ثمنها زيادةً فاحشةً، حتى إنّ الروايات تذكر أنه طلب ملء جلدها ذهباً، واضطروا إلى الاستجابة إلى طلبه مُكرَهين، ولهذا قال تعالى:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلّا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها[(١)].

• **قلوب قاسية:**

ثم كشفت الآيات سرَّ تكليفهم بذبح البقرة، وقد أخره سبحانه ليبيّن أنّ على العباد أن ينقادوا لأمره، ويستسلموا لشرعه، سواء عرفوا حكمته فيه أم لم يعرفوا، فلا يكون الانقياد والاستسلام كاملاً إلا بهذا، فالواجبُ أن تكونَ العبادةُ خالصةً لله تعالى، لا من أجل ما يترتب عليها من حِكَم وفوائد، وعلينا أن نبادر إلى تنفيذ أمر مولانا جلّ وعلا، عرفنا فائدة الأمر أم لم نعرف، حتى نحقّق معنى العبودية الكاملة الخالصة له جلّ وعلا، وعلينا أيضاً أن نؤمن أنه تعالى يتّصف بكل صفات الكمال، ومن صفات كماله تعالى: الحكمة، فهو حكيم في كل أفعاله وأوامره ونواهيه، لا يشرع إلّا ما فيه حكمة وفائدة تعود على المكلّفين، إذ هو ﷻ غنيٌّ عن عباداتنا وطاعاتنا، يظهر لنا سبحانه بفضله أحياناً حكمة التكليف، وتقصر عقولنا عن إدراكها أحياناً أخرى، فالقصور والنقص فينا، لا في شرع الله، وهذا ما جعلني أسيرُ مع نسق الآيات، ولا أستبق

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٧٨.

كشف الأحداث، كما فعل جمهور المفسّرين، ففي ترتيب الآيات وتنسيقها حِكَمٌ وأسرارٌ:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: اذكروا عندما حدثت جريمةُ قتلٍ في مجتمعكم.

وإما أن يكون القاتل واحداً أو جماعة منهم، وخوطب الجميع به لحدوثه بينهم.

﴿فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ أي: اختلفتم واختصمتم في شأنها، من **الدَّرْءِ**، وهو الدفع، فكلٌّ منهم يدفع التهمة عن نفسه، ويطرحها على غيره.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمر القاتل، ويبدو أن كثيراً منهم كانوا يعلمون القاتلَ، ويتستّرون عليه، إما لوجاهته وماله، أو خوفاً من شرّه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي: اضربوا جسد القتيل بجزء من البقرة المذبوحة.

ففعلوا، فأحيا الله تعالى القتيل، وأخبر بنفسه عن قاتله، فكان ذلك معجزةً باهرةً دلّت على كمال قدرته سبحانه.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يوم القيامة.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالّة على كمال قدرته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يا بني إسرائيل ما في هذه الواقعة من دروس وعظات وعِبَر.

فالله سبحانه قادر على أن يحيي القتيل من دون ذبح البقرة، وضربه بجزء من أجزائها، ولكنّه سبحانه أراد أن يبيّنَ لهم تعنّتهم وعنادهم، وتقاعسهم عن تنفيذ أمره، والاستسلام لشرعه، ويكشفَ لهم سرَّ التشديد في شريعة التوراة التي كلّفهم بها، فالتشديدُ في الحقيقةِ نابعٌ من نفوسهم، ومن طبائعهم الغليظة

الجافية، فهو تعالى حكيم بكل ما شرع، عليم بدخائل النفوس ومكنونات القلوب.

تُرى هل عقلوا الدرس، وفهموا عظاته وعِبَرَه؟ الجواب ظاهر في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ازدادت قلوبكم قسوةً وغلظةً بعد كل ما حدث، والمفروض أن ترقّ وتلينَ وتخشع لجلال الله تعالى وعظمته، بعد أن رأت وشاهدت معجزةَ إحياء القتيل الباهرة.

وقسوة القلوب من أخطر أمراضها، سببها كثرةُ المعاصي والإدمان عليها، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقوله ﷺ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصير عُوْداً عُوْداً، فَأَيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قلبين، على أبيضَ مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودُ مُرْباداً، كالكوزِ مُجَخِّياً، لا يَعْرِفُ معروفاً، ولا ينكِرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هواهُ**» [رواه مسلم (١٤٤)].

ومعنى «**مجخياً**»: مائلاً منكوساً.

ودواءُ قسوة القلب التوبةُ عن المعاصي، والخشوعُ لله تعالى، واستغفارُه، والإكثارُ من ذكره، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا

مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر].

وقسوةُ قلوبِ بني إسرائيل قسوةٌ شديدةٌ خاصةٌ، لا لين معها، إذ وصفها سبحانه بقوله:

﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: من الحجارة، فقد يكون في الحجارة خير.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كالحجر الذي ضربه موسى عليه السلام في الصحراء، فانفجرت منه عيون الماء، كما مرّ معنا [انظر: سورة البقرة: ٦٠].

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخرّ ويهوي من الأعلى إلى الأسفل، من عظمة الله تعالى.

فالحجارةُ تتأثّر وتنفعل وتنقادُ لأمر الله تعالى، وتخشع لجلاله جلّ وعلا، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أما قلوب بني إسرائيل فلا تلين ولا تخشع، ولا تنقاد لأمر الله تعالى وشرعه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من جرائم وخبائث وفتن وفجور.

ولا شك أنَّه وعيدٌ شديد لهم ولأمثالهم من ذوي القلوب القاسية الغليظة الجافية.

❁ ❁ ❁



بنو إسرائيل من السلف إلى الخلف

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن
بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا
يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا
أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)
وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ
(٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ
كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا
جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ
أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو
بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ
ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ
لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ
عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن
يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ
وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟
ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟
رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾
وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ
أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ
ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ
ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن
يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ
ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا
سُبْحَـٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ

ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

• تحريفُ الكتاب:

ولـمّا انتهت الآياتُ من مواجهة بني إسرائيل، وتذكيرِهم بمواقفهم التاريخية السابقة، من كتابهم المنزل عليهم، ونبيّهم المُرسَل إليهم، وخَتمت حديثَها عنهم ببيان شدّة قسوة قلوبهم، وغلظة طباعهم ونفوسهم، التفتت إلى المسلمين من أصحاب النبيّ ﷺ تخاطبهم، وتبيّن لهم مواقف اليهود المعاصرين لهم من القرآن الكريم، ومن النبيّ ﷺ، وكأنّه تعالى أرادَ أن يبيّنَ أنَّ اليهودَ المعاصرين لنزول القرآن الكريم، يسيرون على سُننِ آبائهم وأجدادهم، وتكون الآيات بهذا قد انتقلت من الحديث عن السلف إلى الحديث عن الخلف:

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ أي: أبعد كلّ ما تقدّم من مواقفهم وصفاتهم، تطمعون بإسلامهم واستجابتهم لدعوتكم؟!.

والاستفهامُ لاستبعادِ إيمانِ اليهودِ، واستجابتهم للدعوة الإسلامية، ويتضمن أيضاً تحذيراً للمسلمين من كيدهم ومكرهم.

﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ المنزل عليهم في التوراة.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ بتغييره وتبديله.

وذلك كما فعلوا في صفات نبيّنا محمد ﷺ، الموجودة في التوراة، فقد غيّروها، واستبدلوا بها ما يخالفها، وكما فعلوا بآية رجم الزاني، أخفوها ووضعوا في مكانها التسخيمَ وتسويدَ الوجه، وكذلك افتروا على كثير من الأنبياء، ووصفوهم بصفات لا تليقُ بمكانتهم التي أكرمهم الله تعالى بها.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: مِنْ بعدِ ما ضبطوه وفهموه، فلم يحرّفوه بسبب التباسٍ واشتباهٍ، بل عن سابقِ علمٍ وقصدٍ وإصرارٍ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم مبطلون كاذبون.

ودلّت الآية على أنّ العالِمَ بالحقِّ المعانِدَ فيه بعيدٌ عن الرشد[1].

فهم الذين ابتدعوا النفاق وعلّموه غيرهم، فكان بعضُهم يعلنُ الإسلامَ بلسانه أمام المسلمين:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأنَّ رسولكم هو الذي بشّرت به التوراة.

ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك ليفتنوا ضعافَ المسلمين عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: إذا اجتمعَ اليهودُ وحدهم مع بعضهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الذين لم ينافقوا للذين نافقوا.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٣.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كيف تخبرون المسلمين بما بيّن الله لكم في التوراة؟.

﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ليحتجّوا عليكم بما أنزل ربكم عليكم في التوراة، أو: ليجادلوكم به في الآخرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ما تفعلونه حجّة عليكم؟!.

ويلاحظ أنه تعالى قال في المنافقين في الآيات السابقة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] بينما قال في اليهود هنا: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فكأن اليهود جميعاً شياطين، ولهذا لم يخصّ بعضهم بهذا الوصف.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

فلا تخفى عليه سبحانه خافية، فإن أخفوا صفاتِ النبيّ ﷺ التي هي في التوراة عن المسلمين، فلا بدَّ أن يظهرها الله تعالى، وهو الذي يعلمُ ما يسرّون وما يعلنون.

ومما سهّل على المحرِّفين تحريف التوراة والإنجيل، أنهما كانا بلغة لا يفهمها عامّة اليهود، وهي اللغة السريانية أو الآرامية القديمة، التي كانت لغةَ أكثر شعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولا يعلم هذه اللغة إلّا كبار علمائهم وأحبارهم، وكان تداول التوراة قاصراً عليهم، وأما العامّة فكانوا يكتفون بسماع تلاوتها منهم، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: من اليهود أُميّون لا يعرفون القراءة والكتابة.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ أي: إلّا ما يسمعون من قراءات الأحبار، دون فهم لمعاني ما يسمعون.

فالأماني: جمع أُمنية، وهي التلاوة والقراءة، وهي في الأصل ما يقدّره الإنسان في نفسه من مُنًى يتمنّاها، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يُتمنى، وما يُقرأ، وعلى هذا يمكن أن يكون المعنى: ولكن يعتقدون أكاذيب، أخذوها تقليداً من المحرِّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أنّ الجنة لا يدخلها إلّا مَن كان هوداً [انظر: سورة البقرة: ١١١]، وأن النار لن تمسّهم إلّا أياماً معدودة(١)، كما سيأتي [انظر: سورة البقرة: ٨٠].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: وما هم إلّا يظنون، قصارى أمرهم الحدس والتخمين، من غير أن يصلوا إلى العِلم القائم على النظر والبرهان.

ومرّ معنا أنه لا ينبغي بناء الإيمان على مجرَّد الظن.

واتجهت الآيات تهدّد وتتوعد أولئك المحرّفين لكتاب الله تعالى، من الأحبار والرهبان، الذين استغلّوا مكانتهم الدينية، وجهل العامة بكتاب الله تعالى، فحرّفوه من أجل بعض المكاسب الدنيوية المادية:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك وعذاب للمحرِّفين، الذين يكتبون الكتاب المحرَّف بأيديهم، من تلقاء أنفسهم.

والويلُ: كلمةٌ تقولها العربُ لكلِّ مَنْ وقعَ في هلكة، وأصلها في اللغة: الهلاك والعذاب، وساغ الابتداء به مع أنه نكرة لأنه دعاء(٢).

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/١٤٩.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ١/١٤٩.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثم يرتكبون ما هو أشنع وأفظع من التحريف، وهو نسبة المحرَّف إلى الله تعالى.

﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾ أي: ليحصِّلوا بهذا العمل الشنيع غرضاً من أغراض الدنيا الدنيئة، وهو مهما كان قليلٌ بالنسبة لما استوجبوه من العذاب الدائم، وحُرِموه من الثواب المقيم(١).

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا، أو مما يكسبون من المعاصي والآثام، وكرّر الوعيد لتأكيده وتشديده.

وفي الآية تحذيرٌ من التبديلِ والتغيير والزيادةِ في الشرع، فكلّ مَن بدّل وغيّر، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد والعذاب الأليم(٢).

● **أمانيُّ خادعةٌ:**

وذكر تعالى بعض التحريفات التي أدخلوها على كتابهم، والأكاذيبَ التي نشروها بين العامّة من أتباعهم، فقال:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ﴾ أي: محدودة قليلة.

وهي فكرة رائجة عند اليهود، حكاها سبحانه عنهم في **سورة آل عمران** فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وجاء في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ، عندما فتح خيبر، سأل اليهودَ،

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/٣٠٧.
(٢) تفسير القرطبي: ٢/٩.

قائلاً: «**مَنْ أهلُ النّارِ؟**» قالوا: نكونُ فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبيُّ ﷺ: «**اخْسَؤُوْا فيها، واللهِ لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً**» [رواه البخاري (٣١٦٩)].

وردّ تعالى عليهم فقال:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: أعهد الله إليكم أنّه لا يعذبكم إلّا هذه المدة؟! وهو استفهامٌ يفيدُ الإنكار والتوبيخ.

﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ إذ لا خلف في عهده ووعده سبحانه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل تقولون على الله قولاً لا صِحَّة له، ولا عِلْمَ لكم به؟!.

ثم نفى سبحانه قولهم، فقال:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمرُ كما تقولون وتشتهون وتتمنّون، فهي أماني خادعة، وستعذّبون في النار كما يعذَّبُ أمثالكم من الكفّار والفجّار، حسب المبدأ الذي شرعه الله تعالى، وهو:

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: فعل أمراً محظوراً باختياره وإرادته.

والسيئة: اسم يتناول جميع المعاصي الكبيرة والصغيرة، والمرادُ منها هنا الشرك في قول ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: استولت عليه، وشملت جميعَ أحواله، كمَن أذنب ذنباً ولم يقلع عنه، وأصرّ عليه، فإنّ ذلك يجرُّه إلى معاودة مثله، والانهماك فيه، وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستوليَ عليه الذنوب، وتأخذَ بمجامع قلبه، فيصيرَ بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها، معتقداً أنْ

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/ ١٥٠.

لا لذّةَ سواها، مبغضاً لمَن يمنعه عنها، مكذّباً مَن ينصحه فيها[١]، كما مرّ معنا أنَّ المعاصي بريدُ الكفر.

فالإصرار على الخطيئة يؤدّي بصاحبها أن يصبحَ حبيسَ خطيئته، يعيش في إطارها ـ كما قال سيّد قطب رحمه الله ـ، ويتنفّس في جوّها، عندئذٍ عندما تغلَقُ منافذُ التوبة على النفس في سجن الخطيئة، عندئذٍ يحقّ ذلك الجزاء العادل الحاسم[٢]:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

وفي مقابل هؤلاء:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

- **مبادئ من شريعة القرآن وشريعة التوراة:**

ثم أبرزت الآياتُ مبادئَ أساسية كبيرة في شريعة التوراة، كلّف الله تعالى بها بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاقَ ليتمسّكوا بها، وتلتقي بهذه المبادئ شريعةُ التوراة مع الشريعة الإسلامية في القرآن، فهي أيضاً من مبادئها الأساسية الكبرى، وبهذا أكّد تعالى أنّ مصدر الشريعتين واحد، وأنّه تعالى كما أنزل التوراة، وشرع ما فيها من أحكامٍ، أنزل أيضاً القرآن الكريم، وشرع ما فيه من أحكام، وجعل شريعةَ القرآن الكريم ناسخةً لكل الشرائع السابقة عليها، وكلّف جميع الناس بالتزامها:

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ١٥١.

(٢) في ظلال القرآن: ١/ ٨٦.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وعبادة الله وحده أهم المبادئ، وأساسها، فهو أصلها الأصيل، وكل الشرائع الإلٰهية تتفرّع عنه، وما من نبيٍّ إلّا دعا إليه، وهو معنى الكلمة التي نادى بها جميعُ الأنبياء والمرسلين: **لا إلٰه إلا الله**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

هذا هو المبدأ الأساس الأول في الشريعتين، وأما المبدأ الثاني فيهما، فهو الاهتمام بالآخرين، وتقوية الروابط الاجتماعية معهم، وهو ما سبق معنا على وجه الإجمال، عند قوله تعالى في صفات الفاسقين: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] فَصَّله سبحانه هنا فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا للوالدين، بالتواضع لهما، وطاعتهما في غير معصية، ومعاشرتهما بالمعروف، وخاصة عندما يتقدّم بهما العمر، ويدركهما ضعف الشيخوخة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فحقّ الوالدين من أهمّ الحقوق الواجبة على الإنسان في شريعة القرآن وشريعة التوراة، ويكفي أنّه تعالى قرنَ شكرَهما بشكرِه فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: وأحسنوا إلى ذي القربى.

فللقريب على قريبه حقوقٌ واجبة، قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وصلةُ الأرحام في الشريعة الإسلامية عبادةٌ من أعظم العبادات، ولها الأثرُ الطيّبُ على الإنسان في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رزقِهِ، ويُنْسَأَ له في أثرِهِ، فليصِلْ رَحِمَهُ**» [رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧)].

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: وأحسنوا إلى اليتامى.

وهم الصغار الذين فقدوا آباءهم، أمر الله تعالى بالاهتمام بهم، وحفظ حقوقهم، وتربيتهم ورعايتهم، وشرع لهم سبحانه أحكاماً كثيرة في عدد من الآيات الكريمة، سيأتي بعضها، تدلّ على كثرة اهتمام الشريعة الإسلامية بالضعفاء في المجتمع، وقد توعّد الله تعالى الذين يأكلون شيئاً من أموال اليتامى، أشدّ وعيد وأفظعه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠١].

وجعل النبيُّ ﷺ كافلَ اليتيمِ في منزلةٍ عاليةٍ يوم القيامة، قريبة من منزلته، فقال ﷺ: «**كافِلُ اليتيمِ له أو لغيرِهِ أنا وهو كهاتين في الجنّةِ**» وأشار مالك ـ من رواة الحديث ـ بالسبّابة والوسطى. [رواه مسلم (٢٩٨٣)].

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: وأحسنوا إلى المساكين.

وهم الفقراء المحتاجون الذين أسكنتهم الحاجة، فلا ينبغي أن يُهْمَلوا ويُتْرَكوا إلى الفاقة والحرمان، فقد أوجبَ الله تعالى الاهتمامَ بهم ومساعدتهم، ليعيشوا الحياةَ اللائقةَ بكرامةِ الإنسان، وفرض عدّة فروض مالية من أجل ذلك، كالزكاة والكفّارات والنفقات الواجبة.

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولوا للناس قولاً حسناً طيباً، وكلّموهم بأحسن ما يحبّون.

فالكلمة الطيبة صدقةٌ، خاصّةً في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وتحبيب الناس بدينه، قال سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فما أرفعَ هذا التوجيه الذي أمر الله به بني إسرائيل في التوراة، وأخذ عليهم الميثاق به! وأين هذا من مواقِف العناد والجحود وسوءِ الأدب التي كانوا عليها، كما مرّ معنا؟! بل أين هذه الأخلاق الكريمة من الأثرة، وحبِّ الذات، والجشع، والتعصّب العنصري المقيت، التي اشتهر بها اليهود في جميع العصور، وخاصّة في عصرنا الحاضر؟!.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق، أن يؤدّوا الصلاة المفروضة بشكل صحيح مستقيم، وأن يعطوا زكاة أموالهم للمستحقّين، فالصلاة والزكاة عبادتان فرضهما الله تعالى في كل الشرائع.

وماذا كانت نتيجةُ هذا الميثاق؟ بيّنها تعالى بقوله:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: أعرضتم يا بني إسرائيل عن الميثاق، ورفضتم تنفيذ أحكامه ومبادئه.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ تمسك بالميثاق، والتزم أحكامه.

ولا شك أنّ منهم أولئك الذين أدركوا زمن النبي ﷺ، وآمنوا برسالته، التي بشّرت بها التوراة، وأمرت باتّباعها.

ودلّ قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾ على دقّة أخبار القرآن الكريم، وواقعيتها وموضوعيتها.

﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: وأنتم عادتكم الإعراض، وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق.

• تناقض في المواقف:

وواجهتهم الآيات بوقائع وأحداث قائمة بينهم عند نزولها، لتؤكد لهم بأسلوب واقعي نقضَهم للمواثيق والعهود وإعراضهم عنها، ولو كانت خاصة بهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضُكم دمَ بعض.

فالقتلُ وسفكُ الدماء بغير حق حرامٌ في جميع الشرائع السماوية، ومَن قتل غيره فكأنما قتل نفسه بتعريضها للقتل قصاصاً.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: ولا يخرِجُ بعضُكم بعضاً من بيوتهم وأوطانهم عدواناً وظلماً، وهو من أشدّ أنواع المظالم.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق، وتعهدتم بتنفيذه.

ويبدو أنّه تفصيلٌ لبعض أحكام ميثاق الطور الذي مرّ معنا في [الآية: ٦٣].

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يا معشر يهود على صحة هذا الإقرار الذي صدر عن أجدادكم وأسلافكم.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: يا هؤلاء تخالفون الميثاق. و:

﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: وتخرجون طائفة منكم من بيوتهم ومساكنهم.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: متعاونين على قتلهم وإخراجهم من بيوتهم بالمعصية والعدوان.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ أي: تنقذوهم من الأسر بإعطاء الفدية.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي: إخراجهم من ديارهم محرم عليكم.

وهذا يدلُّ على تناقضٍ في مواقفهم، فكيف يستبيحون قتل بعضهم بعضاً، وإخراج فريق منهم من ديارهم، ثم إن وجدوهم أسرى دفعوا الفدية، وأنقذوهم من الأسر؟! ولهذا قال سبحانه موبخاً لهم:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أتصدقون ببعض أحكام التوراة، وهي فداء الأسرى؟.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: وتجحدون وتنكرون أحكاماً أخرى فيها، وهي تحريم القتل والإخراج من الديار؟.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت يهودُ المدينةِ ثلاثَ قبائلَ، بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحربُ إذا نشبت بينهم قاتل كلُّ فريق مع حلفائه، فيقتل اليهوديُّ أعداءه، وقد يقتل اليهوديُّ الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، حتى إذا وضعت الحربُ أوزارها فكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾»(١).

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو عذاب الذلّة والمسكنة التي ضربت عليهم، كما مرّ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ في جهنم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٨٥.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على نعيمِ الآخرةِ وثوابها.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بل هو في زيادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾أي: ولا يمنعون منه.

- **تكذيب الرُّسل وقتلهم:**

وانتقلت الآياتُ مِنْ بيانِ مواقف بعضهم من بعض، إلى بيانِ مواقفهم مِنْ رسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

﴿وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ أي: وأرسلنا على أثره الرّسلَ إلى بني إسرائيل.

والتقفية: الإتباعُ والإردافُ، مأخوذ من اتّباع القفا، وهو مؤخر العنق، وهذه الآيةُ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ﴾ الآية [المؤمنون: ٤٤].

وكلُّ رسولٍ جاء بعد موسى فإنّما جاء بإثباتِ التوراة، والأمرِ بلزومها، إلى عيسى عليه السلام(١).

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الأدلة التي تبيِّنُ صدقه، وصحّةَ رسالته، وهي المعجزات التي أجراها الله على يده، والمذكورة في قوله

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٢٣.

سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قوّيناه وأعنّاه بجبريل عليه السلام، **والروح من أسمائه**، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء].

والقدس: الطاهر، كما مرّ، وهي صفةٌ تكريم لجبريل عليه السلام، تدلّ على طهارته من الآثام والذنوب، وفي الحديث الشريف: أنّ النبيَّ ﷺ قال لحسان بن ثابت: «**أَجِبْ عنّي، اللّهمّ أيّده بروح القُدُسِ**» [رواه مسلم (٢٤٨٥)].

وفي حديثٍ آخرَ: أنه ﷺ قال: «**اهجُهم ـ أو: هاجِهم ـ وجبريلُ مَعَك**» [رواه مسلم (٢٤٨٦)].

وتتابعُ إرسالِ الرّسل إلى بني إسرائيل ـ من زمن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام ـ من نِعَم الله الكبرى عليهم، وبدل أن يشكروا الله تعالى على هذه النِّعَم، ويعرفوا للرّسل فضلهم ومكانتهم، جحدوا وكفروا وافتروا على الرّسل أقبح الفرى والأكاذيب، وقتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى، يذكّر بني إسرائيل بمواقفهم المخزية من الرّسل، وجرائمهم في حقهم:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ أي: بما لا تحبّ أنفسكم، ولا يتّفق مع شهواتكم ومصالحكم.

فالقومُ يريدون أن تكون رسالةُ الله تعالى تبعاً لأهوائهم وشهواتهم، ويريدون من الرّسل أن يشاركوهم في معاصيهم وفجورهم، ولا ينكروا عليهم ما هم فيه من فسوقٍ وطغيانٍ، وكأنّهم بهذا لا يرون أنفسهم محتاجين إلى الشرائع الإلٰهية، بل يكفيهم أن يحكّموا أهواءهم وآراءهم، التي تؤدّي إلى فوضى القوانين الوضعية وتضاربها وقصورها.

﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإسلام لله تعالى، والخضوع لأمره، كما فعل الشيطان عندما شمله الأمر الإلٰهي بالسجود لآدم عليه السلام: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما مرّ [انظر: سورة البقرة: ٣٤].

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذّبتم رسالتهم، وجحدتم نبوّتهم، كعيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام.

ولعلّ الآية عدلت عن صيغة الماضي ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ إلى المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لتفيد استمرارهم وإصرارهم على قتل المسلمين، وقد أراد يهودُ المدينةِ وخيبر قتل النبيّ ﷺ، وحاولوا ذلك عدَّة مرَّات، ولكنه تعالى عصمه من كيدهم ومكرهم.

تلك هي مواقفهم من رسلهم الذين بُعِثوا منهم، فكيف يكون موقفهم إذا كان الرسول من غيرهم، وبُعث بالرسالة العامّة الخاتمة الناسخة لجميع الرسائل السابقة؟! لابدّ لمواقف الجحود والعناد والتكذيب والقتل أن تزداد شدّةً وعمقاً، فثمّة شعور جديد ينبع من أعماق نفوسهم، وهو الحسد وما يتولّد عنه من حقد وبغي، وهذا ما تُظهِره لنا الآيات الكريمة:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يهود المدينة.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: مغلفة مغطاة، لا تفقه ما تسمع.

قالوا ذلك للنبي ﷺ عندما كان يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم، وهذا يدل على شدّة كراهتهم للقرآن الكريم، فالقومُ لا يحبّون سماعه، كالمشركين من عبّاد الأوثان، الذين قالوا للرسول ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وردّ الله تعالى عليهم فقال:

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فقلوبهم كسائر قلوب بني آدم، تسمع وتفهم، ولكنّه تعالى طردهم وأبعدهم؛ طردهم من رحمته، وأبعدهم عن منابع الخير والهدى بسبب كفرهم.

ونتيجة لهذا الطرد والإبعاد:

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فالإيمان فيهم قليل، ولم يستجب لدعوة الرسول ﷺ إلّا عدد قليل منهم.

- **التعصّب والحسد:**

والعجيبُ أنهم كانوا ينتظرون بعثة النبيّ ﷺ، وكانوا أيضاً يستنصرون به على أعدائهم، ويقولون: سيُبْعَثُ نبيٌّ في آخرِ الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[١]، فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ من العرب كفروا به، وجحدوا رسالته ونبوّته، وسجّل عليهم تعالى تغيُّر موقفهم فقال:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو التوراة، كما مرّ معنا.

﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يستنصرون.

والاستفتاح: الاستنصار. أي: كانوا من قبلُ يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبيِّ المبعوث في آخر الزمان، الذي يجدون صفته عندهم في التوراة[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ من الحق، وهو النبيّ ﷺ، فقد عرفه أحبار اليهود

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٨٨.

(٢) فتح القدير: ١/ ١١٢.

معرفة تامّة بنُعُوته الموجودة في كتبهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦].

﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: كفروا برسالته عليه الصلاة والسلام، وأعرضوا عن دعوته.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم بيّن سبحانه سبب تغيُّر موقفهم من النبيّ ﷺ، فقال:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بئس الشيء الذي باعوا من أجله أنفسهم ومبادئهم.

و(بئس): في كلام العرب مستوفيةٌ للذمّ، كما أنَّ (نِعْمَ) مستوفيةٌ للمدح(١). فكلمة (بئس) تفيدُ أقبحَ ذم وأشنعه.

واشترى: تأتي بمعنى ابتاع وباع، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وأوصلتهم هذه الصفقة الخاسرة إلى الكفر:

﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام.

﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: حسداً لأجل إنزال الله القرآن الكريم على غيرهم، فالأمرُ منوطٌ بمشيئته تعالى لا بمشيئتهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٢٧.

والبغي: الظلمُ بسبب الحسد، والحاسد يطلب لنفسه ما ليس له، وأظهر الله تعالى بهذا سبب حقد اليهود على النبيّ ﷺ، وكراهتهم الشديدة للقرآن ورسالة الإسلام، وكيدهم المستمر بالمسلمين.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ أي: استحقوا غضباً من الله تعالى متتابعاً مترادفاً، بسبب كفرهم السابق واللاحق.

فعندما وصف الله تعالى مواقفهم السابقة من أنبيائهم قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وبعد أن وصف موقفهم اللاحق من رسول الله ﷺ قال: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾، ومعه أيضاً الإهانة والذلّة:

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

إنّ التعصّب الأعمى البغيض الذي ملأ قلوبهم حسداً وحقداً وضغينة، هو الذي دفعهم إلى إنكار الحق الثابت في كتبهم، ومحاولة طمس معالمه، ولهذا تابعت الآيات تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على الرسول الخاتم محمد ﷺ.

﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كأن وحيَ الله حكرٌ عليهم، ولا ينزل على غيرهم.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: بما أنزل على غيرهم.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: مع أنّه حقٌّ ثابت، أنزله الله:

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ﴾ أي: التوراة.

فلا منافاة بين القرآن الكريم وبين التوراة، كما مرّ معنا، والإيمان بالتوراة لا يمنع من الإيمان بالقرآن الكريم، بل على العكس، فقد أمرهم الله في التوراة أن يصدقوا بالقرآن الكريم إن أدركوا زمن نزوله.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: قل لهم يا محمد

ـ ﷺ ـ: ما دمتم تتعصبون لأنبيائكم كل هذا التعصّب، وتؤمنون بهم وحدهم، فلِمَ قتلتموهم وسفكتم دماءهم؟!.

إنه إذاً التعصّب للتعصّب فقط، لا للاتّباع، إنَّه التعصّب العنصري الأعمى المقيت، فأنبياؤكم بريئون منكم ومن عنادكم وجحودكم، وإليكم الدليل على ذلك:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات التي تبيّن صدقه، وتوجب عليكم طاعته واتباعه، كالعصا، واليد، وانفلاق البحر، وتفجير الماء من الحَجر، وإنزال المنّ والسلوى، وتظليل الغمام... وبعد كل هذه المعجزات:

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: عندما غاب عنكم وذهب لميقات ربّه، كما تقدّم [انظر: سورة البَقَرَة: ٥١].

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

ثم لـمّا أنزل الله عليكم التوراة، أخذ عليكمُ الميثاقَ، للاستسلام لأحكامها، والتمسك بها:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ سماع الإسلام والاستسلام والطاعة.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

قلتم: سمعنا، بألسنتكم فقط، خوفاً من الجبل الذي رفعه الله فوقكم عند

أخذ الميثاق عليكم، وأعرضتم بعد ذلك، وقلتم بلسان حالكم وأفعالكم وسلوككم: عصينا.

ويمكن أن يكونوا قالوا أيضاً بلسانهم: عصينا، فالتبجّحُ بالكفرِ والفجور غيرُ غريب عنهم، وكلّ ذلك بسبب محبَّتهم للعجل الذهبي، وتعلّق قلوبهم ونفوسهم بالذهب الذي صُنِعَ منه، فهم عبّاد الذهب، وهو الوثن الذي يطيعونه ويعبدونه، ومن أجله هجروا كل الشرائع التي أنزلها الله تعالى عليهم:

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: طغى حبّ العجل على قلوبهم، حتى رسخ فيها وتشرّبته، وخالطته مخالطة تامّة، كما يتشرّب الثوب الصبغ، ويتلوّن بلونه.

﴿بِكُفْرِهِمْۚ﴾ أي: بسبب كفرهم بالله تعالى.

فالإيمان والكفر لا يجتمعان في قلب واحد، ولو كانوا مؤمنين بالله تعالى حق الإيمان ما تشرّبت قلوبهم حبّ العجل الذهبي.

وذمّهم الله تعالى أقبح ذمّ مرَّة ثانية، بأسلوب التهكّم والتوبيخ، فقال:

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ الذي تدَّعونه، وهو التصديق بالتوراة المنزلة عليكم، كما مرّ معنا من قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأنّى لهم الإيمان، وقد أُشربت قلوبهم حبّ العجل الذهبي، واحتلت محبَّتُه نفوسهم.

• **حرصهم على الحياة:**

واستمرّتِ الآياتُ تنقض أقوال اليهود، وتردّ مزاعمهم، بأسلوب المواجهة والتحدّي:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: سالمة لكم وحدكم، والمراد من الدار الآخرة: الجنة.

فاليهود يزعمون أن لهم مكانة خاصّة عند الله، فهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه، وأنَّ الجنةَ أعدّها الله تعالى لهم وحدهم، ولن يدخلها غيرهم، فإن كان الأمر كذلك:

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: اطلبوا الموت واسألوه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تدَّعون وتزعمون.

ويمكن أن يكون في الآيةِ دعوةٌ إلى المباهلة، أي: ادعوا بالموت على الفريق الكاذب، ومن المعلوم: أن النبيَّ ﷺ دعا وفد نصارى نجران إلى المباهلة، بعد أن أصرّوا على اعتقادهم الباطل بعيسى عليه السلام، وأنزل سبحانه قوله الكريم: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: فامتنعتِ اليهودُ عن إجابة النبيّ ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمنَّتِ الموتَ هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريقُ النصارى الذين جادلوا النبيّ ﷺ في عيسى عليه السلام - إذ دُعوا إلى المباهلة - من المباهلة، فبلغنا أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**لو أنَّ اليهودَ تمنّوا الموتَ لماتوا، ولرأوا مقاعدَهم من النارِ، ولو خرجَ الذينَ يباهلونَ رسولَ اللهِ - ﷺ - لرجعوا لا يجدونَ أهلاً ولا مالاً**» [رواه أحمد (٢٢٢٥) بإسناد صحيح][1].

ثم أخبر تعالى عن شدّة تعلّقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها، فقال:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: لن يتمنّوا الموتَ مهما عاشوا، بسبب ما صدر عنهم من كفر وجحود.

وهذا خاصٌّ بالمعاصرين له ﷺ، لأن الآية تخاطِبُ النبيَّ ﷺ، وتأمره أن يقول هذا الكلام لليهود، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر، فأمر

---

(١) جامع البيان: ١/٣٣٦.

النبيَّ ﷺ أن يخاطب اليهود بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

واستمرت الآيات تبيّن شدّة حرصهم على الدنيا، وتعلّقهم بها، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ مهما كانت، أيَّ حياة، لا يهمّ أن تكون حياة كريمة، ولا حياة مميزة على الإطلاق، حياة فقط ـ كما قال سيّد قطب رحمه الله ـ حياة، بهذا التنكير والتحقير، حياة ديدان أو حشرات، حياة والسلام، إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفعُ رأسَها إلّا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المِطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباهُ جُبناً وحرصاً على الحياة، أي حياة(١).

ولا شك أنهم قاطعون بأنّه لا يخلو يومٌ من هذه الحياة عن كدر، فإنهم يعلمون أنها ـ وإن كانت غاية الكدر ـ خير لهم مما بعد الموت(٢).

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: وهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا.

وأفردهم بالذكر مع أنهم من جملة الناس، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص، للمبالغة في توبيخ اليهود، فإنّ حرصهم ـ وهم معترفون بالجزاء ـ لمَّا كان أشد من حرص المشركين المنكرين له، دلّ ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار(٣).

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٢/ ٦٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ١/ ١٣٢.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: يتمنى اليهودي لو يطول عمره ألف سنة، والمراد من الألف الكثرة.

ولن يخلّصه طول العمر من العذاب يوم القيامة:

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: ومهما طال عمره فلا نجاة له من العذاب، **والزحزحة**: تحريك الشيء الثقيل، مما يدلّ على شدّة استحقاقهم للعذاب، وكثرة الأسباب التي تجذبهم إليه.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والله عليم بحقيقة أعمالهم، ومُجازيهم عليها. **والبصير**: العالم بكنه الشيء، الخبير به.

- **عداوتهم للملائكة:**

وامتدّ حقد اليهود وحسدهم إلى أمين الوحي جبريل عليه السلام، لأنّه نزل بالرسالة على النبيّ ﷺ، قال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: فإنّ جبريل نزّل القرآن الكريم على قلب النبيّ ﷺ.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره سبحانه، فلم ينزل عليه السلام على النبي ﷺ باختياره، وإنّما نزل بأمر الله تعالى.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فعداوة اليهود لجبريل عليه السلام عداوةٌ في الحقيقة لله تعالى ولجميع الملائكة، لأنّهم لا يتحركون إلّا بأمره سبحانه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وخصّ الله تعالى جبريلَ وميكائيل بالذكر تشريفاً لهما، وتنويهاً بمكانتهما بين الملائكة.

فجبريلُ: أمينُ الوحي، ينزل به على الأنبياء والرّسل.

وينزل **ميكائيل** بِالخصب والخير والمطر بأمره تعالى أيضاً، واليهود يحبّونه.

وعداوتهم لجبريل عداوةٌ لله سبحانه ولجميع الملائكة، تمتد حتى لميكائيل الذي يحبّونه، ويترتب عليها الكفر، ولهذا قال تعالى في ختام الآية:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقد روى **البخاري** في «صحيحه» [٦٥٠٢]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**» ولهذا غضبَ اللهُ لجبرائيلَ على مَن عاداه(١).

وقد نزل جبريل على النبي ﷺ بالآيات الواضحات الدلالة، على صدقه وصحة رسالته، فلا عذر في الإعراض عنها وجحودها.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: المتمرّدون المتمرّسون بالفسق والفجور، الذين اعتادوا على نقض العهود.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ أيَّ عهدٍ، هكذا على الإطلاق.

﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: طرحه ونقضه فريقٌ منهم.

وأصل **النبذ**: طرح ما لا يعتدّ به، وما مِنْ شأنه أن ينسى، فأيُّ عهدٍ مع

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٩٣.

اليهود لابدّ أن يقوم بعضُهم بنقضه والإعراض عنه، وهذا الفريقُ هو الفريق الأكبر فيهم، إذ قال تعالى بعد ذلك:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولهذا لمّا جاءهم خاتم الأنبياء ﷺ برسالة القرآن الكريم، الذي أخبرت عنه التوراة، نبذه وطرحه أكثرهم، كما فعلوا في الكتب السابقة:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة.

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ وهم أكثر اليهود كما مرّ معنا.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: طرحوه وراء ظهورهم، وهذا تمثيل لشدّة إعراضهم عن القرآن الكريم.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله تعالى، الذي أخبرت عنه التوراة، وأمروا بالتمسّك به إن أدركوا زمن نزوله.

ودلّ قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنّهم نبذوه وهم يعلمون أنّه منزل من الله تعالى، وأنّهم رفضوا الانقيادَ له واتّباع شريعته عن علم ومعرفة، وما حملهم على ذلك إلّا عداوتهم للنبيّ ﷺ وحسدهم وبغيهم.

- **اتّباعهم للشياطين:**

ولقد نبذ القومُ التوراةَ، كما نبذوا القرآن الكريم، وأعرضوا عن جميع الشرائع التي أنزلها الله تعالى، واتّبعوا ما تشرعه لهم شياطينُ الإنس والجن، مما يوافق أهواءهم، ويمكّنهم من نشر الفساد بين العباد، قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أي: واتبعوا ما تقوله الشياطين وما تنشره وتذيعه في مُلك سليمان.

قال الراغب الأصفهاني: «تتلو: بمعنى تكذب وتختلق، يقال: تلا عليه إذا كذب، وتلا عنه إذا صدق، نحو: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [آل عمران: ٧٥]»(١).

وفي الآية توبيخٌ من الله تعالى لأحبار اليهود، الذين أدركوا رسول الله ﷺ، وجحدوا نبوّته ورسالته، وهم يعلمون أنّه رسول الله، وتأنيب منه لهم في رفضهم تنزيله، وهجرهم العمل به، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله، واتّباعهم واتّباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين في عهد سليمان(٢).

وقد كان سليمان ﷺ نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل، جمع الله تعالى له النبوّةَ والمُلْك، واستجاب دعوته التي قال فيها: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [صَ: ٣٥].

فمكّن الله تعالى له في الأرض، وسخّر له من القوى والطاقات فيها ما لم يسخّره لغيره من البشر، ومن جملة هذه القوى والطاقات المسخّرة له مَرَدةُ الجنّ والشياطين، سخّرهم الله تعالى له، حتى كانوا يأتمرون بأمره، ويعملون له

(١) انظر: هامش المحرَّر الوجيز: ١/ ٤١٣.
(٢) جامع البيان: ١/ ٣٥٤.

ما يشاء من الأعمال الكبيرة، والمنشآت الضخمة الهائلة، معجزةً له عليه السلام، وبرهاناً على صحة نبوّته، وصدق رسالته، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص].

وقال أيضاً: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ][1].

وبعد موته عليه السلام أشاع الشياطينُ بين الناس أنّه كان ساحراً، وأنه ما أخضعهم إلّا بقوة سحره، وانتشرت هذه الشائعات بين اليهود على وجه الخصوص، بسبب شدة عداوتهم للأنبياء عليهم السلام ـ كما مرّ ـ وتناقلها الخَلفُ منهم عن السلف، ولهذا أنزل الله تعالى هذه الآيات تبرّئُ سليمانَ من تهمة السحر، وتردّ ما أذاعته الشياطين عنه، وتبيّن في الوقت نفسه حقيقة السحر ومصدره:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ كما زعمت الشياطين، وما عمل بالسحر، فسليمان نبيٌّ كريمٌ معصومٌ من ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ باستعمال السحر وتعليمه للناس.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ فالشياطين هم الذين يعلّمون الناس السحر، فهم مصادره الأساسية، ومصادر كل شرّ.

والسحر موجودٌ قبل عهد سليمان، وشأن سَحَرَةِ فرعون وقصتهم مع نبيّ الله موسى عليه السلام مشهورةٌ ومذكورةٌ في آيات قرآنية كثيرة، واستدل بهذه الآية من يرى أن تعلّم السحر كفر.

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

وكما برّأتِ الآيةُ النبيَّ الكريم سليمان ﷺ من تهمة السحر، ونفته عنه، كذلك نفته الآية الكريمة عن المَلائكة، وبرّأت ساحتهم منه:

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أي: وما أنزل الله السحر على الملكين، كما زعم اليهودُ فيما يتناقلونه من أخبار.

وقد سرت بعضُ هذه الأخبار ـ مع الأسفِ الشديد ـ إلى بعض المفسِّرين، فأثبتوها في كتبهم، وقد أخبرنا سبحانه أنّه ما أنزلَ الملائكة ليعلّموا الناس شيئاً غير الوحي الذي أراد إنزاله إلى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال منكراً على مَن طلب إنزال الملائكة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

فالملائكةُ ما أنزلهم الله تعالى إلّا على الأنبياء ﷺ، ولعلَّ مراد الآية تبرئة جبريل وميكائيل، اللذين سبق ذكرهما في الآية السابقة، لأنّ سَحَرَة اليهود ـ فيما ذكر ـ، كانت تزعمُ أنّ الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ﷺ، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيّه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قطّ، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، فأخبرهم أنّ السحرَ من عمل الشياطين(١).

﴿بِبَابِلَ﴾ أي: يعلّم الشياطينُ الناسَ السحر ببابل، وهي بلدة في جنوب العراق، كان لها شهرة كبيرة في الحضارة القديمة التي عُرِفَت بحضارة ما بين النهرين، وكانت حينئذٍ أكبرَ المدن وأشهرَها.

ويبدو أن اليهود تعلموا السحر في بابل، عندما سلّط الله تعالى عليهم البابليين في عهد ملكهم بختنصَّر، في القرن السادس قبل الميلاد، فقد قتلَ منهم مقتلةً عظيمة، وأخذ عدداً كبيراً منهم أسرى إلى بابل، وفي أثناء أسرهم اختلطوا بأهل بابل، وتعرّفوا على السحرة فيها، وتعلموا منهم فنون السحر.

---

(١) جامع البيان: ١/ ٣٥٩.

﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ وهما اسمان أعجميان.

يبدو ـ والله أعلم ـ أنهما كانا أشهر سَحَرَة بابل، الذين تعلّم بنو إسرائيل منهم السحر، وأنهما كانا معروفين مشهورين بين اليهود في زمن نزول القرآن الكريم، ولهذا خصّهما الله تعالى بالذكر، وما نقل عن أحد من يهود المدينة أنه أنكر ذلك، مع حرصهم الشديد على تكذيب النبيّ ﷺ، والاعتراض على التنزيل الحكيم، وأنهما كانا يتظاهران بالصلاح والتديّن، لكي يخدعا السُّذَّج والبسطاء من الناس، ولهذا كانا ينصحان كلَّ مَن يعلِّمانه السحر ألّا يكفر، قال تعالى:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وابتلاء.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعمال السحر.

وحكى المهدوي[١] أنه استهزاء، لأنَّهما إنما يقولانه لمَن قد تحقَّقا ضلاله[٢]، ونقل ذلك عنه القرطبي في تفسيره مؤيّداً له[٣].

ويعضد هذا القول الذي حكاه المهدوي: أنّ النبيَّ ﷺ حذّرنا من أئمة الضلال، الذين يتظاهرون بالصلاح والتقوى، لكي ينشروا بين الناس الفساد والضلال، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرجُ في آخرِ الزَّمانِ رجالٌ يَخْتِلُونَ الدنيا بالدين، يلبَسُونَ للناسِ جلودَ الضأنِ من اللينِ، ألسنتُهم أحلى من العَسَلِ، وقلوبُهم قلوبُ الذئابِ، يقول الله** عز وجل: **أبي يغترّون؟ أم عليّ يجترئون؟ فَبي حلفت لأبعثنَّ على أولئك منهم فتنةً تدعُ الحليمَ حيرانَ**» [رواه الترمذي (٢٤٠٤) وقال: حديث حسن].

ولكنّ هذا المعنى لا يتّفق مع ترتيب كلمات الآية، ولابدّ ـ كما قال القرطبي رحمه الله ـ من تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على

(١) هو أبو العباس أحمد بن عامر المهدوي، صاحب كتاب (التحصيل لفوائد التفصيل الجامع لعلوم التنزيل).

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٤٢٢.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ٥٤.

الملكين، ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾، هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه[(١)].

وبهذا المعنى تتّفق الآية تماماً مع سياقها من الآيات.

وللتقديم والتأخير نظائر في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمّى لكان عذابهم لزاماً.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي: فيتعلّم الناسُ من هاروت وماروت.

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: ما يكونُ سببَ خصام وخلاف وإحداث الفرقة بين الزوجين، وهو من كبائر الذنوب، ومن أعمال شياطين الإنس والجنّ، تتنزّه الملائكةُ عن فعله وتعليمه للناس.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماءِ، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، قال: ثم يجيءُ أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرّقتُ بينَه وبينَ امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنتَ**» [رواه مسلم (٢٨١٣)].

وقد تبرّأ النبيُّ ﷺ ممّن يفعل ذلك، فعن **بُريدة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ليسَ منّا مَنْ حلفَ بالأمانة، ومَن خبَّبَ على امرئٍ زوجته أو مملوكَه فليس منّا**» [رواه أحمد (٥/ ٣٥٢) بإسناد صحيح، ورواه أيضاً البزار (١٥٠٠) وابن حبان (١٣١٨). ومعنى (خبب) خدع وأفسد].

وتدلّ الآية على أنَّ للسحر تأثيراً على النفوس والقلوب والعواطف، فلا

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٥٠.

خير فيه أبداً، وهو سببٌ للشرّ والفساد والإفساد، ولهذا حرّمت الشريعة الإسلامية تعلّمه وتعليمه، وعدّه النبيُّ ﷺ من كبائر الذنوب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ**» قيل: يا رسولَ اللهِ وما هنّ؟ قال: «**الشركُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقتلُ النفسِ التي حرّمَ الله إلّا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الربا، والتولّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ**» [رواه مسلم (٨٩)].

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بقضائه سبحانه وقدره، فالسحرُ لا يؤثّر بنفسه، إلّا إذا وافق قدر الله تعالى.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الآخرة، لأنّ العملَ بالسحر كفرٌ أو كبيرة من الكبائر.

﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فيها أيضاً، وإن نفعهم في الدنيا ببعض المكاسب، فهي كسب حرام، لا يبارك الله فيه، فالسحر شرٌّ بحت، وضرر محض، غير نافع في الدارين، لا تعلّق له بانتظام المعاش ولا المعاد، وفي الحكم عليه بأنّه ضارّ غيرُ نافعٍ تحذيرٌ بليغٌ من تعاطيه، وتحريض على التحرّز عنه(١).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود الذين تعلّموا السحر، وأعرضوا عن الكتاب المنزل عليهم.

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختاره وهجر من أجله كتاب ربّه.

﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ما له يوم القيامة نصيب في رحمته تعالى وجنّته.

وبعد أن قبّحت الآية عملهم ذمّتهم عليه:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شدّة العقوبة عليه والعذاب بسببه.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/ ٣٤٥.

وتبدو شدّة خسارتهم إذا قورنت بثواب الله تعالى وطاعته، ولهذا قال تعالى بأسلوب يغلب عليه التحسّر على ما يفوتهم يوم القيامة من الثواب الجزيل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ١٠٣﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بما أنزل الله تعالى.

﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عذابه بطاعته والاستسلام لأحكام دينه وشرعه.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ مما اختاروه لأنفسهم، وتنكير المثوبةِ للتقليل، فأدنى ثواب يتفضل به الله تعالى على عباده، خيرٌ من الدنيا وما فيها.

﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ثوابه سبحانه خير.

• **تأديب وتحذير:**

هكذا أظهرت الآيات ـ بعرضها لمواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، واستقرائها لها ـ ضخامةَ قاعدةِ هرم الجحود والعناد، الذي وضعت في قمته الكافرين، وفي وسطه المنافقين، وفي قاعدته أهل الكتاب.

وأظهرت أيضاً بأسلوب التحدّي والمواجهة صدقَ القرآن الكريم، وأنه حقّاً الكتاب الذي لا ريب فيه، وصحّة نبوّة النبي الخاتم ﷺ، الذي بشّرت به الكتب السابقة، وبهذا مهّدت لإبراز ميزة الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع، وهي ميزة **السماحة واليُسْر والمرونة في أحكامها**، وبيّنت صلة ذلك برضا المكلّفين بها، ومسارعتهم إلى تنفيذ أحكامها، إذ كان من حصيلة مواقف العناد والجحود، وعدم الانقياد والاستسلام، والتباطؤ في تنفيذ التكاليف والأحكام، التشديد في أحكام الشريعة، ومضاعفة التكاليف، كما سبق بيانُه في قصة بني إسرائيل مع موسى عندما كُلِّفوا بذبح البقرة.

ولهذا جاء تعقيب الآيات الكريمة على جميع ما سبق، في أول نداء لها في السورة توجهه إلى المؤمنين، يجمع بين التأديب والتحذير، تأديب لهم بالآداب

الطيبة الحسنة اللائقة بالمؤمنين، وتحذير لهم من مثل مواقف العناد والجحود التي سبق ذكرها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناداهم الله تعالى بأعظم ما يمتازون به على غيرهم، وبأحبّ الصفات إليهم، وهي صفة الإيمان به تعالى وحده، وبرسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وبصدق نبوّة النبيّ ﷺ.

﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ أي: لا تقولوا للنبيّ ﷺ هذه الكلمة ﴿رَٰعِنَا﴾؛ لأنها تحتمل معنًى سيئاً، وكان اليهود يقصدون هذا المعنى عندما يقولونها للنبيّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ٤٦].

فيمكن أن تحمل على معنى الرعونة، وهي الحمق، فقولهم: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: فعلتَ رعونةً، أو صرت ذا رعونة، ويمكن أن تكون مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين، كأنّهم قالوا: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا، فنهاهم الله تعالى، وبيّن أنه لا بدّ من تعظيم الرسول ﷺ في المخاطبة(١)، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ أي: انتظرنا وتأنَّ علينا، أو انظر إلينا.

والمراد أنه ينبغي عليكم أيها المؤمنون أن تتأدبوا مع رسول الله ﷺ، وتختاروا عند مخاطبته ﷺ الكلمات اللائقة بمقامه العالي الرفيع، والتي

(١) تفسير الرازي: ٣/ ٢٤٢.

لا تحتمل أيّ معنى فيه إساءة أدب معه عليه الصلاة والسلام، وتدلّ على التسليم والخضوع لأوامره وتوجيهاته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَٱسْمَعُوا۟ۗ﴾ أي: اسمعوا ما يأمركم به النبيّ ﷺ سماع قبول وانقياد وإجابة، لا سماع عناد وجحود، كما فعل اليهود مع نبيّهم موسى عليه السلام، عندما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب عنادهم وعدم انقيادهم وإسلامهم.

وكشفت الآياتُ للمؤمنين شدّة بغض الكفّار لهم، وما تحمله قلوبهم من ضغينةٍ وحسدٍ، بقوله تعالى:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ أي: ما يحبّ الكفّار، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من المشركين، أن يُنزِّل الله تعالى عليكم الخير، الذي أنزله عليكم في القرآن الكريم، وبعثة النبي الأمين ﷺ، فالقوم يحسدونكم على إسلامكم واتّباعكم للنبي ﷺ، ويعلمون أنّ خيراً كثيراً مَنَّ الله تعالى به عليكم، فاعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة، التي أنعم الله بها عليكم، فخصّكم بها، واصطفاكم لها.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ وهو سبحانه العليم الحكيم، فهو أعلمُ حيثُ يجعل رسالته، وحيث يجعل هدايته أيضاً.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فله سبحانه الفضل العظيم والمنّة على خلقه، وليس لأحدٍ سابقةُ استحقاقٍ عليه جلّ وعلا، فالفضلُ له أولاً وآخراً.

فإحسانه على بعض عباده من محض فضله، وحرمان بعضهم ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وحكمته تعالى.

• **التدرّج في التشريع والنسخ:**

ومن فضله تعالى أنه جعل الشريعة الإسلامية شريعةً سمحةً ميسَّرة، لا عُسْر فيها ولا حرج، ومن رحمته تعالى بخلقه وحكمته أنه ما أنزلَ القرآنَ الكريمَ جملةً واحدةً، وما كلّفهم بأحكامه دفعةً واحدةً، بل أنزله سبحانه على نجوم فرّقها على زمن التنزيل، الذي امتدّ ثلاثاً وعشرين سنة، فما تمّ الدين، واكتمل البناء التشريعي إلّا في آخر حياة النبيّ ﷺ، عندما أنزل الله عليه قوله الكريم، عشيّة يوم عرفة، من العام العاشر من الهجرة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد استدعى التدرّج في الأحكام في أثناء فترة التنزيل هذه، تشريع بعض الأحكام لفترة معينة ثم نسخها، وهو مظهر يدلّ على سماحة الشريعة ويُسرها، وأنها شريعة الرحمة حقّاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحاول يهودُ المدينة المنوّرة الذين أُنزلت عليهم التوراة جملةً واحدةً، وشدّد الله عليهم في أحكامها ـ كما مرّ معنا ـ أن يستغلوا ميزة الشريعة الإسلامية هذه، ووقوع النسخ في بعض أحكامها، لكي يشكّكوا في صحة نبوّته ﷺ، ويطعنوا في صدق رسالته ﷺ، فأنزل سبحانه ردّاً عليهم، وتحذيراً للمؤمنين من التأثّر باعتراضاتهم ومطاعنهم، وتعزيزاً لثقتهم بكتابهم وشريعتهم، قوله الكريم:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: ما نرفع من آية ونزيلها.

والنسخ يمكن أن يكون لحكم الآية فقط مع بقاء تلاوتها، ويمكن أن يكون لحكمها وتلاوتها.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نذهبها من القلوب، من النسيان، ويكون هذا عند نسخ التلاوة والحكم جميعاً.

وفي قراءة: (**ننسأها**) أي: نؤخرها، من النسأ، وهو التأخير، والمعنى: نؤخّر نزولها، كآيات تحريم الخمر، إذ أخَّر سبحانه تحريمها، مع أنهم سألوا رسول الله ﷺ عنها، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ...﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: بآية هي خيرٌ للعباد، وأصلحُ لهم من الآية المنسوخة، فالخيريةُ في نفعها للعباد، ومراعاتها لمصلحتهم، لا أنَّ آيةً خيرٌ من آيةٍ، فكلامُه تعالى كله في الخير والفضل سواء.

﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في الصلاح والثواب.

ثم اتجهت الآية بالخطاب إلى النبي ﷺ بأسلوب التقرير والتأكيد:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه قادر على النسخ، والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو أكثر ملاءمةً وصلاحاً للعبادِ من الحكم المنسوخ، فالتشريعُ منوط بمحضِ مشيئته تعالى وحكمته، لا يشاركه فيه أحد، فهو وحده سبحانه الخالق والمالك والمدبّر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾، ولهذا ينبغي أن يكون له وحده حقُّ التشريع والحاكمية، لأنّه وحده مالك السماوات والأرض، يُشرِّع في ملكه ما يشاء، وينسخ من الأحكام والشرائع ما يشاء سبحانه.

وجاء بعد تقرير هذه الحقائق التحذيرُ، ولهذا التفت الخطاب إلى المؤمنين:

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا تتولّوا غيره، ولا تستنصروا بسواه، ولا تتأثّروا بافتراءات المُغرضين، واعتراضات المعاندين، واستسلموا لحكمه، وتمسكوا بشريعته.

وتابعت الآياتُ تحذيرَ المؤمنين من مثل مواقف بني إسرائيل من نبيّهم موسى عليه السلام:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾؟ أي: أبعدَ أن علمتم أنَّ الله مالِكُ المُلكِ، وأنّه صاحِبُ الأمر والنهي، تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ.

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾ عندما قال له بنو إسرائيل: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. وعندما سألوه عن أوصاف البقرة، ولم يبادروا إلى طاعته وتنفيذ أمره، كما مرّ في [سورة البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

فالاستفهام في الآية يفيد الإنكار، واستبعاد اتّصاف المؤمنين بمثل ما اتّصف به اليهود.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ بسبب إعراضه عن طاعة نبيّه ﷺ، أو اعتراضه عليه، وإساءةِ الأدب معه، وعدم المسارعة إلى تنفيذ أوامره.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ الطريق المستقيم، وابتعد عن الشرع القويم.

- **من أخلاق الإسلام:**

ويتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولهذا تمنّى أهل الكتاب زوال نعمة الإيمان عن المؤمنين، وانتكاسهم إلى حمأة الكفر، وهو ما كشفت عنه الآيات الكريمة بقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ

أَنفُسِهِم﴾ أي: حسداً نابعاً من أعماق أنفسهم؛ لم يجدوه في كتاب، ولا أمروا به.

وودادتهم هذه ليست نابعة من حبّهم لدينهم، وتعصبهم له، وإنّما مصدرها الحسد الذي يملأ نفوسهم، فلا يهمّهم أن تدخلوا في دينهم، بقدر ما يهمّهم أن يُخرِجوكم من دينكم، ويجعلوكم تنبذون كتابكم، وتعرضون عن شريعتكم، هذا الذي يتمنّونه، ومن أجله يرسمون الخطط، ويعقدون المؤتمرات، ويرصدون له الأموال الكثيرة، وتستهدف جهود التنصير الموجّهة إلى الشعوب المسلمة تكفير المسلمين، وإبعادهم عن دينهم أكثر من تنصيرهم.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي: من بعدِ علمهم أنّكم على الحق، فحرصهم على تكفيركم معاندةٌ للحق وجحودٌ له، لا جهلٌ به.

وفي هذا إشارة إلى أنّ معرفة الحق لا تكفي للإيمان به، لابدّ أن يكون معها انقياد له ورضا به، ومعرفة الإيمان لا تمنع من الكفر أيضاً، وما أكثر الكفّار جحوداً وعناداً.

وفي مقابل حسدهم للمؤمنين وبغيهم عليهم، أمر الله تعالى المؤمنين أن يقابلوهم بالعفو والصفح، ودفع السيئة بالحسنة، فقال:

﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ أي: تجاوزوا عن حسدهم وبغيهم، وارتفعوا إلى المستوى السامي الرفيع للأخلاق الإسلامية، ما دام حسدهم حبيسَ صدورهم فقط.

أما إذا دفعهم الحسدُ إلى البغي والظلم والعدوان، فحينئذٍ شرع الله لكم قتالهم، وأمركم بجهادهم، لدفع شرّهم وفسادهم، وهو ما دلّ عليه قوله سبحانه:

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أي: حتى يشرع الله لكم حكمه، وهو الإذن بقتالهم، وضرب الجزية عليهم.

وقد شرع لهم تعالى قتالهم بعد ذلك بقوله الكريم: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورأى أكثر المفسّرين أنّ آيةَ القتالِ هذه قد نسخت آية العفو والصفح[١]، مع أنّ العفو والصفح في الآية مقيّد بحالة معينة، ويمكن أن تتكرر هذه الحالة بتوالي العصور، وتغيّر الأحوال والظروف، والإسلام شرع الأحكام الملائمة لكل الحالات والظروف، فلا ينبغي المسارعة إلى القول بالنسخ كما فعل كثيرٌ من المفسرين، فالأمر بالقتال، ومسالمة الأمم والشعوب، أمران مشروعان في الإسلام، وقد قال العلّامة البيضاوي: الأمر بالقتال غير مطلق[٢]، فهو منوطٌ بما يراه وليُّ أمر المسلمين، فإذا رأى أن المصلحة تقتضي مسالمتهم سالمهم، وإذا رأى أن المصلحة تقتضي قتالهم قاتلهم، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو سبحانه قادر على الانتقام منهم، وينصركم عليهم عندما يأمركم بقتالهم، ففيه بُشرى للمؤمنين بنصره سبحانه لهم.

فلا ينبغي لحقد أهل الكتاب عليكم وحسدهم لكم أن يعوقكم عن طاعة ربكم وعبادته، دعوا قلوبهم تحترق بنار الحسد والغمّ والكمد:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ واستكثروا من فعل الخيرات والطاعات، فإنّكم ستجدون ثوابها عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فلا يضيعُ عنده تعالى عملُ عاملٍ، ولا ينقصُ منه شيئاً، بل يزيدُه سبحانه بفضله

---

(١) علماء السلف يطلقون النسخ ويريدون به تخصيص العام وتقييد المطلق، خلافاً لما عليه متأخرو الأصوليين.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ١٧٩.

وكرمه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

- **تناكر وتجاحد:**

ثم وسّعت الآياتُ دائرةَ تحذير المؤمنين، وتنبيههم إلى مصادر الخطر، ببيان ما يدّعيه أهل الكتاب من يهود ونصارى، بأنّهم وحدهم الفائزون الناجون يوم القيامة، وأنه لن يدخل الجنة أحد غيرهم:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ وهذا قول اليهود.

﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وهذا قول النصارى أيضاً.

فقد ادّعت كل طائفة أنَّه لن يدخل الجنّة إلّا مَنْ كان على ملّتها، فأكذبهم الله تعالى، وردّ دعوى الفريقين، كما ردّ دعوى اليهود من قبل، أنّ النار لن تمسّهم إلّا أياماً معدودة [انظر: سورة البقرة: ٨٠].

ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، فقال:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي تمنّوها على الله بغير حق، ومن غير دليل، ولهذا أمر سبحانه النبي ﷺ أن يطالبهم بالدليل على هذه الدعوى:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فالفوز بالجنّة لا يكون بمجرد الأماني، بل بالاستسلام لله والخضوع لأحكام شريعته:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم وتمنّيتم، ولكن:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: خضع واستسلم لله تعالى وحده.

فأصل **الإسلام** الاستسلام، وهو الخضوع، وخصّ الوجه بالذكر لأنّه أشرف الأعضاء[1]، ولهذا كان وضعُ الوجه على الأرض في السجود لله تعالى دليلٌ على كمال الاستسلام والخضوع له جلّ وعلا.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في قوله وعمله وسلوكه.

والإحسان: إتقان العمل نتيجة الشعور بمراقبة الله تعالى، كما مرّ معنا في الحديث الشريف: عندما سُئِلَ ﷺ عن الإحسان فقال: «**أن تعبدَ الله كأنّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ويلاحظ أنه تعالى في معرض الردّ على اليهود والنصارى، بيّن أن دخول الجنة لا يقتصر على نوع أو جنس معين من الناس، فلم يقل: الجنة للمسلمين فقط، بل بيّن سبحانه أن دخول الجنّة مرتبط بمبدأ عام شامل لكل الناس، وكل مَن التزم بهذا المبدأ دخل الجنّة بفضله تعالى، فأبواب الجنّة مفتّحةٌ للجميع، وعلى طُلّابها أن يسلكوا الطريق المؤدّي إليها، فالإسلامُ حريصٌ على نفي التعصّب عن الناس، ويربّي المسلمين على أن يكونوا مسلمينَ اعتقاداً وعملاً، بالتزامهم بمبادئه وأحكام شريعته، لا أن يكونوا مسلمين بمجرَّد الانتماء الفارغ المجرد عن أيّ تطبيق عملي وسلوكي، كما هو ـ مع الأسف ـ حال كثير من المنتسبين إلى الإسلام في العصر الحاضر.

وقد أدّى التعصّب الممقوت بالمنتسبين إلى المِلَل الإلٰهية ذات الأصل الواحد، إلى الاختلاف والاقتتال، وإنكار كل فريق ما عند الفريق الآخر، وجحد نبوّة ورسالة أنبياء الآخرين، وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله:

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ١٨٠.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: ليسوا على شيءٍ يصحُّ ويعتدُّ به، وبهذا جحدوا نبوّةَ عيسى عليه السلام، وكفروا برسالته.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ وبهذا كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة التي أنزلها الله عليه.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: وكِلا الفريقين يقرؤون الكتاب المُنزَّل عليهم، يقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النصارى الإنجيل، ولا خلافَ بين الكتابين في أصول الاعتقاد.

فالإنجيلُ يشهد بصحة وصدق التوراة، كما يشهد القرآن الكريم بصحة وصدق التوراة والإنجيل، وعيسى عليه السلام أُرسل إلى بني إسرائيل، كما أُرسل إليهم موسى عليه السلام، وعلّمه الله تعالى التوراة كما علّمه الإنجيل، وأقرّ عليه السلام برسالة موسى عليه السلام وصدّق بالتوراة، بيّن سبحانه كل ذلك في القرآن الكريم فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عِمرَان].

فلِمَ هذا التناكر والتجاحد؟! إنه التعصّب الممقوت، هو الذي دفعهم إليه، وهو الذي دفع أيضاً المشركين وعبدة الأصنام إلى أن يجحدوا رسالة النبيّ ﷺ ويُعرِضوا عنها:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين لا علم عندهم، ولا كتاب نزل عليهم.

﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى.

فقد أنكروا رسالة القرآن الكريم، وجحدوا رسالة النبي ﷺ، وزعموا أنّ ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، في حرم الله تعالى، وبجوار بيته الحرام، هو الحق، ولهذا منعوا المسلمين الموحّدين من عبادة الله تعالى فيه، وآذوهم، واضطهدوهم، حتى اضطروهم إلى الهجرة.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهو ـ ولا شك ـ وعيد شديد.

ثم أتبعته الآيات بوعيد خاص بالمشركين، لمنعهم المسلمين من عبادة الله تعالى وحده في المسجد الحرام:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ من هؤلاء الذين منعوا المؤمنين من عبادة الله تعالى وحده، وذِكْرِه بالدعاء والاستغفار والتسبيح، في المساجد التي بُنيت لهذا الأمر، فمَنْع المؤمنين عن المسجد الحرام ـ وهو أفضلُ المساجد وأعظمُها حُرمةً ـ منعٌ عن كل المساجد، وصدٌّ عنها.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بتعطيلها عن عبادة الله تعالى فيها، فالخراب ذهاب العمارة، والعمارة إحياء المكان وإشغاله بما وُضِع له[(١)].

فالعمارةُ الحقيقية للمساجدِ هي في عبادة الله وحده في رحابها، وفي إقامة الصلاة فيها، ولا قيمةَ لتشييد بنائها، ورفع جدرانها دون أن تُعْمرَ بذكر الله وعبادته وحده فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) نظم الدرر: ٢/١١٩.

ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: المانعون.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي: لا ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا خائفين من المؤمنين.

وقد حدث كما شرع سبحانه وأخبر، فعندما فتح النبيُّ ﷺ مكّة المكرّمة بعد عدة سنوات من نزول هذه الآية، أرسل مَنْ ينادي بين المشركين قائلاً: «**مَنْ دخلَ المسجدَ الحرامَ فهو آمنٌ**» فدخلوه خائفين، خوفاً من بطش المؤمنين وانتقامهم، بعد أن كانوا متسلطين عليه، متجبّرين متكبرين فيه، يعبدون فيه الأصنام والأوثان(١).

ودلّت الآية على أنَّ مَن عمل في مساجد الله بغير ما وُضِعَت له من ذكر الله، كان ساعياً في خرابها، وناله الخوفُ في محلِّ الأمن(٢).

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: ذلّة ومهانة إن أصرّوا على كفرهم وشركهم حتى ماتوا عليه.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

- **تنزيه الحق سبحانه عن الولد:**

ولا يخفى ما في الآيات من بشارة للمؤمنين بالنصر على المشركين، فقد أنزلت هذه الآياتُ في أوائل الهجرة النبوية إلى المدينة المنوّرة، وفي أول معارك الإسلام مع الشرك، ولهذا التفتت الآيات إلى المؤمنين تواسيهم عن منع المشركين لهم عن المسجد الحرام، وعبادة الله تعالى فيه بقوله سبحانه:

---

(١) سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٤٤٤.
(٢) نظم الدرر: ٢/ ١٢١.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: له جلّ وعلا ملك الأرض كلها، مشرقها ومغربها، وقد جعلها سبحانه كلها بفضله ورحمته مسجداً لكم، يمكنكم أن تصلوا في أيّ مكان منها.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: ففي أيّ مكان استقبلتم جهةَ الصلاةِ وصلّيتم، فإنَّ صلاتكم مرضيةٌ وصحيحة عند الله تعالى، فقد جُعِلَتْ لكم الأرض كلها مسجداً، فصلّوا في أَيِّ بقعةٍ شئتم من بقاعها.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كانَ كُلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ، ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيَّما رَجُلٍ أدركتْهُ الصلاةُ صلّى حيثُ كانَ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يدي مسيرة شهرٍ، وأُعطيتُ الشفاعةَ**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) واللفظ له].

ويحتمل أن يكونَ المعنى: فأي جهةٍ تستقبلون في صلاتكم إذا تعذّر عليكم معرفة القبلة صحّت صلاتكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة، يوسّع على عباده، ولا يضيّق عليهم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلحهم ويوافقهم.

وتتّفق الآية مع سياقها من الآيات، وتمهّد في الوقت نفسه لموضوع قبلة الصلاة، الآتي قريباً في سياقها [الآية: ١٤٤].

وكشفت الآيات ما استحدثه هؤلاء المتعصبون الجاحدون في أصل عقائدهم، من انحراف عن التوحيد، وشرك وكفر:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فاليهودُ قالوا: عزيرٌ ابنُ اللهِ، والنصارى قالوا:

المسيحُ ابنُ الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، تنزّه الله تبارك وتعالى عن كل ذلك.

حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله الكريم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزّخرُف: ١٩].

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ﴾ أي: يتنزّه تعالى عن الولد، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد.

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فكيف ينسبون الولد إليه وهو خالقه ومالكه؟!.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ أي: جميع هؤلاء الذين وصفتموهم بصفة البنوّة لله تعالى، خاضعون له وحده، ومقرُّون له بالعبودية، كما في قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٧٢].

وبهذا أبطلتِ الآيةُ بأسلوبها البليغ المُعجز عقائدَهم، وبيّنت فسادَها من ثلاثة وجوه:

الأول: ببيان كماله تعالى وغناه، وتفرّده بالكمال المطلق، وتنزّهه عن الاتّصاف بصفة الولادة والولد.

الثاني: ببيان تمام ملكه، وسلطانه سبحانه، فالكلُّ مملوكٌ له جلّ وعلا، والمملوكية تنافي الألوهية.

الثالث: ببيان أن المسيح وعُزير والملائكة بريئون عن هذه الدعوى، مقرّون بوحدانيته تعالى، خاضعون لأمره، مستسلمون له وحده جلّ وعلا.

وأضافت الآيات بعدها وجهاً آخر يدلّ أيضاً على وحدانيته تعالى، وأنّه مُنزّهٌ عن اتخاذ الولد:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو خالقُ ومنشئُ السماوات والأرض على غير مثال سبق، ومُحدِثها من العدم، وكلُّ الأشياء حادثةٌ بقدرته تعالى، مسبوقةٌ بالعدم، فهو وحدَه المتفرِّدُ بالقِدَم والبقاء جلّ وعلا.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا تعلّقت إرادته ومشيئته بوجودِ شيءٍ.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ بأمره التكويني القدري.

﴿فَيَكُونُ﴾ كما قدّر وأراد جلّ وعلا، من غير امتناعٍ ولا توقّفٍ، ومن غير احتياجٍ إلى آلاتٍ وأسبابٍ.

ودلّت الآية على كمال قدرته تعالى، كما أشارت إلى حدوث عيسى عليه السلام، وخلقه بالكلمة التكوينية، دون تقدّم أسباب، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وكما بيّنت الآيات التشابه في الانحراف عن التوحيد بين عقائد أهل الكتاب، وبين عقائد المشركين من العرب، بيّنت أيضاً التشابه بينهم في مواقف الجحود والعناد، بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هلّا يكلّمنا الله مباشرة، ويخبرنا أنّه أرسلك إلينا.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي: معجزةٌ كما نطلب ونشتهي.

فالقومُ يريدون أن تأتيَ الآياتُ والمعجزاتُ على حسب إرادتهم وشهواتهم، وهم يتغافلون عن آيات الكتاب الكريم، وما فيها من إعجاز وتحدٍّ لهم.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كذلك قال اليهودُ والنصارى لأنبيائهم مثل قول المشركين للنبيّ ﷺ.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الفساد والجحود.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالّة على صدق النبيّ ﷺ وصحّة رسالته، وهي آياتٌ تكفي مريدَ الحق عن غيرها من الآيات والمعجزات.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: لقوم يريدون الحقّ الذي لا شُبْهَةَ فيه، من غير عناد ولا جحود، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العَنكبوت].

- **تثبيت ومواساة:**

وقد عوّدنا الله تعالى أنّه كلّما بيّن موقفاً من مواقف الجحود والعناد، من دعوة الرسول ﷺ، وجّه إليه الخطابَ مواسياً ومثبّتاً، ولهذا قال تعالى هنا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٩﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الواضحِ الثابتِ المؤيَّدِ بالبراهين القاطعة.

ودلّت صيغةُ الجمع ﴿إِنَّآ﴾ على عظمة المرسِل والمرسَل إليه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشّر المؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته، وتنذر المُعرِضين الجاحدين لنعمته بسخطه وعذابه.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ولستَ مسؤولاً عن كفر وجحود الكافرين، بعد أن بلّغْتَهم رسالةَ ربّهم، وأنذرتهم عذابه وانتقامه.

وفي قراءة: (ولا تَسْأَلْ) بالنهي والجزم، أي: لا تسأل عنهم سؤال المهتم بهم. وقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على إيمانهم، يحزنه إعراضهم

وجحودهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال أيضاً: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ثم حذّر الله سبحانه رسوله ﷺ من كيد أهل الكتاب ومكرهم، وهو في الحقيقة تحذيرٌ لأمته عليه الصلاة والسلام، إذ أخبره الله تعالى أنّه عصمه من كيدهم ومكرهم:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: لن ترضى عنك اليهودُ إلّا بالتّهوُّد، ولا النصارى إلا بالتنصُّر.

فلا تنخدعْ بمظاهر الرياء والخداع التي يتظاهرون بها أمامك، فالحقدُ والتعصبُ يملأان صدورهم ونفوسهم، والتعامل مع أمثال هؤلاء لا يكون إلّا بالتمسّكِ بالحقِّ، ومواجهتهم به:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وما عداه ليس هدًى بل هوًى.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في الكتاب المنزل عليك، الذي لا ريب فيه.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ أي: ما لك غير الله من وليّ يتولّاك.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك ويؤيدك.

وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواءهم، أو يميل أدنى ميل إليهم، ولكنّه تعالى أراد أن يُظهِرَ عزّ ربوبيته، وتفرّده بالغنى والوحدانية، أمام خيرته من عباده ومخلوقاته، كما أراد تعالى تحذيرَ المؤمنين وتثبيتهم وتأديبهم، فكأنه تعالى يقول لهم: إذا كان هذا حال الرسول إن اتبع أهواء اليهود والنصارى، فكيف يكون حالكم؟!.

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقّة].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء].

والجدير بالذكر أنَّ النبيَّ ﷺ، سلك في تأديب وتهذيب أصحابه مثل هذا المسلك، عندما قال في حادثة المرأة المخزومية التي سرقت: «**والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها**» [رواه مسلم (١٦٨٨)].

ثم بعد هذا التحذير الصريح من الانخداع بأهل الكتاب، وجّهت الآيات النبي ﷺ لكي ينصرف إلى أصحابه ويهتم بهم، بأسلوب رفيق رقيق غير مباشر:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن الكريم، فالكتابُ إذا أُطْلِقَ ينصرِفُ إلى الكتاب المعهود، الذي لا ريبَ فيه، كما تقدم في أول السورة [الآية: ٢].

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ كما تلقّوه من النبي ﷺ، لا يغيّرون فيه، ولا يبدّلون، يتدبَّرون معانيه، ويعملون بما فيه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتّصفون بهذه الصفة.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يؤمنون بالكتاب المنزل عليهم الإيمانَ الحقَّ، كما يتلونه التلاوة الحقّة.

وهي شهادة ربّانية رفيعة لأصحاب النبيِّ ﷺ، حَمَلةِ الكتابِ وأَمَنَته وحفَظَته بعده ﷺ، ولا يخفى ما في هذه الشهادةِ من تعريضٍ بأحبار اليهود والنصارى، الذين حرّفوا كتابهم، ولم يحافظوا عليه، ولم يتلوه حقّ تلاوته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك يتوعدهم ويتهددهم:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب المنزل.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى.

وعادت الآيات مرة ثانية، في ختام حديثها عن أهل الكتاب، وفي سياق تحذير المؤمنين من التشبّه بهم، إلى تكرار ندائها السابق الذي وجّهته إلى بني إسرائيل، وكأنها بهذا التكرار تخاطِبُ الخَلَفَ منهم كما خاطبت السَّلف، وفي هذه إشارة إلى استمرارهم على مواقف العناد والجحود، التي كان عليها أسلافهم:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وبهذا ختمت الآيات حديثها عن هرم الجحود والفساد، وبيان مواقف الجاحدين المعاندين.

ثم توجّهت الآيات بعد ذلك في سورة البقرة وجهةً جديدةً، إلى الحديث عن المسلمين لله تعالى، والمستسلمين لأحكامه وشريعته، وبيان مواقفهم من التكليفات التي كلّفهم الله تعالى بها، ولهذا عرضتْ في أثناء ذلك عدداً من التشريعات، فصَّلت بعضها، وأجملت بعضاً آخر، تاركةً تفصيلَ فروعها إلى السُّنَّة النبوية الشريفة، واجتهاد الأئمة المجتهدين من فقهاء الأمة.





التوحيد، وإبراهيم عليه السلام، والبيت الحرام

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ
وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ
وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ
مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن
ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ
فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ
إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ
كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ
وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ
خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ
نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ
أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ
ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ
وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ
مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ
وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ
وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ

أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ
وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن
شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى
ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

- **إبراهيم عليه السلام ومقام الإمامة:**

لا بد بعد أن أظهرت الآيات ما أحدثه أهل الكتاب من شرك في عقائدهم، وما فعله مشركو العرب من صدٍّ عن المسجد الحرام، ومنع المسلمين الموحدين من عبادة الله تعالى فيه، أن تلتفتَ الآياتُ الكريمةُ إلى الحديث عن البيت الحرام، وصلة المسلمين الموحِّدين به، وعن رافع قواعده إبراهيم عليه السلام، الذي ينتسب كلٌّ من أهل الكتاب والمشركين إليه، ويدّعي كلٌّ فريق منهم أنّه كان على ملّته، فتبيّنَ حقيقة دعوته عليه السلام، وأنه كان يدعو إلى التوحيد، وأنّه إمامُ الموحدين، وأنّه هو الذي رفع قواعد بيت الله الحرام، لعبادة الله الواحد الأحد فيه، وليكون قبلة المسلمين الموحدين في صلاتهم، وموضع حجّهم، وأداء مناسكهم.

وأبرزت الآيات في مستهل حديثها عن إبراهيم عليه السلام، استسلامه الكامل لأمر الله تعالى، ومبادرته إلى تنفيذ ما كلّفه به الحق تعالى مهما كان شاقّاً عليه:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: اذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهؤلاء الجاحدين

المعاندين، إسلامَ إبراهيم لله تعالى، وانقيادَه لأمره، وخضوعَه لحكمه، عندما كلّفه ببعض التكاليف.

فالابتلاءُ: الاختبار والامتحان. **والكلمات**: جمع كلمة، وهي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، لكنّها قد تطلق على المعاني التي تحتها(١).

وتدلّ كلمة ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾ على أنه تعالى كلّف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بتكاليفَ شاقّةٍ صعبةٍ.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنّ حقّ القيام، وأدّاهنّ أحسن أداء، من غير تفريطٍ أو توانٍ، حتى شهد له الحقّ سبحانه بذلك في قوله هنا: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

كلّفه الله بدعوةِ أبيه وقومه إلى عبادته سبحانه وحده، وترك عبادة الأصنام، فقام بذلك خيرَ قيامٍ، حتى إنّه كسّر أصنام قومه، وعرّض نفسَه لانتقامهم، وإلقائهم إياه في النار، فصبر على ذلك، كما جاء في الآيات الكريمة في أكثرِ مِنْ موضعٍ من التنزيل الحكيم، ثم كلّفه تعالى بالهجرة عن وطنه وأرض قومه، فهاجر إلى بلاد الشام، وأمره تعالى أن يضعَ ولده وأُمه هاجر ـ زوج إبراهيم ـ في وادي مكة من أرض الحِجاز، وكان حينئذٍ وادياً مقفراً، فامتثل لأمره تعالى، واستسلم لحكمه، وتركهما وحدهما ثمّةَ، وقفل عائداً إلى بلاد الشام، كما سيأتي، ثم كلّفه تعالى بذبح ولده إسماعيل عندما بلغَ سنَّ السعي، فعزم على تنفيذ أمره تعالى، وأسلم أمره مع ولده لله جلّ وعلا، ففداه الحقُّ سبحانه بِذِبحٍ عظيم، وخلد تعالى ذلك في قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصَّافات].

وغير ذلك من الابتلاءات والتكليفات التي كلّفه الحق بها، فبادر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى

---

(١) تنوير الأذهان: ١/ ١٠٢.

القيام بها، بخضوع واستسلام كاملين لله جلّ وعلا، ولهذا أكرمه الله تعالى بمقام الإمامة بين الناس:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: إماماً يأتمّ به الناس.

فالإمام: اسم لمَن يؤتمّ به، وكلّ نبيّ إمام لأمّته، وإمامته عليه السلام عامّة مؤبّدة، إذ لم يُبعث بعده نبيٌّ إلّا كان من ذريته، مأموراً باتّباع ملّته[1].

فالإسلام لله تعالى ملّة إبراهيم عليه السلام، ومعناه ـ كما مرّ معنا ـ الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: ١٢٣].

فلإبراهيم عليه السلام مكانة عند جميع أتباع الشرائع السماوية، ويدّعي كل فريق منهم أنّه كان على ملّته، وأنّه أولى به من غيره، حتى قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: قال إبراهيم: واجعل من ذريتي أئمة يُقتدى بهم. **وذرية الرجل**: أولاده ونسله.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال ما أعطيتك من الكرامة والإمامة، الظالمين من ذريتك، فالظالمُ لا يصلحُ أن يكون إماماً، وهو الذي يظلم نفسه بالكفر والفجور، أو يظلم غيره بالبغي والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس ردّاً لدعوته عليه السلام، بل إجابة

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/١٥٦.

خفيّة لها، وعِدَةٌ إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذرّيته ﷺ بنيل عهد الإمامة[١].

● **البيت الحرام:**

ومن ذِكْرِ إبراهيم ﷺ، وإمامته الكبرى، انتقلت الآياتُ إلى ذِكْرِ بيت الله الحرام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة المشرّفة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

ويدخل فيه الحرم، فإنّ الله وصفه بكونه آمناً، وهذه صفةُ جميع الحرم[٢].

﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يرجع الناس إليه، فكلّما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه، وهَوَت إليه قلوبهم، ببركة دعوة إبراهيم ﷺ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أو مجمعاً للناس، يجتمعون فيه كلَّ عام لأداء مناسك الحج، أو معاذاً وملجأً، إذ جعله تعالى موضعَ أمنٍ أيضاً فقال:

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلناه موضعَ أمنٍ وسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان].

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/١٥٦.

(٢) تفسير الخازن: ١/١٩٢.

ولهذا قال تعالى يذكّر قريشاً بفضله عليهم بالسكنى في حرمه، ومجاورة بيته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العَنكبوت: ٦٧].

فمكّة ـ كما قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بلدُ الأمنِ والسّلامِ، وأرضُها أرضٌ حرامٌ، حرَّمها الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض[١].

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ يومَ افتتحَ مكة: «**إنَّ هذا بلدٌ حرَّمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضِ، وهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ، وإنّه لا يحلُّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يَحِلَّ لي إلّا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامة**» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

ولـمّا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو باني البيت ورافع قواعده، وهو أول مَن دعا الناسَ إلى الحجّ إليه، أكرمه تعالى فأمر المسلمين على سبيل الندب والاستحباب، أن يصلّوا عند الحَجَر الذي بقيتْ فيه آثارُ قدميه، عندما قام عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه وهو يرفع بناء البيت، فقال سبحانه:

﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وقد صلّى النبيّ ﷺ عند المقام عندما حجّ حجة الوداع، ففي حديث **جابر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي وصف حجّته عليه الصلاة والسلام: «**حتى إذا أتينا البيتَ معه استلمَ الركنَ، فرمَلَ ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذَ إلى مقامِ إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فقرأ**: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ **فجعل المقامَ بينَه وبينَ البيتِ**...» [رواه مسلم (١٢١٨)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا كلّه ممّا يدلّ على أنّ المراد بالمقام، إنّما هو الحجَر الذي كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقومُ عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار... وكانت آثار قدميه وما تزال ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً، تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية المعروفة:

---

(١) فتح الباري: ٤/٤٦.

ومَوطِئُ إبراهيمَ في الصَّخْرِ رطبةٌ على قدميهِ حافياً غَيْرَ ناعِلِ

وقد كان هذا المقام ملتصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب، مما يلي الحِجْر، على يمينِ الداخل من الباب، وإنما أخّره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أحدُ الأئمة المهديين، والخلفاء الراشدين، الذين أُمرنا باتّباعهم»[١].

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أي: أمرنا إبراهيم وولده إسماعيل وأوجبنا عليهما.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أي: طهّرا الكعبة المشرّفة من الشرك والأوثان، وأضاف سبحانه البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتفضيل.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: للذين يعبدون الله تعالى وحدَه بالطواف حول البيت.

﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ أي: المقيمين عنده والمعتكفين.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمعُ: راكعٍ وساجدٍ، أي: المصلّين.

وقال ابن كثير: «أي طهّراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، مَعْقِلاً للطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود، وتطهيرُ المساجد مأخوذٌ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]. ومن السُّنَّة من أحاديث كثيرة، جاء فيها الأمر بتطهيرها وتطييبها»[٢].

ثم بيّن تعالى بعض الخصائص التي خصّ بها أرض الحرم، ببركة دعوات إبراهيم ﵇، ويبدو أنها من الدعوات التي دعا بها عندما وضع فيه ولده إسماعيل مع أُمه، وتركهما، وانصرف كما سيأتي.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١١٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٢٠.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ المكان الذي وضع فيه ولده إسماعيل وزوجه هاجر، والذي كان حينئذٍ مقفراً.

﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وقد أصبح بعد ذلك بلداً عامراً آهلاً، هو مكة المكرّمة، أُم القرى.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**أول ما اتخذَ النساءُ المِنطق من قِبَل أُم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفّي أثرَها على سارة، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيتِ، عند دوحةٍ فوقَ زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكّة يومئذٍ أحد، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك، ووضعَ عندهما جراباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قفّى إبراهيمُ منطلِقاً، فتبعته أُم إسماعيل فقالتْ: يا إبراهيمُ أينَ تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا. ثم رجعتْ، فانطلقَ إبراهيمُ، حتى إذا كان عند الثنيّةِ حيثُ لا يرونه، استقبلَ بوجهه البيتَ، ثم دعا بهؤلاءِ الكلماتِ، ورفعَ يديه فقال:** ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ . . .﴾ **حتى بلغ** ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أُمُّ إسماعيل ترضِعُ إسماعيل، وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاءِ، عطشتْ وعطشَ ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى، فانطلقت كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامتْ عليه، ثم استقبلتِ الوادي تنظرُ هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغتِ الوادي رفعت طرفَ دِرْعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهودِ، حتى جاوزتِ الوادي، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس ﭬ: قال النبيّ ﷺ: **«فذلك سَعْيُ الناس بينهما»**.

«فلما أشرفتْ على المروةِ سمعتْ صوتاً فقالت: صه ـ تريدُ نفسَها ـ ثم تسمّعتْ فسمعت أيضاً فقالتْ: قد أسمعتَ إنْ كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحثَ بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُهُ وتقولُ بيدها هكذا، وجعلت تغرِفُ من الماءِ في سقائها، وهو يفورُ بعدما تغرِفُ».

قال ابن عباس ﭬ: قال النبيُّ ﷺ: **«يرحمُ اللهُ أمَّ إسماعيل لو تركتْ زمزمَ** ـ أو قال: **لو لم تغرِفْ من زمزم ـ لكانت زمزمُ عيناً معيناً»**.

قال: **«فشربتْ وأرضعتْ ولدَها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضيعةَ، فإنّ هاهنا بيتُ اللهِ، يبني هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ الله لا يضيْعُ أهله، وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيولُ فتأخذُ عن يمينه وشماله»** [رواه البخاري (٣٣٦٤)].

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من أنواع الثمار.

وقد فعل سبحانه ذلك، فالثمار تأتي إلى مكة من مختلف بقاع الأرض القريبة والبعيدة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص: ٥٧].

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: ارزق المؤمنين منهم خاصّة.

ولكنه تعالى قدّر أن يكون الرزقُ في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، كما في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولهذا قال تعالى تعقيباً على دعوة إبراهيم:

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ بما قدّرت له من رزق في الدنيا، ومهما كان هذا الرزقُ فهو في الحقيقةِ شيءٌ يسير وقليل، لأنه زائل وفانٍ.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: ثم بعد ذلك ألجئه وأدفعه إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب كفره.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المكان الذي يصير إليه في نار جهنم.

• **الأمة المسلمة:**

المسجد الحرام بُني لعبادة الله تعالى وحده، لا لعبادةِ الأصنام والأوثان، وعُمّاره المسلمون المستسلمون لله تعالى، المتمسّكون بدينه وشرعه، لا المشركون الجاحدون المعاندون، رفعَ قواعِدَه نبيّان كريمان، هما إبراهيم وإسماعيلُ ﷺ، وكلّما ارتفع البنيان رفعا إلى الله دعواتٍ خاشعاتٍ، تدلّ على مدى خضوعهما لله تعالى، واستسلامهما لأمره ومشيئته جلّ وعلا:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ أي: اذكر عندما كان إبراهيم وإسماعيل ﷺ يبنيان البيت الحرام على قواعده وأساسه.

فالقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس. **ورفع القواعد**: البناء عليها.

وليس في الآيةِ تصريحٌ بمَن وضع القواعد، هل كان إبراهيم وإسماعيل ﷺ، أم كانت موجودة قبلهما، الله سبحانه أعلم، لكنّ الحديثَ الشريف الآتي يشيرُ إلى إبراهيم ﷺ:

فعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ألم تري أنَّ قومكِ حين بنوا الكعبةَ اقتصروا عن قواعدِ إبراهيمَ؟**» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أفلا تردُّها إلى قواعدِ إبراهيمَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لولا حَدَثانُ قومكِ بالكفرِ لفعلْتُ**» [رواه مسلم (١٣٣٣)].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: ربّنا تقبّل منّا عملنا لك، وطاعتنا وعبادتنا، إنك تسمع دعاءنا، وتعلم أحوالنا.

وهذا يدل على أنهما كانا يعملان، وهما في حالة خشوع وخضوع لله ﷻ، ويستشعران أنهما يقومان بعبادةٍ من أعظم العبادات، ويتقرّبان إليه تعالى بقربة من

أجلِّ القربات، ومع ذلك فخشيةُ الله تعالى تملأ قلبيهما، حتى إنّهما يسألانه أنْ يتفضّل بقبول عبادتهما، فما أعظم خشوعهما وخضوعهما عليهما السلام!.

ومع كلِّ هذا الخضوع والخشوع يسألانه سبحانه المزيد منه، فكمال الإنسان بكمال عبوديته لله تعالى، واستسلامه لأمره وحكمه:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك[1].

ولم ينسيا عليهما السلام ذريتهما، فالصّالحون يرغبون أن يكون أولادهم وأحفادهم صالحين أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولهذا ضمّا في دعائهما بعض ذريتهما قائلين:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي: واجعل من ذريتنا أُمّة مستسلمة لأمرك، خاضعة لطاعتك وشرعك.

ولعلهما اقتصرا على البعض، ولم يعمّما أدباً مع الله تعالى، الذي سبق أن قال لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولا شك أنّ العربَ هم الأمة التي تفرّعت عن إبراهيم من جهة ولده إسماعيل، والسياق ـ كما قال ابن كثير ـ إنّما هو في العرب، ولهذا قالا بعده: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعثَ فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

---

(١) جامع البيان: ١/ ٤٣٣.

وهذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وغير ذلك من الأدلة القاطعة[١].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علّمنا عباداتنا التي نتقرّبُ بها إليك عند هذا البيت، **فالعبادةُ لا تكونُ بالرأي والاجتهاد**، والمرادُ بها أعمالُ الحجِّ والعمرة، كالإحرامِ والطواف والسعي.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ من التقصير في طاعتك وعبادتك.

وهذا من كمالهما عليهما السلام، يريان أنَّ فضلَ الله عليهما أعظمُ بكثير من الطاعات التي يتقرّبان بها إليه، ولهذا يسألانه سبحانه أن يتوبَ عليهما من تقصيرهما في عبادته وشكره، وهو الحال الذي كان عليه نبيّنا ﷺ.

فقد جاء في الحديث الشريف: عن **المغيرة** رضي الله عنه يقول: إن كان النبيُّ ﷺ يقومُ ـ أو يصلّي ـ حتى ورمت قدماه ـ أو ساقاه ـ فيُقال له، فيقول: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**» [رواه مسلم (١١٣٠)].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَقْبَلُ توبة التائبين وترحمهم.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ بإجماع المفسرين، لأنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما دعا لذريته وهو بمكة، ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ[٢].

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابةُ قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله عليه وسلامه رسولاً في الأميين، إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٢٨.
(٢) تفسير الخازن: ١/ ٢٠٠.

والجن، كما روى **الإمامُ أحمد** [١٧١٥٠]: عن **العرباض بن سارية** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّي عند اللهِ لخاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لمنجدِلٌ في طينتِه، وسأنبِّئكُم بأوّلِ ذلكَ: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورؤيا أُمّي التي رأتْ، وكذلك أُمَّهاتُ النبيّين يرينَ**» وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله ما كان أولُ بَدْءِ أمرك؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى بي، ورأتْ أُمي أنَّه خرجَ منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشَّامِ**».

والمرادُ أنّ أول مَن نَوَّه بذكره وشَهَرَهُ في الناس إبراهيمُ عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياءِ بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام، حيثُ قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦][1].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي: يقرأ عليهم، ويبلغهم ما يوحى إليه من آيات القرآن الكريم.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يعلّمهم أحكامَ القرآن الكريم، ويبيّن لهم شريعته.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلّمهم وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، والإصابة في الأقوال والأفعال، أو يعلمهم أحكام السّنّة المطهرة، المبيّنة والشارحة لما في الكتاب، وسيأتي أنّ في الحكمة خيراً كثيراً: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهّرهم من دنس الشرك والرذائل والنقائص.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا مثل له.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله جل جلاله.

- **ملّة التوحيد ووصية الأنبياء بها:**

هكذا ارتفعَ البيتُ، وجلجلت في الأرض دعوةُ التوحيد وملّته، وهي ملّة

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٢٩.

إبراهيم ﷺ، الذي جعله سبحانه إمامَ الموحدين، فما بُعثَ نبيٌّ بعده إلّا من ذريته، داعياً إلى ملّته ـ كما مرّ معنا ـ فلا ينبغي لأحدٍ أن يرغبَ عن هذه الملّة:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: لا أحدَ يرغبُ عن ملّة إبراهيم، ويتركها مُعرِضاً عنها إلى غيرها، إلّا مَن استخفّ بنفسه وأذلّها.

فالاستفهام للاستبعاد والإنكار، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ للذين انحرفوا عن ملّة التوحيد، كاليهود والنصارى والمشركين، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦].

وفي ملّة إبراهيم ﷺ خير الدنيا والآخرة، دلّ على ذلك قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه مِنْ بين سائر الناس في الدنيا، وأكرمناه بحمل رسالة التوحيد ودعوته وملّته.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ مما يدلّ على أنه ﷺ ظلَّ متمسِّكاً بالحق، مستقيماً على طريقه، إلى آخر حياته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النّحل].

ولا شك أنه تعالى عليم حكيم، يعلم أين يجعل رسالته، ومَن يصطفي لحمل أمانته، وقد بادر إبراهيم ﷺ، عندما اختاره تعالى لحمل رسالته، إلى حملها دون تردّد وتباطؤ، معلناً إسلامه الكامل لله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: أسلم نفسك لله تعالى، وللقيام بأعباء رسالته التي كلّفك بها.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أسلمتُ نفسي وقلبي وجوارحي كلها لرب العالمين، الذي لا ربّ سواه جلّ وعلا.

وهكذا يكون الاستسلامُ والخضوعُ لله تعالى ولدينه وشرعه، فأينَ منه جحودُ الجاحدين وعنادُ المعاندين، الذين سبق الحديثُ عن مواقف عنادهم وجحودهم؟!.

وحِرْصُ الأنبياء على ملّة التوحيد جعلهم يوصون بها أبناءهم، فهي وصيةُ الأنبياءِ وميراثهم لأبنائهم، ومن خصائص الأنبياء التي خصّهم الله تعالى بها: أنه جعل رسالتهم ودعوتهم هي ميراثهم، فالأنبياءُ لا يورِّثون ديناراً ولا درهماً، إذ هم أعظم وأجلّ من ذلك، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**لا نورَثُ، ما تركنا صَدَقَةٌ**» [رواه البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨) واللفظ للبخاري].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بملّة التوحيد.

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: ووصّى نبيُّ الله يعقوب أولاده بمثل ما وصّى به إبراهيم، فقال كلٌّ منهما:

﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اختار لكم دين الإسلام، ووفّقكم للأخذ به.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: فاثبتوا عليه، وتمسكوا به، حتى الموت.

فهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

ويبدو أنّ اليهودَ في زمن النبي ﷺ، كانوا يدّعون أنَّ يعقوبَ عليه السلام أوصى أولاده قبل موته بالتمسُّك باليهودية، فردّ تعالى عليهم، وبيّن وصية يعقوب لأولاده، فقال:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أكنتم شهداء عندما دنا أجل يعقوب، وحضره الموت؟ والاستفهام للإنكار، أي: إنكم لم تكونوا حاضرين حينئذٍ، فلا تفتروا على يعقوب.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي: ما صفةُ المعبود الذي تعبدونه بعدي؟.. وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن على إسلام أولاده لله تعالى وطاعتهم له وحده.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ قدّموا إسماعيل على إسحاق، لأنهُ أكبر منه، وجعلوه من جملةِ آبائه وهو عمه، لأن العمّ بمنزلة الأب.

﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً لا يستحقُّ غيره العبادة والطاعة.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن مستسلمون خاضعون له وحده.

وهذا يدلُّ أن على الوالد أن يتثبّتَ من عقيدة أولاده وعبادتهم، وأن يوصيهم بالثبات على عقيدة التوحيد، والتمسك بدين الله وشريعته، وإخلاص العبادة له وحده، فهذه أفضلُ وصيةٍ يوصي بها والد أولاده قبل موته، وخيرُ ميراث يتركه لهم.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «إن هذا المشهدَ بين يعقوب وبنيه في

لحظة الموت والاحتضار، لمشهدٌ عظيم الدِّلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، ميِّت يُحْتَضَر، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هي التَّرِكَة التي يريدُ أن يخلفها لأبنائه، ويحرص على سلامة وصولها إليهم، فيسلمها لهم في محضر يسجّل فيه كل التفصيلات؟ إنها العقيدةُ، هي التَّرِكَةُ، وهي الذُّخْرُ، وهي الشغلُ الشاغِلُ الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته»(١).

إذاً ثمةَ فرقٌ كبيرٌ بين عامّة أهل الكتاب الذين غيّروا وبدّلوا وجحدوا وعاندوا، وبين ما كان عليه آباؤهم من الاستسلام والانقياد لله تعالى وأحكامه، ولهذا قال سبحانه:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: فلكلٍّ أجره وجزاؤه على عمله، ولن ينفعكم انتسابكم إليهم إن لم تسيروا على طريقتهم، «**فَمَنْ بطّأ به عملُه لم يسرعْ به نسبُه**».

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تُثابون بحسناتهم.

• **الإسلام ملّة جميع الأنبياء:**

فملّة إبراهيم هي ملّةُ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ أي: إذا ما دعا اليهود إلى يهوديتهم، والنصارى إلى نصرانيتهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٦.

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: قل لهم: بل نتمسك بملّة إبراهيم، المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، وهو دين التوحيد.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وما كان إبراهيم عليه السلام أبداً من المشركين.

وهذا تعريض باليهود والنصارى وغيرهم، من الذين يدَّعون اتباع إبراهيم، وهم مشركون.

ثم انتقلت الآياتُ من تخصيص الخطاب بالنبيّ عليه الصلاة والسلام إلى خطاب عامّة المؤمنين:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: أعلنوا إيمانكم بالواحد الأحد، المنزّه عن الشريك والولد.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ **والأسباط**: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، والمراد عامّة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي: وآمنّا بالتوراة التي أُنزلت على موسى، وبالإنجيل الذي أُنزل على عيسى.

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: وآمنّا بما أنزله الله تعالى وأوحاه إلى النبيِّين جميعاً.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا نفرّق بين الأنبياء بالإيمان فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود!.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن لله تعالى مستسلمون خاضعون مخلصون.

فالإسلام لا يفرّق بين نبي ونبي، لأنّه رسالةُ الأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام، والتفريقُ بين الأنبياء في الإيمان كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء].

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، أساسه التصديق برسالة الإسلام، الذي هو دعوة جميع الأنبياء.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: فقد أصابوا الحق، وساروا في طريق الهداية والرشاد.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: وإن أعرضوا عن الإسلام لله تعالى، وكفروا ببعض الأنبياء.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي: فإنّما هم في عداوة ومحاربة.

ولابدّ أن يترتّبَ على عداوتهم للإسلام كيدٌ ومكرٌ بنبيّه عليه الصلاة والسلام، ولهذا وعده تعالى أن يكفيه شرّهم ومكرهم فقال:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسيكفيك الله عداوتهم وكيدهم.

ولقد أنجز الله وعده لرسوله ﷺ، فعصمه منهم وردّ عنه كيدهم ومكرهم.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالهم ويعلم أحوالهم.

وملّة الإسلام أيضاً هي صبغة الله تعالى، فالتزموا بها:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: اتّبعوا دين الله، **فالصبغةُ**: الفطرة أو الدينُ.

وأصل ذلك أن النصارى يصبغون أولادهم في ماء مخصوص، ويسمّون ذلك المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغة الله أحسن صبغة، وهي الإسلام، فسمّى الدينَ صبغةً استعارةً ومجازاً، من حيث تظهر أعماله وسِمته على المتديّن، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب(١).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾؟! أي: لا أحسن من صبغة الله تعالى.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي: خاضعون مطيعون.

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول لليهود والنصارى، الذين زعموا أنّ لهم مكانة خاصة عند الله تعالى، كما حكاها عنهم سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]:

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدَّعون أن لكم مكانة خاصة عنده.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: ونحن وأنتم بالنسبة إليه تعالى سواء، تجمعنا جميعاً صفةُ العبوديةِ والافتقارِ إليه ﷻ، فهو مالكنا وخالقنا ومالككم وخالقكم.

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: ولنا أعمالنا التي سيسألنا الله عنها، ولكم أعمالكم التي سيسألكم الله عنها؛ فجميعنا مسؤولون أمامه تعالى يوم القيامة.

ونمتاز عليكم بالنسبة له جلّ وعلا بأننا مخلصون في عبادته وطاعته:

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: موحدون، لا نعبد سواه، أما أنتم فتشركون في عبادته، وتجحدون وحدانيته.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ١٤٤.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ أي: ليس الأمر كما تدَّعون، فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا مسلمين موحدين، كما مرّ معنا، ورسالةُ الإسلامِ هي دعوتهم ووصيتهم التي أوصوا بها أبناءهم، والتي ذكرها سبحانه في الكتب المنزلة عليكم، فأخفيتموها، وكتمتم الشهادةَ التي ائتمنكم الله عليها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ مِنْ علماءِ أهل الكتاب، الذين كتموا هذه الشهادة، وهم عالمون بها.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو وعيدٌ شديدٌ توعدهم الله تعالى به.

وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء السابقون، قال سبحانه مرة ثانية لهم:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

فلا تحتجّوا بهم، فكل إنسان يُسْأَلُ عن كسبه وعمله، وانتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفة لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جرّدت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجَج التي يحتجّون بها، وبيّنت أن صلتهم بالأنبياء السابقين مقطوعة، فلا صلة لهم بهم البتّة، لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في الشريعة، ولا سبيل إلى الاتصال بهم إلّا بالقرآن الكريم، الكتاب الذي لا ريب فيه، فهو رسالة النبيِّ الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

● **الأمة الوسط والقِبلة الوسط:**

وليس البيت الحرام رمزَ عقيدة التوحيد عند المسلمين فقط، بل هو رمز وحدتهم، فهو قبلتهم في الصلاة، يتوجّهون إليه عند كل صلاة من مشارق الأرض ومغاربها، وكان النبيُّ ﷺ قبل الهجرة في مكة، يستقبل في صلاته البيت الحرام وبيت المقدس، فيقف بين الركنين الأسود واليماني، فتصبح القبلتان بين يديه، ولمّا هاجر إلى المدينة المنوّرة تعذّر الجمع بينهما، فأمره تعالى أن يتوجّه أولاً إلى بيت المقدس، واستمرّ على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يوجَّه إلى بيت الله الحرام قبلة إبراهيم عليه السلام، فأُجيبَ إلى ذلك، وأُمرَ بالتوجه إلى الكعبة المشرّفة، وساء ذلك اليهود ومن والاهم من المنافقين، واعترضوا على النبي ﷺ.

وكانت الآيات قد نزلت قبل ذلك، تخبر النبيَّ ﷺ باعتراضهم وأقوالهم التي سيردّدونها، وتردّ عليهم:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم أحبار اليهود والمنافقون.

وفي الآية إخبار عن غيب مستقبل لم يقع بعدُ، ولهذا جاء بصيغة الاستقبال.

وقد وصفتهم الآية بالسفه، وهو الخفّة والطيش والجهل، كما وصفت المُعرِضين عن ملّة إبراهيم في الآيات التي مرّت: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾؟ أي: أيّ شيء صرفهم عن التوجّه في الصلاة إلى بيت المقدس؟.

والقبلة: هي الجهةُ التي يستقبلها الإنسان، وإنما سُمّيت قِبلةً، لأنّ المصلّي يقابلها وتقابله[(١)].

وسؤالهم سؤال إنكار واعتراض على التحوّل إلى استقبال بيت الله الحرام، فأُمر ﷺ أن يردّ عليهم بقوله تعالى:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فهو سبحانه المالك لجميع الجهات والأقطار، ولا يستحقُّ شيءٌ منها أن يكون لذاته قبلة، وإنما تصير قبلةً بأمره تعالى.

فالعبرة في الاستسلام لأمره تعالى وتنفيذ شرعه، وهو سبحانه:

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالهداية والرشاد في اتّباع أمره جلّ وعلا، وأمره وشرعه هو الطريق المستقيم الموصل إلى رحمته ورضوانه، وهو أوسط الطرق وأعدلها، ولهذا اختاره الله تعالى طريقاً للأمة المسلمة الموحدة، فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: وكما وجهناكم إلى القبلة الوسط، وهي بيت الله الحرام، جعلناكم أُمة وسطاً بين الأمم.

والوسط في اللغة: المكان المتوسط الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم **استعير للخصال المحمودة**، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهوّر والجبن[(٢)]، ووسط الوادي خيرُ موضعٍ فيه، وأكثرُه كلأً وماءً.

ولمّا كان الوسطُ مُجانِباً للغلو والتقصير كان محموداً، أي: إنّ هذه الأمة لم تغلُ غلوَّ النصارى في أنبيائهم، ولم تقصِّر تقصيرَ اليهود في أنبيائهم، فهي

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٢١٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٢١٣.

أوسط الأمم، أي: أفضل الأمم وأعدلها، ولهذا يقال: فلان وسط في قومه، أي: من خيارهم وأهل الحسب منهم، وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨] أي: أعدلهم[١].

والجدير بالذكر هنا أنّ مكة المكرمة ـ التي جعل الله فيها قبلة المسلمين ـ أفضلُ بقاع الأرض وأشرفها وأوسطها، فهي سرّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علميّاً أنها تقعُ في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، فقد ذكرت «مجلّةُ البحوث العلمية الإسلامية» في عددها السادس، في مقال الدكتور حسين كمال الدين تحت عنوان: «الإسقاط المكّي العام»: «وعندما تمّ توقيع حدود القارّات السبع على خريطة الإسقاط، وجدنا أنّ الحدود الخارجية لهذه القارّات يجمعها محيط دائرة واحدة، مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي إنّ مكةَ تعتبرُ مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية».

والعجيبُ أنّ بعض قدماء المفسّرين ذكروا هذه الحقيقة عند تفسير هذه الآية، فالقرطبي رحمه الله المتوفى سنة (٦٧١هـ)، قال: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى: كما أنّ الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمةً وسطاً[٢].

وكذلك قال البقاعي المتوفى سنة (٨٨٥ هـ): «ومثل ما جعلنا قبلتكم وسطاً، لأنّها إلى البيت العتيق، الذي هو وسط الأرض»[٣].

ولما جعل الله الأمة المسلمة أمةً وسطاً، كلّفها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، فمن أعظم الميزات التي تمتاز بها الشريعة الإسلامية، ميزة الوسطية والاعتدال في أحكامها، فهي تلبّي حاجات الإنسان كلها، سواء كان فرداً أم

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ١٥٣.
(٢) تفسير القرطبي: ٢/١٥٣.
(٣) نظم الدرر: ٢/٢٠٦.

جماعة، وتوفّقُ بين متطلبات عقله وجسده وروحه، فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير.

● **أُمة الشهادة والإسلام:**

والآية تشهد بالخيرية والعدالة بشكل عامّ للأمة المسلمة، وتدلّ على أن إجماع علمائها حجّة، إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم[(١)].

ولهذا أكرم تعالى هذه الأمة بمنزلةِ الشهادةِ على الناس يوم القيامة، فقال:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع يعترفون لكم بالفضل[(٢)].

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كما جاء في الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يُجاءُ بنوحٍ يومَ القيامةِ، فيُقالُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقول: نعم يا ربِّ، فتُسأل أمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا مِنْ نذيرٍ، فيقول: مَنْ شهودُك؟ فيقول: محمَّدٌ وأمتُه، فيُجاء بكم فتشهدونَ**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «**عدلاً**» ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [رواه البخاري (٧٣٤٩)].

والحديث أخرجه **أحمد** [١١٢٨٣ و١١٥٥٨] **والنسائي في الكبرى** [١١٠٠٧] وابن ماجه [٤٢٨٤] **والإسماعيلي**، بزيادة: «**فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبيُّنا أنَّ الرُّسلَ قد بلّغوا، فصدّقناه**»[(٣)].

وشرط قبول الشهادة: العدالة، وقد ثبتت لهم هذه الصفة بقوله: ﴿وَسَطًا﴾، **والوسط**: ـ كما مرَّ ـ العدل.

ثم بيّن تعالى الحكمةَ من استقبال بيت المقدس أولاً، والتحوّل بعدها إلى بيت الله الحرام، فقال:

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٢١٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٣٦.

(٣) انظر: فتح الباري: ٨/ ١٧٢.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: لنعلم الثابت على الإسلام ممّن ينكص على عقبيه، ويرتدّ عن الإسلام بسبب ضعف إيمانه.

فالموضوعُ إذاً موضوعُ اختبار وامتحان للمؤمنين، لإظهار مدى انقيادهم واستسلامهم لأحكام الله وشرعه، وشأن المؤمن المبادرة إلى تنفيذ شرع الله مباشرة دون تأخر وتردّد، سواء عرف حكمة التكليف أم خفيت عنه.

وقد نجح المسلمون نجاحاً كبيراً في هذا الامتحان، وأظهروا استسلاماً عجيباً لأحكام دين الله تعالى، حتى إنّهم بادروا إلى تنفيذ أمره سبحانه وهم في الصلاة:

فعن **البراء بن عازب** رضي الله عنه قال: **كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيتِ المقدسِ ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يحبُّ أن يوجَّهَ إلى الكعبةِ، فأنزل الله:** ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] **فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ:** ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] **فصلّى مع النبيِّ ﷺ رجلٌ، ثم خرجَ بعدما صلّى، فمرَّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر، نحو بيتِ المقدسِ، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع رسولِ اللهِ ﷺ، وأنّه توجَّهَ نحو الكعبةِ، فتحرَّفَ القومُ حتّى توجّهوا نحوَ الكعبةِ.** [رواه البخاري (٣٩٩)].

واختلفت الرواية في الصلاة التي تحوّلتِ القبلةُ عندها، وكذا في المسجدِ، وظاهرُ حديث **البراء** هذا أنها الظهر، وذكر **ابن سعد** في «الطبقات»، قال: **يقال: إنّه صلى ركعتين في الظهر في مسجدِه بالمسلمين، ثم أُمِرَ أن يتوجَّه إلى المسجدِ الحرام، فاستدار إليه، ودار معه المسلمون، ويقال: زارَ النبيُّ ﷺ أُمَّ بشرِ بنِ البراءِ بن معرورٍ في بني سَلِمة، فصنعت لهم طعاماً، وحانتِ الظهرُ،**

فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتينِ، ثم أُمِرَ فاستدارَ إلى الكعبةِ، واستقبلَ الميزابَ، فسُمّي مسجدَ القبلتينِ[1].

وتكررت هذه الواقعةُ أيضاً في مسجد قُباء، فعن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما قال: **بينا الناسُ بقُباءٍ في صلاةِ الصبحِ، إذ جاءهم آتٍ فقال: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أُنزلَ عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يستقبلَ الكعبةَ، فاستقبلوها، وكانتْ وجوهُهم إلى الشّامِ، فاستداروا إلى الكعبة.** [رواه البخاري (٤٠٣)].

فدلَّ كلُّ ذلك على مدى استسلام الصحابة رضي الله عنهم لأحكام دين الله تعالى، ومبادرتهم إلى تنفيذ ما يشرع تعالى لهم.

ووقع بيان كيفيةِ التحوّل في حديث **ثويلة بنت أسلم**، عند **ابن أبي حاتم**، قالت فيه: فتحوّلَ النساءُ مكان الرجالِ، والرجالُ مكانَ النساءِ، فصلّينا السجدتينِ الباقيتين إلى البيتِ الحرامِ.

قال ابنُ حجر بعد أن ذكر هذا الحديثَ: «وهذا يستدعي عملاً كثيراً في الصلاةِ، فيُحتَمَلُ أن يكونَ ذلك وقعَ قبل تحريم العمل الكثير، كما كان قبل تحريم الكلام، ويحتمَلُ أن يكونَ اغتُفِرَ العملُ المذكور من أجل المصلحة المذكورة، أو لم تتوالَ الخطى عند التحويل، بل وقعت مفرّقة»[2].

فأين هذا الاستسلامُ والانقيادُ عند الصحابة رضي الله عنهم، من مواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، التي سبق الحديث عنها؟!.

ولابدَّ أن يكونَ القارئُ قد لمس شدّة الاحتباك والاتّساق بين آيات السورة، فهذا الاستسلام الكامل لشرع الله تعالى، وهذه المبادرةُ إلى تنفيذِ أمره، لا تتقبلهما النفوس عادةً بهذه السهولة واليسر كما تقبلتهما نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فالنفوسُ البشريةُ تتمسَّكُ بما اعتادت عليه وألفته، وقد صلّى القوم إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وهي مدة كافية لجعلهم يعتادون على

(١) فتح الباري: ١/٥٠٣.

(٢) المرجع السابق: ١/٥٠٧.

هذه الصلاة ويألفونها، ومع ذلك بادروا إلى التحوّل عنها عندما أُمروا بذلك، دون أدنى تردّد واعتراض، ولم يؤخّروا التنفيذ حتى ينتهوا من صلاتِهم التي كانوا فيها، بل بادروا إلى تنفيذ ما أُمروا به وهم في الصلاة مجتمعون بانتظام، دونَ حدوثِ خللٍ أو اضطرابٍ، واستحقوا بذلك ثناء الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: وإن كان التحوّلُ بهذا الاستسلام الكامل لأمراً كبيراً وثقيلاً.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا على الذين هداهم الله إلى الحق، فعرفوه وانقادوا له، وحفظ الله تعالى قلوبهم من الاعتراض والفساد، فهو كقوله تعالى المتقدّم: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالذين ملأت هداية الله تعالى قلوبهم لا يثقل عليهم اتّباع الرسول ﷺ، واستسلامهم الكامل لأحكام شريعته.

ولابدّ أن يثيرَ تغييرُ القبلة التساؤل عند بعضهم عن حكم مَنْ مات قبل التحويل، فأنزل الله تعالى جواباً على هذا التساؤل قوله الكريم:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، سمّاها تعالى إيماناً، لأنها دليل عملي عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو تعالى لا يضيع أجورهم، ولا يشرع إلّا ما فيه صلاحهم.

- **استقبال البيت الحرام:**

ثم بيّنتِ الآياتُ كيف كان النبيُّ ﷺ يحبُّ أن يحوّله الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، وأنه كان كثيرَ النظرِ إلى جهةِ السماء، ينتظر نزولَ الوحي عليه، يأمره بالتحوّل إلى البيت الحرام، ولم يتحوّل ﷺ إلى استقبال بيت الله الحرام من عند نفسه، واستمرَّ يصلّي مستقبلاً بيت المقدس، مستسلماً لأمره تعالى بضعة عشر شهراً، حتى أنزل عليه قوله الكريم:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثيراً ما نرى تردّد وجهك في السماء، متشوقاً لنزول الوحي.

وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربّه أن يحوّله إلى الكعبة، والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يسأل ربّه ذلك، بل كان ينتظر فقط، مما يدلّ على كمال أدبه عليه الصلاة والسلام مع ربّه جلّ وعلا.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: تحبّها وتميل إليها.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: نحوه إلى جهته.

ويدلّ ذكر المسجد الحرام دون الكعبة على أن الواجب مراعاة الجهة، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: في أيّ مكان كنتم فعليكم أن تتوجهوا إلى جهة المسجد الحرام.

ولا خلافَ بين العلماء على أنّ الكعبةَ قبلةٌ في كل أُفق، وأجمعوا على أنَّ مَنْ شاهدها وعاينها فرضٌ عليه استقبالها، وأجمعوا على أنّ كلَّ مَنْ غابَ عنها عليه أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها، فإن خفيتْ عليه، فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه، من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك(١).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى.

﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أن التحوّل إلى استقبال بيت الله الحرام هو الحق الذي شرعه الله تعالى وأمر به، لأنّهم يعلمون صدق النبي ﷺ، وأنه لا يستقبل بيت الله الحرام إلّا بأمر من الله تعالى.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ١٦٠.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وسيجازيهم على جحودهم للحق وإنكارهم له.

ومما يدلّ على شدّة جحودهم وعنادهم قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي: بكلِّ معجزةٍ تدلُّ على أنَّ التوجّه إلى بيت الله الحرام هو الحق الذي يجب اتّباعه.

﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ بسبب مكابرتهم وعنادهم.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ لأنّكَ نبيٌّ مرسل، تتبع وحيَ الله تعالى، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾ فاليهودُ يستقبلون بيت المقدس، والنصارى يستقبلون المشرق، ويتمسّك كلُّ فريق بقبلته.

فالزم قبلتك التي وجّهك الله تعالى إليها، ولا تتبع أهواءهم، فالعبادةُ لله تعالى، وبيانُ كيفيتها وتشريع أحكامها منه أيضاً جلّ وعلا.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ بأن القبلة هي الكعبة المشرّفة.

﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والخطاب وإن كان للنبيّ ﷺ، إنما المراد منه تثبيت المؤمنين في وجه الشغب الكبير الذي أثاره اليهود في المدينة، عندما أمر الله تعالى بالتحوّل إلى استقبال البيت الحرام في الصلاة.

وموقفُ اليهود من شأن تحويل القبلة، هو في الحقيقة فرع عن موقف أكثر عناداً وأعظم جحوداً، وهو إنكارهم لنبوّته عليه الصلاة والسلام، وجحدهم لرسالته، مع أنهم يعرفون صدقه أكمل المعرفة وأتمها:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ أي: النبيَّ ﷺ.

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ أي: كمعرفة الوالد لولده، فهي معرفة تامّة كاملة، فأيّ والد يتعرّف على ولده ويميزه من غيره من الأولاد المحيطين به مهما كان عددهم، وكذلك علماءُ أهل الكتاب يعرفون النبيّ ﷺ، بسبب كثرة نعوته وأوصافه وأسمائه الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل.

ومع هذه المعرفة التامّة:

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يكتمون الحق حسداً وعناداً، وهم يعلمون أنَّ كتم الحقِّ جريمةٌ كبيرةٌ، سيسألهم الله تعالى عنها ويجازيهم عليها.

ويلاحظ أنه تعالى في صدر الآية عمّم المعرفة، وفي ذيلها خصّص الوعيد ببعضهم، مما يدلّ على دقّة الأخبار القرآنية وموضوعيتها، إذ أسلم بعضُ أحبار اليهود عندما رأوا النبي ﷺ، كعبد الله بن سلام وزيد بن سعنة وغيرهما.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ لا من غيره سبحانه، فما أمر به هو الحق الثابت.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: الشاكّين.

وليس المراد نهي الرسول ﷺ عن ذلك، فالشكُّ غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام، بل المراد تأكيد وتحقيق أمر التوجّه إلى البيت الحرام، وأنه وحي من الله تعالى لا شك فيه، ويفيد هذا التأكيد أيضاً تثبيت المؤمنين في وجه حملات التضليل والتشكيك التي أثارها يهود المدينة حينئذ، كما أن توجيه الخطاب للنبي ﷺ بهذا الحزم أفاد أنه عليه الصلاة والسلام لا يشرِّعُ شيئاً من عند نفسه، كما

أشاع اليهودُ عنه عندما حوّله الله إلى البيت الحرام، وأنه ما تحوّل من تلقاء نفسه، وإنما تحوّل بأمر الله تعالى ووحيه.

● **التنافس المحمود:**

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: لكل أهل ملّة أو جماعة من المسلمين واليهود والنصارى. أو: لكل قوم من المسلمين وجهة وجانب من الكعبة(١).

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: مستقبلها.

ويتفق المعنى الثاني للآية مع الخطاب الموجّه فيها للمسلمين، الذي يحضّهم على التنافس في فعل الخيرات:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: تسابقوا في فعل الطاعات والعبادات، التي تتقربون بها إلى الله تعالى، ولا تشغلوا أنفسكم بمعارضة المخالفين وشغبهم عليكم، فلا ينبغي أن يعوقوكم عن الاستكثار من الطاعات والقُربات.

وتدلُّ الآية على أن التنافس في فعل الطاعات أمر محمود ومطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أما التنافس المذموم فهو التنافس على شهوات الدنيا، وما فيها من أنواع الزينة والمتاع.

وطاعته تعالى وعبادته ليست مقيدةً بأرض معينة، ولا جهة معينة، فيمكنك أن تطيع الله تعالى وتعبده في أيّ مكان:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وعادت الآيات بعد أن دفعت شبهات المعترضين على تحويل القبلة، إلى

---

(١) روح المعاني: ٢/ ١٤.

تأكيد حكم التحويل، وتعميمه، فوجّهت أولاً الخطاب إلى النبي ﷺ:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: من أيّ موضع خرجت إليه وكنت فيه، وأردت الصلاة:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: اجعل وجهك إلى جهة المسجد الحرام.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: وإن هذا الحكم حق ثابت، أمرك به ربُّك، فهو تكليف إلٰهي كَلَّفَ الله تعالى به النبيَّ ﷺ، وكلَّفَ به أيضاً جميعَ المسلمين.

ولهذا اتجهت الآية بالخطاب إلى المسلمين، فذكّرتهم في أوله برقابة الله تعالى الدائمة عليهم:

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم وجّهت إليهم خطاب التكليف، مقروناً بتكليف النبيّ ﷺ مرة ثانية:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فبهذا الاستقبال لبيت الله الحرام تنقطع حجج المخالفين لكم:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ فأهل الكتاب الذين اعترضوا عليكم في أول الأمر، يعلمون من صفاتكم في كتبهم أنَّ قبلتكم بيت الله الحرام؛ وانقطعت أيضاً حجّة مُشرِكي العرب، الذي كانوا يقولون: كيف يدّعي محمدٌ أنّه على ملّة إبراهيم، ويصلّي إلى غير قبلته؟!.

وتكرار التكليف باستقبال بيت الله الحرام جاء مقروناً بما قبله أو بعده من السياق:

فالأمر الأول: جاء تحقيقاً لرغبته عليه الصلاة والسلام في التوجّه إلى بيت الله الحرام، ومُظهِراً مكانته عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى.

والأمر الثاني: زاد معنًى آخر، وهو أنّ التحوّل وإن كان موافِقاً لرغبة النبيّ ﷺ، إلّا أنّه تكليفٌ ربّاني أمرَ اللهُ تعالى به.

والأمر الثالث: أظهرَ انقطاع حجج المخالفين من اليهود والمشركين.

- **تمام النعمة:**

ثم ربطت الآيات بشكل رائع مُعجِز بين موضوع تحويل القبلة، وبين موضوع الصراع الكبير المستمر، القائم بين المسلمين وأعداء الإسلام، الذي اتخذ بعد الهجرة شكل الصراع المسلّح والمواجهة في ميادين القتال، إذ نزلت بعد الهجرة آياتُ الجهاد، تأمر به، وتحضّ عليه، فالخلافُ حول موضوع تحويل القبلة ليس سوى فرع من الخلاف الكبير الدائر بين الحق والباطل، ولهذا قال الله تعالى مباشرة في سياق ما ذكر حول موضوع تحويل القبلة:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: لكن رغم انقطاع حجج المخالفين المعاندين في موضوع استقبال البيت الحرام، فإنَّهم لن يتوقفوا عن معارضتكم ومعاندتكم.

وسيزدادُ الصراعُ بينكم وبينهم شدّةً، ويتحوّل من ميادين المجادلة والمناظرة باللسان، إلى ميادين المصاولة والمحاربة بالسنان، ولهذا اتجهت الآيات إلى تثبيت المؤمنين:

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ أي: لا تخافوهم وخافوني.

ويستدعي الخوفُ من الله تعالى الاستسلام لأمره، والانقياد لدينه وشرعه، مما يؤدّي إلى الفوز برضوانه وجنّته يوم القيامة، وإلى تثبيتِ الله تعالى وتوفيقه على طريق الهداية في الدنيا، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ يوم القيامة بدخول الجنة والفوز بالرضوان.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الهداية والرشاد في الدنيا، بتوفيق الله ورعايته.

وأتى سبحانه بكلمة: **(لعلَّ)** التي تدلّ على الترجّي، لأن هدايته في الدنيا منوطة بتقواه، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال أيضاً كما سيأتي: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولا تتحقّق التقوى إلّا بالتزام أحكام شريعة الله تعالى، وهو ما صرحت به أول الآيات في السورة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقدّمت الآية تمام النعمة في الآخرة على الهداية في الدنيا، لأنها جاءت في معرض تثبيت المؤمنين في مواجهة أعدائهم، وتشويقهم إلى الفوز برضوان الله وجنّته.

وكما أنّ تمام النعمة في الآخرة بدخول الجنة والفوز بالرضوان، فإنه تعالى جعل تمامها في الدنيا ببعثة الرسول ﷺ برسالة الإسلام، ولهذا أنزل تعالى عندما اكتملت أحكام الشريعة في يوم عَرَفَة، من السنة العاشرة للهجرة، على النبيّ ﷺ وهو في صعيد عرفات: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وهذا المعنى ذكره سبحانه هنا في قوله الكريم:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: كما قدّر الله تعالى تمامَ نعمته

عليكم يوم القيامةِ بدخول الجنّة، والفوز برضوانه، أتمّها عليكم في الدنيا ببعثه رسول الله ﷺ فيكم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ كما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ التي مرّت معنا ـ وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وزادت الآيات هنا في صفات هذا النبيّ الكريم:

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلّمكم علوماً ما كنتم تعلمونها من قبلُ.

فقد نقلهم الإسلام من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمدنية والحضارة، عرفوا من خلالها شتّى أنواع العلوم والفنون، فبعثةُ النبيِّ ﷺ من أعظم النِّعَم عليهم، جاءتهم بخير الدنيا وخير الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ورحم الله ابن كثير عندما قال: «كانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول القرّاء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمْن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرّهم قلوباً، وأقلّهم تكلّفاً، وأصدقهم لهجةً»(١).

● **الذكر والشكر:**

كلّف الله تعالى المسلمين في مقابل هذه النعمة العظيمة الجليلة، بأمرين أساسيين، هما: الذكر والشكر، فقال:

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بأسمائي الحسنى، التي علّمتكم إياها في كتابي وسُنّة رسولي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/١٤١.

ﷺ. فلا يجوز ذكره تعالى بغير أسمائه الحسنى التوقيفية(١): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويستدعي ذكر الله تعالى طاعته والاستسلام لأحكام شريعته، والحذر من معصيته، فمِنْ شأن الذاكر أن يخشى الله تعالى، ويهتزّ قلبه خوفاً منه ﷻ، مما يدفعه إلى التوبة والإقلاع عن المعاصي والآثام، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال أيضاً: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

وما أمرنا سبحانه بالإكثار من شيء كما أمرنا بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]؛ لأن في ذكره تعالى عصمةً لنا من المعاصي والآثام وتسلّط الشيطان، كما أنه يؤدّي إلى استنزال معونته تعالى وفيوضات فضله على الذاكرين، فتمتلئُ قلوبُهم خشوعاً وسكينةً، ويزولُ عنها ما يعتريها من حيرة واضطراب، نتيجة الانغماس في حمأة المعاصي والآثام، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولقد شرع الله تعالى الصلاةَ، وكلّفنا بها كل يوم خمس مرات، لنذكره فيها ونسبّحه ونمجّده ﷻ، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرتُكم أكرمتُكم برحمتي ومعونتي وإحساني: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرَّحمـٰن: ٦٠].

وفي الحديث القدسي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يقولُ اللهُ ﷻ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حينَ يذكرُني، فإنْ ذكرني في نفسِه، ذكرتُه في نفسِي، وإن ذكرني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ هم خيرٌ منه، وإن**

---

(١) أي: التي أوقفنا الوحي عليها.

تقرّبَ منّي شبراً، تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرّبَ إليّ ذراعاً، تقرّبتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولةً» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمتُ به عليكم، بعبادتي واتّباع رسولي ﷺ، والاستسلام لأحكام شريعتي.

ومن المعلوم أنّ الشكر لا يكونُ إلّا بالاعتراف بفضل المُنعِم، وبالثناء عليه، واستعمال النعمة في التقرّب إليه.

﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ بجحد النعمة، وإنكار فضل المُنعِم، كما فعل المعاندون الجاحدون من أهل الكتاب، الذين ذكَّرهم تعالى بفضله عليهم في أول نداء وجّهته الآيات إليهم، كما مرّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم بيّنت الآيات أهم الوسائل التي يستعين بها المؤمن على ذكره تعالى وشكره، أي: على طاعته وعبادته وتنفيذ أحكام شريعته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي: استعينوا على القيام بالتكاليف الشرعية، التي كلفكم الله تعالى بها بالصبر والصلاة.

- **فبالصبر** تحبسون أنفسكم على تحمّل مشقّة التكليف، وتهذّبون أنفسكم بحبسها عن الشهوات.

- **وبالصلاة** تستمدّون القوة الروحية المعنوية، التي تشدّ عزائمكم، وترفع هِممكم في مواجهة الصِّعاب، وتحمّل الأعباء، **وتذكرون** بها أيضاً ربّكم خاشعين ضارعين، **فيذكركم** سبحانه، كما ذكرتموه، فقد يضعف الإنسان حين يطول به الأمد، ويتضاعف الجهد إذا لم يكن هناك زاد ومَدَد، ومن ثَمّ يقرن

الصلاة إلى الصبر، فهي المَعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المَعين الذي يجدّد الطاقة، والزاد الذي يزوّد القلب، فيمتدّ حبل الصبر ولا ينقطع(١).

وقد مرّ أنه تعالى وجّه مثل هذا الخطاب إلى بني إسرائيل، عندما ذكَّرهم بنعمِه عليهم، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، إلّا أنه تعالى ختم الآية هناك بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، بينما ختم الآية هنا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم، مما يدلّ على فضل هذه الأمة، ومكانتها عنده تعالى، وفضل الصابرين على وجه الخصوص.

ومَنْ صبرَ على التكاليف في أول الأمر يسّرها الله تعالى عليه بعد ذلك، إذا قرن معها الذكر والشكر، ولهذا قالوا: بدايةُ الدين صبرٌ، وخاتمته يُسْرٌ، فإنَّ مَن كان الله ﷻ معه رفع عنه مرارةَ الصبر بوضع حلاوة الصحبةِ، التي تُشْعِرُ بها كلمة (مع)(٢).

• الاستسلام لحكم الله القَدَري:

وحياة الإنسان في الدنيا حياة اختبار وابتلاء وتكليف، أساسه المواجهة بين الحق والباطل، بين أتباع الأنبياء المستسلمين لله تعالى وأحكام شريعته من جهة، وبين أتباع الشيطان المخدوعين بوساوسه ونزغاته، كما مرّ فيما قصّه الله علينا من كيفيّة خلق آدم وتكريمه وعداوة الشيطان له [انظر: سورة البقرة: ٣٠ ـ ٣٨] من جهة ثانية، فلا بدّ من تعبئة المؤمنين تعبئة روحية عالية، لكي يتمكّنوا من النهوض بأعباء الرسالة والتكاليف، ويثبتوا في ميادين المواجهة والجهاد.

ولابدّ أن أذكّر القارئ هنا بأنَّ هذه الآيات نزلت بعدَ الهجرةِ، عندما انتقلت الدعوة الإِسلامية إلى مرحلة الجهاد والصراع المسلَّح مع قوى الكفر والشرك، فلابدّ إذن أن تحثّهم الآيات على الصبر، الصبر على الشدائد والمحن، والصبر على البلايا والمصائب، الذي يدلّ على الإسلام لله تعالى، والرضا بأحكامه

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٤١.

(٢) نظم الدرر: ٢/ ٢٤٨.

القدرية التكوينية، فكما أن طاعته تعالى وعبادته استسلام لأمره التشريعي، فالصبرُ عندَ الشدائد والمِحَن استسلام لحكمه القدري، فللآيات ارتباط وثيق بموضوع السورة عموماً، وارتباط بسباقها وسياقها على وجه الخصوص.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أي: هم أموات.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ حياة برزخية خاصّة، أكرمهم تعالى بها، بسبب بذلهم أنفسهم في سبيله.

﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لأن حياتهم البرزخية لا تشبهُ حياتكم الدنيوية، فهي غيبٌ عنكم، ولا سبيل إلى العلم بها إلّا بالخبر الصادق، إذ هي من الغيب الذي يجب علينا أن نؤمن به، لأن الله تعالى أخبرنا عنها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان].

والأحاديث النبوية الصحيحة التي دلّت على حياة الشهداء كثيرة، منها:

ما رواه **مسروق** قال: سألنا **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه عن هذه الآية ـ التي تقدّمت ـ قال: أما إنّا قد سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**أرواحُهم في جوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلّقةٌ بالعرشِ، تسرحُ من الجنةِ حيثُ شاءَتْ، ثم تأوي إلى تلكَ القناديلِ، فاطّلعَ إليهم ربُّهم اطّلاعةً، فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟ قالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي ونحنُ نسرحُ من الجنّةِ حيثُ شئنا؟ ففعلَ ذلكَ بهم ثلاثَ مرّاتٍ، فلمّا رأَوْا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربِّ نريدُ أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتّى نقتلَ في سبيلِكَ مرّةً أُخرى، فلمّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةٌ تُرِكوا**» [رواه مسلم (١٨٨٧)].

ومرّ معنا في أول السورة [انظر: سورة البقرة: ٣] أن الإيمان بالغيب من الصفات الأساسية الكبرى للمؤمن.

ولا يقتصر الصبر على حبس النفس، والثبات على مشقّات القتال في الجهاد فقط، بل يتعدّى إلى سائر شؤون الحياة، وهذا ما أخبر سبحانه عنه المؤمنين في الآية التالية، لكي يوطّنوا أنفسهم على الاستسلام الكامل لحكمه القدري في مختلف شؤون الحياة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أي: ولنختبرنّكم.

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ أي: بقليل من مكروه تتعرّضون له، كتسلّط العدوّ عليكم، أو تسليط الظَّلَمَة والطّغاة.

﴿وَٱلْجُوعِ﴾ أي: وبشيء قليل من الجوع، لقحطٍ أو جوائحَ تفسِدُ مواسمكم وأطعمتكم.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بالهلاك أو الخسارة.

﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ أي: ونقص من الأنفس، بموتِ بعضِ الأحباب والأقارب والأصحاب.

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ونقص من الثمرات والمحاصيل الزراعية، بالجوائح والآفات، التي يسلّطها الله تعالى عليها.

وكلُّ ذلك من أنواع الابتلاءات التي يمكن أن يتعرَّض لها الإنسان المؤمن في حياته، ليُظهِر تعالى مدى استسلامه لما قُدّر عليه، ورضاه عن ربّه تعالى في جميع أحواله.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على هذه المصائب والبلايا، الراضين بما قدّره تعالى عليهم.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنّا عبيد لله تعالى، ومُلكٌ له جلّ جلاله، يفعل بنا ما يشاء ويريد.

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: وإنّا أيضاً راجعون إلى حكمه ومشيئته، فهو إقرارٌ وإعلانٌ بعبوديتهم الكاملة لله تعالى، واستسلامٌ وتفويضٌ كاملين لأمره ومشيئته سبحانه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي المتّصفون بصفة الصبر والتسليم لله تعالى. وأشار إليهم بأداة البُعد ليدل على علوّ مقامهم.

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: عليهم تزكية لنفوسهم ومغفرة لذنوبهم.

والصلاةُ في الأصل: الدعاء، ومن الله تعالى التزكيةُ والمغفرةُ، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوّعها(١).

وقد يكون المرادُ من **الصلوات**: أن يتولاهم سبحانه بألطافه وهم في محنتهم، فيفرّج عنهم كربتهم، ويخرجهم من محنتهم، ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وأتى بـ ﴿عَلَىٰ﴾ إشارةً إلى أنّهم منغمسون في ذلك، فصلوات الله تعالى تغمرهم وتحيط بهم.

﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ أي: وعليهم أيضاً من الله تعالى رحمة، يتفضل بها عليهم بإنعامه وإحسانه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق والصواب.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/٢٢٨.

وعندما صبر القوم، وفوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، ورضوا بما قدّره عليهم، هداهم سبحانه إلى الحق، وثبّتهم عليه، ولهذا جاء في الحديث الشريف: «**أنَّ الصبرَ ضياءٌ**» لأنّ الله تعالى ينيرُ للصابرين الطريق ويهديهم إلى معالم الحق، فلا يضلّون ولا يتيهون.

فعن **أبي مالك الأشعري** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحَمْدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسبحانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ تملآنِ ما بَيْنَ السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآنُ حجّةٌ لك أو عليك، كُلُّ الناسِ يغدو فبائعٌ نفسَه، فمعتِقُها، أو موبِقُها**» [رواه مسلم (٢٢٣)]. **موبقها**: أي مهلكها.

● **السعي بين الصفا والمروة:**

السعيُ بين الصفا والمروة من الأعمال المشروعة في الحجّ والعمرة، شرعه الله تعالى، وفعله النبي ﷺ عندما حجّ واعتمر، وهو عملٌ تعبّدي يدلّ على استسلام العبد لله تعالى، ولعلّ هذا سببُ إيراد الآيات له بعد آيات الصبر، إذ الصبر يدلّ على الاستسلام والرضا القلبي الوجداني لله تعالى، بينما السعيُ بين الصفا والمروة يدلّ على استسلام الساعي في ظاهره وجوارحه لله تعالى.

ولعلّ اختيار السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحجّ والعمرةِ على وجه الخصوص، للدلالة على هذا المعنى، لأنّ بعض المسلمين في زمن التنزيل والتشريع كانوا يرونه عملاً من أعمال الجاهلية، لا يجوزُ فعلُه في الإسلام، ولما أنزل الله تعالى هذه الآية، الدالّة على أنَّ السعي عبادةٌ إسلاميةٌ، وشعيرةٌ من شعائر الحج والعمرة، انقادوا لحكم الله وشرعه، واستسلموا لأمره سبحانه، فسعوا بين الصفا والمروة؛ فسبب نزول الآية يكشف عن سرّ ارتباطها بما سبقها من آيات السورة.

ففي الحديث الصحيح: عن عاصم بن سليمان قال: سألتُ **أنس بن مالك** رضي الله عنه عن الصفا والمروة، فقال: «**كنّا نرى أنّهما من أمر الجاهلية، فلمّا كان**

الإسلامُ أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ . . .﴾ إلى قوله: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾» [رواه البخاري (٤٤٩٦)].

وفي روايةٍ ثانيةٍ بلفظ: قلت **لأنس بن مالك** رضي الله عنه: **أكنتم تكرهون السعيَ بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنّها كانت من شعائرِ الجاهليةِ، حتّى أنزلَ اللهُ**: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾. [رواه البخاري (١٦٤٨)].

ومرّ معنا في حديث بناء البيتِ ورفع قواعده [انظر: الآية: ١٢٦]: أنَّ السيدةَ هاجر أُمَّ إسماعيل أول مَن سعى بين الصفا والمروة، فأرادَ الله تعالى أن يخلِّدَ خُطا هذه المرأة، فشرعَ السعيَ بين الصفا والمروة للحجّاج والمعتمرين كما سَعَتْ، وجعله منسكاً من مناسك الحج، التي بيّنها لإبراهيم وإسماعيل، عندما سألا الله تعالى ذلك قائلين: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ولمّا دخلتِ الوثنيةُ على العرب، وانحرفوا عن ملّة التوحيد التي كانوا عليها، وجلبوا الأصنام، ووضعوا بعضها حول الكعبة المشرّفة، وضعوا أيضاً صنمين على الصفا والمروة، وكانوا عندما يسعَوْن يتمسَّحون بهما.

وقد أورد ابن حجر رحمه الله بعض الأحاديث المؤيدة لهذا فقال: وروى **النسائي** بإسناد قوي: عن **زيد بن حارثة** رضي الله عنه قال: **كان على الصفا والمروة صنمانِ من نحاسٍ، يقال لهما: أساف ونائلة، كان المشركون إذا طافوا تمسَّحوا بهما**.

وروى **الطبري** [٧١٦/٢] وابن أبي حاتم في «التفسير» [١٤٣٥] **بإسناد حسن** من حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما، قال: قالت الأنصار: إنّ السعيَ بينَ الصفا والمروة من أمرِ الجاهليةِ، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾.

وذكر الواحدي في «أسبابه» [١٥٤] **عن ابن عباس** رضي الله عنهما نحو هذا، وزاد

فيه: يزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمُسخا حجرينِ، فوضعا على الصفا والمروة ليُعتَبَرَ بهما، فلما طالت المدة عُبدا[1].

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعلام دينه، فالشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وأصلها من الإشعار، وهو الإعلام، وكل ما كان معلَماً لعبادةٍ مشروعةٍ كالصلاة والدعاء والذبح تقرّباً إلى الله، فهو شعيرةٌ من شعائر الله.

ومشاعِرُ الحجِّ: معالمه الظاهرة، ويقال: شعائرُ الحجِّ، كالمطاف، والموقف في عَرَفَة ومزدلفة، والمنحر، ومواضع رمي الجمرات في منى، والصفا والمروة بجانب الكعبة المشرّفة، ومطلوب في الإسلام تعظيمُها واحترامُها، لأنّها أماكن عبادات كلّفنا الله تعالى بها، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢].

وقال أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣١].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ أي: فمَن قصد بيت الله الحرام حاجّاً أو معتمراً.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: فلا إثمَ عليه أن يسعى بينهما، إذ كان بعضهم يرى الطواف بينهما إثماً، كما تقدم.

وقد شرعه النبيّ ﷺ في الحج والعمرة؛ فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: «**قَدِمَ النبيُّ ﷺ مكةَ، فطاف بالبيتِ، ثم صلّى ركعتينِ، ثم سعى بينَ الصفا والمروة، ثم تلا**: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]» [رواه البخاري (١٦٤٧)].

(١) فتح الباري: ٣/ ٥٠٠.

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، الذي وصف به حجّة النبيِّ ﷺ قال: «**ثم خرجَ من البابِ إلى الصفا، فلمّا دنا من الصفا قرأ:** ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ **أبدأُ بما بدأَ اللهُ به، فبدأَ بالصفا، فرقى عليه، حتى رأى البيتَ، فاستقبلَ القبلةَ، فوحّدَ الله، وكبّره وقال: «لا إلـه إلا الله وحدَه، لا شريكَ له، له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا إلـه إلا الله وحدَهُ، أنجزَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه» ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاثَ مرّاتٍ، ثم نزلَ إلى المروةِ، حتى إذا انصبّتْ قدماه في بطنِ الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروةَ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا**» [رواه مسلم (١٢١٨)].

ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحجّ والعمرة.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل عبادة من العبادات زيادة على ما فرض الله تعالى عليه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فإنّه تعالى يثيبه على طاعته وعبادته مهما كانت، إذ هو سبحانه عليم بها، لا يعزبُ عن علمه شيءٌ جلّ وعلا.

- **كتمان العلم:**

ومن واجب العلماء أن يبيّنوا للناس أحكامَ دينهم، لكي يلتزموا بها، فإنّ فروع الأحكام الشرعية لا تُعرَفُ إلّا بالتعلّم والتعليم، ولهذا اتّجه سياقُ الآياتِ بتوعّد العلماء الذين يكتمون علمهم عن الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى، وجميع ما أنزل الله من شرائع وأحكام.

وعلى هذا يكون المرادُ من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ العلماءَ كافّةً، فالآيةُ تنسحبُ

على علماء المسلمين، الذي لا يعلّمون الناس أحكام دينهم وشريعتهم، وتنسحب أيضاً على علماء أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم من صفات النبي ﷺ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبعدهم عن رحمته.

واللعن في اللغة: الطردُ والإبعادُ.

﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ من الناس والملائكة، كما سيأتي.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ سُئِلَ عن علمٍ فكتمَهُ أُلْجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ**» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) وابن ماجه (٢٦١ و٢٦٦) والترمذي (٢٦٤٩) وحسنه].

ثم استثنى تعالى التائبين عن كتمان العلم، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رجعوا عمّا كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه عنهم من العلم.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دليلٌ على أنّ الداعية إلى كفر أو بدعة، إذا تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه[1].

ومن توبته أن يعلنَ تراجعه عن كفره وبدعته، حتى يعلمَ الناسُ الذين تأثّروا بكفره وضلاله، توبته عمّا كان عليه.

وبعد أن بيّن تعالى حكم التائبين، توعّد المُصرِّين على كتمان العلم، وبيّن مصيرهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بكتمان حقائق من الدين يؤدّي كتمانها إلى الكفر، كما فعل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٤٦.

أحبارُ اليهود الذين كتموا ما يعرفون من صفات النبيّ ﷺ ونعوته، التي ذكرها سبحانه في التوراة.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: وماتوا وهم مُصرّونَ على الكفر.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنهم بكتمانهم لهذه الحقائق سعوا في إضلال الناس، ونشر الكفر بينهم، كما سعوا في إشاعة الفساد في الأرض، لذلك يتعرّضون للعنة الناس في الأرض.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقيمين في اللعنة، تلازمهم آثارها، ومن آثارها:

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُنْظَرُ إليهم نظرَ رحمةٍ، أو لا يمهلون ولا يؤجَّلون.





الفصل الخامس

العقيدة والشريعة

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن
مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا
تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾
إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ
اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟
وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى
ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ
وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ
فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ
خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ
ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى
قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ
لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ
لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى
ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى
الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ
قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ
اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ
فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا
رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا
أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ
وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

• الإِلَـهيَّــة والعُبُوديَّة:

ظهر لنا من خلال ما تقدم، أن الإِسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً، علماً وعملاً، وهو المحور الأساس لكل ما في السورة من مبادئ وأحكام وتشريعات.

وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة من خلال ما عرضت من مواقف العناد والجحود للكافرين من المشركين وأهل الكتاب، ومن خلال ما عرضت أيضاً من مواقف الإسلام لله تعالى والخضوع له وحده عند الأنبياء وأتباعهم، من لدن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

وتتّجه الآيات الآن، في سبيل إبراز هذه الحقيقة، وجهة جديدة، وهي بيان الارتباط الوثيق بين العقيدة والشريعة في الإسلام، وبهذا الاتجاه الجديد تُظْهِر الآيات أيضاً أن الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، علماً وعملاً، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً.

ابتدأت الآيات توجُّهها الجديد بتقرير حقيقة التوحيد الكبرى، التي هي أساسُ التشريع، واتّبعت أسلوبَ التقرير الملزم لجميع المخاطبين الذين يصحّ خطابهم، بقوله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبودكم معبودٌ واحد، لا نظيرَ له ولا شبيه في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولم تصرّح الآية باسمه سبحانه، وإنما اكتفت بصفته التي تبيِّنُ علاقةَ

المخاطبين به ﷻ، فصفته تعالى أنّه المستحقّ للعبادة والطاعة وحده، وأنتم أيها المخاطبون عبيدٌ له وحدَه ﷻ، فهو إذاً معبودكم وحده.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق أن يسمّى إلٰهاً معبوداً إلّا هو ﷻ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنّ معبودكم الذي يستحق العبادة وحده هو الرحمن الرحيم، وهما اسمان من أسمائه تعالى الحسنى، يدلّان على فضله وإحسانه، وعلى أنّه وحده المستحق للعبادة، فإنه لمّا كان مولى النِّعَم كلها، أصولها وفروعها، وما سواه إما نعمة أو منعم عليه، لم يستحق العبادة أحد غيره[1].

وخَلْقُ الإنسان أثر من آثار رحمته تعالى، وإرسال الرّسل إليه، وإنزال الكتب عليه، من رحمته تعالى أيضاً، إذ بيّن فيما شرع له كيف يعمر الأرض التي استخلفه فيها، بعبادته وطاعته، وكيف يتقرَّبُ إليه ليفوز بجنته ورضوانه يوم القيامة.

ولا شك أنّ التزامَ الإنسان بشريعة الله وحده، تحقيقٌ عملي لعبوديته له سبحانه، يدلّ على استسلامه وإسلامه له سبحانه وحده، كما مرّ عند قول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

- **من أدلة التوحيد:**

ثم عرضت الآيات بعض البراهين الدالّة على وحدانية الله تعالى ورحمته وإحسانه:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وفي تعاقب الليل والنهار حسب نظام دقيق لا يتغيّر.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٢٣٤.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: والسفن التي تسير في البحر من أجل منافع الناس.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي: وفي ماء المطر الذي أنزله تعالى من جهة السماء.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بالنبات الذي أنبته تعالى من الأرض، بسبب المطر الذي أنزله عليها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: ونشر في الأرض من كل أنواع الحيوانات التي تدب عليها.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ﴾ أي: وفي تقليب الرياح وتحريكها مع السحاب من جهة إلى جهة.

﴿ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: المسخَّر المذلَّل في الفضاء بين السماء والأرض.

فمشيئته تعالى نافذةٌ في كلِّ المكوّنات السماوية والأرضية، والبرِّيَّة والبحرية والفضائية، وكلها خاضعة لإرادة خالقها ومالكها، وهي في قبضةِ قدرته ﷻ، تدلّ على وجوده تعالى ورحمته وإحسانه، إذ هي مسخّرة مذلَّلة لفائدة الإنسان وحياته ومعيشته، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال أيضاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

فكلّ هذه المكوّنات والمخلوقات شاهدةٌ على وحدانيته تعالى ورحمته وإحسانه، وهي دلائل تدلّ علىَ جوده ووجوده.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: لدلائل تدلّهم على أنّ لهذا الكون إلٰهاً واحداً، كما قرّرت الآية السابقة: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾.

ولو ألقى الإنسان عن عقله بلادةَ الأُلفةِ والغفلة، فاستقبل مشاهِدَ الكون بحسٍّ متجدّد، ونظرة مستطلعة، وقلبٍ نوّره الإيمانُ، ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينَه كلُّ ومضة، وتلفِتُ سمعَه كلُّ نأمةٍ، وتلفِتُ حسّه كلُّ حركةٍ، وتهزُّ كيانه تلك الأعاجيبُ التي لا تَنِي تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر(١)، لأدرك إدراكاً كاملاً لا ريبَ فيه أنّ لهذا الكون إلٰهاً واحداً أحداً، رحماناً رحيماً.

● **براءة وحسرة:**

ومع كلّ هذه الدلائل التي تدلّ على أنه تعالى وحده المستحقّ للعبادة والطاعة، فإن كثيراً من الناس يعرضون عن عبادته وطاعته:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ أي: نظراءَ وأمثالاً لله تعالى في استحقاق الطاعة.

﴿يُحِبُّونَهُمۡ﴾ أي: يطيعونهم ويعظّمونهم ويميلون إليهم.

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ أي: كما يحبّ المؤمنون ربّهم، والتشبيه لا يدلُّ على التماثُلِ من كل الوجوه، فحبّ المؤمنين لله تعالى أعظم وأثبت، ولهذا قال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ لأنّ محبتهم لا تنقطِعُ ولا تنتهي، إذ هم مستسلمون لله تعالى، راضون بأحكامه الشرعية والقدرية في جميع الأحوال، في السرّاء والضرّاء، والمَنْشَط والمكره، والشدّة والرخاء، بينما هؤلاء يطيعون

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٥٣.

رؤساءهم ويعظّمونهم ما داموا يرجون منهم المنفعة في الدنيا، وأمّا في الآخرةِ فإنّ محبتهم تنقطع وتتحوّل إلى بغض وحقد.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا قوةَ حينئذٍ ولا سلطانَ ولا ملكَ لغيره جَلَّ جَلَالُهُ، الذي يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ورأوا أيضاً شدّة عذاب الله تعالى، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة.

فحذف الجواب، لأنّ (**لو**) إذا جاء فيما يشوّق إليه أو يخوّف منه، قلّما يوصل بجواب، ليذهب القلب فيه كل مذهب(١).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾ أي: المتبوعون، وهم الرؤساء والزعماء قادة الكفر والضلال.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: من الأتباعِ الذين اتّبعوهم في الدنيا، وساروا وراءهم في طرق الكفر والضلال.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي لا مفرّ منه ولا نجاة.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: انقطعت صلاتُ المودّةِ والمحبّةِ التي كانت بينهم في الدنيا.

والسبب في اللغة: الحبلُ الذي يُصعَدُ به النخل، وسُمّي كلُّ ما يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودّة سبباً، تشبيهاً بالحبل الذي يُصعَد به(٢).

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٣٨.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ٢٣٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا.

﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي: من زعمائنا ورؤسائنا الذين كنّا نسير وراءهم في الدنيا.

﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ في هذا اليوم.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها باختيارهم وكسبهم.

﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ تملأ صدورهم، وتحرق قلوبهم. **والحسرة**: أشدُّ الأسفِ على الفائت.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فهم يعذّبون بنارين: نار الحسرة والندم التي تحرق قلوبهم، ونار جهنم التي تشوي أجسامهم وجلودهم.

- **التحذير من اتّباع الشيطان ومن التقّليد الأعمى:**

بهذه الصورة المرعبة هيّأت الآيات النفوس البشرية للإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وشرعه، فوجّهت إلى الناس نداءها الثاني في السورة، بعد ندائها الأول الذي سبق في أوائل السورة [الآيات: ٢٠ ـ ٢٤] في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...﴾ أمرتهم به بعبادة الله تعالى وحده.

أما في هذا النداء فأظهرت الآيةُ للناس فضله سبحانه عليهم، فيما خلق لهم في الأرض من المطاعم الطيبة النافعة المستلذّة، وأمرَتْهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا منها، وكأنه تعالى أراد بهذا النداء أن يقرن الترغيب بالترهيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي: كلوا الطعام الحلال الطيّب.

والحلال: المُباح الذي أحلّه الله تعالى. وأما **الطيّب**: فهو المستلذُّ النافع. فليس كلّ ما في الأرض حلالاً طيباً، وعلى الإنسان أن يميّزَ بين الحلال الطيب، وبين الحرام الخبيث، وجاءت أحكامُ الشريعة الإسلامية تراعي مصلحة الإنسان، فما حرّمت عليه إلّا كل خبيث ضارٍّ بدينه وصحته، وما أحلّت له إلّا كل طيب نافع.

ثم حذّرت الآيةُ الناسَ من اتّباع الشيطان، عدوّ الإنسان الأول:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقه التي يسير فيها، ويدعو إليها، فهي لا تؤدّي إلّا إلى الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، لا يريد بكم إلّا التعاسة والشقاء، فهو لا يأمركم بخير أبداً.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي: لا يأمركم إلّا بما يجلِبُ لكم السوءَ، وبما يجاوِزُ الحدَّ في القبحِ، كالكبائر من الذنوب.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويأمركم أيضاً أن تخالفوا شريعة الله تعالى، وتتبعوا شرائعَ وضعية مخالفة لأحكام دين الله تعالى، فتحلّوا ما حرّم الله، وتحرّموا ما أحلّ، مما يؤدي إلى تحريم الطيبات، واستحلال الخبائث.

كما هو مع الأسف حالُ كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم، هجرت شريعةَ الإسلام، واتّبعت الشرائع الوضعية المستوردة من الأمم الكافرة، بسبب ما ابتلوا من تقليدهم تقليداً أعمى، فقد كان الناس في عصر التنزيل يتمسّكون بعادات وتقاليد آبائهم وأجدادهم، ويرفضون من أجلها دعوة النبيّ ﷺ، والانقياد لشريعة الله تعالى، وأما في العصر الحاضر فقد فُتن كثير من المسلمين بحضارة الغرب المادية وزخارفها وبهارجها، وأقبلوا على تقليدهم في كل شؤون حياتهم، دون تمييز بين ما يضرّهم أو ينفعهم، أو ما يوافق دينهم أو يخالفه،

بهرهم بريقُ الحضارة المادية الخُلَّب، فسلبت بصائرهم، وأغْشَتْ أبصارهم، وأصبحوا كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما شرع الله تعالى في كتابه وسُنَّة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾ أي: ما وجدنا عليه آباءنا.

فالتقليدُ الأعمى أكبر العقبات في وجه كل دعوة للإصلاح، ومقاومة الفساد والظلم، ولم يكن للمشركين من حجّة يحتجّون بها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزّخرُف].

ولا سبيل للتخلّص من أسْرِ التقاليد البالية والعادات الموروثة، إلّا بالنظر والتفكّر واستعمال العقل ووسائل التمييز بحرية وموضوعية، ولهذا قال تعالى يردّ على المقلّدين لآبائهم، والمتمسكين بعادات أجدادهم:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: لا ينبغي لكم أن تقلدوهم تقليداً أعمى من غير تفكير ونظر، إذ يمكن أن يكونوا على ضلال، لا يعقلون شيئاً من الدين الحق، ولا يهتدون إلى الشريعة الصحيحة، التي يجب التمسّك بأحكامها، فكيف تعطّلون عقولكم وأفكاركم وتسيرون وراءهم من غير تفكير ونظر.

فالإسلام يدعو إلى تحرير العقل البشري من أغلال التقاليد البالية والعادات

القبيحة، ومن المعلوم أنّ العقل هو أعظم ما يتميز به الإنسان من غيره، ولا تتحقّق كرامته الإنسانية إلّا إذا تحرّر عقله من التقاليد البالية.

ولهذا شبّه ﷻ الذين يقلّدون غيرهم تقليداً أعمى بهذه الصورة المُزرية القبيحة، فقال:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بسبب تقليدهم الأعمى لآبائهم، وسيرهم وراءهم دون نظر واستبصار.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أي: كمثل البهائم التي ينعق بها راعيها، وهي لا تسمع منه إلّا جَرْسَ النغمة ودويّ الصوت، فتسير وراءه، وهي لا تعرف إلى أين تسير، ولا ما يراد بها، فقد يقودها هذا الصوت إلى حتفها وهلاكها وهي لا تدري. **والنّعيق** في اللغة: زجر الغنم والصياح بها.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ عن الحق ودلائله وشواهده.

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وقد سبق معنا مثل هذا الوصف في المنافقين، عند قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] فارجع إليه إن شئت.

ودلّت الآيات على أن للعقل منزلةً كبيرةً في نظر الإسلام، فإذا ما استعمله الإنسانُ بموضوعية وتجرّدٍ عن الهوى والتعصّب والتقليد، أوصله إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده.

كما دلّت أيضاً على ارتباط الشريعة بالعقيدة في الإسلام، فالله تعالى هو وحده الخالق الرازق، وله وحده الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم، وعلى الإنسان المؤمن أن يستسلم لحكمه تعالى ويذعن لشريعته.

- **العبادة والشكر:**

وتأكيداً لحقيقة الارتباط بين العقيدة والشريعة، اتجهت الآيات إلى مطالبة

المؤمنين أن يلتزموا بأحكام دين الله تعالى وشريعته، في مطاعمهم ومشارِبهم وسائر شؤون حياتهم، وتبيّن لهم في الوقت نفسه أنّ في الحلال ما يُغني عن الحرام، وأن ما أحلّه الله تعالى من الطيبات أكثر بكثيرٍ مما حرّم عليهم، وأنَّ الشريعة الإسلامية تمتاز باليُسْر والمرونة في أحكامها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: تحرّوا عن الطعام الطيب النافع الذي أحلّه الله تعالى لكم، فكُلوا منه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أيُّها الناسُ إنّ الله طيّبٌ لا يَقْبَلُ إلّا طيِّباً، وإنَّ الله أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بِهِ المرسلينَ، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرَّجُلَ يطيلُ السَّفَرَ أشعثَ أغبرَ، يمدّ يديهِ إلى السماءِ: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذيَ بالحرامِ، فأنّى يُستجابُ لذلك؟**» [رواه مسلم (١٠١٥)].

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحلّ لكم.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم حقّاً تقرّون بأنه هو إلٰهكم ومعبودكم ولا معبود لكم سواه، ولا تتم عبادتكم له إلّا بشكره والاعتراف بفضله.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنّ الله ليرضى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأَكْلَةَ فيحمدَهُ عليها، أو يشربَ الشُّربَةَ فيحمَده عليها**» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

وبعد أن رخّصت لهم الآيات أكل الحلال الطيّب، بيّنت أنّ ما حرّمت عليهم قليل بالنسبة لما أحلّت لهم:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي: الحيوان الذي مات من غير ذبح شرعي. **والذبحُ الشرعيُّ** أحسنُ وسيلة لإخراج الدم من عروق الحيوان وفصله عن لحمه. **والدم** كما هو معلوم الناقل الرئيس لسموم البدن، ويتسارع الفساد إليه مباشرة بعد انفصاله عن موضعه من البدن، ولهذا حرّمه تعالى بقوله:

﴿وَٱلدَّمَ﴾ والمراد منه المسفوح الذي انفصل عن الجسم، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي: وحَرّمَ عليكم لحم الخنزير، فإنه ـ كما مرّ في آية الأنعام المذكورة آنفاً ـ رجس، أي: خبيث ونجس.

وقد أثبت العلمُ الحديثُ أنَّ لحم الخنزير يحمل كثيراً من مسبّبات الأمراض[١].

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: وحرّم عليكم ما ذُبح لغير الله تعالى.

وأصل **الإهلال** لغةً: رفعُ الصوت، وذلك أنّهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر آلهتهم إذا ذبحوا لها، فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم، حتى قيل لكل ذابح: مُهِل، وإن لم يجهر بالتسمية[٢].

فالإسلام يحارب الوثنية بكل أشكالها ومظاهرها، والذبحُ لغيره تعالى مظهرٌ من مظاهر الشرك والوثنية، فيه تعظيم لغيره تعالى، وجحودٌ وكفرانٌ لنعَمه

---

(١) وقد بيّنّا بعضها في غير هذا الباب.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ٢٤٢.

وفضله، فهو سبحانه وحده الخالق الرازق، وهو الذي أحلّ هذا الحيوان وسخّره لنا، فلا يجوز أن نذبحه لغيره تعالى، أو نذكر عند ذبحه غيرَ اسمه تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ثم بيّنت الآيات يُسْر الشريعة الإسلامية ومرونة أحكامها، تأكيداً لما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، بقوله تعالى:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: فمَن ألجأته الضرورة إلى الأكل من هذه المحرّمات، فيُباح له ذلك بشرط أن يأكل منها:

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير قاصدٍ التلذّذ بالأكل منها، بل يقصد دفع الضرورة وحفظ الحياة.

﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: وبشرط ألّا يتعدّى في مقدار ما يأكل حدَّ الضرورةِ، فالضرورات تقدّر بقدرها، وهذا إذا كانت حال الضرورةُ مرجوّةَ الزوال، أما إذا كانت مستمرة جاز الشبع منه، لاضطراره إلى الأكل مرة ثانية[١].

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب عليه ولا مسؤولية فيما أكل.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده ويرحمهم، ويرفع الحرج والمشقّة عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

هكذا تتتابع مِنَن الله تعالى على عباده المؤمنين، بتمسكهم بأحكام شريعته السمحة الميسّرة، فبعد أن منَّ عليهم بإباحة الطيبات المستلذّات، منّ عليهم بتحريم الخبائث المؤذيات، ثم منّ عليهم أيضاً بترخيص المحرّمات عند الضرورات.

---

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

● **أكلة النار:**

وعادت الآيات مرةً ثانيةً تتوعّد كاتِمِي العلم، والمُتاجرين بأحكام الدين، وتبين لهم حُرمة ما يأكلون من حطام الدنيا، بسبب كتمانهم لأحكام دين الله تعالى، ومتاجرتهم بها، وتضيف بهذا طعاماً محرّماً آخر إلى الأطعمة المحرّمة في الآية السابقة، فتحريم ما يكسبون من هذا الطريق أشدّ من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كما فعل أحبار اليهود، الذين كتموا صفات النبيِّ ﷺ، المنزّلة في التوراة، لكي تبقى لهم زعاماتهم الدينية ومكاسبهم الدنيوية.

﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: ويأخذون في مقابل الكتمان عوضاً حقيراً.

وهذا العِوَضُ مهما كان كبيراً فهو في حقيقته حقيرٌ وقليلٌ، وقد مرّ أنه تعالى حذّرهم من هذا في أوَّلِ نداء وجّهه تعالى إلى بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وقد فصَّل تعالى حالهم في **سورة التوبة** فقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾.

وقد بيّن سبحانه هنا صورة من صور هذا العذاب الأليم، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ إما في الدنيا، ولكنّهم لا يشعرون بها لتعطّل حواسهم، فكانوا في ذلك كالخَدِر الذي يجعل يده في الماء الحار، ولا يحسّ به[١]، أو بالمآل يوم القيامة، إذ يؤدّي فعلهم هذا إلى عذابهم في النار.

---

(١) نظم الدرر: ٢/٣٥٢.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النِّساء: ١٠].

ونظيرها في السُّنَّة: ما روته **أُم سلمة** رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ شَرِبَ في إِناءِ ذهبٍ أو فِضّةٍ فإنّما يُجَرْجِرُ في بطنِهِ نارَ جَهَنَّمَ**» [رواه مسلم (٢٠٦٥)].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كلام رحمة.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ من ذنوبهم وآثامهم، فلا يغفرها لهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وكل ذلك بسبب كسبهم واختيارهم، وتفضيلهم الضلال على الهدى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾، كما سبق في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ما أشدّ صبرهم على النار!.

وهو تعجيب للمؤمنين، وتحذير لهم من التشبّه بهم، وإلّا فأيُّ صبر لهم، وأنّى لهم الصبر؟ وهم لا يستطيعون الصبر على نار الدنيا، حتى يصبروا على نار جهنم.

وقد يكونُ المراد بيانَ شدّة عنادهم وجحودهم، فهم يعلمون الحق ويجحدونه، ويعلمون أنهم معذبون بسبب جحوده وكتمانه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: إنما استحقّوا هذا العذاب الشديد،

لأنه تعالى نزَّل القرآن الكريم على النبيّ ﷺ بالحقّ الثابت الواضح، وهؤلاء أعرضوا عنه، وكفروا به، مع علمهم بأنّه حق ثابت منزَّل من الله تعالى.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اختلفوا في الكتب المنزَّلة، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، فالمرادُ جنس الكتاب، ويشمل كل كتاب أنزله الله تعالى.

﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: لفي خلاف بعيد عن الحق.

• **آية البرّ:**

البرُّ: اسمٌ جامعٌ لكل الخيرات والأعمال المُرضِية الصالحة، ولهذا ذكره سبحانه هنا، في سياق الآيات التي تبيِّنُ الارتباط الوثيق والاحتباك القوي، بين العقيدة والشريعة في الإسلام.

وجاءت آيةُ البرِّ هذه مشتملةً على جُمَلٍ عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة[١].

قال القرطبي ﷺ: «هذه آيةٌ عظيمةٌ من أُمهات الأحكام»[٢].

ويبدو أنَّ أهل الكتاب أكثروا الخوض في أمر القبلة ـ كما مرّ معنا ـ فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم قوله الكريم:

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي: ليس البرّ في التوجّه إلى

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٥٣.
(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ٢٤١.

جهة المشرق والمغرب، ولكن البرّ في الإسلام لله تعالى وحده، وفي الانقياد لأمره وشرعه، وفي التوجّه حيثما أمر سبحانه، كما قال في ذبائح الأضاحي والهدي: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: وصدَّق وأقرّ بيوم القيامة، وبما فيه من حساب وثواب وعقاب، كما أخبر سبحانه، فهو من الغيبِ الذي أثبته الدليل الصحيح الصادق.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: وصدَّق وأقرّ بوجود الملائكة، كما أخبر سبحانه عنهم. فالإيمانُ بهم أيضاً إيمانٌ بالغيب، الذي أثبته الدليل الصحيح الصادق، وهو من أُسس الإيمان الكبرى، كما تقدّم في أول السورة [٣] ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وصدَّق بالكتب الإلٰهية المنزلة، فالمراد من الكتاب جنسه، ويشمل جميع الكتب المنزَّلة التي جاء القرآن الكريم مصدّقاً لها.

﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي: وآمن بجميع الأنبياء مِنْ غير تفريق بينهم، وأنهم جميعاً دعوا إلى الإسلام لله تعالى وحده وعبادته، وأن خاتمهم سيّدنا محمد ﷺ، الذي بُعِثَ برسالة الإسلام الشاملة العامّة، التي تعبَّد اللهُ بها الإنسَ والجنَّ إلى يوم القيامة.

هذه أُصول الإيمان وأركانه الكبرى التي لا يتمّ إلّا بها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: ١٣٦].

وفي حديثِ سؤالِ جبريلَ النبيَّ ﷺ، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أَنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّه**» قال: صدقت. [رواه مسلم (٨)].

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: وأعطى المال في سبيل الله، على الرغم من حبّه

له، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: أتى رسولَ اللهِ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، أيّ الصدقةِ أعظمُ؟ فقال: «**أَنْ تَصَّدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقرَ، وتأملُ الغنى، ولا تمهلْ حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلت: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، ألا وقد كان لفلان**» [رواه مسلم (١٠٣٢)].

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: الأقارب المحتاجين، فهم مقدّمون على غيرهم في استحقاق الصدقة، لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**أفضلُ الصدقةِ الصَّدَقَةُ على ذي الرَّحِمِ الكاشحِ**» [رواه الطبراني في (الكبير) وابن خزيمة (٢٣٨٦) والحاكم (١/ ٣٠٦) وقال: صحيح على شرط مسلم] **والكاشح**: بالشين المعجمة؛ هو الذي يضمر العداوة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو الصغير الذي مات والده.

وتقدّم أنَّ مساعدةَ اليتامى ورعايتهم من أعظم العبادات في الإسلام، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل في آيات السورة.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو المحتاج الذي لا يسأل الناس، كما سيأتي.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع في الطريق، سُمّي بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأنَّ الطريقَ تُبرزه، فكأنها ولدته، وكأن إفراده لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه(١).

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: المحتاجين الذين يسألون.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: أعطى المال في تخليص الرقاب من ذلّ العبودية أو الأسر.

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٤٦.

فالإسلام دين الحرية، حثّ على تحرير الأرقّاء ومساعدتهم، وتخليص الأسرى، وعدّ ذلك عبادة لله تعالى.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّاها كاملة مستقيمة، كما شرعها الله تعالى.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطى الزكاة المفروضة عليه في ماله للمستحقين لها.

وأما قوله المتقدّم في الآية: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ فالمراد منه إنفاق آخر غير الزكاة، وهو دليلٌ على أنَّ في المال حقّاً سوى الزكاة، وورد في ذلك حديثٌ: **عن فاطمة بنت قيس**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ في المالِ حقّاً سِوَى الزكاةِ**» ثم تلا هذه الآية. [رواه ابن ماجه (١٧٨٩) والترمذي (٦٥٩ و٦٦٠) وقال: هذا حديث إسناده ليس بذاك].

ففي الإسلام نفقات واجبة في مال الإنسان غير الزكاة، كالنفقات الواجبة على الأقارب، والنفقات الواجبة وقت الأزمات، عندما لا تكفي أموال الزكاة لسدّها، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واتّفق العلماء على أنّه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة، فإنه يجب صرف المال إليها، قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجب على الناسِ فداءُ أسراهم وإن استغرقَ ذلك أموالهم، وهذا إجماع أيضاً»[(١)].

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي: عاهدوا الله تعالى، أو عاهدوا الناس.

فالإنسانُ في الإسلام مسؤول عن عهوده والتزاماته المشروعة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال في معرض وصف المؤمنين والثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، ولم يقل: وأوفى، كما قبله، إشارة إلى وجوب استقرار الوفاء[(٢)].

---

(١) القرطبي: ٢/ ٢٤٢.

(٢) روح المعاني: ٢/ ٤٧.

وفيه أيضاً: تعريض بالناقضين لعهودهم، كما تقدّم عن بني إسرائيل، ونقضهم للمواثيق والعهود.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: في الشدّة والفقر.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: وفي المرض والضعف والعجز.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: وقت قتال العدوّ وجهاده.

وقد جاء قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح، تنبيهاً على امتياز الصبر، إذ فيه دلالةٌ على كمال الاستسلام لله تعالى، والرضا بقدره، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتّصفون بهذه الصفات، وأشار إليهم بالبعيد تفخيماً لهم وتشريفاً.

﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إسلامهم لله تعالى وانقيادهم لأحكام دينه وشرعه.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم وحدهم المتحقّقون بحقيقة التقوى، والذين ذكرهم سبحانه في مطلع السورة، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

- **القصاص والحياة:**

ثم شرعت الآيات في عرض أحكام الشريعة، وبيان ارتباطها بالعقيدة، وكيف أنّ الالتزام بها يوصل إلى التقوى، وبدأت ببيان تشريع القصاص في القتلى، فقررت بذلك حرمة الحياة الإنسانية، ولعلّ الابتداء به للإشارة إلى ضرورة الأمن في المجتمع وحماية حياة أبنائه، فلا بقاءَ لأيٍّ مجتمعٍ من دون أمن، ولا قيام لأي نظام تشريعي من دون قوّة تحميه.

ولا شك أن فرض نظام القصاص على مجتمع كانت تسود فيه عادات الأخذ بالثأر، من أقوى المظاهر الدالّة على انقياد واستسلام أفراد هذا المجتمع لشريعة الله تعالى.

وقد وجّهت الآيةُ خطابَ التكليف بتشريع القصاص للمؤمنين، بأسلوب الفرض والإلزام:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: فُرِضَ عليكم تشريع القصاص في القتلى، ومعناه: المماثلة والمساواة في القتلى، ومعاقبة القاتل المتعمّد بمثل جنايته، أي: بقتله.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: القاتل الحرّ يُقتلَ بالمقتول الحرِّ، والقاتل العبد يُقتلَ بالمقتول العبد، والقاتلة الأُنثى تُقتل بالمقتولة الأُنثى.

ويبدو أنّ الآية اقتصرت هنا على بيان حكم النوع إذا قتل نوعه، إبطالاً لما كان عليه العرب في الجاهلية، فكان إذا حدث بين قبيلتين أو حيّين قتال، تطاول الأقوى منهما على الأضعف، ولم يرضَ حتى يُقْتَل الحرّ بالعبد والرجل بالمرأة، فأنزل الله هذه الآية يُلزِمهم فيها بالتساوي في القصاص، ولهذا أخذ بعض العلماء بعموم قوله تعالى في صدر الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ وبعموم قوله تعالى أيضاً: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فلم يشترطوا التساوي بين القاتل والمقتول لتطبيق القصاص. بينما اشترطه آخرون، لكنّهم أجمعوا على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، كما ذهب جمهورهم إلى قتل الواحد بالجماعة والجماعة بالواحد.

ولا خلاف أنّ القصاص في القتلى **لا يقيمه إلّا أُولو الأمر**، فهم الذين فُرِضَ عليهم النهوضُ بالقصاصِ، وإقامة الحدود وغير ذلك، لأنّ الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٢٤٥.

ثم بيّن تعالى ما امتازت به الشريعة الإسلامية من يُسْرٍ ومرونة في أحكامها، عندما شرع لأولياء المقتول أن يأخذوا الدية، ويعفوا عن القصاص من القاتل، فقال:

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: فمن تُرِكَ له وصُفِحَ عنه من القصاص، من جهة أخيه وليّ المقتول، فإذا عفا بعض أولياء المقتول عن القصاص، سقط وثبتت الديَة.

وذكره تعالى بلفظ الأخوة في الدين والجنس ليعطف عليه، ويرقّ له، فيعفو عن القصاص ويرضى بالدية.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليتبع وليّ الدم القاتل بالمعروف، فلا يأخذ منه أكثر من حقه، ولا يعنّفه، فقد جعل الله تعالى لوليّ المقتول حقّاً في القصاص، أو الدية في حال العفو عن القصاص، وليس له أكثر من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: وعلى القاتل أداء الديَة إلى أولياء المقتول من غير مماطلة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تشريع الدية، وحثّ أولياء المقتول على العفو عن القصاص.

﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ تميّزت بها الشريعة الإسلامية، فلم تكن الدية مشروعةً في التوراة، بل كان القصاص حتماً لازماً فيها، فخفّف الله تعالى هذا الحكم في الشريعة الإسلامية، لأنها تمتاز بالسماحة والرحمة.

ثم ختم الله تعالى الآية بوعيد شديد للذين لا يرضون بهذه الأحكام، ويصرّون على ما كان شائعاً بينهم من عادات جاهلية، كعادة الأخذ بالثأر، فقال:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من تجاوز ما شرع الله تعالى له فقتل غير القاتل، أو قتل بعد أن أخذ الدية.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم بيّن تعالى فائدة الإسلام له، والانقياد لأحكام شريعته، وما يترتب على تطبيق أحكام القصاص من آثار طيبة، تؤدّي إلى إشاعة الأمن والطمأنينة في ربوع المجتمع، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أي: ولكم في تطبيق أحكام القصاص حياة آمنة مطمئنة، خالية عن الخوف والقلق والاضطراب، والتهديد بالقتل، كما هو حال المجتمعات التي لا تلتزم بأحكام القصاص، والتي تسود فيها عادات الأخذ بالثأر.

وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محلَّ ضده، وعرَّف القصاص، ونكَّر الحياة، ليدلّ على أنّ في هذا الجنسِ من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سببَ حياةِ نفسَيْن، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصّ من القاتل سلم الباقون، ويصير ذلك سبباً لحياتهم[١].

﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: يا أصحاب العقول، فالعاقل لا بدّ أن يرى محاسن القصاص في إشاعة الأمن وحفظ الحياة.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتّقون الله تعالى في الاستسلام لأمره والتزام شرعه.

● **تشريع الوصيّة:**

ما كان العرب في الجاهلية يعرفون شيئاً عن نظام الإرث والوصيّة، الذي ينظّم توزيع الأموال بعد موت أصحابها، وكان أقوى أقارب المتوفّى يستولي

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٢٥٣.

على كل ماله، ويحرم الآخرين منه، حتى جاءت الشريعة الإسلامية بنظامها الاقتصادي الكامل، ومن جملته نظام الإرث والوصيّة.

فشرع الله تعالى الوصيةَ، التي تسمحُ للإنسان بالتصرُّف بجزءٍ من ماله بعد موته، وهي تدلّ على أن الإسلام يكرِّمُ الإنسان، ويحترم إرادته في التصرّف بماله حتى بعد موته، ويحفظ في الوقت نفسه حقوق أقاربه في ماله.

وشرع سبحانه الوصية هنا مطلقة، ثم قيّدتها آياتُ المواريثِ والسُّنَّة النبوية ببعض القيود والشروط، قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حضرت أسبابه وظهرت أماراته.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالاً كثيراً، وحدُّ الكثرة أن يستغنيَ به الورثةُ، فلا يحتاجون إلى غيرهم.

وفي الحديث الشريف: عن **سعد بن أبي وقّاص** رضي الله عنه قال: جاءَ النبيُّ ﷺ يعودني وأنا بمكّة... قلت: يا رسولَ اللهِ أُوصي بمالي كلِّه؟ قال: «**لا**» قلت: فالشَّطْرُ؟ قال: «**لا**» قلتُ: الثلثُ؟ قال: «**فالثلثُ، والثلثُ كثيرٌ، إنّكَ أنْ تدَعَ ورثَتَك أغنياءَ خيرٌ من أَنْ تَدَعَهُم عالةً يتكفَّفون النّاسَ في أيديهم، وإنك مهما أنفقْتَ مِنْ نفقةٍ فإنّها صدقةٌ، حتّى اللقمةَ التي ترفعُها إلى في امرأتِكَ**» [رواه البخاري (٢٧٤٢)].

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أوجبَ الله عليكم أن توصوا للوالدين والأقربين ببعض أموالكم.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالعدل، فلا يوصي للغنيِّ ويدَع الفقيرَ، **ولا يزيد على الثلث**.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: حقّاً ثابتاً على المتّقين، الذين يتّقون الآثام

والمعاصي، ودلّ هذا على أنَّ الإيصاء مندوب لا واجب، لأنه لو كان فرضاً لكان على جميع المسلمين[١].

نعم يجب الإيصاءُ على مَنْ عليه ديونٌ وحقوقٌ، وعنده ودائع، لتؤدّى عنه الديون والحقوق من ماله، وَتُرَدَّ الودائعُ إلى أصحابها.

قال جمهور العلماء: كانت هذه الوصيةُ في أول الإسلام واجبةً لوالدي الميت وأقاربه، على ما يراه من المساواة والتفضيل، ثم نسخ ذلك بآية الفرائض[٢].

وبوّب الإمام البخاري في «**صحيحه**» باباً في كتاب الوصايا، قال فيه: بابٌ: لا وصيةَ لوارثٍ، ثم رُويَ عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال [٢٧٤٧]: كان المالُ للولدِ، وكانتِ الوصيةُ للوالدينِ، فنسخ الله مِنْ ذلك ما أحبَّ، فجعل للذَّكرِ مِثْلَ حظِّ الأُنثيين، وجعلَ للأبوين لكلِّ واحدٍ منهما السُّدسُ، وجعلَ للمرأةِ الثُّمنَ والرُّبعَ، وللزوجِ الشطرَ والرّبعَ.

وقال ابن حجر: قوله: «بابٌ: لا وصيةَ لوارثٍ»، هذه الترجمةُ لفظُ حديثٍ مرفوع، كأنّه لم يثبتْ على شرط البخاري، فترجم به كعادته، واستغنى بما يعطي حكمه، وقد أخرجه [أبو داود (٣٥٦٥) والترمذي (٢١٢٠) وغيرهما] من حديث **أبي أمامة**: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في خطبته في حجّةِ الوداع: «**إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيّةَ لوارثٍ**»[٣].

فالآية منسوخةُ الحكم، ورأى بعضُهم أنّها محكمةٌ، ظاهرُها العمومُ، ومعناها الخصوصُ في الوالدين اللذين لا يرثان، كالكافرَيْن والعبدَيْن، وفي القرابة غير الورثة، قاله الضحّاك وطاوس والحسن، واختاره الطبري[٤].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٢٦٧.

(٢) فتح الباري: ٥/ ٣٧٣.

(٣) المصدر السابق: ٥/ ٣٧٢.

(٤) تفسير القرطبي: ٢/ ٢٦٢.

ثم توعّد سبحانه الأوصياء والشهود الذين اؤتمنوا على تنفيذ الوصية، كي لا يغيّروا فيها ولا يبدّلوا؛ ما دام الموصي قد راعى فيها الأحكام الشرعية، فقال:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: فمَن غيّر في الوصية وبدّل ما فيها.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ من الموصي وتحقّق منه.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ لا على الموصي، ولا على الموصى له، إنّما الإثمُ يعود على الذين بدّلوا وغيّروا في الوصية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالكم ويعلم أحوالكم وأعمالكم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي: جوراً وميلاً عن الحق بالخطأ.

﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ذنباً بسبب تعمّد مخالفة أحكام الشريعة.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الورثة وبين الموصى لهم، بحسب شرع الله تعالى.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب عليه في هذا، لأنّه إزالةٌ للمنكر، ومنعٌ للظلمِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا يدلّ على أن تحكيم شريعة الله تعالى أولى من تنفيذ رغبة الموصي المخالفة لأحكامها، فلا تُحترمُ إرادةُ الإنسان ولا تنفَّذُ رغباته إلّا إذا كانت موافقة لشريعة الله تعالى، فالاستسلامُ لله تعالى يقتضي أن تكونَ أحكامُ الشريعة هي الأولى في حياتنا، والمقدمة على رغباتنا وإرادتنا، وهذه نقطةُ الخلافِ الرئيسة بين الشريعة الإسلامية، والشرائع الوضعية التي قدّمت رغبات الناس، حتى أصبح بعضُهم يوصي بماله كلّه لكلب أو هرّ، ويحرم منه أولاده وأقاربه، ولعلّ هذا سرّ إيراد آيات الصيام بعد آيات الوصية مباشرة، لأنه من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وجعلها تستسلم وتنقاد لأحكام دين الله تعالى وشرعه.

- **تشريع الصيام:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: فُرِضَ عليكم الصيامُ كما فُرِضَ على الذين من قبلكم، فالصيام عبادة قديمة، كلّف الله تعالى به جميع الأنبياء السابقين وأتباعهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلّكم تتّصفون بصفة التقوى، فالصوم يربِّي النفسَ ويهذبها، ويقوّي الإرادة على العبادة والاستسلام لله تعالى والخضوع لأحكامه.

والصوم **إمساك عن المُفطِّرات من طلوعِ الفجر إلى غروب الشمس مع نيّة العبادة.**

ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ، فلا يرفثْ ولا يجهلْ، وإن امرؤٌ قاتلَه أو شاتَمَه، فليقلْ: إني صائمٌ** ـ مرتين ـ **والذي نفسي بيدِهِ لَخَلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ الله مِنْ ريحِ المِسْكِ، يتركُ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَه من أجلي، الصيامُ لي وأنا أجزي بِهِ، والحسَنَةُ بعشر أمثالِهَا**» [رواه البخاري (١٨٩٤)].

وقال أيضاً: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قولَ الزُّوْرِ والعملَ بِهِ فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ**» [رواه البخاري (١٩٠٣)].

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ أي: كُتِبَ عليكم الصيام في أيام معدودات، والمرادُ بها أيامُ شهرِ رمضانَ، كما بيّنه في الآية التالية.

وقد رخّص تعالى للمريض والمسافر في هذه الأيام المعدودات بالفطر، مما يدلُّ على يُسْر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضرّ معه الصوم، بأن يتسبب بزيادته، أو تأخير شفائه، بتجربةٍ أو بإخبارِ طبيب مسلم غير ظاهر الفسق.

فلا يُباحُ الفطرُ لأي مرض، فقد يكون الصيامُ سبباً للشفاء بتقدير الله تعالى، وقد ثبت علميّاً أنَّ الصيام يفيدُ في شفاء كثير من الأمراض.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: أو كنتم مسافرين.

وأفاد قولُه: ﴿عَلَىٰ﴾ التمكّن من السفر والاستمرار فيه، والمراد السفر الذي تُقْصَر فيه الصلاة، وكان ابن عمر وابن عباس ﷺ يقصران ويفطران في أربعة برد، وهي ستّة عشر فرسخاً ـ ذكره البخاري تعليقاً ووصله ابن المنذر ـ وقدّرها كثير من العلماء المعاصرين باثنين وثمانين كيلومتراً.

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فعليه إن أفطر صومُ عدّة أيامِ المرض والسفر، من أيام أُخَرَ غير رمضان.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا بلا عذر.

﴿فِدْيَةٌ﴾ بدل الصوم، ومقدارها كل يوم:

﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: قدر ما يأكل الفقير المحتاج كل يوم من أوسط طعام الناس، كما في كفّارة الحانث في يمينه، وقدّرها العلماء بمقدار زكاة الفطر.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فأطعم عن كل يوم أكثر من مسكين، أو جمع بين الصيام والإطعام.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ لأنه تعالى يُثيبه على تطوّعه.

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم في رمضان من الفضل الكبير والثواب العظيم(١).

---

(١) انظر: أحكام الصيام في الجزء الأول من كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد، ط: دار القلم بدمشق.

ودلّت الآية على أنهم ما كانوا ملزمين بالصوم في أول الأمر، بل كانوا مخيّرين بينه وبين الفدية، فعن **سلمة بن الأكوع** رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ **كان مَن أرادَ أن يفطرَ ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها**. [رواه البخاري (٤٥٠٧)].

وهذا يدلّ على أنّه تعالى شرع الصيام بالتدريج، رحمة بالمسلمين في زمن التشريع، فخيّرهم تبارك وتعالى في أول الأمر بين الصيام والفدية، لئلا يشقّ عليهم، لأنهم لم يتعوّدوا الصوم، ثم نسخ التخيير، وتعيّن عليهم الصومُ بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. هذا رأيُ أكثر العلماء.

وذهب جماعة، منهم ابن عباس رضي الله عنهما، إلى أن الآية محكمةٌ غيرُ منسوخة، وأنّها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، فعن **عطاء**: أنه سمع **ابن عباس** رضي الله عنهما يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليستْ بِمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكانَ كلِّ يومٍ مسكيناً. [رواه البخاري (٤٥٠٥)].

- **نزول القرآن في رمضان:**

ثم بيّنت الآيات زمن الصيام المفروض على وجه التحديد، بقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي: وقت الصيام شهر رمضان.

ورمضان: مأخوذ من رمَض الصائم يرمض، إذا حرّ جوفه من شدّة

العطش. يقال: إنّهم لمّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سمّوها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهرُ أيامَ رمض الحرّ، فسُمِّي بذلك، وقيل: إنّما سُمِّي بذلك لأنّه يرمضُ الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة(١).

والحكمة من تخصيص شهر رمضان بعبادة الصيام أنّه تعالى أنزل فيه القرآن الكريم، وهو أعظم الأحداث التي مرّت على الإنسانية، وكان له أعظم الآثار في تاريخها، فكأن الصيامَ في هذا الشهر، فيه شكر لله تعالى على النعمة الجليلة التي تفضّل بها عليهم فيه، وهي نعمة إنزال القرآن الكريم.

قال ابن كثير رحمه الله: يمدح الله تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم، فإنّه الشهرُ الذي كانت الكتب الإلٰهية تنزل فيه على الأنبياء، فقد روى **الإمام أحمد** [٤/١٠٧]: عن **واثلة بن الأسقع** رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أُنزلتْ صحفُ إبراهيمَ في أوّلِ ليلةٍ من رمضان، وأُنزلتِ التوراةُ لستٍّ مضينَ من رمضان، والإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ خلتْ من رمضانَ، وأَنزلَ اللهُ القرآنَ لأربعٍ وعشرينَ خلت من رمضانَ**»(٢).

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ في ليلة القدر المباركة.

كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخان].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

ومن المعلوم أنّ القرآنَ الكريم نزل على النبيّ ﷺ مفرّقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وردّ الله على المشركين المعترضين على نزول القرآن الكريم مفرَّقاً بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٢٩١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٦١.

ولما سُئِلَ ابن عباس ﵄ عن ذلك قال: إنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة، جملةً واحدةً، ثم أُنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام(١). وذهب بعضُ العلماء إلى أنّه ابتُدئَ نزولُه في شهر رمضان.

ويمكن الجمع بين القولين بأنه أُنزل إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ في ليلة القدر جملةً واحدةً، وابتدئ نزوله أيضاً على النبيِّ ﷺ في شهر رمضان، وهذا ما أشار إليه ابن حجر ﵀ في تعليقه على قول **ابن عباس** ﵄: **كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاهُ جبريلُ، وكان يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيدارِسُه القرآن، فلرسولُ اللهِ ﷺ أجودُ بالخيرِ من الريحِ المرسلةِ.** [رواه البخاري (٦)].

قال ابن حجر: «وفيه ـ أي الحديث ـ إشارة إلى أنَّ ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريلُ يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلمّا كان العامُ الذي توفي فيه عارضَهُ بهِ مرتين، كما ثبت في «**الصحيح**» عن أبي هريرة ﵁. [رواه البخاري (٤٩٩٨)، ورواه تعليقاً عن فاطمة ﵂]»(٢).

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: أنزله سبحانه لأجل هداية الناس إلى أقوم دين وأفضل تشريع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

والمراد من الناس: المنتفعون به، وهم المتّقون، كما مرّ في أول السورة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: وهو أيضاً دلائل واضحة تهدي إلى الحق، وتفرّق بينه وبين الباطل.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٦١..

(٢) فتح الباري: ١/ ٣١.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ أي: فمَن علمَ حلولَ شهر رمضان فليصمه.

وهو أمرٌ للوجوب، دلّ على فرض الصيام في شهر رمضان على جميع المكلّفين، إذا علموا بحلوله برؤية هلاله، قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ هذا إيجابُ حتمٍ على مَنْ شهد استهلال الشهرِ»[١].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**صُوموا لرؤيتِهِ، وأفطروا لرؤيتِهِ، فإنْ غُبِّيَ عليكمُ فأكملوا عِدّةَ شعبانَ ثلاثينَ**» [رواه البخاري (١٩٠٩)].

وعادت الآياتُ تذكُر مرةً ثانيةً الترخيصَ بالفطر للمسافر وللمريض، لتأكيدِ الحكم، ولنفي التوهّم بأنّ الترخيصَ لهما نسخ كما نُسِخَ التخييرُ بين الصيام والفديةِ في الآية السابقة، وأضافت الآيةُ هنا بيانَ سببِ الترخيص:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ وهذا يدلّ على رأفته ورحمته تعالى بالمؤمنين، الذين أسلموا له، وانقادوا لأحكام شريعته.

وقرَّرَ العلماءُ بناءً على هذه الآية الكريمة، عدداً من قواعد الفقه الكلية الدالّة على سماحة الشريعة الإسلامية ويُسرها، كقولهم: «**المشقّةُ تَجْلِبُ التيسيرَ**»، «**إذا ضاقَ الأمرُ اتّسعَ**»، «**الضروراتُ تُبيحُ المحظوراتِ**».

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي: وأَمَرَكُم بالقضاءِ، لتكملوا عدّة شهر الصيام.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أي: ولكي تعظّموا الله تعالى، على هدايته لكم إلى الإسلام، وشريعته السمحة الميسّرة.

من السُّنَّة التكبيرُ عند انتهاء شهر رمضان، حتى تصلّى صلاةُ عيدِ الفطرِ.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله تعالى على ما أنعم عليكم، وبهذا تكونون قد جمعتم بين الذكر والشكر، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٦١.

- **الصيام والدعاء:**

الصيام عبادة خالصة لله تعالى، لا يداخلها رياء، كما جاء في الحديث الشريف: «**كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ يضاعَفُ له، الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمئةِ ضِعْفٍ، قالَ اللهُ ﷻ: إلّا الصومَ فإنَّه لي، وأنا أجزي بِهِ، يدعُ شَهوَتَهُ وطعامَهُ مِنْ أجلي، للصائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عندَ فِطْرِهِ، وفرحَةٌ عندَ لقاءِ رَبِّهِ**» [رواه مسلم (١١٥١)].

ولهذا فإنَّ الصومَ يجعل الصائمَ مجابَ الدعوة، فعليه أن يُقْبِلَ على الله تعالى بالدعاءِ والضراعةِ، ولعلّ هذا سببُ مجيءِ آيةِ الدعاء في سياقِ آياتِ الصيام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: أخبرهم بأنّي قريبٌ، أعلم أحوالهم، وأسمعُ كلامهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: كنّا مع النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فجعلَ الناسُ يَجْهَرُوْنَ بالتكبيرِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**أيها الناسُ أَرْبِعُوْا على أَنْفُسِكُم، إنَّكُم ليسَ تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّكم تدعونَ سَمِيْعاً قَرِيباً وهوَ مَعَكُمْ**» [رواه مسلم (٢٧٠٤)].

قوله: «**أربعوا على أنفسكم**» أي: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: أسمعُ دعاءه، وأستجيبُ له، متى أشاءُ وأُريدُ، قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ودلّت الآيةُ على أنّ الله تعالى تكفّل بالإجابةِ في الوقت الذي يشاء، وكما يشاء سبحانه.

وفي الحديث الشريف: عن **عبادة بن الصامت** ﷺ: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ما على الأرض مُسْلِمٌ يدعو اللهَ بدعوةٍ إلّا آتاهُ اللهُ إيّاها، أو صرفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَها، ما لم يدعُ بإثمٍ أَو قطيعةِ رَحِمٍ**» فقال رجل من القوم: إذاً نكثِرُ، قال ﷺ: «**اللهُ أكثرُ**» [رواه الترمذي (٣٥٧٣)].

وعن **أبي هريرة** ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يزالُ يُستجابُ للعبدِ ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رَحِمٍ، ما لم يَسْتَعْجِلْ**» قيل: يا رسول الله، ما الاستعجالُ؟ قال: «**يقولُ: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسِرُ** (أي: ينقطِعُ) **عندَ ذلك، ويدعُ الدعاءَ**» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

ودلّت الآيةُ على أنّ الدعاءَ أمرٌ مطلوب، ويحرم تركه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦].

فالدعاءُ عبادةٌ وقُربة، يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بعبادتي وطاعتي.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ الإيمانَ الصحيحَ الواجبَ عليهم، وذلك بالثبات والدوام عليه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يصيبون الحق ويهتدون إليه.

إنها آية عجيبة، آيةٌ تسكبُ في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والودّ المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة واليقين، فلم يقل تعالى في الردّ عليهم: فقل لهم. إنما تولّى تعالى بذاته الجوابَ على عباده بمجرّدِ السؤال، ولم يقل: أسمعُ الدعاءَ. إنما عجّل بالإخبار عن إجابة الدعاء: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفي ظلّ هذا الأُنس الحبيب، يوجّه تعالى عبادَه إلى الاستجابة له، والإيمان به، لعلّ هذا أن يقودَهم إلى الهداية والرشد والصلاح، فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك، والله غنيٌّ عن العالمين(١).

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ١٧٣.

● **تخفيف وتيسير في أحكام الصيام:**

وأضافت الآياتُ وجهاً آخر من وجوه التيسير والتخفيف في أحكام الصيام، تأكيداً لما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وإبرازاً ليُسْر أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها، وامتيازها على غيرها من الشرائع، قال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: أُحِلّ لكم ليلة الصيام مجامعة نسائكم، وكانت مجامعة النساء محرّمة على الصائمين في ليالي الصيام بعد النوم، كذلك الحكمُ في الأكل والشرب.

ويبدو أنّ الصيامَ الذي كلّف الله به أهلَ الكتاب كان هكذا ـ كما سيأتي ـ وكان أيضاً هكذا في أول ما شرع الله الصيام على المسلمين، ثم خفّف سبحانه على المسلمين بهذه الآية الكريمة.

والرفث في الفعل: الجماعُ، وفي القول: الكلام الفاحش، وعُدّي بـ (إلى) للدلالة على أنّ المرادَ به الفعل والاتصال بالنساء. وأكده قوله تعالى بعد ذلك:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وهو كناية عن شدّة الاقتراب والملابسة بين الزوجين، وقوة الاتصال بينهما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ كل واحد من الزوجين يستر الآخر، ويمنعه من الفواحش والفجور.

وجاءت كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنّه: إذا كان بينكم وبينهنَّ مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهنّ، وصعبَ عليكم اجتنابهنّ، فلذا رخّص لكم في مباشرتهنّ(١).

ثم واجهتهم الآيةُ بحقيقة ضعف الإنسانِ أمام شهوته:

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تظلمونها بفعل المخالفة والمعصية، والاختيان أبلغُ من الخيانة، كالاكتساب من الكسب.

وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدّي فيه الأمانة، والإنسان مؤتمن على ما كلّفه الله تعالى به، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وفي الحديث الشريف: عن البراء ﷺ: **لمّا نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربونَ النساءَ رمضانَ كلَّه، وكان رجالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله:** ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾. [رواه البخاري (٤٥٠٨)].

وقوله: «**لا يقربون النساءَ رمضانَ كله**» أي: بعدَ النوم، كما ورد في عدد من الأخبار(٢).

وفي رواية أخرى: عن البراء ﷺ قال: **كان أصحابُ محمّدٍ ﷺ، إذا كان الرجلُ صائماً فحضر الإفطارُ، فنامَ قبلَ أن يفطِرَ، لم يأكلْ ليلتَه ولا يَوْمَهُ حتى يمسي، وإنَّ قَيْسَ بن صَرمةَ الأنصاريّ كان صائماً، فلمّا حضرَ الإفطارُ أتى امرأته فقال لها: أعندكِ طعامٌ؟ قالتْ: لا، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك، وكان يومَهُ يَعْمَلُ، فغلبته عيناه، فلمّا رأته قالت: خيبةً لك، فلمّا انتصفَ النهار غُشِيَ عليه، فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية:** ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٢٦٧.

(٢) انظر: فتح الباري: ٨/ ١٨٢.

نِسَآئِكُمْۚ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾. [رواه البخاري (١٩١٥)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبيّن السديُّ وغيرُه أنّ ذلك الحكم كان على وفق ما كُتِبَ على أهلِ الكتاب، كما أخرجه ابن جرير من طريق السدي، ولفظه: «**كُتِبَ على النصارى الصيامُ، وكُتِبَ عليهم ألّا يأكلوا، ولا يشربوا، ولا ينكحوا بعد النوم، وكُتِبَ على المسلمين أولاً مثل ذلك**» ويؤيّد هذا ما أخرجه مسلم [١٠٩٦]: من حديث **عمرو بن العاص** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «**فَصْلُ ما بينَ صيامنا وصيامِ أهلِ الكتابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»(١).

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قَبِل توبتكم، أو خفّف عنكم بالرخصة والإباحة، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾ [المزمل: ٢٠] يعني: خفّف عنكم.

﴿وَعَفَا عَنكُمْۖ﴾ يحتمل العفو عن الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل.

وقد ورد في بعض الروايات: أن **عمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان مِنَ الذين خانوا أنفسهم قبل العفو والترخيص، قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال علماء الزهد: هكذا فلتكن الغايةُ وشرفُ المنزلةِ، خان نفسَه عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فجعلها الله تعالى شريعة، وخفّف من أجله عن الأمة، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه(٢).

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ الآن أُحِلَّ لكم ما كان محرّماً عليكم، ويمكنكم الاتصالُ بهنّ للجماع، وهذا من حُسْنِ التعبير القرآني، كنّى عن الجماع بالمباشرةِ لالتصاقِ بشرةِ الزوجين فيه.

﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ أي: اطلبوا ما قدّر الله تعالى لكم من الولد، فالاتصال الجنسي سببٌ، والخالق هو الله تعالى.

ومدّت الآية زمن إباحةِ تناولِ الطعامِ والشرابِ والجماعِ طولَ الليلِ حتى يطلع الفجر:

---

(١) فتح الباري: ٤/ ١٣٠.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ٣١٧.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: حتى يتميز بياضُ الفجر عن سوادِ الليل.

وفي الحديث الشريف: عن **عديّ بن حاتم** رضي الله عنه قال: لمّا نزلتْ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عمدتُ إلى عِقالٍ أسودَ، وإلى عقالٍ أبيضَ، فجعلتُهما تحتَ وسادتي، فجعلتُ أنظرُ في الليل فلا يستبينُ لي، فغدوتُ على رسول الله ﷺ فذكرتُ له ذلك، فقال: «**إنَّما ذلك سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ**» [رواه البخاري (١٩١٦)].

والمراد بقوله: «**لما نزلت**» أي: لما تُلِيَت عليّ عند إسلامي، لأنَّ إسلام عديّ كان في السنة التاسعة أو العاشرة بعد نزول الآية[1].

والمراد من ﴿ٱلْفَجْرِ﴾: **الفجر الصادق المستطير في الأفق**، أما الفجر الذي يظهر أولاً كشعاع مستطيل كذنب الذئب، ثم يغيب، وتعقبه ظلمة، فهو فجرٌ كاذبٌ، لا يبدأ به وقت صلاة الصبح، ولا وقت الإمساك للصيام، إنّما الفجر الصادق الذي يظهر بعده باثنتي عشرة دقيقة، ويستطير ضوءُه، وينتشرُ في الأفق، هو الذي يبدأ به وقت الصلاة والإمساك.

وعن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ بلالاً كان يؤذّنُ بليلٍ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُوا واشربوا حتّى يؤذِّنَ ابنُ أمِّ مكتوم، فإنَّه لا يؤذِّنُ حتى يطلعَ الفَجْرُ**» [رواه البخاري (١٩١٨)].

وعن **سمرة بن جندب** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**لا يَغُرَّنَّ أحدَكم نداءُ بلالٍ من السُّحُورِ، ولا هذا البياضُ حتّى يستطيرَ**» [رواه مسلم (١٠٩٤)].

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: إلى أول الليل، فمنتهى الصيام أوّلُ الليل.

كما في الحديث الشريف: عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) فتح الباري: ٤/ ١٣٢.

قال: «**إذا أقبلَ الليلُ مِنْ هاهنا، وأدبرَ النهارُ مِنْ هاهنا وغربتِ الشمسُ، فقد أفطرَ الصائِمُ**» [رواه البخاري (١٩٥٤)].

وأشارتِ الآيةُ إلى كراهيةِ الوصال، وهو مواصلةُ الإمساكِ عن المفطِرات في الليل، حتى يتّصل صيامُ اليوم بالذي يليه، وقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ نَهى عنه.

فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن الوصالِ رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصِلُ. قال: «**إنِّي لستُ كهيئتِكُم، إنّي يطعِمُني ربّي ويسقين**» [رواه البخاري (١٩٦٤)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ فيه ما يقتضي النهيَ عن الوصال، إذ الليلُ غاية الصيام... وعلى كراهية الوصال جمهورُ العلماء، وقد حرّمه بعضُهم لما فيه من مخالفة الظاهر، والتشبّه بأهل الكتاب»(١).

وقد مرّ معنا قول النبي ﷺ: «**فصلُ ما بينَ صيامنا وصيامِ أهلِ الكتابِ أكْلَةُ السَّحَرِ**» [رواه مسلم (١٠٩٦)].

وبعد أن أحلَّ الله تعالى لهم الجماع في الليل، بيّن لهم أنهم إذا كانوا معتكفين في المساجد، فلا يحلّ لهم الجماع في أثناء الاعتكاف ليلاً ونهاراً، فقال:

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ أي: وأنتم معتكفون في المسجد بقصد العبادة والقربة.

والاعتكاف سُنّة مؤكدة في العَشْر الأواخر من رمضان، مستحبٌّ في غيره من الأزمنة، فعن **عائشة** رضي الله عنها: «**أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعتكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ في رمضانَ حتّى توفّاه الله تعالى، ثم اعتكفَ أزواجُه مِنْ بعدِه**» [رواه البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢) واللفظ للبخاري].

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: تلك الأحكام التي ذكرت في الآيات حدود الله.

وأصلُ **الحد** في اللغة: المنعُ، والحدود: الحواجز، وسُميتِ الأحكام حدود الله، لأنها تمنعُ أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرجَ منها ما هو

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٣٢٩.

منها[١]، وسيأتي قوله تعالى في أحكام الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أما هنا فقال:

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ بمخالفتها أو تغييرها. ويفيد النهي عن الاقتراب من الحدّ الحاجز بين الحق والباطل الابتعاد عن الباطل ومجانبته، كما مرّ في الحديث الشريف: «**كالرَّاعي يرعى حولَ الحِمَى يوشكُ أن يرتعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حمى الله محارمُه**» [رواه البخاري (٥٢) و(٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩)].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيّن تعالى أحكام الصيام.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: معالم دينه وأحكام شريعته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعلّهم إذا تمسكوا بأحكام شريعته، يتحقّقون بصفة التقوى ويدخلون في زُمرة المتّقين.

- **تحريم أكل المال بالباطل:**

ومن معالم دين الله تعالى وأحكام شريعته: حقّ التملّك الفردي للمال، وتقرير حُرمة هذا المال، وتحريم أكله بالباطل من قِبَل الآخرين، ولهذا قال تعالى يقرِّرُ هذا المبدأ الهام من مبادئ التعامل المالي بين الناس:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: لا يأكل بعضُكم مالَ بعضٍ بالباطل، كالغصب والسرقة والغش والاحتيال والربا والقمار، إلى غير ذلك من وجوه الاكتساب غير المشروع في الإسلام.

وعبّر عن أخذ المال بالأكل، لأنه المقصود الأعظم، وقد وقع التعارف بين الناس على هذا المراد، فيقولون: فلان يأكل أموال الناس. بمعنى: يأخذها بغير حلّها.

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٣٣٧.

وأفاد قوله: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾ أنّ آكل مال أخيه بالباطل كآكل مال نفسه بالباطل.

ويمكن أن يكون المعنى: لا تأكلوا أموالكم المملوكة لكم بالباطل، وذلك بإنفاقها في الوجوه المحرّمة، كثمن الخمر والخنزير، وفي القمار والرِّبا.

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: ولا تدلوا بها إلى الحكّام.

﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالتحاكم إليهم.

﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بما يستوجبُ الإثمَ والمعصيةَ، كشهادة الزور واليمين الكاذبة والرشوة.

فمعنى الآية: لا تُصانِعوا بأموالكم الحكّام وترشوهم، ليقضوا لكم على أكثر منها. قال ابن عطيّة: «وهذا القولُ يترجّحُ، لأنّ الحكّام مظنّة الرشاء، إلّا من عُصم، وهو الأقل، وأيضاً فإن اللفظين متناسبان: تدلوا، من إرسال الدلو. والرشوة من الرشاء (وهو حبل الدلو)، كأنه يمدّ بها ليقضي الحاجة»[(١)]. ويقوّي هذا قوله: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ﴾ تدلوا: في موضع جزم عطفاً على ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾[(٢)].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، وأنّ هذه الأموال محرّمة عليكم.

فحكم الحاكم لا يُحلّ حراماً في الشريعة الإسلامية، والحرامُ ما حرّمه الله تعالى، والحلال ما أحلّه تعالى.

وفي «**صحيح البخاري**»: باب من قُضِيَ له بحق أخيه فلا يأخذه، فإنّ قضاء الحاكم لا يحل حراماً، ولا يحرِّمُ حلالاً. ثم رَوى بسنده [٧١٨١]: إلى **أُم سلمة** رضي الله عنها: أنَّ النبيّ ﷺ سمع خصومةً بباب حُجرتِه، فخرج إليهم فقال: «**إنّما أنا بشرٌ، وإنّه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضَكم أن يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنَّهُ صادقٌ، فأقضي له بذلك، فمَن قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ فإنّما هي قطعةٌ من النَّارِ، فليأخذْها أو ليتركْها**».

ولعلّ هذا سرُّ إيراد هذه الآية بعد آيات الصيام، وتقديم تقرير هذا المبدأ

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٢/ ١٣٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ٣٤٠.

في التعامل المالي على آيات المعاملات المالية المذكورة في أواخر السورة، فالصيامُ يربّي نفس المسلم، ويقوّي إحساسه بمسؤوليته، ورقابة الله تعالى عليه، ولا شكَّ أنَّ الأثر العملي لهذه التربية الوجدانية يظهر في تعامل الإنسان مع غيره، وفي امتناعه عن أكل أموال الناس بالباطل ولو حكمَ الحاكِمُ له بها، فإنَّ حكمَ الله تعالى فوقَ حكم جميع الحكّام والقضاة.

• الأهلّة والمواقيت الشرعية:

لمّا كانت التوقيتات الشرعية مؤقتة بالشهور القمرية، ذكر تعالى آيةَ الأهلّة في سياق آياتِ الصيام، وفي مقدّمةِ آيات الجهاد والحج، فبعضُ أحكام الجهاد لها صلة بالأشهر الحُرم ـ كما سيأتي ـ وهي أشهر قمرية، وأشهر الحج أيضاً قمرية، وبهذا تكون الآية متصلة بما قبلها وممهّدة لما يأتي بعدها.

ونزلت الآيةُ جواباً لسؤال وُجِّه إلى النبيِّ ﷺ عن الأهِلّة، ولا يوجد بين أيدينا رواية صحيحة تكشف لنا عن السائلين، سوى ما أخرجه **ابن عساكر بسند ضعيف**: أن **معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم** قالا: يا رسول الله ما بالُ الهلالِ يبدو ويطلعُ دقيقاً مثلَ الخيطِ، ثم يزيدُ حتى يَعْظُمَ، ويستويَ، ويستديرَ، ثم لا يزالُ ينقصُ ويدقُّ حتى يعودَ كما كان، لا يكونُ على حالٍ واحدٍ؟ فنزلت.

وفي روايةٍ: أنّ **معاذاً** قال: يا رسولَ اللهِ إنَّ اليهودَ يُكثرون مسألتنا عن الأهلّةِ. فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ وهي جمعُ هلال، وجُمِعَ وهو واحد لتغيّر أحواله كل ليلة.

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٧١.

وهذا يدلّ على أنهم سألوا عن حكمة التغيّر والتحوّل في الهلال، حسب النظام الدقيق المقدّر له، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يسٓ: ٣٩].

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي: قل هي أوقاتٌ يؤقّت الناس بها مصالحهم وعباداتهم، وخصوصاً الحج، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

ويلاحظ أنه تعالى اقتصر في الآية على ذكر الجانب الشرعي المتّصل بمنازل الأهلّة، ولم يتعرّض سبحانه للجانب العلمي الفلكي، مما يدلّ على أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع.

ثم بيّنتِ الآيةُ بطلانَ عادة جاهلية، كانوا يفعلونها عندما يُحرِمون في أشهر الحج:

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ قال البراء رضي الله عنه: نزلت هذه الآية فينا، كانتِ الأنصارُ إذا حجّوا ـ وفي رواية أخرى بلفظ: إذا أحرموا في الجاهلية ـ فجاؤوا؛ لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجلٌ من الأنصار، فدخل من قِبَل بابه، فكأنَّه عُيِّرَ بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾. [رواه البخاري (١٨٠٣)].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ أي: اتّقى الله تعالى، باجتناب المحظورات وفعل الطاعات، كما تقدم في آية البرّ.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ في حال الإحرام وغيره، وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها.

ولعلّ في ذلك تأديباً لهم، وإشارة إلى سؤالهم عن الأهلّة، فقد سألوا عن

أمرٍ لا يعنيهم، وتركوا السؤال عمّا يعنيهم مما يتعلَّق بشؤون دينهم وعباداتهم[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتزام شرعه والوقوف عند حدوده.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالوصول إلى البرّ والهدى والرشاد.

• **تشريع الجهاد وتحريم العدوان:**

الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى مشروعٌ في الإسلام، وهو من أعظم العبادات وأفضل القُربات.

وكلمة **جهاد** تدلّ بمعناها **اللغوي** على شدّته وصعوبته، فهو في الأصل المشقّة، يقال: **جهدت جهداً**، بلغت المشقّة، ومعناها **الشرعي**: **بذل الجهد في قتال الكفّار**.

ومن رحمته تعالى بالمؤمنين أنّه ما كلّفهم بالجهاد في أول الأمر، فما شرعه تعالى إلّا بعد الهجرة، لأنّهم كانوا بمكة مستضعفين، لا شوكة لهم ولا قوة، ولمّا هاجروا إلى المدينة، وصارت لهم مأوًى ومعقلاً، وقاعدةَ انطلاق ينطلقون منها إلى ميادين الجهاد، شرع تعالى الجهاد، وأنزل أول آياته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وأنزل أيضاً هذه الآية:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي: كما يقاتلونكم قاتلوهم.

ففي الآية تهييج وإغراء بالأعداء، الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله[٢]،

(١) تفسير البيضاوي والنسفي: ١/ ٢٧٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٦٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: اجعلوا قتالكم في سبيل الله ورفع كلمته، ولا تجعلوه للعدوان، فإنّه سبحانه لا يحبُّ المعتدين.

ويدخل في الاعتداء ـ كما قال ابن كثير ـ ارتكابُ المناهي من المُثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة[1]. وهذا ما يسمّى في عصرنا الحاضر **الأهداف المدنية**، التي لا علاقة لها بالقتال.

وقد ثبت في السُّنَّة النبوية الشريفة النهيُ عن التعرّض لهم، فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: وُجِدتِ امرأةٌ مقتولةٌ في بعض مغازي رسولِ اللهِ ﷺ، **فنهى رسولُ اللهِ ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيانِ.** [رواه البخاري (٣٠١٥)].

والمرادُ بالنساءِ: اللواتي لا يشاركنَ في القتال، أمّا المشاركات في القتال فيجوز قتلهنّ.

وعن **بريدة** رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أَمَّرَ أميراً على جيش أو سَرِيّة، أوصاهُ في خاصّته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغزوا بسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتلوا مَن كفرَ باللهِ، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**» [رواه مسلم (١٧٣١)].

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم وظفرتم بهم.

(١) المرجع السابق: ١/ ١٧٠.

وأصل الثقف لغةً: الحذقُ في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً، فهو يتضمّنُ معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها[1].

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، وألجؤوكم إلى الهجرة.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: والمحنةُ التي أصابتكم منهم، حين آذوكم، وأخرجوكم من دياركم، لأجل أن يردّوكم عن دينكم، أعظم من القتل.

فالآيةُ تذكّرُ المسلمين بما أنزله المشركون فيهم من أنواع الظلم والاضطهاد عندما كانوا في مكة، لإثارة عواطفهم وإلهاب حماسهم في قتال المشركين.

ومن المعلوم أنّ معارك الإسلام الأُولى عندما شرع الجهاد كانت بين المسلمين وبين مُشركي مكّة المكرّمة، ثم أمرتهم الآياتُ بالمحافظة على حُرمة البلد الحرام مكّة المكرّمة، فمنعتهم من إنشاب القتال فيه إلّا في حال الدفاع عن النفس، فجاء هذا المنعُ بمثابةِ التخصيص لعموم ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فللحرم حُرمته، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وذكرنا ثمّة قول النبيّ ﷺ: «**إنّ هذا بلدٌ حرّم الله يومَ خَلقَ السماواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنّه لا يَحِلُّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلّا ساعةً من نهار. . .**» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ لأنهم الذين هتكوا حُرمة بيت الله الحرام، ولهذا اضطر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قتال مَن تصدّى له من المشركين، في أثناء فتح مكة المكرّمة.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قتال الكافرين وقتلهم جزاؤهم على ما فعلوا بالمؤمنين.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٢٧٦.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: كفّوا عن عدوانهم وظلمهم، أو تركوا كفرهم وشركهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر ذنوب التائبين ويرحمهم، فكفّوا عن قتالهم.

فالقتالُ في الإسلام وسيلةٌ لا غاية، ولا يشرعُ إلّا عند الحاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

- **استمرار الجهاد:**

ثم أمرتِ الآياتُ المسلمينَ بالاستمرار في جهاد الكافرين وقتالهم، ما دامت شوكةُ الكفر في الأرض قويةً حادّة، تمكِّنُ الكافرين من فتنة المؤمنين، وصدّهم عن دينهم، فالدنيا دار اختبار وابتلاء، والصراع القائم فيها بين الحق والباطل لا يتوقف، كما أشارت إلى ذلك الآية التي مرّت معنا: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦]. ولهذا قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: قاتلوا الكفّار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، هذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزولَ هذه الفتنة[1].

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ أي: ويكون الخضوعُ والاستسلام لدين الله تعالى وحده ولأحكام شريعته، إمّا بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكمه والعيش مع المسلمين في ظلّ سماحته وعدله، فالقتالُ لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٦٩.

ويمكن أن يكون المعنى: حتى يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان[١].

وإلى المعنى الأول ذهب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فإنّه عندما حدث الخلافُ بين الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، اعتزل عبدُ الله بن عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجَّ عاماً وتعتمرَ عاماً، وتترك الجهادَ في سبيل الله عز وجل، وقد علمتَ ما رغّبَ الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُنِيَ الإسلام على خمسٍ: إيمانٍ باللهِ ورسولهِ، والصلواتِ الخمسِ، وصيامِ رمضانَ، وأداءِ الزكاةِ، وحجِّ البيتِ. قال: ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلامُ قليلاً، فكان الرجلُ يفتنُ في دينه، إمّا قتلوه وإما يعذّبونه، حتى كثرَ الإسلامُ فلم تكن فتنة. [رواه البخاري (٤٥١٤)].

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفر أو عن معارضة دين الله والصدّ عنه.

﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فلا تعتدوا عليهم، فإن فعلتم صرتم ظالمين.

والجدير بالذكر أنه تعالى قال في **سورة الأنفال**: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: إن اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي: ويجري القصاص في الحرمات.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٧٠.

والحرمات: جمع حرمة، وإنّما جُمعت لأنه أراد حُرمةَ الشهر الحرام، وحرمةَ البلد الحرام، وحرمةَ الإحرام، ومعناها: ما منعت من انتهاكه[١].

فمَن هتك أيَّ حرمةٍ كانت اقتصّ منه بها، والظالمُ هو البادئ بانتهاك الحرمة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فقابلوا عداوته بمثلها. وسُمّي الجزاءُ اعتداءً على سبيل المقابلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالوقوف عند حدوده، والتزام أحكام شريعته في أثناء القتال والجهاد.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم، فبالتقوى يستنزل المسلمون معونة الله ونصره وتأييده، فعليهم أن يتمسكوا بها في جميع أحوالهم وظروفهم.

وكما يحتاج الجهاد إلى التضحية بالأرواح، يحتاج أيضاً إلى بذل الأموال وإنفاقها في إعداد العُدد والمُؤنِ والتجهيزات، وقد شهد العصرُ الحاضِرُ تطوراً كبيراً في الأسلحة والذخائر والمعدّات، يحتاجُ تأمينها إلى نفقات باهظة وأموال طائلة، ولهذا قال تعالى يحضّ على الإنفاق:

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أجل إعزاز دين الله تعالى وتمكينه في الأرض.

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي: لا تعرّضوا أنفسَكم إلى الهلاك، بالبخل والامتناع عن الإنفاق، فإنه يؤدّي إلى ضعفكم، وتسلّط العدو عليكم، وهلاككم.

أو: لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بالإسراف وتبذير المال في غير وجوهه المشروعة النافعة.

أو: لا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك بتركِ الجهادِ، وعدمِ الاستعدادِ. **فالأمةُ**

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٣٥٥.

التي تتخلى عن الجهاد والاستعداد له، وتدريب أبنائها على فنون القتال، واحتمال مصاعبه وشدائده، **أمةٌ هالكة ذليلة**، لا مكانةَ لها بين الأمم. ويؤيد هذا المعنى ما رُوِيَ في سبب نزول الآية:

فعن **حذيفة** رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: **نزلت في النفقة**. [رواه البخاري (٤٥١٦)].

قال ابن حجر رحمه الله: «هذا الذي قاله حذيفة جاء مفسَّراً في حديث **أبي أيوب** رضي الله عنه الذي أخرجه [مسلم والنسائي في الكبرى (٢٩٧٢) وأبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢) وابن حِبّان (٤٧١١) والحاكم (٢/ ٨٤ و٨٥)]: من طريق **أسلم بن عمران** قال: **كنّا بالقسطنطينية، فخرجَ صفٌّ عظيمٌ من الروم، فحملَ رجلٌ مِنَ المسلمين على صفِّ الروم حتّى دخلَ فيهم، ثم رجعَ مقبلاً، فصاحَ الناسُ: سبحان الله! ألقى بيدِهِ إلى التَّهلُكَةِ، فقال أبو أيوب: أيها الناسُ إنكم تؤوِّلون هذه الآيةَ على هذا التأويل، وإنّما نزلت هذه الآية فينا معشرَ الأنصار، إنّا لمّا أعزَّ اللهُ دينَه، وكَثُرَ ناصروه، قلنا بيننا سرّاً: إنَّ أموالنا قد ضاعتْ، فلو أنّا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاعَ منها، فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكةُ الإقامةَ التي أردناها**. وصحّ عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحو ذلك في تأويل الآية»[(١)].

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ بالقتال والإنفاق، وذلك بأن تجعلوهما خالصين لله تعالى، وإعلاء كلمته، والتزام أحكام شريعته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

- **الحج والجهاد:**

الحجّ هو الركن الخامس من أركان الشريعة الإسلامية، وتدلّ مناسكه على الاستسلام الكامل لله تعالى لأنها أعمال تعبّدية محضة، سواء في ذلك الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعَرَفَة ومزدلفة، ورمي الجمار... وغيرها من المناسك.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٨٥.

وفي كلمة عمر بن الخطاب ﷺ، عندما أراد تقبيلَ الحجرِ الأسودِ في أثناء الطوافِ حول البيت، ما يؤكد معنى الاستسلام والانقياد لله تعالى في مناسك الحج؛ فقد قال ﷺ: **إنِّي أعلمُ أنَّكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنّي رأيتُ النبيَّ ﷺ يقبِّلُكَ ما قبّلتُكَ**. [رواه البخاري (١٥٩٧)].

قال ابن حجر ﷺ: «وفي قول عمر ﷺ هذا التسليمُ للشارع في أمور الدين، وحُسْن الاتّباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهي قاعدةٌ عظيمة فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه»[١].

ويلاحظ أنّه تعالى قرن بين آيات الحج وآيات الجهاد، هنا في **سورة البقرة**، كما قرن أيضاً بينهما في **سورة الحج**، وقد بيَّن تعالى سِرَّ اقتران الحج بالجهاد في **سورة الحج**، عندما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحجّ: ٢٥].

ثم في قوله أيضاً بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالحج رمزٌ لوحدة المسلمين وتوحيدهم، والصدّ عنه صدٌّ عن الإسلام، ومحاربة للأمة المسلمة، وتهديد لمقدساتهم وأماكن عبادتهم، وفي الجهاد حماية للأمة المسلمة ومقدساتها.

وقد أشارت الآياتُ هنا في **سورة البقرة** أيضاً إلى الصلة بين الحج والجهاد، بتقديمها بيان حكم الإحصار في الحج والعمرة، ولا شك أن سببه الرئيس هو قطع الطريق على الحجّاج والعمّار، ومنعهم من الوصول إلى بيت الله الحرام، كما فعل المشركون من أهل مكة عندما صدّوا رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابه، في السنة السادسة من الهجرة، عن الوصول إلى بيت الله الحرام،

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٤٦٣.

ودخول مكة، بعد أن خرجوا مُحرِمين لأداءِ مناسك العمرة. وكذلك كان الصليبيّون يفعلون في أثناء الحروب الصليبية، عندما تمكنوا من إقامة بعض المعاقل والحصون في فلسطين على طريق قوافل الحجّاج. فللجهاد دور كبير في تأمين سلامة الحجّاج والعمّار، وحماية بيت الله الحرام من عدوان أعداء الإسلام، الذين يرون في الحجِّ مظهراً من مظاهر وحدة الأمة المسلمة وقوّتها.

● **الإحصار في الحجّ والعمرة:**

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ أي: أدّوهما بعد الشروع بهما تامّين بشرائطهما وفرائضهما وسُننِهما لوجه الله تعالى.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: مُنِعْتم من إتمام الحجِّ والعمرة بمانعٍ حالَ بينكم وبين الوصول إلى بيت الله الحرام.

كما حدث في السنة السادسة من الهجرة عام الحديبية، عندما صدَّ المشركون رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَه عن الوصول إلى بيت الله الحرام، وأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ﴾ أي: فعليكم ما تيسّر من الهدي، فإنْ أُحْصِرَ المُحرِمِ بحجٍّ أو عمرة، وأراد أن يتحلّل من إحرامه، فعليه قبل أن يتحلّل أن يذبحَ ما يتيسّر له من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ للتحلّل من الإحرام.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي: حتى يصل الهديُ المكانَ الذي يُذبَح فيه، وهو أرض الحرم عند بعض العلماء، أو أيّ مكان يُذبَح فيه عند آخرين.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: **خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ معتمرينَ، فحالَ كفّارُ قريشٍ دونَ البيتِ، فنحرَ رسولُ اللهِ ﷺ بُدْنَه، وحلقَ رأسَهُ.** [رواه البخاري (١٨١٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن كان معه هديٌ، وهو محصرٌ نحره، إن كان لا يستطيعُ أن يبعث به، وإن استطاع أن يبعث به، لم يحلَّ حتى يبلغَ الهديُ محلّه. [ذكره البخاري تعليقاً في كتاب المُحْصر].

قال ابن حجر رحمه الله: «هذه مسألةُ اختلافٍ بينَ الصحابةِ ومَنْ بعدَهم، فقال الجمهورُ: يَذْبَحُ المُحصرُ الهديَ حيث يحلّ، سواء كان في الحلّ أو في الحرم، وقال أبو حنيفة: لا يذبحُ إلّا في الحرم، وفصّلَ آخرون كما قاله ابن عباس هنا، وهو المعتمد، وسببُ اختلافهم في ذلك: هل نحرَ النبيُّ ﷺ الهدي بالحديبية في الحلِّ أو في الحرم؟ وكان عطاءُ يقولُ: لم ينحر يومَ الحديبية إلّا في الحرم، ووافقه ابن إسحاق، وقال غيره من أهل المغازي: إنّما نحرَ في الحِلِّ»[(١)].

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ أي: لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام، إلّا إذا اضطررتم إلى حلقه بسبب مرض، أو أذًى تعلّق بالشعر كالقمل.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فعلى المحرم الذي اضطر إلى حلق شعر رأسه فدية.

﴿مِّن صِيَامٍ﴾ مقداره ثلاثة أيام.

﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستّةِ مساكين، لكل مسكين نصفُ صاعٍ من بُرٍّ (قمح).

﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ جمع نسيكة، أي: ذبيحة.

وفي الحديث الشريف: عن **كعب بن عُجرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:

---

(١) فتح الباري: ٤/ ١١.

«**لعلّك آذاك هوامُكَ؟**» قال: نعم يا رسول الله. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**احلقْ رأسَكَ، وصُمْ ثلاثةَ أيّامٍ، أو أطعمْ ستّةَ مساكينَ، أو انسك شاةً**» [رواه البخاري (١٨١٤)].

ودلّت الآية على أنَّ حلق الشعر من محظورات الإحرام.

- **التمتّع بين العمرة والحجّ:**

وتابعت الآياتُ بيان بعض الأحكام الأساسية في الحج والعمرة، بقوله تعالى:

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من الإحصار وأصبحتم في حال سِعة وأمن.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي: تمتع بعد التحلّل من العمرة باستباحة محظورات الإحرام، حتى يحرم بالحج.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فعليه أن يذبحَ ما يتيسّر له من الهدي، شكراً لله تعالى أن وفّقه لأداء العمرة والحج في أشهر الحج، وتمتّع بينهما بالتحلّل من إحرام العمرة.

وتدلّ كلمة ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ التي تكرر ذكرها في الآية، على يُسْر أحكام الشريعة، ومن مظاهر التيسير في أحكام الحج: أنّه سبحانه شرع الصيام بدل الهدي للذين لا يملكون ثمنه، فقال:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي. وأقلّه شاةٌ يشترط لها ما يشترط لشاة الأضحية.

﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي: في أشهر الحج بين الإحرامين.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحجِّ، أو إذا رجعتم إلى أهلكم.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في قيامها مقام الهدي، لابدّ من صيامها كاملةً غيرَ ناقصةٍ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: حكم التمتّع.

﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: لغير الساكنين في الحرم وحوله ضمن حدود المواقيت، فالتمتّع مشروع للقادمين من وراء المواقيت.

وكما عوّدنا الله تعالى في آيات الأحكام في السورة، ختم الآية بالأمر بالتقوى، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتزام أحكام دينه وشرعه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهو تهديدٌ لمَن يخرج على أمره، ويخالف شرعه سبحانه.

ويلاحظ أنه تعالى أمر في **آيات الجهاد** بالتقوى بصيغة التثبيت فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، لحاجة المقاتلين إلى التثبيت، وأما في **آيات الحج**، فقد قرن تعالى الأمر بالتقوى مع التحذير من مخالفة الأمر، وتوعّد المخالفين: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وذلك ليحرص الحاجّ والمعتمر على أداء المناسك كما شُرِعَتْ، ويحافظ على حُرمة الإحرام وحُرمة الحرم.

- **من محظورات الإحرام:**

ولا ينبغي انتهاكُ حرمة الإحرام بفعل شيء من المحظورات فيه، وقد تقدّم ذكر بعضها، وتذكر الآيةُ التاليةُ بعضاً آخرَ منها:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: معروفاتٍ، وهي: شوّالُ، وذو القعدة، وعشرٌ من ذي الحجة.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أوجبه على نفسه بالإحرام فيهنّ.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: لا جِماعَ، ولا فُحْشَ في الكلام، فهو محظورٌ على المحرم حتى يتحلّل من إحرامه، ويطوفَ طوافَ الإفاضةِ بعدَ الوقوفِ بعرفة.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: ولا خروجَ عن حدودِ الله بارتكابِ المحرّمات، فهي في أثناءِ الإحرام أغلظُ جرماً، وأعظمُ إثماً.

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي: ولا جدال أيضاً مع الناس في أيام الحج.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ حجَّ للهِ فلم يرفثْ ولم يَفْسُقْ رجعَ كيومَ ولدتْهُ أُمُّهُ**» [رواه البخاري (١٥٥) ومسلم (١٣٥٠) واللفظ للبخاري].

فعلى الحاجِّ أن ينصرفَ إلى أداء المناسك، وأن يستكثرَ من فعل الطاعات، ويغتنم هذه الفرصة التي يسّرها الله تعالى له، حتى وصل إلى هذه البقاع الشريفة، في أوقات شريفة لها حُرمتها، ولهذا قال تعالى بعد ذلك يحثّ على الإكثار من الطاعات وفعل الخيرات:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ويثيبكم عليه يوم القيامة، فلا ينقصكم سبحانه شيئاً، كما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

فاغتنموا هذه الفرصة الطيبة المُتاحة لكم، لتتزوّدوا لمعادكم:

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ بزاد السفر الذي تحتاجون إليه عندما ترحلون عن الدنيا بالموت، وتزوّدوا أيضاً بزاد السفر الذي يحتاجُ إليه المسافِرُ في طريق الحج، حتى لا تكونوا عالة على غيركم.

وعن ابن عباس ﷺ قال: كان أهلُ اليمنِ يحجّونَ ولا يتزوّدون، ويقولون: نحنُ المتوكّلون. فإذا قدموا مكةَ سألوا الناسَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. [رواه البخاري (١٥٢٣)].

قال ابن حجر: «فيه أنّ التوكّلَ لايكونُ مع السؤال، وإنّما التوكّلُ المحمودُ ألّا يستعينَ بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة

الأسباب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**اعقلها وتوكّل**» [رواه الترمذي (٢٥١٧)]»(١).

﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: إنّ أفضلَ زادٍ يتزوّدُ الإنسان به إلى دار الآخرة، هو تقوى الله تعالى، بعبادته، والتزام أحكام شريعته، فهذا بيان لزاد الآخرة بعد أن أمر بالتزوّد بزاد الدنيا، ونظيرُه قوله تعالى يبيّن لباس الأبدان، مع لباس التقوى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وليس من التقوى أن يقصدَ بيتَ الله الحرام من غير نفقةٍ تكفيه وتصونه عن ذلّ السؤال، والله تعالى لم يفرض الحجَّ إلّا على المستطيعين، لهذا قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: خافوني واشتغلوا بعبادتي، والتزموا بشريعتي، يا أصحاب العقول، فإن حُسْنَ استعمال العقل يستدعي تقوى الله تعالى، ومَن لم يتّقه فكأنه لا عقل له(٢).

• **التجارة والعمل في الحجّ:**

وهذا لا يعني حَظْر الاكتساب الحلال في أثناء الحج، فالحجُّ موسمٌ للطاعة والعبادة، وموسمٌ أيضاً للكسب والتجارة، وقد كان العربُ في الجاهلية يقيمون الأسواق في مواسم الحج، ويبدو أنَّ بعضَ الصحابة تأثّموا من التجارة في مواسم الحج، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٢٨٤.
(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٩١.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ أي: ليس عليكم حَرَج في أن تطلبوا رزقاً من الله تعالى بالعمل والتجارة.

ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاجّ مع أداء العبادة، وأنّ القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلّف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، لكنّ الحجَّ دونَ تجارةٍ أفضل، لعروِّها ـ أي العبادة ـ عن شوائب الدنيا، وتعلّق القلب بغيرها(١).

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ أي: اندفعتم بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجّة.

﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ وهو المكان المسمّى بهذا الاسم، والواقع إلى الجنوب الشرقي من مكّة المكرّمة، على بُعد أربع وعشرين كيلومتراً تقريباً من المسجد الحرام.

والوقوف بعرفات الركن الأساس من أركان الحج، يفوتُ الحجُّ بفواته، ووقته من زوالِ شمس يوم التاسع من ذي الحجة، إلى فجر اليوم العاشر منه.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل، وصلاة المغرب والعشاء.

﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ أي: عند جبل قُزَح من مزدلفة، التي تقعُ بين عرفات ومِنًى، على بُعد أربعة عشر كيلو متراً تقريباً من المسجد الحرام، ويبيتُ فيها الحُجَّاج بعد الإفاضةِ من عرفات، ويصلّون فيها الفجر.

وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه: **...فلم يزل واقفاً ـ أي: في عرفات ـ حتّى غربتِ الشمسُ وذهبتِ الصُّفرةُ قليلاً، حتى غابَ القرصُ، وأردفَ أُسامةَ**

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٤١٤.

خلفَه، ودفعَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقد شنقَ للقصواءِ الزّمامَ، حتَّى إنَّ رأسَها ليصيبُ موركَ رحلِهِ، ويقولُ بيدِهِ: أيها الناسُ السكينةَ السكينةَ، كلّما أتى حَبْلاً من الحِبالِ أرخى لها قليلاً، حتى تصعدَ، حتى أتى المزدلفةَ، فصلّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتينِ، ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثم اضطجعَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى طلعَ الفجرُ، وصلّى الفجرَ حين تبيّن له الصُّبح بأذانٍ وإقامةٍ، ثم ركبَ القصواءَ حتى أتى المَشعرَ الحرامَ، فاستقبل القِبلةَ، فدعاهُ وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفاً حتى أسفرَ جدّاً، فدفع قبل أن تطلعَ الشمسُ. [رواه مسلم (١٢١٨)].

قوله: (شنق) أي: شد، و(القصواء) ناقة النبي ﷺ، و(مورك رحله) موضع رجل الراكب على الناقة، و(يقول بيده) يشير بها، (حبلاً من الحبال) تلّاً من تلال الرمل(١).

- **الذكر والدعاء في الحج:**

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي: اذكروا الله تعالى ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة، أو اذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه ولا تعدلوا عنه(٢).

وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] أن ذكره تعالى ينبغي أن يكون باسم من أسمائه الحسنى، المذكورة في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم بإنزال القرآن الكريم، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم وجّه الله تعالى الخطابَ لقريش، يأمرُهم فيه أن يقفوا مع الناس في

---

(١) انظر أحكام الحج مفصّلةً في الجزء الأول من كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد، ط: دار القلم بدمشق.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٩٥.

عرفات، ويفيضوا معهم دون أن يكونَ لهم أيّ امتياز عليهم، كما كان الحالُ في الجاهلية، فالإسلامُ دين المساواة، وهم أمامَ شرعه تعالى سواءٌ:

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: أفيضوا من عرفات حيث يقف الناس، لا من مزدلفة حيث كانت قريش تقف.

و﴿ثُمَّ﴾ ليست هنا للترتيب، وأتى بها إيذاناً بالتفاوت بين الإفاضتين في الرتبة، فإنّ إحداهما صواب، وهي الإفاضة من عرفات، والأخرى خطأ، وهي الإفاضةُ من مزدلفة(١).

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: **كانت قريشٌ ومَن دانَ دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّوْن الحُمُس، وكان سائرُ العرب يقفون بعرفات، فلمّا جاء الإسلامُ، أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أن يأتيَ عرفاتٍ، ثم يقفَ بها، ثم يفيضَ منها، فذلك قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾. [رواه البخاري (٤٥٢٠)].

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ مما كنتم عليه في الجاهلية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم نبّهت الآياتُ أنّ على الإنسان ألّا يقتصر على ذكر الله تعالى في أثناء العبادات المكلّف بها فقط، بل عليه أن يداوِمَ على ذكره سبحانه، وألّا يغفل عنه في جميع شؤون حياته:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج.

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٨٩.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ أي: كما يلهجُ الصبيُّ بذكر أبيه وأمه، فالهجوا بذكر الله تعالى، واستمروا عليه.

أو: كما كنتم تذكرون آباءكم في المواسم بعد الحج، فقد كانوا يفتخرون بآبائهم وأنسابهم في المجامع بعد الحج.

﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ أي: بل أشدّ ذكراً، أو: وأشدّ ذكراً، لأنّه هو المُنعِم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً[1]. والمقصود: الحثّ على كثرة ذكر الله ﷻ.

ثم حذّرتهم الآيات من أن يذكروا الله تعالى لكي يسألوه المنافع الدنيوية فقط، كما كانوا يفعلون في الجاهلية:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ فكان أحدُهم يقول: أبي كان عظيم الفئة، كبيرَ الجفنةِ، كثيرَ المال، فأعطني مثل ما أعطيته.

﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي: من حظٍّ ولا نصيب، لأنّه قصر نظره على الدنيا، وعلّق قلبه بها، وأعرض عن الآخرة وعملها.

ودلّت الآيةُ على أنّه من أدب الدعاء ألّا يقتصر الإنسان فيه على سؤال ما يتصل في الدنيا فقط، وأنّ عليه أن يضمّ إليه بعضَ ما يتعلّقُ بالآخرة، كأن يسأل المغفرة والرحمة، وحُسْنَ الخاتمة، والنجاةَ من النار، ودخولَ الجنة، ولهذا مدح الله تعالى مَن يفعل ذلك فقال:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: ما يحسن به حالنا في الدنيا.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ يحسن بها حالنا في الآخرة.

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٢٩٧.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وهذا دعاءٌ جامعٌ، جمع كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، وصرف كلَّ شرٍّ فيهما.

وجاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ كان يكثرُ الدعاءَ به، ولما سُئِلَ **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أي دعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ ﷺ أكثر؟ قال: كانَ أكثر دعوةٍ يدعو بها يقول: «**اللّهمَ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النار**».

وكان أنسٌ إذا أرادَ أن يدعو بدعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعوَ بدعاءٍ دعا بها فيه. [رواه مسلم (٢٦٩٠)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين سألوا الحسنة في الدنيا والآخرة.

﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ أي: لهم حظ من جنس ما سألوا وطلبوا.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فاستكثروا من فِعل الخيرات، والتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء وسؤاله خيري الدنيا والآخرة.

ثم ختمت الآياتُ حديثَها عن مناسك الحج، بالحديث عن أيام التشريق، وهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وسُمّيت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها شرائِحَ اللحم، لتجفيفها بأشعةِ الشمس، أو للتكبير فيها، وتسمّى أيضاً أيام مِنًى، لأن الحجّاجَ يمضونها في مِنًى، حيث يرمون الجمرات.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ أي: اذكروا الله بتعظيمه وتكبيره في أدبار الصلوات، وعند ذبح الهدايا والأضاحي، ورمي الجمار، في أيام منى المعدودات.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فمَن استعجلَ وخرجَ من منًى بعد أن مكثَ فيها يومين فقط، الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حَرَج عليه بسبب استعجاله.

﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي: مكث في منًى إلى اليوم الثالث عشر يرمي فيه أيضاً.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا التخيير والتيسير شرعه سبحانه:

﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: لمَن يتقي الله تعالى، ويؤدّي المناسك على وجهها الصحيح المشروع، فالتحقّق من التقوى هو الغايةُ من جميع التكليفات الشرعية، التي كلّف الله تعالى بها المؤمنين.

ولهذا ختم الله تعالى آياتِ الحجّ بالأمر بالتقوى، وتذكير المؤمنين بمسؤوليتهم أمامه تعالى يوم القيامة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لكي يسألكم عن أعمالكم ويُجازيكم عليها، فالشعور بالمسؤولية أمامَ الله تعالى أعظم وسائل تربية النفس البشرية وتهذيبها وإصلاحها.

هكذا ربطت الآيات الكريمة أحكامَ الحجِّ بتقوى الله تعالى، كما فعلت عند تشريع الجهاد والصيام والوصيّة والقصاص، وفي آية البرّ، انسجاماً مع ما أعلنته في أول آيات السورة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].





إسلام واستعلام (أسئلة الصحابة)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ
(٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)
وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ
مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)
فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا
فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ
النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا
اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ
مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ

ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن
دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿٢١٨﴾ ۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ
أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن
تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ
وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ
إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾
وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا
تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ
حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

- **توجيه رَفيق وَإرشاد لطيف:**

دأبت الآيات الكريمة على إبراز سِمة **السماحة واليُسْر في أحكام الشريعة الإسلامية**، وهي سِمةٌ بارزة في جانبين:

أولهما: في ذات الأحكام: بإبراز ما فيها من يُسْر التكاليف وسهولتها.

وثانيهما: في أسلوب التشريع المتدرّج: فلم تُشرع الأحكام دفعة واحدة، بل شُرعت ـ كما تقدم ـ تبعاً لنزول الآيات القرآنية الكريمة على نجوم وأقساط، استمر ثلاثة وعشرين عاماً.

وإن المتدبّر لآيات القرآن الكريم يدرك أيضاً رحمةَ الله بعباده، بعد أن اكتمل نزولُه بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي اتّبعه القرآن الكريم في عَرْضِ الأحكام الشرعية التكليفية، فلم تُعرَض أحكامُه جملةً واحدةً في مكان واحد، بل فُرّقت ونُثِرَت بإحكام عجيب متقن، بين آيات قرآنية كثيرة.

وأقرب مثال إلى ذلك توزيع آيات الأحكام في **سورة البقرة**، فلم تُعرَضْ دفعةً واحدةً وفي مكان واحد، بل نُثِرَت ووُزِّعت بين آيات كثيرة في السورة الكريمة، وها هي الآياتُ بعد أن انتهت من عرض أحكام الحج والعمرة، تتوقف عن عرض الأحكام، لكي لا تثقلَ علينا بتتابع الأحكام، وتوالي عرضها، وفي وقفتها هذه لم تبتعد عن الموضوع الأساس للسورة، **وهو الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشريعته**، فعرضت في أثناء توقفها هذا، مقارنة بين نموذجين من الناس:

١ـ نموذج الإنسان الجاحد المعاند لدين الله وشرعه.

٢ ـ ونموذج الإنسان المسلم المستسلم لله تعالى.

وبهذا الأسلوب التربوي الرفيع المتميز، تُوجّهنا الآيات توجيهاً رقيقاً لطيفاً إلى التمسّك بأحكام الشريعة الإسلامية، والإسلام الكامل لله تعالى.

- **الفاسدون المفسدون المعاندون:**

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: في شؤون الدنيا وزخارفها وبهارجها وأسباب العيشِ المادي فيها، فحبّه المُفرِط للدنيا يظهرُ في حلاوةِ كلامه، وفصاحةِ لسانه، ومَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذكره، وتنفتح أساريره، وتطيب نفسُه عندما يتحدَّث عنه.

ولا شك أنّ مثل هذا الإنسان مُعرِضٌ عن الآخرة، لا يرغبُ في ذكرها

ولا تذكّرها، ولا يُحسِنُ الحديثَ عنها، وإذا ما أراد ذلك اعترته حُبْسةٌ في لسانه، وضعْف في بيانه، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ويستعين بالأيمان الكاذبة حتى يقنعك بمراده، ويجعلك تتقبّل كلامه:

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي: يحلف قائلاً: اللهُ شاهدٌ على ما في قلبي من حبّي لك، وحرصي على مصلحتك، وإنّي لك لناصح، ولا أُريد لك إلّا الخير.. وغير ذلك من الكلام المعسول المنمّق، كما قال تعالى في صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي: وهو في حقيقته شديدُ العداوة، قويُّ الخصومة، ممتلئٌ بالحقد والضغينة.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ أبغضَ الرجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ**» [رواه البخاري (٧١٨٨) ومسلم (٢٦٦٨) واللفظ لمسلم].

وروى **الإمام الطبري** في تفسير هذه الآية، محاورةً بين عالمين من علماء التابعين، هما: سعيد المقْبري، ومحمد بن كعب القُرَظي، قال سعيد: إنّ في بعض الكُتُبِ: إنّ لله عباداً ألسنتُهم أحلى من العسل، وقلوبُهم أمرُّ من الصبر، لبسوا للناسِ مسوكَ (أي: جلود) الضأنِ من اللينِ، يجترّون الدنيا بالدين، قال الله تبارك وتعالى: أعليّ يجترئون، وبي يغترون؟ وعزّتي لأبعثنَّ عليهم فتنةً تترك الحليمَ منهم حيرانَ. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه. فقال: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾(١).

وتقدّم ذكر حديث شريف بهذا المعنى عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ويدلّ الحديثُ على أنّ هذا النوعَ من الناس يَكْثُرُونَ في آخر الزمان، وما أكثر ما نجد في مجتمعاتنا

---

(١) جامع البيان: ٢/ ١٨٢.

المعاصرة من أمثال هؤلاء الناس، خاصّةً في المجتمعات التي يحكمها الطغاةُ المستبدّون.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: انصرفَ وابتعدَ عنك.

أو: تمكّنَ وأصبحَ ذا ولاية وسلطة وقوة. ويقوّي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي: بذلَ كلَّ جهده لينشرَ الفساد في الأرض، بنشر العقائد الباطلة، والأخلاق الهابطة المنحلّة.

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ أي: ويتلف النبات والزرع، ويهدم الأُسَر، ويقطع أسباب التكاثر والتوالد التي فُطِرَ عليها الناسُ؛ وذلك بإشاعة الفوضى في العلاقة الجنسية بينهم، وإشعال وقود الحروب المدمّرة. تماماً كما هو مشاهَدٌ في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، فالأزمات الاقتصادية الخانقة، وانتشار المجاعات، وكثرة الحروب والفتن، وانحلال الأخلاق والقِيَم، كلّ ذلك نتيجة تسلّط حفنة من الفاسدين المفسدين على حكم الأمم والشعوب.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ولهذا أنزل سبحانه الكتب، وشرع الشرائع، وأرسل الأنبياء والرّسل، لكي يدفعوا عن الناس شرّ المفسدين، وينشروا الخير والصلاح بين العباد وفي البلاد، ويعمّروا الأرض بطاعته سبحانه وعبادته.

ومن صفات هؤلاء الفاسدين المفسدين، أنهم يبغضون كلَّ دعوة للإصلاح، لأنهم يَرَوْنَ فيها خطراً يهدّد سلطان طغيانهم وظلمهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: إذا ذكّره أحدُ المصلحين بالله تعالى، وخوّفه من عذابه وانتقامه.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: قهرته، وأحاطت به حمية المعاصي والآثام، فحجبته عن رؤية حقيقة ضعفه وعبوديته لله تعالى، فازداد تكبّراً وطغياناً وفساداً، وأنكر أن يقال له هذا القول، واستكبر أن يوجّه إلى التقوى، وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ، وأن يوجّه إلى صواب، وأخذته العزّة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير، ولكن بالإثم، فاستعزّ بالإجرام والذنب والخطيئة، ورفع رأسه في وجه الحق، الذي يُذكَّر به، وأمامَ اللهِ بلا حياءٍ منه، وهو الذي كان يُشهِدُ اللهَ على ما في قلبه(١).

ذُكِرَ أنّ يهوديّاً كانت له حاجةٌ عند هارون الرشيد، فاختلف إلى بابه سنةً، فلم يقضِ حاجته، فوقف يوماً على الباب، فلمّا خرجَ هارون سعى حتى وقف بين يديه وقال: اتّق الله يا أمير المؤمنين، فنزل هارون عن دابّته وخرَّ ساجداً، فلما رفع رأسه أمر بحاجته فقُضيت، فلمّا رجعَ قيل له: يا أمير المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودي؟! قال: لا، ولكن تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(٢).

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي: تكفيه جهنم، فهي كافيةٌ له ولأمثاله من الطغاة المستبدّين.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي أُعدّ له ولأمثاله.

والمهاد: الفراش، وجيء به للتهكّم المر، ففي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم، واللدد في الخصومة، والقسوة في الفساد، والفجور في الإفساد، يجبهه الله تعالى بهذه اللطمة اللائقة به(٣).

فلا ينبغي لمَن يقال له: **(اتّق الله)** أن يغضبَ، ولهذا قال العلماء: إذا قال الخصم للقاضي: اعدل، ونحوه. له أن يعزره، وإذا قال له: اتّق الله. لا يعزره.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٠٥.

(٢) تفسير القرطبي: ٣/ ١٩.

(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٢٠٥.

وأخرج **ابن المنذر**: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: إنَّ مِنَ أكبر الذنب أن يقولَ الرجلُ لأخيه: اتّق الله تعالى، فيقول: عليكَ نفسَك، عليكَ نفسَك[(١)].

- **إسلام وسلام:**

ثم عرضت الآياتُ في مقابل أنموذَج الإنسان الجاحد المعاند والفاسد المفسد، أنموذج الإنسان المسلم لله تعالى والمستسلم لحكمه وشرعه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ أي: يبيع نفسه وكلَّ ما يملك ويبذلها.

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: طلباً للوصول إلى رضوان الله تعالى.

فهم الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم لرفع كلمة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

أو: هم الذين قاموا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويعرّضون أنفسهم لغضب الطغاة المستبدّين، وهذا ما اختاره الإمام الطبري رحمه الله، فقد رُوِيَ: أن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه عندما سمع هذه الآية استرجع فقال: **إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قام رجلٌ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر فَقُتِل**. ثم قال الطبري: والذي هو أولى بظاهر هذه الآية من التأويل ما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم من أن يكون عنى بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر[(٢)].

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٩٦.
(٢) جامع البيان: ٢/ ١٨٧.

ويؤيد هذا القول: أنّ النبيَّ ﷺ لمّا سُئِلَ: أيّ الجهاد أفضل؟ قال: «**كلمةُ حَقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ**» [رواه النسائي (٤٢٠٩) بإسناد صحيح].

وقوله ﷺ: «**سيّدُ الشهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ، فأمَرَهُ ونهاه فقتلَه**» [رواه الحاكم (٣/ ١٩٥) وقال: إسناده صحيح].

وأكثر الروايات: أنَّ الآيةَ نزلت في صُهيب الرومي رضي الله عنه، فقد أخرج جماعة: أن صهيباً أقبلَ مُهاجِراً نحو النبيِّ ﷺ، فاتّبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذَ قوسَه، ثم قال: يا معشرَ قريش، لقد علمتُم أنّي من أرماكم رجلاً، وايمُ الله، لا تصلونَ إليَّ حتى أرميَ بما في كنانتي، ثم أضربُ بسيفي ما بقي في يدي منه شيءٌ، ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: دلّنا على بيتِكَ ومالِكَ بمكةَ ونُخلّي عنك. ففعل، فلما قَدِمَ على النبيِّ ﷺ قال: «**أبا يحيى! ربحَ البيعُ، ربحَ البيعُ**» وتلا له الآية.

وعلى هذا يكونُ الشراءُ على ظاهره بمعنى الاشتراء[1].

ولا مانعَ من حمل الآية على العموم، وإن كان سببُ نزولها خاصّاً، لأن معناها يمكنُ أن ينسحبَ على كل مسلم مستسلم لله تعالى، مُذعِنٍ لأحكام دينه وشرعه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومِنْ رأفته سبحانه بعباده أنّه أرشدهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم.

وبعد هذه المقارنة دعت الآيات المؤمنين إلى الإسلام الكامل لله تعالى، والإذعان لأحكامه القدرية والشرعية:

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٩٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ أي: استسلموا لله تعالى، وأطيعوه جميعاً، كما فعل الذي شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله.

والسلم: قُرِئت بفتح السين وكسرها، وهو الاستسلام والطاعة(١). وهي تدلُّ على شعورِ المسلمِ بالأمن والطمأنينة، لأنّه يمضي مع قدر الله متوجّهاً إليه تعالى، يحقّق حكمةَ وجودِه على هذه الأرض دون قلقٍ أو حَيْرَةٍ أو يأس وقنوط.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وهو التحذيرُ الثاني في السورة، جاء يشبه التحذير الأول في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وتكرار التحذير يدلّ على خطر اتّباع الشيطان، وأنه يسعى جاهداً لمنع الإنسان المسلم من الإسلام لله تعالى والإذعان لأحكامه.

ثم بعد الدعوة إلى الإسلام والتحذير من اتّباع الشيطان، توعَّدَتْهم الآياتُ من اتّباعه، تحصيناً لهم من التأثّر بنزغاته ووساوسه:

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: وقعتم في الزلّة، وهي المعصية والخطأ، وتأثّرتم بوساوس الشيطان ونزغاته.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: من بعد ما جاءتكم الأدلّة الدالّة على الحق، فلا عُذْرَ لكم حينئذٍ بالجهل.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو سبحانه غالب قاهر، لا تؤثّر عليه

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/٣٠٦.

معاصيكم وزلّاتكم، حكيم في كل أمر وشرع، ولا ينتقم ولا يعذّب إلّا بحق وعدل.

وحتى لا يقنط أصحاب الزلّات والمعاصي من رحمة الله، دَعَتْهم الآيات إلى التوبة والعودة إلى الإذعان والاستسلام الكامل لأحكام دين الله وشريعته، بأسلوب مبطَّن بالوعيد والتهديد:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالمعنى اللائق به جلّ شأنه، منزّهاً عن مشابهة المخلوقات، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ أي: في قطع من السحاب.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة أيضاً بعد أن تتشقّق السماوات وتُزال، وتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهو سؤال تعجيبٍ من هؤلاء المتقاعسين عن التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون إلّا أن يأتيهم الله يوم القيامة ومعه الملائكة، لسؤالهم وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؟ فعليهم أن يبادروا إلى التوبة والاستغفار قبل أن يحلَّ بهم هذا اليوم.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: وجب العذاب، وفُرِغَ من الحساب، لأنه تعالى سريع الحساب.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إلى حكمه وأمره ترجع أمورُ المخلوقاتِ كلها، فانقادوا لأمره، واستسلموا لأحكام شريعته.

• **تذكير وتحذير:**

وتابعت الآيات بأسلوبها التربوي الرفيع تهذّبُ نفوس المؤمنين، وتردُّ الشاردين عن دين الله تعالى إلى صراطه المستقيم ومنهجه القويم، وسلكت هذه المرة أسلوبَ التذكير مع التحذير، فذكّرتهم بمواقف الجحود والعناد التي وقفها بنو إسرائيل، والتي سبق الحديثُ عنها، وحذرتهم من التشبّه بهم:

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: اسأل بني إسرائيل.

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾ أي: ما أكثر الآيات الواضحات الدالّة على فضله سبحانه وقدرته، التي تفضّل سبحانه بها عليهم.

وليس المرادُ حقيقةَ السؤال، فلا شك أن النبيَّ ﷺ يعلم كثرة الدلائل والنِّعَم والمعجزات التي أنزلها تعالى على بني إسرائيل، وإنّما المرادُ تذكيرُ المؤمنين وتربيتهم بأسلوب لطيف غير مباشر، يدلّ على رحمته تعالى بهذه الأمة، ولهذا جاء بعد هذا التذكير، التحذير بقوله تعالى:

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ أي: مَن يستعمل نعمة الله تعالى في معصيته، بدل أن يستعملها في شكره وطاعته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فاحذروا أن تعرِّضوا أنفسكم لعقابه الشديد، اشكروه على نِعَمه، وتمسكوا بدينه وشريعته، وانقادوا لحكمه وأمره، ولا تغترّوا بزينة الدنيا وزخارفها حتى لا تصبحوا مثلهم.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ أي: زيّنها الشيطان لهم حتى اغتروا بها، واطمأنوا إليها، وأعرضوا عن الآخرة.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بسبب إعراضهم عن الدنيا وعدم انهماكهم بها.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾ بسبب دخولهم الجنة، وما يكرمهم الله فيها من أنواع النعيم. وقد جاء ذلك مفصّلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين].

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فنعيمُ الجنّةِ لا يُحدُّ ولا يُعدُّ.

- **الاختبار والصراع:**

ثم بيّنت الآياتُ شدّةَ حاجة الناس إلى إرسال الرّسل بالشرائع الإلـٰهية، وأنّ ذلك من نِعَم الله الكبرى عليهم:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على ملّة التوحيد، وعلى طريق الهدى، لا يعبدون غير الله تعالى، ولا يطيعون سواه، فاختلفوا بسبب نزغات الشيطان ووساوسه، وما بثّه بينهم من أسباب الاختلاف والنزاع.

وحُذفت كلمة: (اختلفوا) من الآية، لدلالة سياق الكلمات عليها، إذ تكرّر ذِكرها في الآية ثلاث مرات.

وقد كان الناسُ على أصل الفطرة التي خُلِقوا عليها، على التوحيد، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

والشرك الذي طرأ على الناس أدّى إلى اختلافهم وتنازعهم.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الكتب المنزلة، فالمراد جنس الكتاب.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ببيان الحق.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الحق الذي اختلفوا فيه.

فما أنزل الله تعالى الكتابَ ليُزيلَ الاختلاف بين الناس، فاختلافُهم سيبقى قائماً بينهم ما داموا على الأرض، وسيستمرّ الصراع بينهم، كما ذكرنا سابقاً، وإنّما أنزل الله الكتاب حَكَماً بينهم، يبيّن المحقّ من المبطل.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: إلّا الذين أُنزل عليهم الكتاب، فآمن به بعضهم وكفر آخرون، وغيّروا وبدّلوا في كتبهم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بسبب الحسد والظلم القائم بينهم.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتوفيقه وتيسيره.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولهذا نرى المؤمنين يتوجهون دائماً إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق إلى الصراط المستقيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

فالصراعُ والاختلافُ بين الناس هو السِّمَةُ البارزة في حياتهم على هذه الأرض، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٨].

ولا يزال هذا الصراع القائم بين الناس أهمَّ أسباب حركة تاريخ الوجود

البشري بتقدير الله تعالى، فحياة الإنسان على الأرض ليست حياة نعيم، كما كانت في الجنة، بل هي حياة ابتلاء واختبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البَلَد: ٤].

ولن يعودَ إلى الجنّة يوم القيامة إلّا مَن ينجح بهذا الاختبار، ويفوز في الامتحان، وهو ما قرّره تعالى في الآية التالية:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ أي: لن تدخلوا الجنة حتى تُمتحنوا كما امتُحن المؤمنون الذين كانوا قبلكم.

فالاستفهام للتقرير، وقد قرّر تعالى هذا المعنى في عدّة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العَنكبوت].

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي: أصابتهم الشدائد في الأموال والأنفس، كما سبق الخبر عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ولقد امتُحِنَ أصحابُ النبيِّ ﷺ عندما كانوا في مكّة المكّرمة قبل الهجرة، وكان رسول الله ﷺ يثبّتهم ويصبّرهم ويبشّرهم.

ففي الحديث الشريف: عن **خبّاب بن الأرت** رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وهو متوسِّدٌ بُردةً في ظلّ الكعبةِ، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كانَ الرجل فيمَنْ كانَ قبلَكُم يُحْفَرُ له في الأرضِ، فيجعلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمِيشارِ فيوضَعُ على رأسِهِ، فيشقُّ باثنتين، وما يصدّه ذلكَ عن دينِهِ، ويُمشَّطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ مِنْ عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يصدُّه عن دينِهِ.**

واللهِ ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتّى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت، لا يخافُ إلّا اللهَ والذئبَ على غنمِهِ، ولكنَّكُم تستعجلونَ» [رواه البخاري (٣٦١٢)].

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي: أُزعجوا، واضطربت قلوبهم من كثرة الشدائد وقوّة المِحَن، كما حدث لهم في أثناء حصار غزوة الخندق، التي أنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب].

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: وصل بهم البلاء حتى اضطروا أن يقولوا:

﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: متى يأتينا النصر من الله تعالى؟.

وهذا يدلّ على أنهم تعلقوا بالله تعالى وحده، وقطعوا أسبابهم عن غيره سبحانه، فهو ملاذهم ورجاؤهم.

قالوا ذلك طلباً وتمنياً واستطالةً لمدة الشدّة، لا شكّاً وارتياباً.

والمراد من (**الرسول**) الجنسُ لا واحد بعينه[(١)].

وجاءهم الجواب من الله تعالى مباشرة، من دون توسيط فعل القول، وبالجملة الاسمية المؤكدة:

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فالنصر يأتي بعد الثبات والصبر والاستسلام الكامل لله تعالى. ويأتي أيضاً بعد أن تصل المحنةُ إلى ذروة شدّتها، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فطريق النصر محفوف بالمكاره والشدائد، ولا بدّ للأمة حتى تصل إليه أن تربّي أبناءها على حياة العزم والحزم، وتنأى بهم عن حياة الدّعة والكسل والميوعة والانحلال.

---

(١) روح المعاني: ٢/ ١٠٤.

● **أسئلة الصحابة:**

استأنفت الآياتُ مسيرتها على طريق التشريع وبيان الأحكام، بعد توقفها القصير السابق، بأسلوبٍ جديد مغاير لأساليب البيان السابقة، ومن المعلوم أنَّ التفنّن بأساليب الخطاب والعرض من مزايا القرآن الكريم المُعجزة، الدالّة على أنه كلام الله تعالى.

عرضت الآياتُ مجموعةً من الأحكام التشريعية، من خلال عرضها لأسئلة وُجهت إلى النبيِّ ﷺ، وأسئلة الصحابة للنبيِّ ﷺ تختلفُ عن أسئلة بني إسرائيل لنبيهّم موسى ﵇، فهي أسئلةُ استعلامٍ واستفهامٍ، لا أسئلةُ جحودٍ وعنادٍ، وهي أيضاً أسئلةٌ محدودةٌ قليلةٌ، حتى قال ابن عباس ﵄: **ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحابِ محمد ﷺ، ما سألوه إلّا عن ثلاثَ عشرةَ مسألةً، كلّهنَّ في القرآن:** ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. . . **ما كانوا يسألون إلّا عمّا ينفعهم**[(١)].

وتدلُّ قلّة أسئلتهم على شدّة أدبهم مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، واستسلامهم لأحكام دين الله وشرعه، واستفادتهم مما أدّبهم الله تعالى به وأرشدهم إليه، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وكان لهذا الاستسلام والإذعان لأحكام دين الله تعالى، أثرٌ كبير في تيسير أحكام الشريعة الإسلامية، وتخفيف أحكامها، كما سيأتي في آخر السورة [انظر: سورة البقرة: ٢٨٤ ـ ٢٨٦].

وفي المقابل كان تعنّتُ بني إسرائيل، وكثرةُ أسئلتهم وعنادهم، سبباً للتشديد عليهم في أحكام شريعة التوراة، كما سبق في قصة ذبح البقرة [انظر: سورة البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ٤٠.

وذكرتِ الآياتُ هنا أكثرَ أسئلة الصحابة متوالية، إلّا أنها قدّمت ـ كما مرّ معنا ـ سؤالهم عن الأهلّة، لمناسبة موضوع السؤال للآيات الكريمة ثـمّة.

وقد ذكرت بعض الأسئلة في سور أخرى، حيث يكون اتفاقها وانسجامها مع موضوع السورة، كقوله تعالى في **سورة المائدة** [٤٦]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾، وقوله في **سورة الأنفال** [١]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾.

وهذا يُبرِزُ الانسجامَ والاحتباكَ بين الآيات الكريمة، في سياقها وسباقها وموقعها من السورة.

- **التشريع لله تعالى وحده:**

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ أي: ماذا ينفقون في سبيل الله تعالى من أموالهم؟ ويبدو أنّهـم سألـوا الرسول ﷺ هذا السؤال، قبل أن يبيّن لهـم مقادير الزكاةِ ونصابها.

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: أنفقوا أموالكم في هذه الوجوه، وابدؤوا بالأقرب فالأقرب، حتى تشملَ نفقاتكم جميعَ المحتاجين في المجتمع.

وفي الحديث الشريف: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ابدأ بنفسِكَ فتصدّقْ عليها، فإنْ فضلَ شيءٌ فلأهلِكَ، فإنْ فضلَ عن أهلِكَ شيءٌ فلذِي قرابَتِكَ، فإن فضلَ عن ذي قرابتِكَ شيءٌ فهكذا وهكذا**» [رواه مسلم (٩٩٧)].

ثم حثّتهم الآية على الإنفاق في وجوه الخير دون قيد وحدّ:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهذا يدلّ على أنّهم كانوا وقتئذٍ يمرّون بمرحلة عصيبة، يحتاجون فيها إلى البذل الكثير.

ويلاحظ أن الجواب أتى غيرَ مطابق للسؤال، ولعلّ سبب ذلك أنّه تعالى

ترك بيان مقادير النفقات الواجبة في أموالهم للنبيِّ ﷺ، فهي من التفاصيل التي اهتمّت السُّنَّة ببيانها، والقرآن الكريم اقتصر على بيان أُسس الشريعة الإسلامية الكبرى، ولم يفصّلِ الفروعَ إلّا في بعض القضايا المحدودة، كنظام الأُسرة وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض.

وأفاد العدولُ عن جوابهم على سؤالهم بيانَ أمرٍ هام أيضاً، وهو أنَّ تشريع الأحكام منوط بمشيئة الله تعالى وحكمته، فهو سبحانه يعلم متى يشرّع، وكيف يشرّع، وما يشرّع، لأنه يعلم ما يصلح لعباده أكثر مما يعلمون، فهو يحكم ما يريد، وهو يعلم وأنتم لا تعلمون.

فشأنه تعالى مع عباده فيما يشرع لهم ـ وله المثل الأعلى ـ كشأن الطبيب مع المريض، فالطبيبُ يصفُ الدواء المناسب للمريض في الوقت المناسب، دون أن ينظر إلى رأي المريض، وميله للدواء أو كراهته له، واستعجاله له أو استبطائه.

ثم أكد سبحانه هذا المعنى في قوله بعد ذلك:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: فرض عليكم القتال، وهو مكروه لكم، بحسب الطبيعة البشرية التي جُبلتم عليها.

لكنه تعالى كلّفكم به، لعلمه أنّ فيه خيراً وصلاحاً لكم، فالتشريعُ مَنوط بعلمه تعالى وحكمته، لا برغباتكم وعواطفكم، وهذا ما يميِّزُ أحكام الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية، التي تتأثّر بأهواء الناس ورغباتهم وعواطفهم ومصالحهم الآنية.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ مما يدلُّ على قصور الإنسان وضعفه، وعدم أهليّته للتشريع، فمهما اكتسب من العلوم

والمعارف، يبقى قاصراً محدوداً ضعيفاً أمامَ عواطفه وأهوائه ونزواته، وهو ما قرره تعالى في ختام الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فبادروا إلى التزام شرعه، والتسليم لأمره وحكمه سبحانه.

● **السؤال عن القتال في الأشهر الحُرُم:**

وأوردت الآياتُ بمناسبة ذكر القتال، سؤال بعضهم عن حكم القتال في الشهر الحرام، ويبدو أنّ سؤالهم هذا أتى قبل نزول آيات القتال التي مرّت، والتي ذكر الله تعالى فيها حكم القتال في الشهر الحرام، في قوله الكريم: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ومما يؤكد أنّ هذه الآية نزلت قبل آيات القتال المتقدمة ما ذكر في سبب نزولها، إذ نزلت بمناسبة سرية عبد الله بن جحش، وفيها حدث أولُ قتالٍ بين المسلمين والمشركين من قريش، قال ابن هشام: **بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ جحش في رجب، وبعثَ معه ثمانيةَ رهطٍ من المهاجرينَ، وكتبَ له كتاباً، وأمره ألّا ينظرُ فيه حتى يسيرَ يومين، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار عبدُ اللهِ يومين فتحَ الكتابَ، فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلةً، بينَ مكةَ والطائفِ، فترصَّدْ بها قريشاً، وتعلَّمْ لنا من أخبارِهم». فمضى ومضى معه أصحابُه، لم يتخلَّفْ عنه منهم أحدٌ، حتى نزل بنخلةَ، فمرّت به عِيرٌ لقريشٍ، فيها عمرو بن الحضرمي، وذلك في آخرِ يومٍ من رجب، فتردّد القومُ وهابوا الإقدامَ عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم، وأجمعوا على قتلِ مَن قَدِرُوا عليه منهم، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكمَ بن كيسان، وقَدِموا على رسولِ اللهِ ﷺ المدينةَ، فقال لهم**

عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتُكُمْ بقتالٍ في الشهرِ الحرامِ» وأكثرَ الناسُ في ذلك، حتى أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ . . .﴾[١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام.

﴿قِتَالٍ فِيهِ ۖ﴾ وهو بدلُ اشتمالٍ من الشهر، لأنّ سؤالهم اشتمل على الشهر، وعلى القتال، والمراد منه جنس الأشهر الحُرُم، وهي أربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ أي: ذنب كبير.

وجمهور العلماءُ يجيزون القتال في الأشهر الحرم، ويرون أنَّ هذا الحكم في الآية منسوخٌ، لكنّ بعضَ المفسّرين لم يرَ في الآية دليلاً على تحريم القتال في الأشهر الحرم مطلقاً، قال البيضاوي: والأولى منعُ دلالة الآية على حرمة القتال فيه مطلقاً، فإنّ ﴿قِتَالٌ﴾ نكرة في حيّز مثبت، فلا يعمّ[٢]. أي: فالنكرة لا تفيد العمومَ إلّا إذا كانت منفيةً.

ثم ذكَّرت الآيةُ المشركين بجرائمهم الكبيرة في حق الإسلام والمسلمين، وكان المشركون قد أنكروا على الصحابة ما فعلوه في الشهر الحرام:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منع الناس عن الدخول في دين الله تعالى.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٧٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٣١٩.

﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله تعالى.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: وصدّ الناس عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهم النبيّ ﷺ والمسلمون، فما فعله المشركون بهم من الأذى والعدوان حتى اضطروهم إلى الهجرة، كل ذلك:

﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما فعلته سرية عبد الله بن جحش من القتال في الشهر الحرام.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: وتعذيبُ المشركين للمسلمين ليفتنوهم عن دينهم، ويردّوهم إلى الشرك، أعظمُ من قتل المسلمين لرجل من المشركين.

ويزيدُ في قبحِ وشناعةِ هذه الجرائم الكبيرة إصرارُ المشركين عليها، وتمسكهم بها، ولهذا قال تعالى يخاطب المسلمين محذّراً لهم من كيد المشركين:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أي: إن تمكّنوا من ذلك وقدروا عليه، فالآيةُ تستبعِدُ استطاعتهم، وتبشّر المؤمنين بثباتهم على الإيمان. ومع ذلك ختم الله تعالى الآية ببيانِ ما يترتّبُ على الردّة من عقاب شديد في الدنيا والآخرة، تحذيراً للمؤمنين، فقال:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: ومن يرتدّ عن دينه، ويصرّ على الكفر حتى يموت عليه.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها في الإسلام، فلا يُثابون عليها.

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ في الدنيا يقتل المرتدُّ المُصِرّ على ردّته، وتَبِينُ منه زوجتُهُ بانفساخ عقد نكاحه، ولا يرثُ من أقاربه، ولا يورَثُ عنه ماله الذي اكتسبه في حال الردّة. وأمّا في الآخرة:

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وبيّنت الآياتُ في مقابل عقوبة المرتدّين، مكانة المؤمنين الثابتين على إيمانهم، الواثقين بربّهم، الراجين فضله ورحمته وثوابه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقد اجتمعت هذه الصفات الثلاث: الإيمان، والهجرة، والجهاد، في رجال السرية ـ كما تقدّم في سبب النزول ـ إذ كانوا جميعاً من المهاجرين.

وجاء ثناءُ اللهِ عليهم بهذه الآية، ردّاً على حملات التعنيف واللوم التي تعرّضوا لها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يطمعون برحمته تعالى، فعملهم الصادر عنهم ما عملوه إلّا تقرّباً إلى الله تعالى، وطمعاً في ثوابه وفضله.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم، فهنيئاً لهم المغفرة والرحمة، رضي الله عنهم.

- **السؤال عن الخمر والميسر:**

ثم ذكرت الآياتُ سؤالاً آخرَ من أسئلة الصحابة، يدلّ على حرصهم على سلامة دينهم، وحبّهم للتفقّه فيه:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ﴾ أي: عن حكم تعاطي الخمر والميسر.

والخمر: المُسكِر الذي يخمِّرُ العقل ويغطّيه، أو من التخمّر، لأنها شراب

متخمّر. **والميسر**: القِمار. وهما من الآفاتِ الاجتماعية الخطيرة، التي كانت ولا تزالُ منتشرةً في المجتمعات الجاهلية، وقد حاربها الإسلام وحرّمها، وطهّر المجتمعات الإسلامية من شرورها وغوائلها.

ودلّ سؤالُ الصحابة عن الخمر والميسر، على أنَّ الدين الجديد قد أحدث في نفوسهم وعقولهم يقظةً وتفتّحاً ووعياً، حتى أصبحوا يميّزون بين ما يضرّهم وما ينفعهم، فهم يعيشون في ظلالِ شريعةٍ تُبيحُ لهم كلَّ طيبٍ نافع، وتحرِّمُ عليهم كل خبيث ضارّ.

ومن رحمته تعالى بهم أنّه ما أنزل تحريمَ الخمر دفعةً واحدةً، إذ كان تعلّقهم بالخمر شديداً، وإدمانهم عليها قويّاً، ولهذا كرّههم سبحانه بها أولاً، فقال:

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن تعاطيهما يؤدّي إلى الإثم.

وإثمُ الخمرِ: ما تحدثه في عقل الشارب وصحته من الأضرار، وما يصدُر عنه من أقوال وأفعال شاذّة تضرّ بدينه ومجتمعه.

وأما **إثم الميسر**: فما ينتج عنها من كراهيةٍ وخصامٍ، وإتلافٍ للأموال، وتضييعٍ للطاقات، وإهدار للأوقات.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ **ومنافع الخمر**: بسبب التجارة فيها، إذ كانت بضاعةً رائجةً بينهم.

وأما **منافع الميسر**: فكانت للمحتاجين والفقراء، فمن عاداتهم التي كانوا عليها في الجاهليةِ أن يتعفّفَ الرابحُ في الميسر عن أخذِ الربح، ويتركهُ للمحتاجين.

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي: ما فيهما من أضرار أكثرُ بكثير مما يترتب عليهما من منافع، ولا شك أنَّ هذا تنفيرٌ عنهما، وحثٌّ للناس على اجتنابهما، وتمهيد لتحريمهما القطعي، الذي نزل بعد ذلك.

روى **الإمام أحمد**: عن **أبي ميسرة، عن عمر** رضي الله عنه: أنه قال: **اللّهمَّ بيِّن لنا**

في الخمرِ بياناً شافياً، فنزلتِ هذه الآيةُ التي في سورةِ البقرةِ، فدُعِي عُمَرُ فقُرِئتْ عليه. فقال: اللَّهمَّ بيِّن لنا في الخَمْرِ بياناً شافياً، فنزلتِ الآيةُ التي في النِّساءِ [٤٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فكان مُنادي رسول الله ﷺ إذا أقامَ الصلاة نادى: أن لا يقربنَّ الصلاةَ سكران، فدُعِيَ عُمَرُ فقُرِئت عليه، فقال: اللَّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة [٩٠]، فدُعِيَ عُمَرُ فقُرِئت عليه، فلمّا بلغَ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا[١].

بهذا الأسلوب المتدرج الذي يُظهِر سماحة الشريعة الإسلامية ويُسْرها، نجح الإسلام نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات الاجتماعية، التي كانت راسخة في قلب المجتمع العربي الجاهلي[٢].

• **السؤال عن الصدقة:**

ويبدو أن السؤال عن مقدار النفقة قد تكرّر من بعض الصحابة، وجاء الجواب في هذه المرّة، يبيِّن لهم ما ينفقون من أموالهم دون تحديد أيضاً:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ أي: أنفقوا العفو، وهو ما سهل وتيسّر وفضل، ولم يشقّ على القلبِ إخراجه. والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالةً[٣].

ويؤيده الحديثُ النبويُّ الشريف: عن **حكيم بن حزام** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أفضلُ الصدقةِ ـ أو خَيْرُ الصدقةِ ـ عن ظَهْرِ غِنًى، واليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى، وابدأ بِمَنْ تعولُ**» [رواه مسلم (١٠٣٤)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩٢.
(٢) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.
(٣) تفسير القرطبي: ٣/ ٦١.

وقوله: «**عن ظهر غنًى**» أي: ما بقي صاحبُها بعدها مستغنياً بما بقي معه عن الناس.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: تتفكّرون في أمور الدنيا والآخرة، وتعملون لما يصلحكم فيهما، فالإسلام أتى بخير الدنيا والآخرة.

● **السؤال عن مخالطة الأيتام:**

ولمّا أنزل الله الآيات التي فيها وعيد شديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، خاف الصحابة خوفاً شديداً، وشعروا بالحَرَج في حفظ أموال اليتامى. قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: لمّا نزلتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، تحرّجَ المسلمون من أموال اليتامى تحرُّجاً شديداً، حتى عزلوا أموالَهم عن أموالِهم، وتركوا مخالطتَهم، وربَّما كانَ يُصْنَعُ لليتيمِ الطعامُ، فيفضُلُ منه، فيتركونه ولا يأكلونه، فاشتدَّ ذلك عليهم، فسألوا رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾[1].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مخالطتهم بقصد الإصلاح لهم والحفظ، خير من اعتزالهم.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: وإن تخلطوا طعامكم بطعامهم، وتشاركوهم في النفقة والمسكن، فهم إخوةٌ لكم، والإخوة يُعينُ بعضُهم بعضاً على الخير والصلاح.

ففي الآيةِ حثٌّ على مخالطة اليتامى ومؤانستهِم، فقد يؤثِّر عزلهم واعتزالهم على عواطفهم، ويسبِّبُ لهم الحُزْنَ المتواصلَ والكآبة، ويورثهم بعضَ العُقدِ النفسية، بينما مخالطتهم ومؤانستهم تعوّضهم عن شيءٍ من العطف والحب الذي فقدوه بموت آبائهم.

---

(١) تفسير الخازن: ١/٣٢٨.

وفي الوقت نفسه حذّرت الآيةُ أصحابَ النفوس الضعيفة، الذين يقصدون بالمخالطة إلى أكل أموال اليتامى، بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فيجازي المفسد على إفساده، ويُثيب المصلح على إصلاحه.

وهذه الإباحةُ في مخالطة مال الأيتام تدلّ على يُسْر الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنه تعالى يريد التيسيرَ على الأمة المسلمة، ولهذا قال تعالى ممتنّاً عليهم:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لأوقعكم بالعنت، وهو المشقّة، وذلك بتشديد التشريع عليكم، وتكليفكم بالتكاليف الشاقّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو سبحانه غالبٌ على أمره، يشرع ما يريد، حكيم في كل ما يشرع.

• **تحريم النكاح بين المسلمين والمشركين:**

وقد تؤدّي مخالطة الأيتام إلى تقوية الصلات الاجتماعية معهم، بتزويجهم أو الزواج منهم، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التالية:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فلا يحلّ للمسلم أن يتزوج المرأة المشركة، ولو كانت يتيمةً، وهو حكمٌ عام ينسحب على الكافرات. وخرج من هذا العموم الكتابيات بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى الأوصياء بأنّ عليهم أن يهتمّوا بتربية الأيتام، وتنشئتهم على العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإبعادهم عن كلِّ مظاهر الشرك والكفر، فمهمتهم لا تقتصر على المحافظة على أموال اليتامى، بل عليهم أيضاً أن يحافظوا على أخلاقهم وعقائدهم وصفاء فطرتهم.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ مع ما فيها من ذلّ العبودية والرقّ.

﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بسبب جمالها، وسائر ما فيها من صفات ترغِّب بنكاحها، فالإيمانُ أعلى الصفات التي يشرف بها الإنسان.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**تُنْكَحُ المرأةُ لأربع: لمالِها، ولحسبِها، وجمالِها، ولدينِها، فاظفرْ بذاتِ الدّينِ تَرِبَتْ يداك**» [صحيح البخاري (٥٠٩٠)].

وكما حرّم الإسلام الزواج من الكافرات، حرّم أيضاً تزويج المشركين، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تزوِّجوا الكفّار من المؤمنات مطلقاً، سواء كان الكافر كتابيّاً أم غير كتابي. وقد أكّد تعالى هذا الحكم في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الآية [الممتحنة: ١٠].

وأكده أيضاً هنا بقوله بعد ذلك:

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: المشركون والمشركات يدعون إلى الكفر المؤدّي إلى النار يوم القيامة.

وهذا يدلّ على خطورة مخالطة الكفّار والفسّاق، فالواجبُ اجتنابُ مخالطتهم بقدر الاستطاعة، فمَن جالسَ جانسَ، وما أعظم العبرة والعِظة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان].

فالمحافظة على الدين وسلامة الاعتقاد أوجبُ واجبات المسلم، والحيطةُ والحذرُ من أسبابِ السلامة والوقاية.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: يدعو إلى الإسلام، وهو الطريق المؤدّي إلى فضل الله ورحمته وجنّته،كما قال في **سورة يونس**: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: ويدعو إلى ستر الذنوب، والتجاوز عنها في حال التوبة والاستغفار.

﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره سبحانه وتوفيقه، فلا غنى لأيِّ إنسانٍ مهما كان عن معونته تعالى وتيسيره وهدايته.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلّهم ينتفعون بها ويتعظون.

- **السؤال عن المحيض:**

ومن الأمور التي يَظْهَرُ فيها يُسْرُ الشريعة الإسلامية وسماحتها، بمقارنتها مع شريعة التوراة، كيفية معاملة الزوج لزوجته في أثناء المحيض، فعند اليهود إذا حاضتِ المرأةُ اعتزلوها اعتزالاً كاملاً، حتى إنّهم لا يجتمعون معها على طعامٍ، ولا تحت سقفٍ واحدٍ، بينما الأمر في الإسلام أيسرُ من ذلك بكثير، فهو يحرِّمُ على الزوج الاتصال الجنسي بزوجته فقط في أثناء الحيض، ولا يكلفه اعتزالها كما يفعل اليهود، بل شرع له الاستمتاع بها ومباشرتها.

فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: **كانت إحدانا إذا كانت حائضاً، أمرها رسولُ اللهِ ﷺ فتأتزر بإزارٍ، ثم يباشِرُها.** [رواه مسلم (٢٩٣)].

وعن **ميمونة** رضي الله عنها قالت: **كان رسولُ اللهِ ﷺ يضطجعُ معي وأنا حائضٌ، وبيني وبينه ثوبٌ.** [رواه مسلم (٢٩٥)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: أمرني رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ أُناوله الخُمْرَةَ من المسجدِ (أي: وهو في المسجدِ) فقلتُ: إنِّي حائض، فقال: «**تناوليها، فإنَّ الحَيْضَةَ ليستْ في يَدِكِ**» [رواه مسلم (٢٩٨)]. و(**الخمرة**): السجادة التي يصلى عليها.

وعنها أيضاً قالت: **كان رسولُ اللهِ ﷺ يتكئُ في حِجْري وأنا حائضٌ، فيقرأ القرآن.** [رواه مسلم (٣٠١)].

فأين هذا التيسيرُ والتسهيلُ من التشديد الذي كان عليه يهود؟! فعن أنس رضي الله عنه: أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهنّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كلَّ شيءٍ إلّا النِّكاحَ**» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريدُ هذا الرجلُ أن يدعَ مِنْ أمرِنا شيئاً إلّا خالفنا فيه!. [رواه مسلم (٣٠٢)].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: الحيض، **وهو دم يسيل من رحم المرأة البالغة في أوقات معلومة، إذا كانت غيرَ حامل، ولم تبلغْ سنَّ اليأس.**

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي: هو مؤذٍ، وقد أثبتَ التحليلُ المِخبَريُّ لدم الحيض أنه يحمل قطعاً من الغشاء المبطّن للرحم، لأنَّ الرحمَ يتخلص من بطانته القديمة التي لم تعد تصلح لاستقبال حمل جديد، فيطرحُها على شكل سائل دموي يميلُ إلى السواد، فدم الحيض لا يأتي مباشرةً من العروق الدموية، بل هو نسيجٌ محتقن متنخر(١).

ولهذا فهو معرَّضٌ بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح، ومن المعلوم طبيّاً أنَّ الدمَ هو خيرُ بيئةٍ لتكاثر الميكروبات ونموّها، والاتصالُ بالمرأة في هذه الفترة يساعِدُ على إدخال الميكروبات إلى المِهبَل والرحم، حيث تكونُ البيئة مناسبة لنموّها، مما يؤدي إلى التهابات قد تمتد إلى سائر أجهزة الحمل عند المرأة، وإلى مجاري البول والمثانة والحالبين، وينتقلُ الأذى إلى الرجل أيضاً، بانتقال

(١) القرار المكين، ص٤٢.

الميكروبات إليه، مما يؤدّي إلى التهابات في مجرى البول والمثانة والبروستاتا[١].

﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: اجتنبوا مجامعتهنّ في أثناء الحيض.

﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ أي: لا تقربوهنّ بالجماع حتى يطهرنَ من الحيض بانقطاع دمه.

وفي قراءة: **(حتى يطَّهَّرن)** أي: يتطهرن بالماء، ولهذا شرط بعضُ العلماء لحِلِّ مجامعة الزوجة اغتسالها بعد انقطاع دم الحيض. وفصَّل بعضُهم أنه إذا كان الانقطاع بعد انقضاء أكثر مدة الحيض حلَّ وطؤها ولو لم تغتسل، وإذا كان قبل ذلك لم يجزْ وطؤها حتى تغتسل.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: جامعوهنّ من المكان الذي أحلّه الله لكم، أي في القُبُل لا في الدُّبُر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذنوب، والتوّاب كثير التوبة؛ كلما أذنب جدّد توبته.

﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ من النجاسات والأقذار، المتنزهين عنها، فلا يجامعون الحائض، ولا يأتونها في الدبر، حيث الأذى والقذر والنجاسة.

فالشريعة الإسلامية شريعة رحمة، أنزلها الله تعالى لصلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وما حرّمت على الناس إلا ما فيه ضرر وأذى، ولهذا حرّمت وطء الحائض ووطء الدُّبر، وعندما ينتفي الضررُ والأذى لا تضيِّق الشريعة الإسلامية على الإنسان، بل تتركه على الإباحة الأصلية، طليقاً عن كل قيد وشرط، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في موضوع الاتصال الجنسي بين الزوجين، بهذا التبيان الصريح المشرق:

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص١٠٤.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: زوجاتكم بالنسبة لكم مواضع زرع، فالزوجة بالنسبة لزوجها، كالأرض التي تتقبّل البذر وتحمله وتنمّيه، والزوج بالنسبة لها كالزارع الذي ينبغي له أن يضع البَذْرَ في موضعه المناسب له.

﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: جامعوهنّ متى شئتم وكيف شئتم.

فلا حَظْر عليكم ما دام الجماع في موضع الحَرْثِ وتقبّل البذرِ، وهو الفرجُ المتّصل بالرحم، فالطريقة التي يجدها الزوج مناسبة لمجَامعة زوجته في فرجها حلالٌ له.

وقد أنزل الله هذه الآية ردّاً على تعنّت اليهود وتشدّدهم:

فعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: **كانت اليهودُ تقول: إذا أتى الرجلُ امرأتَه من دُبرِها في قُبُلِها، كان الولدُ أحولَ، فنزلت:** ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. [رواه مسلم (١٤٣٥)].

﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: ما تستطيعون من الأعمال الصالحة لآخرتكم.

فالدنيا في نظر الإسلام مزرعةُ الآخرة، وكلُّ أعمال الإنسان الدنيوية إذا ما التزم بها أحكام الشريعة الإسلامية وقصد بها رضوان الله تعالى تصبحُ عباداتٍ يُثاب عليها يوم القيامة، حتى الاتصال الجنسي بين الزوجين.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي ذر** رضي الله عنه: أنّ ناساً من أصحابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ ذهبَ أهلُ الدثورِ بالأجور، يصلّونَ كما نصلّي، ويصومونَ كما نصومُ، ويتصدّقونَ بفضولِ أموالهم. قال: «**أَوَ ليسَ قد جعلَ الله لكم ما تصدّقون بهِ؟ إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرةٍ صدقةٌ، وكلُّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن منكرٍ صدقةٌ، وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدقةٌ**». قالوا: يا رسول اللهِ أيأتي أحدُنا شهوتَهُ،

ويكونُ له فيها أجْر؟! قال: «**أَرَأَيتُمْ لو وضعَها في حرامٍ، أكانَ عليه فيها وِزْرٌ؟ فكذلك إذا وضعَها في الحلالِ كانَ له أجْرٌ**» [رواه مسلم (١٠٠٦)].

قوله: (**الدثور**) يعني الأموال.

وقوله: (**بضع**) يعني الجماع، ويطلق على الفرج نفسه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع شؤون حياتكم.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بفضل الله ورحمته إذا ما اتقوا ربّهم، وتمسَّكوا بأحكام شريعتهم.



الفَصْلُ السَّابِعُ

الأسرة وتشريع الطلاق

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ
﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن
يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ
أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ
مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا
إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ
بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ
وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن
يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ
حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ
إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا

عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم
مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ
أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ
ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن
تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ
ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا
بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً
فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ
وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ
فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا
فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

• حرص الإسلَام عَلى الأُسرَة:

وبعد أن نظّمت الآيات الصِّلات الجنسية بين الزوجين، وبيّنت ما يتعلق بها من أحكام، انتقلت إلى الحديث عمّا يمكن أن يحدثَ بين الزوجين من تنافر وتخاصم وسوء تفاهم، قد يؤدّي إلى انقطاع الصلة الزوجية بينهما وحدوث الطلاق.

وتحرصُ الشريعة الإسلامية على استمرار الحياة الزوجية وبقاء الأُسرة، لأنها المكان الطبيعي لاستمرار الوجود البشري، ونشوء الإنسان وتربيته تربية

صحيحة سليمة، تنمّي مشاعره الإنسانية، وتُعِدّه ليكونَ إنساناً صالحاً، يحمل مسؤوليةَ الأمانةِ التي كلّفه الله تعالى بها، وخلقه من أجلها.

وما شُرِعَ الطلاقُ في الإسلام إلّا كعلاجٍ أخيرٍ للمرض المستفحل بالأُسرة والمستعصي على كلِّ دواءٍ، فهو كالعمل الجراحي الذي يضطر إليه الطبيب، لكي يستأصل موضع المرض من الجسم، بعد أن فشلت العقاقير في معالجته، فاستئصال موضع المرض من الجسم يحمي بقيةَ الجسدِ، ويحول دون انتشار المرض فيه.

وكذلك الطلاق يستأصل الأُسرةَ المريضةَ التي يمكن أن ينتشرَ منها المرض إلى سائر أبناء المجتمع، فهو أمرٌ خطير في نظر الإسلام، وسيأتي معنا أنَّ الأصل فيه الحَظْر، ولهذا اهتمت آيات السورة به، فتناولته بتفصيل أحكامه، وبيان فروعه، ولم تكتفِ بعرض أُصوله وقواعده العامّة، كما فعلت في غيره من التشريعات.

• اليمين اللغو واليمين المنعقدة:

شرعت الآيات أولاً تتحدث عن الأَيْمان، لما لها من صلة قوية بموضوع الطلاق، قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ أي: لا تجعلوا الحَلِف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من أعمال البرِّ والتقوى والإصلاح بين الناس. **فالعُرْضة**: اسمٌ لِما يُجعَلُ عارضاً وحاجزاً ومانعاً.

وذكر المفسّرون: أنها نزلت في **عبد الله بن رواحة** رضي الله عنه: كان بينه وبين خِتْنِهِ (زوج أُخته) بشير بن النعمان شيءٌ، بسبب أنّه طلّق زوجته، ثم أراد

الرجوع إليها، فحلفَ عبد الله يميناً لا يدخلُ عليه، ولا يكلّمه، ولا يُصلِح بينه وبين زوجته.

وجاء في معنى الآية قول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ حلفَ على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها فليأْتِهَا، ويُكفّر عن يمينِهِ**» [رواه مسلم (١٦٥٠)].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا مظهر من مظاهر سماحة الشريعة الإسلامية ورحمتها.

ثم أكَّدَه ﷻ بعد ذلك بقوله:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: لا يؤاخذكم الله بالأَيْمان اللاغية، وهي التي يسبِقُ إليها اللسان من غير قصدٍ ونيّةٍ، وهو ما ذهبت إليه **السيدة عائشة** ﵂ في قولها: أنزلت هذه الآية ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ...﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله. [رواه البخاري (٤٦١٣)].

أو هي الأيمانُ المبنيّةُ على غلبةِ ظنِّ الحالف، ثم يتبيَّنُ له أنَّه أخطأَ فيما حلف عليه. أو هي ما كان يصدرُ عنهم بعد أن أسلموا، وألسنتهم قد ألفت الحلفَ باللّات والعزّى، فكانوا يحلفون بها من غير قصدٍ، فأُمِروا أن يتلفّظوا بعدها بكلمة الإخلاص لتكون هذه بهذه[1].

عن **أبي هريرة** ﵁: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ حلفَ فقال في حَلِفِهِ: واللّاتِ والعُزَّى، فليقل: لا إِلَـٰهَ إلّا الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أقامِركَ، فليتصدّقْ**» [رواه البخاري (٤٨٦٠) ومسلم (١٦٤٧)].

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ أي: ولكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له. **وكَسْب القلب**: هو القصد والنيّة.

وقد شرع الله تعالى الكفّارة في حال الحنث بهذه اليمين وعدم البرّ بها؛

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٩٩.

فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ولهذا لم يؤاخذكم بأيمانِ اللغو، ولم يعاجلكم بالعقوبة في حال الحنث وعدم البرّ بالأيمان المنعقدة، بل حضّ سبحانه على التوبة وشرع الكفّارة.

- **الإيلاء:**

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن أيمان مخصوصة، تصدرُ عن بعضِ الأزواج بقصد الإضرار بزوجاتهم:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)﴾.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ أي: يحلفون على ألّا يجامعوهنّ.

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار مدة أربعة أشهر.

وقد رفع الإسلام بهذا عن المرأةِ ظلماً كبيراً كانت تعاني منه في الجاهلية؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان إيلاءُ الجاهليةِ السنةَ والسنتين وأكثرَ من ذلك، يقصدون بذلك إيذاءَ المرأةِ عند المساءة، فوقَّت لهم أربعة أشهر(١).

﴿فَإِن فَاءُوا﴾ أي: رجعوا في أثناء ذلك إلى الاتصال بزوجاتهم، ومعاشرتهنَّ المعاشرة الزوجية الكريمة، وكفّروا عن أيمانهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم إساءتهم إلى زوجاتهم، فالآيةُ تحضُّ الأزواجَ على حُسْن معاشرة الزوجات، وعلى رجوعهم عن قصد الإساءة إليهنّ والإضرار بهنّ.

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٠٣.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ بترك العودة، والإصرار على هجر فراش الزوجية، حتى مضت أربعة أشهر، بانت منه زوجته بطلقة واحدة، أي: يعدُّ حكماً مطلِّقاً زوجته طلقةً واحدةً.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالهم، ويعلم أحوالهم، وحقيقة مقاصدهم، فيجازي المُسيء على إساءته، وإضراره بغيره.

فانقضاء الأشهر الأربعة يؤدّي إلى وقوع الطلاق حكماً، ولو لم تطالبِ المرأةُ به، عندَ بعض العلماء، وذهب آخرون إلى أنّه لا يقعُ الطلاق بمجرد مضيِّ المدة، حتى تطالبه الزوجةُ بالرجوع عن يمينه أو طلاقها، وترفعُ أمرَه إلى الحاكمِ، فيأمره الحاكم إما بالرجوع أو بالطلاق.

ويلاحظ أنَّ الآيات لم تحرّمْ على الزوج هجرَ فراش زوجته تحريماً قاطعاً، بل منعته من هجر فراشها بقصد الإضرار بها، والإساءةِ إليها، فقد يحتاجُ الرجل أحياناً إلى هجر زوجته تأديباً لها في حال نشوزها، وهو أمرٌ مشروع شرعه تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ آلى من نسائه، واعتزلهنّ شهراً، تأديباً لهنّ، عندما سألنه أن يوسِّعَ عليهنّ في النفقة، وأنزل الله بعد ذلك قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب][1].

---

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

• **الأصل في الطلاق الحَظر:**

أبرزت آياتُ الإيلاء حرص الشريعة الإسلامية على سلامة العلاقة الزوجية وصفائها، وإبعادها عن كل ما يعكّرها ويُسيءُ إليها، لأنّها حريصةٌ ـ كما مرّ ـ على سلامة الأسرة، واستمرارها في تأدية وظائفها الاجتماعية الهامّة الضرورية للإنسان.

وشُرِعَتْ لهذا السبب ـ في حال وقوع الطلاق ـ العدّة، لكي يتمكّن الزوجان في أثنائها من العودة إلى الحياة الزوجية، واستدراك ما فاتهما بالطلاق، ولهذا بادرت الآيات الكريمة إلى بيان عدّة الطلاق، قبل الحديث عن الطلاق نفسه، لإظهار حرص الشريعة على بقاء الأسرة وسلامتها، وأشارت في تأخيرها الحديث عن الطلاق، إلى كونه أمراً مكروهاً، ما شرع إلّا عند الضرورة المُلجِئةِ إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «**أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ ﷻ الطلاقُ**» [رواه أبو داود (٢١٧٨)].

ولهذا قال الفقهاء: الأصلُ في الطلاقِ الحَظْرُ، بمعنى أنه محظورٌ إلّا لعارضٍ يُبيحه[١]، وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان.

• **عدّة المطلقات:**

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ أي: الزوجات اللواتي تمّ زواجهنّ بالدخول فيهنّ، ثم طلّقهنّ أزواجهنّ.

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن بعد الطلاق فلا يتزوَّجن، مدة:

---

(١) انظر: ردّ المحتار: ٢/٤٦٦.

﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جمع قَرءٍ، **والقَرءُ**: اسمٌ يطلق على الحيض أو الطُّهر الواقع بين حيضتين، ولهذا اختلف العلماء في الأقراء، فبعضهم قال: المراد الحَيْضُ، وبعضهم قال: المراد الأطهار.

وفي ذكر الأنفس تهييجٌ لهنّ على التربّص، لأنّ أنفس النساء طوامحٌ إلى الرجال، فأمرن أن يقمعنَ أنفسهنّ، ويجبرنها على التربّص. والخبر بمعنى الأمر، وأصل الكلام: ولتتربص المطلّقاتُ. وإخراجُ الأمرِ في صورة الخبر تأكيدٌ للأمرِ، وإشعارٌ بأنه مما يجب المسارعة إلى امتثاله[١].

والحكمة من تشريع العدّة صيانةُ الأنسابِ، والتأكّدُ من عدم اختلاطها، ففي أثنائها يظهرُ إن كانتِ المطلّقةُ حاملاً، أو غير ذاتِ حمل، كما أنها تعطي فرصةً للزوج لمراجعة زوجته بعد الطلقة الأولى والثانية، كما سيأتي بيانه.

ولـمّا كان أمر العدّة منوطاً بحيض المرأة وطُهرها، إذا كانت ممن تحيض، أو منوطاً بوضع حملها إذا كانت حاملاً، لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وهي أمورٌ من خصوصيات المرأة، جعلها الله تعالى مؤتمنةً على تحديد مدة العدّة، ومسؤولة عنها، فقال:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض، استعجالاً لانقضاء العدّة، وإبطالاً لحقّ الزوج في المراجعة، كما أنّ كتمان المرأة لما خلق الله في رحمها يؤدّي إلى اختلاط الأنساب.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: إن كنّ حقّاً يؤمنَّ بالله واليوم الآخر.

فشأن المؤمنات بالله تعالى وبالمسؤولية والحساب يوم القيامة، أن يكنَّ صادقاتٍ حافظاتٍ للأمانة التي اؤتمنَّ عليها، فلا يغيّرنها ولا يبدّلنها.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: لأزواج المطلّقات الحقُّ بمراجعتهنّ، وردّهنُ إلى حياة الزوجية في أثناء العدّة.

ولهذا لا تحتجبُ المرأةُ المطلقة عن زوجها في أثناء العِدّة لكي يراجعها،

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ١/ ٢٤٠.

فإذا ما انقضى وقتُ العدّة بطلَ حقُّه في المراجعة، وأصبحت المطلّقةُ حرّةً في أمرها، إن شاءت رجعت إلى زوجها السابق بعقد جديد، وإن شاءت امتنعت عن الرجوع، وهذا إذا كان الطلاقُ رجعيّاً يمكنُ مراجعةُ الزوجةِ المطلّقة بعده في أثناء العدة.

﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ﴾ أي: إذا أراد الأزواجُ بمراجعةِ زوجاتهم الإصلاحَ وحُسْن العِشْرة.

ودلَّ هذا الشرط على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأُسرة، وعلى أن تكون العلاقة بين الزوجين قائمة على التفاهم والمودّة، وحرصها أيضاً على عدم الإضرار بالمرأة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فقد كان بعض الأزواج يُراجِعون زوجاتهم بقصد الإضرار بهنّ، وذلك بالعودة إلى تطليقهنّ، فتبقى المرأة حائرةً متردّدةً، فحرّم الإسلام هذا ومنعه، وجعل عددَ الطلقاتِ التي يمكن للرجل أن يُراجع زوجته بعدها في أثناء العدّة تطليقتين فقط، كما سيأتي في الآية التالية.

• المساواة بين الحقوق والواجبات:

ثم شرعت الآية مبدأً أساسيّاً للتعامل بين الزوجين، يتمتع كلٌّ منهما بحقوق مساوية للواجبات التي عليه نحو الآخر، فإذا ما التزمَ الزوجان بهذا المبدأ عاشا حياة زوجية طيبة بعيدة عن كل أسباب الخلاف المؤدّية إلى الطلاق:

﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: وللزوجات من الحقوق على أزواجهنّ من المهر والنفقة وحُسْن المعاشرة، مثل ما عليهنّ من طاعة الزوج ضمن الحدود المشروعة، وحُسْن القيام على شؤون الأسرة.

فالواجبُ على الزوج أن يؤمّنَ للزوجة جميعَ ما تحتاجُ إليهِ في شأنِ معيشتها من مأكلٍ وملبسٍ ومسكنٍ، كما يجبُ عليه أن يعاشرها معاشرةً إنسانيةً كريمةً.

والواجبُ على المرأة طاعةُ زوجها في غير معصية الله تعالى، ورعايةُ بيته في أثناء غيابه؛ قال ﷺ: «**ألا كلُّكمْ راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته، فالإمامُ الأعظمُ الذي على الناسِ راعٍ، وهو مسؤولٌ عن رعيته، والرجلُ راعٍ على أهلِ**

بيتِهِ، وهو مسؤولٌ عن رعيتِهِ، والمرأةُ راعيةٌ على أهل بيتِ زوجِها وولدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرجلِ راعٍ على مالِ سيدهِ، وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلّكُم راعٍ، وكلّكُم مسؤولٌ عن رعيَّته» [رواه البخاري (٧١٣٨)].

فالأُسرة مؤسسة اجتماعية تحتاج إلى راعٍ يرعاها، ويكونُ مسؤولاً عنها، وقد جعل الله تعالى رعايتها بيد الرجل في حال حضوره، وبيد المرأة في حال غيابه، فقال:

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهي درجةُ القوامةِ والرعايةِ، المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وليس المراد منها درجة الفضل عند الله تعالى، فالفضل عنده تعالى منوط بالتقوى، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الدرجةُ إشارةٌ إلى حضّ الرجالِ على حُسْنِ العشرةِ والتوسّعِ للنساءِ في المال والخلق[(١)].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله، فلا يجوز لأحد أن يعترضَ على أحكامه وشرعه.

- **الطلاق الرجعي مرتان:**

ثم بيّنت الآيات عدد الطلاق الذي يمكن بعده مُراجعة الزوجة، فقال تعالى:

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٢٥.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي: الطلاق الرجعي مرتان فقط، ولا رجعةَ بعد الثالثة إلّا بعد أن تنكحَ زوجاً آخر.

وقد رفعت الشريعة الإسلامية بهذا التحديد ظلماً كبيراً عن كثير من الزوجات؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة رافعةٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أنَّ الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلّقها مئةَ مرّةٍ ما دامت في العدّة، فلمَّا كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله على ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكليّة في الثالثة»[1].

وعن **عروة بن الزبير** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان الرجلُ إذا طلّق زوجته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضيَ عدّتها، كان له ذلك، وإن طلّقها ألف مرّة، فعمد رجلٌ إلى امرأته فطلّقها، حتى إذا شارفتِ انقضاءَ عدّتها ارتجعهَا، ثم قال: واللهِ لا آويكِ ولا تحلّينَ أبداً. فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾. [رواه الترمذي (١١٩٢)][2].

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: فالواجبُ عليكم بعد المراجعة معاشرةُ الزوجةِ بما عُرِفَ في الشرع من أداء لحقوق الزوجة، وحُسْن الصحبة معها.

﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي: أو أن يتركها فلا يُراجِعها، من غير ضرر بها، وأن يؤدّي لها جميع حقوقها المشروعة.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا يحلّ لكم أيها الأزواج

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٠٤.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ١٤٤.

أن تأخذوا شيئاً من المهر، فهو حق الزوجة، ولا يجوزُ للزوج أن يأخذَ منه شيئاً إذا طلّقها، إلّا في حالة واحدة، بيّنها الله تعالى بقوله:

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا إذا خافت المرأةُ أن تعصي الله تعالى في معاملتها لزوجها، كأن تكون كارهةً له، لا تستطيعُ الحياة معه، وإلّا أن يخاف الرجل في مقابل ذلك أن يظلمها، ففي مثل هذه الحالة يجوز لزوجها أن يأخذَ منها شيئاً من المال لكي يطلّقها، وهو ما شرعه تعالى بقوله:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: فإن خفتم أيّها الحكّام ألّا يستطيع الزوجان تطبيق شرع الله تعالى في حياتهما الزوجية.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: فلا إثمَ عليهما إذا أعطت الزوجةُ لزوجها شيئاً من المال، في مقابل فسخ النكاح بينهما.

وفي الحديث النبوي الشريف: **عن ابن عباس** رضي الله عنهما قال: جاءت امرأةُ **ثابتِ بنِ قيس بن شمَّاس** إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللهِ، ثابتُ بنُ قيس ما أعتِبُ عليه في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولكنّي أكره الكفرَ في الإسلامِ، فقال رسول الله ﷺ: «**أتردينَ عليه حديقَتَه؟**» (وكان قد أصدقها حديقةً) قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «**اقبل الحديقةَ وطلّقها تطليقةً**» [رواه البخاري (٥٢٧٣)].

وقولها: (**أكرهُ الكفرَ في الإسلامِ**) أي: أكرهُ إن أقمتُ عنده أن أقع فيما يقتضي الكفر، وكأنها أشارت إلى أنها قد تَحْمِلُها شدّةُ كراهتها له على إظهار الكفر، لينفسخَ نكاحُها منه، ويحتمل أن تريد بالكفر كفران العشير، وتقصير المرأة في حقّ الزوج(١).

والجمهور على أنّ أخذَ الفدية على الطلاق جائز، وأجمعوا على تحريم أخذ مالها إلّا أن يكون النشوز وفساد العِشرة من قِبَلها(٢).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكام دينه التي شرعها سبحانه.

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٤٠٠.
(٢) تفسير القرطبي: ٣/ ١٣٧.

﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوزوها بالمخالفة والإعراض عنها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: أولئك هم الظالمون لأنفسهم بالإعراض عن شريعة ربّهم، فلا تصلح الحياة الزوجية إلّا في ظل الشريعة الإسلامية، التي تحرص على سلامة الأُسرة وسعادتها.

• **الطلقة الثالثة:**

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ للمرة الثالثة.

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ذلك الطلاق.

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتى تنتهي عدّتها وتتزوّج غير زوجها السابق.

وهذا أسلوب تربوي عملي في تأديب الزوجة، إذا كانت هي المتسبّبة في طلاقها. كما أنّ فيه تربية وتأديباً للزوج إذا كانت الإساءةُ من جهته، فلا بدّ أن تدركه الغيرةُ عندما يرى زوجته تتزوَّج بعد طلاقها غيره، ويندم على ما صدر منه في حقها.

ولا يحلّ لها أن تعود إلى زوجها السابق حتى يتمّ زواجُها من الثاني، ويعاشِرُها معاشرةَ الأزواج.

دلّ على ذلك الحديث النبوي الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: جاءت امرأةُ رفاعةَ إلى النبيِّ ﷺ فقالت: كنتُ عندَ رفاعةَ، فطلّقني فَبَتَّ طلاقي ـ أي: طلّقني ثلاثاً ـ فتزوّجتُ عبدَ الرحمن بنَ الزُّبير، وإنّما مَعَهُ مثلُ هُدْبَةِ الثوبِ، فتبسّمَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**أتريدينَ أن ترجعي إلى رُفاعةَ؟ لا، حتّى تذوقي عُسَيلَتَه ويذوقَ عُسَيْلَتَك**» [رواه البخاري (٥٢٧٦) ومسلم (١٤٣٣) واللفظ له].

قولها: **(مثل هدبة الثوب)** تعني ضعفه جنسيّاً.

وقوله: «**حتى تذوقي عُسيلته ويذوق عُسيلتك**» استعارة لطيفة شبه بها النبي ﷺ لذة الاتصال الجنسي بحلاوة العسل.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني، وانقضت عدّتها منه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ أي: على المرأة المطلّقة وزوجها الأول.

﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: أن يرجعا إلى حياتهما الزوجية السابقة بعقد جديد، إن ظنّا أنّهما يستطيعان أن يستأنفا حياتهما الزوجية في ظل شريعة الله تعالى.

وذكّرتهم الآية مرة ثانية بأن هذه الأحكام هي الحدود التي شرعها الله تعالى، فيجب الوقوف عندها:

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويعملون بها، فالعلمُ لا يكونُ نافعاً إلّا إذا عُمِلَ به.

ولقد استعاذ النبي ﷺ من علمٍ لا ينفعُ فقال: «**اللّهمّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لَا يَخْشَعُ، ومن نَفْسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها**» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

● **التحذير من الإضرار والعدوان:**

ثم وجّهت الآياتُ الخطابَ إلى الأزواج الذين يريدون تطليق زوجاتهم، تحذّرهم من الإضرار بهنّ وظلمهنّ كما كان الحالُ في الجاهلية، بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن بعد إيقاع الطلاق من نهاية عدّته.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بالمراجعة المشروعة كما مرّ في الآية [١٢٩].

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ أي: اتركوهنّ حتى تنقضيَ عدّتهنَ، ويملكنَ أمرهُنَّ.

وهو تأكيدٌ لما سبق في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وهذا يدلّ على اهتمام الشريعة الإسلامية بدفع الظلم والضرر عن المطلّقات، وقد أكّده تعالى أيضاً بقوله بعد ذلك:

﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ أي: لا تراجعوهنّ بقصد الإضرار بهنّ، فتتجاوزوا حدود شرع الله تعالى، وتعتدوا عليهنّ، وتأخذوا أموالهنّ.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ بتعريضها لغضب الله وعذابه، فاحذروا ذلك، وقفوا عند الحدود المشروعة لكم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ أي: تمسّكوا بأحكام شريعته تعالى بجدٍّ وقوة، وارعوها حقّ رعايتها، وإلّا كنتم لاعبين هازئين بها، فإنّه تعالى شرع هذه الأحكام لصلاحكم وسعادتكم، وهي من نعمه الكبيرة عليكم.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، فانقادوا لأحكامهما، وأذعنوا لما فيهما.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ أي: يعظكم بما أنزل عليكم، ففي الكتاب والسُّنَّة من الزواجر والدروس النافعة والعِبَر البليغة المربّية ما يكفي للاتّعاظ والانزجار.

ودلّت الآية على أنه لا يجوزُ التلاعبُ بألفاظ الطلاق، ولا خلاف بين العلماء أنَّ مَن طلَّق هازلاً يلزمه طلاقه.

فقد أخرج أبو داود [٢١٩٤]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ثلاثٌ جِدُّهنَّ جدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جدٌّ: النِّكاحُ والطّلاقُ والرجعةُ**»(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتزام دينه، وتطبيق أحكام شريعته.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا يخفى عليه شيء من أمركم، فاحذروا مخالفة أمره، ومجاوزة شرعه.

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٥٧.

- **الرجوع إلى الحياة الزوجية:**

وتستطيع المرأة المطلّقة أن ترجع إلى حياتها الزوجية السابقة، ولو انتهت عدّتها، بعد التطليقة الأولى والثانية، ولا يتمّ ذلك إلّا بإرادتها ورضاها، وباتّفاقها مع مطلِّقها على عقد جديد ومهر جديد أيضاً.

فالشريعةُ الإسلاميةُ تحرِصُ على إتاحة الفرصة للزوجين المنفصلين بالطلاق، لإعادةِ بناء الأُسرة، وإصلاح ما تهدّم منها، وعلى أولياء المرأة المطلّقة أن ييسّروا رجوع المرأة إلى حياتها الزوجية السابقة، ولا يجوزُ لهم منعها من ذلك، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدّة طلاقهنّ.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهنّ أيها الأولياء.

﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ أي: أن يرجعنَ إلى أزواجهنَّ بعقد جديد.

وأصل **العضل** في اللغة: الحَبْسُ والتضييق، ومنه عضَلت الدجاجة، إذا نشبت بيضتُها ولم تخرج[١].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أنَّ **مَعْقِلَ بن يسار** رضي الله عنه قال: نزلت فيه، قال: زوّجتُ أُختاً لي من رجلٍ، فطلّقها، حتى إذا انقضتْ عدّتُها جاءَ يخطبُها، فقلتُ له: زوّجتُكَ وأفرشتُكَ وأكرمتُكَ، فطلّقتَها، ثم جئتَ تخطِبُها! لا واللهِ لا تعودُ إليكَ أبداً، وكان رجلاً لا بأسَ بهِ، وكانتِ المرأةُ تريدُ أن ترجعَ إليهِ،

(١) روح المعاني: ٢/ ١٤٤.

فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ. . .﴾ فقلت: الآنَ أفعلُ يا رسولَ اللهِ، قال: فزوَّجَها إيّاه. [رواه البخاري (٥١٣٠)].

﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ أي: إذا تمّ الاتّفاق بين الرجل الخاطب والمرأة المخطوبة، على وفق ما شرع الله تعالى من أحكام.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۗ﴾ أي: هذه الأحكام التي ذكرها الله في الآية، يتعظ بها وينتفع بها المؤمن دون غيره.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ﴾ أي: هذه الأحكام الشرعية تطهّركم من أدناس المعاصي والآثام، وتطهّر قلوبكم من الأحقاد والأضغان، فتطبيقُها ينفي عن المجتمع المعاصي والفواحش، وينفي عن النفوس والقلوب الضغائن والأحقاد.

ولا شكّ أنَّ في منع النساء من الزواج إشاعةً للفسادِ في المجتمع، وتشجيعاً على الفواحش والفسوق.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم ما فيه صلاحكم وسعادتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك بسبب قصوركم وعجزكم، وتغلّب الأهواء عليكم.

• حقّ الأولاد في الرضاعة والنفقة:

اهتمّت الشريعة الإسلامية بالأولاد، وخاصّةً الصغارَ منهم، فلهم حقوقٌ لا ينبغي إهمالها في أثناء الخلافات الزوجية بين الآباء، وها هي الآيات تتحدّث عن حقوق الأطفال في الرضاع، وما يتعلق بها من أحكام، في حال انفصال الزوجين ووقوع الطلاق:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

فقرّرت أولاً المدة الكاملة للرضاع بقوله تعالى:

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ أي: سنتين كاملتين.

والمراد من (**الوالدات**) العموم، مطلّقات أو غير مطلّقات.

ويندبُ للأم أن ترضعه من لبنها، لأنّه أصلحُ له من لبن غيرها، ولكمال شفقتها عليه، ولا يتعيّنُ عليها إرضاعُ ولدها إلا إذا لم يوجد مَنْ يرضعه، أو لم يقبلْ غيرَ لبنها، وإن رغبتِ الأُمُّ في إرضاع ولدها فهي أولى به من غيرها، لكمال شفقتها عليه.

﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ أي: هذا الحكمُ لمَن أراد إتمام الرضاعة.

وهو يدلّ على أن أقصى مدة الإرضاع حولان، وأنّه يجوزُ الفطام قبل تمام الحولين، والتحديد لقطع التنازع بين الزوجين، فلا يجبُ على الوالد إعطاءُ أُجرة الرضاع لأكثر من حولين. وأفادت الآيةُ أنَّ الرضاع المحرِّم للنكاح هو الرضاع في السنتين الأوليين من حياة الرضيع.

ثم قرّرت الآية مسؤولية الوالد في الإنفاق على الأسرة:

﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ وهو الوالد، وإنما قيل: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ دون: الوالد، ليعلم أنَّ الوالدات إنما يلدن لهم، إذ الأولادُ للآباءِ، والنسبُ إليهم لا إليهنّ[١].

﴿رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: عليهم نفقةُ الوالداتِ من طعامٍ وكسوةٍ وسكنى حسب ما هو متعارف عليه في المجتمع، من غير إسرافٍ ولا تقتيرٍ.

وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد، لضعفه وعجزه، وسمّاه سبحانه للأم، لأنَّ الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع[٢]، قال تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطّلَاق: ٦].

وفي الحديث النبوي الشريف: أن هند بنت عتبة قالت للنبيِّ ﷺ: إنَّ أبا

(١) تفسير النسفي: ١/ ٣٥٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٣/ ١٦٣.

سفيان رَجُلٌ شحيحٌ، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلمُ فقال: «**خذي ما يكفيك وولدَكِ بالمعروفِ**» [رواه البخاري (٥٣٦٤)].

ثم بيّن تعالى أنّ تكليف الوالد بالنفقة منوط بوسْعِهِ وإمكاناته المادية المتوفرة له فقال:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلّا ما تتّسع له مقدرتها، كما قال في موضع آخر: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

والضرر في الإسلام ممنوعٌ، وتجبُ إزالته، ولهذا نهى تعالى في حال حدوث نزاع بين الزوجين حول الولد، أن يسعى كلٌّ منهما للإضرار بالآخر بسبب الولد، فقال:

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ قرئ بالفتح، ويراد به النهي، وبالضم، ويراد به الإخبار، ومعناه النهي.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وإضافةُ الولدِ إليها تارةً وإليه أخرى استعطافٌ لهما عليه، وتنبيه على أنه حقيق بأن يتّفقا على استصلاحه والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يضرّا به، أو أن يتضارّا بسببه[(١)].

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: وعلى وارث الولد عند انعدام الوالد أن ينفق على الولد المحتاج الذي لا مال له، **إذ الغرم بالغنم في الشريعة الإسلامية**.

فكما قررت له الشريعة حقّاً في ميراثه في حال وفاته، أوجبت عليه في مقابل ذلك أن ينفق عليه إذا كان محتاجاً، وهذه قاعدة مهمة في نظام التكافل الاجتماعي، قرّرتها الشريعة الإسلامية في النفقة بين الأقارب، ولو أحسن المسلمون تطبيقها لتمكنوا من معالجة ظاهرة الفقر في قطاع كبير من المجتمع، فمن النادر أن تجدَ فقيراً لا وارثَ له يستطيع كفالته والإنفاق عليه.

ولا ينبغي أن يستبدّ أحدُ الوالدين دون الآخر برعاية الولد، فمصلحة الولد

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٣٥٥.

يجب أن تكونَ في معزل عن المنازعات القائمة بينهما، ولا شك أن الوالدين يتفقان على ما هو الأصلح لولدهما، ولا يتنازعان في ذلك، فعليهما أن يتشاورا في كل ما يتعلق بمصلحة ولدهما، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: إن أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين، واجتمع رأيهما على ذلك بعد التشاور.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرج عليهما في ذلك، لأن تشاورهما واتفاقهما لابدّ أن يكون في مصلحة ولدهما.

فالفصال والفصل: الفطام، وأصله التفريق، فهو تفريق بين الرضيع والثدي.

وكذلك إذا أرادت الأُمُّ المطلقةُ أن تتزوّجَ، أو تعذّر عليها إرضاع ولدها لانقطاع لبنها، فلا حرجَ على الآباء أن يطلبوا لأولادهم مُرضِعات غير أُمهاتهم:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا سلّم الآباءُ إلى المراضع أُجرةَ الرضاع بالوجه المتعارف المستحسن، ولا شك أن تعجيلَ الأجرةِ للمُرضِعِ أحسنُ للطفل، إذ يجعلها أكثر عناية به واهتماماً بمصلحته.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتزام أحكام شريعته.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يراكم ويحصي عليكم أعمالكم.

هكذا حفظت الشريعة الإسلامية حقوق جميع أفراد الأسرة، وخاصة الضعفاء فيها، وهم الأطفال الرُضّع، بأسلوب حكيم متوازن، لا ميل فيه لطرف على حساب طرف آخر، مما يدلّ على كمالها وإنسانيتها، وأنها حقّاً شريعة الحكيم العليم والبرّ الرحيم.

- **عدّة الوفاة:**

وكما شرعت الآيات عدّة للمطلّقات، شرعت أيضاً عدّة للمتوفى عنهنّ أزواجهنّ، فالزواج نعمة كبيرة، وموتُ الزوج لا شكَّ مصيبةٌ كبيرة بالنسبة

للزوجة، وليس من المناسب أن تتزوّج مباشرةً بعد وفاة زوجها، بل عليها أن تتربّص مدّة العدّة، وتُظهِرَ الأسف على فَقْد زوجها، وتترك التزيّنَ والتطيّبَ، وهو الحداد المشروع.

ففي الحديث النبوي الشريف: عن **أُم عطيّة**: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا تَحِدّ المرأةُ على مَيْتٍ فوقَ ثلاثٍ؛ إلّا على زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعَشْراً**» [رواه مسلم (٩٣٨)].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن بأنفسهنّ في العدّة.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: أربعة أشهر وعشرَ ليالٍ من وفاة الزوج.

وهو خبرٌ في معنى الأمر، يدلّ على الوجوب، كما مرّ في عدّة الطلاق: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت مدة العدّة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من الأمور التي كانت محرّمة عليهنّ في العدّة، كالتزيّن والخروج من المنزل الذي كانت تعتدّ فيه، والخطبة والزواج.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالوجه المشروع، الذي لا ينكره الشرع.

أما إذا فعلن ما يخالِفُ الشرع فعلى أولياء النساءِ أو أولياء الأمر أن يمنعوهنّ من ذلك، ولهذا وجّهت الآية الخطاب لهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم حقيقة وكُنْه أعمالكم، لا يخفى عليه خافية، فاحذروا مخالفة أمره.

وكما لا يجوز للمرأة المعتدّة أن تتزوج، لا يجوز أن تُخطَب إلّا بالتلويح والتعريض دون التصريح:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا حرجَ عليكم في التلويح للنساء المعتدّات برغبتكم في الخطبة من غير تصريح.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: يقول: إنّي أُريدُ التزويجَ، ولوددتُ أنّه ييسّر لي امرأة صالحة. وقال القاسم بن محمد: يقول: إنَّكِ عليَّ كريمةٌ، وإني فيكِ لراغبٌ، وإن الله لسائقٌ إليكِ خيراً، أو نحو هذا .[رواه البخاري (٥١٢٤)].

وهذا يدلّ على أنّ الخطبةَ التي هي مقدمة الزواج غيرُ جائزةٍ شرعاً في أثناء عدّة المتوفّى عنها زوجها.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾ أي: ولا جُناح عليكم إذا أضمرتم في أنفسكم رغبتكم في الزواج.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: بقلوبكم، لأنّ شهوة النفس والتمنّي لا يخلو عنها أحد، ودفعُ مثل هذه الخواطر شاقٌّ على النفسِ، ولهذا أسقطه الله عنهم، إذ الشريعةُ الإسلامية شريعةُ رحمةٍ وسماحةٍ ويُسْرٍ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ فيما يُستحيا من ذكره من الكلام المتعلّق بالجماع، فقد يعمد بعضُ الرجال إلى الحديث عن فحولتهم وقوّتهم في الجماع في مثل هذه الأحوال، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ أي: واعدوهنّ بقولٍ معروفٍ لا فُحْشَ فيه ولا يُسْتحيا منه في المجاهرة.

ثم حذّرتهم الآية من إبرام عقد النكاح قبل انتهاء العدّة، فهو في هذه الحالة عقد باطل شرعاً:

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: لا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة المفروضة. وسُمّيت العدّة كتاباً لأنها مفروضة، أو لأنها فُرِضَت بالكتاب، وهو القرآن الكريم.

أو: لا تقصدوا إلى إبرام العقد بجدٍّ وعزيمة قبل انتهاء العدّة، ففي هذا المعنى مبالغةٌ في النهي عن عقد النكاح.

وهو يتّفق مع قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على فعل ما لا يجوز.

﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ أي: فاحذروا مخالفته، ولا تعزموا على فعل الحرام.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر للتائبين، ولا يعاجل المذنبين بالعقوبة، لكي يتوبوا ويرجعوا عمّا عزموا عليه.

- **الطلاق قبل الدخول:**

مرّ معنا أنَّ الطلاقَ أمرٌ مكروه، ما شُرِع إلّا للضرورة، وأنَّ الأصلَ فيه الحَظْرُ؛ لحرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأُسرة واستمرارها، لكن هذا الحَظْرَ يزولُ إذا لم يكتمل بناءُ الأُسرة، وكانت لا تزال في أول مراحل نشوئها.

قال القرطبي رَحِمَهُ الله: «لما نهى رسولُ الله ﷺ عن التزوّج لمعنى التذوّق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوّج لطلبِ العصمة، والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحبة، وقع في نفوس المؤمنين أنَّ مَن طلّق قبلَ البناءِ فقد واقعَ جزءاً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك، إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن»[١]:

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٩٧.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: لا مؤاخذةَ عليكم إذا طلّقتم النساء قبل أن تمسّوهنّ، أي: تدخلوا بهنّ، وتجامعوهنّ.

فالطلاقُ بعدَ العقدِ وقبل الدخول جائزٌ، فقد يبدو للرجل أمرٌ بعد العقد يحمله على التراجع عنه، والتراجع في مثل هذه الحالة أفضلُ، والضررُ فيه يسيرٌ، يلحق المرأة أكثر من الرجل، فقد تُصاب المرأة بشيءٍ من الإحباط وخيبة الأمل عندما تطلّقُ بعد العقدِ عليها، ولهذا شرع الله تعالى لها أن تأخذَ نصفَ المهر المسمّى في العقد، كما سيأتي في الآية التالية [٢٣٧].

وفي هذه الآية بيّن تعالى حكم المطلّقات قبل الدخول، ولم يسمَّ لهنّ المهر، فقال:

﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾ أي: ولم تفرضوا لهنّ مهراً.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: فالواجب عليكم في مثل هذه الحال أن تعطوهنّ المتعة، كتعويض مادّي عن الضرر المعنوي الذي يمكن أن يلحق بهنّ.

وتقدّر المتعة على حسب حال المطلّق:

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: على الذي له سعة وغنى، مقداره الذي يناسبه.

﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي: وعلى المقلّ الضيّق الحال، المقدار الذي يناسبه.

﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ﴾ أي: متّعوهنّ متاعاً بالوجه المستحسن المعروف بين الناس.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: واجباً لازماً على الذين يحسنون إلى النساء المطلّقات.

وأما المطلّقات قبل الدخول، اللواتي ذُكرتْ مهورهنّ، فلكلّ واحدةٍ نصفُ مهرها المسمّى:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: سمّيتم لهنّ مهراً. سمّاه (فريضةً) لأنه من الحقوق المفروضة على الرجل لزوجته.

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلهنّ نصف المهر المسمّى.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات، فيتنازلن عن حقّهنّ في نصف المهر.

﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: أو يترك الزوجُ حقّه في النصف الثاني من المهر، فيعطيها المهرَ كاملاً، وكانوا يعطون النساءَ المهر كاملاً عند العقد، فمَن طلّق قبل الدخول استحقَّ أن يستردَّ نصفَ ما أعطى للمرأةِ من المهرِ، فإذا لم يستردّه فقد عفا عنه.

وبعد أن بيّنت الآيةُ حقَّ كل واحد على الآخر، حثّتهم على العفو، رفعاً لهِمَمهم إلى المستوى المثالي الرفيع:

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ويبدو أنّه خطاب للأزواج، حثّاً لهم على التفضّل على المرأةِ، فهو أقرب للتقوى.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: ليتفضّل بعضُكم على بعض.

وهو خطاب للطرفين: الرجال والنساء، لكي تبقى العلاقة في المجتمع قائمةً على الإحسان ومكارم الأخلاق، فلا يبقى في القلوبِ نتيجةَ ما حدث من فرقة وطلاق أحقاد وضغائن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي المحسنين على إحسانهم، وأصحابَ الفضل على فضلهم.

- **الصلاة والطلاق:**

ويلاحِظُ المتدبّرُ لآياتِ الطلاق، أنها دأبت على تقوية الرقابة الوجدانية

الداخلية في نفوس المسلمين، فقد خُتِمَتْ أكثرُ الآيات بتذكير الإنسان برقابةِ اللهِ تعالى عليه، وأنه تعالى مطّلعٌ على دخيلةِ نفسِهِ، وما يكنّه في ضميرِه ووجدانِهِ:

كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الطلاق من الشؤون الخاصة، التي ينبغي أن تسوّى بين الرجل وزوجته على أضيق نطاق، كما أنّ شعورهما بمراقبة الله تعالى لهما، ووقوفهما عند أحكامه التي شرعها لهما، كفيلٌ أن يحلّ كلّ ما يواجههما من عقبات وصعوبات، وقد يؤدّي التزامهما بتقوى الله تعالى إلى عودة التفاهم والمحبة إليهما، واستمرار حياتهما الزوجية على أحسن الوجوه.

والمحافظةُ على الصلوات المفروضة، لها دورٌ كبير في تربية الوجدان الديني عند الزوجين، فهي تذكّرهما بالله تعالى وبمراقبته، وتجعلهما يقفان عند حدوده المشروعة، وتساعدهما على التغلّب على المشقّات والصعوبات التي تواجههما، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولهذا لا نعجب، ونحن نرى الآيات الكريمة في السورة، قبل أن تفرغَ من الحديث عن أحكام الطلاق، تلتفت بالخطاب إلى عامّة المؤمنين، تأمرهم بالمحافظة على الصلوات المفروضة، وتأمرهم أن يؤدّوها على قدر استطاعتهم، مهما كانت الظروف والأحوال التي يمرّون بها:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ المفروضة عموماً.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، وخصّت بالذكر لانفرادها بمزيدٍ من الفضل، وهي صلاة العصر عند جمهور العلماء.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **عليّ** ﷺ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ يومَ الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاةِ الوسطى صلاةِ العصرِ، ملأَ اللهُ بيوتَهم وقبورَهم ناراً**» ثم صلّاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء. [رواه البخاري (٤١١١) ومسلم (٦٢٨) واللفظ له].

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: طائعين كاملي الاستسلام لله تعالى، أو خاشعين، أو ذاكرين له تعالى، أو داعين، أو ساكتين.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **زيد بن أرقم** ﷺ، قال: كنّا نتكلّمُ في الصلاة، يكلِّمُ أحدُنا أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. [رواه البخاري (٤٥٣٤)].

وهذه الأقوال متقاربةٌ في المعنى، والمقصود أن يتحقّق المصلّي بالخضوع والخشوع لله تعالى، وهو من أعمالِ القلبِ، يظهر أثرُه في سكونِ الجوارحِ، حتى يمدّه الله تعالى في صلاته بمعونته ورحمته.

ففي الآية الكريمة وصفة ربّانية لعلاج المتاعب النفسية والعصبية، التي تواجه الإنسانَ في حياته، وخاصةً في حياته الأُسرية مع زوجته وأولاده، ولهذا أمر الله تعالى الرجل بأن يأمر أهله بالصلاة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وحثّ رسول الله ﷺ في عدد من الأحاديث، على أداء السُّنن في البيوت، لعمارتها بذكر الله، واستنزال الرحمات الإلٰهية فيها، فهي تشيعُ في البيت جوَّ الأُلفة والمودّة، وتبعده عن الأجواء المشحونة بالتوتر والبغضاء والأحقاد.

وممَّا يؤكد على أهمية الصلاةِ، أنها لا تسقطُ عن المكلّف بها في أيِّ حالٍ من الأحوال، فمهما كانت الظروفُ قاسيةً على المسلم وشديدةً عليه، فالواجبُ عليه أن يؤدّي الصلاةَ، إذ فيها ما يساعده على مواجهة الصعوبات، والتغلّب على المشقّات، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره.

﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلّوا راجلين على أرجلكم، أو راكبين على الدواب وغيرها من وسائل السفر.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: زالت أسباب الخوف.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: فصلّوا الصلاة كاملة.

﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: مثلما علّمكم وشرع لكم.

﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ وفيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم، ولولا هدايته وتعليمه إيّانا لم نعلم شيئاً، ولم نَصِلْ إلى معرفة شيء، فله الحمد على ذلك[(١)].

• تخفيف وتيسير:

وبعد هذه الالتفاتة السريعة إلى الصلاة وأهميتها، ووجوب المحافظة عليها، رجعت الآياتُ الكريمةُ إلى موضوع الطلاق، لتتوِّج خاتمته بآيتين كريمتين؛ تُظهِرُ الأولى منهما فضل الله تعالى بتيسير أحكام هذه الشريعة وتخفيفها، بنسخ حكم شرعي كانوا يعملون به في أول الأمر، بحكم أخفّ منه

(١) تفسير الخازن: ١/ ٣٧٠.

وأيسر، وتظهر الآية الثانية حرص الإسلام على إزالة الأحقاد والضغائن من القلوب، ومسح ما يمكن أن يعلق بها من رواسب نتيجة الطلاق؛ قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي: ليوصوا وصية لأزواجهم.

﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ أي: تُعطى للمرأة بها نفقة سنة، لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: وتبقى في بيتها سنة، تعتدّ عدّة الوفاة.

وكان ذلك مشروعاً في أول الأمر، إذ كانت عدّةُ الوفاةِ سنةً كاملةً، ثم خفّفها الله تعالى إلى أربعة أشهر وعشر، بقوله المتقدّم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ أي: إن لم يلتزمنَ بالعدّة، وخرجنَ من منزل الزوج المتوفّى.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي: في ترك العدّة.

﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي: مما لا ينكره الشرعُ.

وهذا يدلّ على أنَّ المرأةَ كانت مخيّرة، بين التزام العدّة والإحداد على الزوج المتوفّى وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ويلاحظ أنّ الآيةَ الناسخةَ قد ذُكرت قبل هذه الآية المنسوخة، مما يدلّ على أن ترتيب المصحف يختلف عن ترتيب نزوله، وأن ترتيب المصحف توقيفي، وأنّ الصحابة ﷺ عندما كتبوا المصحف، ما غيّروا شيئاً فيه أبداً. أكّد ذلك قول عبد الله بن الزبير لعثمان بن عفّان ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قد نسختْها الآيةُ الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أُغيِّرُ شيئاً عن مكانه. [رواه البخاري (٤٥٣٠)].

وفي رواية أخرى: قلتُ لعثمان: هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال: نسختْها الآية الأخرى، قلت: تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أغيِّرُ منها شيئاً عن مكانه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا السياقُ أولى من الذي قبله: و﴿أَوْ﴾ للتخيير لا للشك، وفي جواب عثمان هذا دليلٌ على أنَّ ترتيبَ الآي توقيفي... على أنّ من السلف مَن ذهب إلى أنها ليست منسوخةً، وإنّما خُصَّ من الحولِ بعضُه، وبقي البعض وصيّةً لها، إن شاءت أقامت، كما في الباب عن مجاهد، لكن الجمهور على خلافه»[1].

وجاءت الآيةُ الأخيرةُ في آيات الطلاق، تؤكد على تقديم المتعة إلى المطلّقات على وجه العموم، لإزالة ما يمكن أن يبقى في القلوب والنفوس من أحقاد وضغائن، قال تعالى:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

أي: حقّاً ثابتاً للمطلّقات على المتّقين المتمسكين بدين الله وأحكام شريعته. وبهذا ربطت الآيات أحكام الطلاق بالتقوى، كما فعلت في جميع ما سبق من التشريعات.

ثم ختم الله تعالى الحديث عن أحكام الطلاق بقوله الكريم:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: وهكذا يبيّن الله لكم أيّها المؤمنون، أحكام دينه وشرعه، المؤيّدة بالدلائل والبراهين.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٩٤.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما فيها من حكم وأحكام، تجعلكم تتمسكون بها، مستسلمين مذعنين.

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كذلك... كهذا البيان الذي سلف في هذه الأحكام، وهو بيان محكمٌ دقيق موحٍ مؤثر، كذلك يبيّن الله لكم آياته عسى أن تقودكم إلى التعقّل والتدبّر فيها، وفي الحكمة الكامنة وراءها، وفي الرحمة المتمثلة في ثناياها، وفي النعمة التي تتجلّى فيها، نعمة التيسير والسماحة مع الحسم والصرامة، ونعمة السلام الذي يفيضُ منها على الحياة، ولو تعقّل الناسُ وتدبروا هذا المنهج الإلٰهي لكان له معهم شأن، هو شأن الطاعة والاستسلام والرضا والقبول، والسلام الفائض في الأرواح والعقول»[١].



(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٥٩.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

أخبار وقصص من التاريخ

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ
أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ
لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ
عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ
يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ
فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ
إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ
ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ
كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا
بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ
ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم
مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم
مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ
إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ
إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ
وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ
أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى
كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

• **تَمْهيد:**

توقفت الآيات مرة ثانية على طريق التشريع وبيان الأحكام، التزاماً بأسلوبها التربوي الرفيع، في عرض الأحكام التكليفية، الذي سبقت الإشارة إليه، وهو تفريق الأحكام ونشرها بين آيات السورة، بإحكام واتّساق وإتقان، إبرازاً ليُسْر الشريعة الإسلامية وسماحتها في ذات الأحكام، وفي أسلوب تشريعها وبيانها.

ولم تبتعد الآيات في أثناء توقفها عن محور السورة الأساس، وهو الإسلام لله تعالى، والاستسلام الكامل لأحكامه التشريعية والقدرية، وقد ركّزت هذه المرة على الأخبار والقصص التاريخية، لتؤكد صدق النبيّ ﷺ، وصحّة نبوّته ورسالته.

• **الفارّون من الموت:**

وكان أولُ خبر عرَضَتْه إخبارَها عن أُمة من الأمم السالفة، نزل الموت بديارهم، فخرجوا منها فراراً من الموت، وهم يظنّون أنّهم بخروجهم وفرارهم يتمكّنون من الإفلات من قدر الله تعالى، فهم أنموذج للناس الذين لا يستسلمون لأحكامه سبحانه وتعالى القدرية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو سؤال تعريف وتعجيب.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ويبدو أنّهم كانوا أكثر من عشرة

آلاف، إذ لا يقال: عشرة ألوف، ولا يقال: تسعة ألوف، وأفاد قوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ بيان كثرة عددهم، وأن خروجهم من ديارهم كان خروجاً جماعيّاً.

ولم تبيّن الآية جنسهم ومكان ديارهم، فعدم معرفة جنسهم ومكانهم وتاريخهم لا يؤثّر على مغزى الخبر وعظاته، يكفينا ما ذكرته الآية لنا، فلا نسعى ـ كما فعل أكثر المفسّرين ـ لمعرفة أمور لا فائدة من معرفتها.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، ويبدو أنّ وباءً مميتاً كالطاعون وقع بينهم، فخرجوا فراراً منه.

وقد يقول قائل: ألا ينبغي في مثل هذه الأحوال أن يأخذ الإنسان بأسباب السلامة والوقاية؟.

وأقول: نعم، الأخذ بأسباب السلامة والوقاية أمرٌ مشروع في الإسلام، وقد مرّ في هذه السورة الكريمة ما يدلّ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] فهي تفيدُ هذا الحكم نظراً لعموم لفظها. فإذا كان الإنسانُ خارجَ موطن الوباء والطاعون لا يقدم عليه، وأما إذا كان داخل موطنه وموضع انتشاره فلا يخرجُ منه، لأنه بخروجه يمكن أن يتسبب ـ بتقدير الله تعالى ـ في نقل أسبابه وحاملاته إلى أماكن أخرى، وهو ما نصّ عليه في الحديث النبوي الشريف: «**إذا سمعتم بالطاعونِ في أرضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها**» [رواه البخاري (٥٧٢٨)].

وأراد سبحانه أن يبيّن لهؤلاء الفارّين، أنهم لا يستطيعون الفرار من قدره، وأنه لابدّ لهم من الاستسلام والإذعان لقدره، كما يستسلمون لأحكام شريعته:

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا، لأن إرادته تعالى تامّة نافذة في ذرّات الموجودات كلها، ولن يغني حذرٌ من قدرٍ، وكان موتهم موتاً مؤقتاً للاعتبار والاتّعاظ، فما حانت بعدُ آجالهم التي تنتهي بها حياتهم الدنيوية.

﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ أي: ثم أعادهم سبحانه بقدرته إلى الحياة.

وقد مرّ معنا في السورة حدوث مثل ذلك في بني إسرائيل على عهد موسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة].

فالذين أماتهم الله هم الذين أحياهم، ولا يجوزُ صرفُ الضمير إلى غيرهم، كما حاول سيد قطب في قوله: «﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ كيف؟ هل بعثهم من موتٍ وردّ عليهم الحياةَ؟ هل خلفَ في ذريتهم خلفٌ تتمثّل فيه الحياة القوية، فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟ ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل، فلا ضرورة لأن نذهبَ وراءه في التأويل»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنه خلقهم، ويمدّهم بأسباب الوجود، فمنَّته تعالى بالإيجاد والإمداد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يكفرون ويجحدون، وهو الواقع المُشاهَد من أحوال الناس في جميع عصورهم وأجيالهم، وقد أكده تعالى في عدد من الآيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

كما أكدته مواقف الجحود والعناد التي عرضها تعالى في جزء كبير من آيات **سورة البقرة**، كما تقدم.

- **الحثّ على الثبات والاستبسال والبذل:**

وتتميماً للدرس التاريخي، واستكمالاً لما فيه من عبر ومواعظ، توجّهت الآياتُ بالخطاب إلى المسلمين، تحثّهم على القتال والجهاد في سبيل الله، ولنتذكّر أنهم كانوا عندَ نزول هذه الآيات في أوائل المرحلة المدنية، التي كُلّفوا فيها بالجهاد والقتال:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: واثبتوا ولا تفرّوا من الموت، فالموت بيده

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٦٤.

سبحانه، ولا فرار لأحد منه إذا حان أجَلُه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وروينا عن أمير الجيوش وسيف الله المسلول على أعدائه، خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدتُ كذا وكذا موقفاً، وما مِنْ عضوٍ من أعضائي إلّا وفيه رميةٌ أو طعنةٌ أو ضربةٌ، وها أنا ذا أموتُ على فراشي كما يموتُ البعير، فلا نامتْ أعينُ الجبناء»(١).

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالكم، ويعلم أحوالكم، في حال الثبات والاستبسال أو الفرار والهزيمة.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو طلبٌ بأسلوب الاستفهام، حثّهم سبحانه به على الإكثار من الطاعات والقُربات، ومنها الجهادُ في سبيله ببذل الأنفس والأموال، وأنزل سبحانه ذاته المقدسة منزلة المستقرِضِ، وهو الغنيُّ عنهم، مالك المُلك، خالقهم ورازقهم، تلطفاً بهم، وتشجيعاً لهم على الاستجابة لأمره تعالى والمبادرة إلى طاعته.

وهو أسلوب كريم يدلّ على رأفته جلّ وعلا بعباده، ولطفه بهم، وفضله العظيم وإحسانه الكبير عليهم، وهو كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقد جاء مثل هذا الأسلوب في السُّنَّة النبوية الشريفة، قال ﷺ: «**مَنْ تصدّق بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلّا الطيِّبَ ـ فإنّ اللهَ يتقبَّلُها بيمينِهِ، ثم يربِّيها لصاحِبِهِ كما يربِّي أَحَدُكُم فلوَّهُ حتى تكونَ مثلَ الجَبَلِ**» [رواه البخاري (١٤١٠)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٢٢.

فالواجبُ على الدّعاة أن يتفننوا بأساليب الدعوة، ولا يجمدوا على أسلوب واحد، وأن يتواضعوا للمدعوّين، ويتلطفوا بهم.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ أي: يضاعف له جزاءه أضعافاً كثيرة، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يضيق الرزق على مَن يشاء من عباده، ويوسّعه على مَن يشاء، حسبما اقتضت حكمته، وتعلّقت به إرادته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٣٠].

ففي الآية حثٌّ على المبادرة إلى الطاعات في حال السعة والرخاء والقوة والصحة، قبل أن يبدّل الله حالهم إلى الضيق والضعف والعجز والقلّة.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدّمتم من أعمال.

• قصة طالوت وداود وجالوت:

ثم أوردت الآياتُ قصّةً من تاريخ بني إسرائيل، غنيةً بالعِظات والعِبَر والدروس، المؤكدة للأفكار الأساس في السورة، ابتدأها الله تعالى كما ابتدأ الخبر التاريخي السابق، بأسلوب الاستفهام، المفيد للتعريف والتعجيب:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ أي: الأشراف والوجهاء الذين يملؤون العيون والنفوس بمظهرهم وشارتهم.

﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ هكذا كشفت الآيات هنا عن أبطال القصة، وعيّنت زمانهم، فهم من بني إسرائيل الذين عاشوا بعد عهد موسى عليه السلام.

﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ ومن المعلوم أن النبوّة لم تنقطع عن بني إسرائيل حتى زمن عيسى عليه السلام.

﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عيّن لنا ملكاً ينظّم صفوفنا، ويقودنا إلى القتال والجهاد في سبيل الله.

ويدلّ كلامهم على أنهم كانوا في حال ضعفٍ، وتشتّتٍ، وتمزّقٍ، وأنّ عدوّهم قد تغلب عليهم، وطردهم من ديارهم، وأسر أبناءهم، وذلك أنهم بعد فترة التيه الذي ضربه الله عليهم في صحراء سيناء، وموت موسى وهارون عليهما السلام، تمكّنوا من الدخول إلى الأرض المقدسة في فلسطين، فأفسدوا بعد ذلك فيها، وانتشرت بينهم المعاصي، وهجروا شريعتهم، ويبدو أنها الإفسادة الأولى التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٠](١).

فسلّط الله عليهم أعداءهم، فقاتلوهم، وهزموهم شرَّ هزيمة، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وأسروا كثيراً من أبنائهم ونسائهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ولما طال عليهم العهد في التشتّت والضعف، توجهوا إلى نبيٍّ من أنبيائهم بهذا الطلب، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بأكثر من ألف سنة.

﴿قَالَ﴾ أي: نبيُّهم.

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ أي: لعلكم إن فُرِضَ عليكم القتال مع ذلك المَلِكَ أن تتقاعسوا، وتجبنوا عن القتال.

وهذا يدلّ على أن نبيّهم كان يعلم حقيقتهم، فالجُبْنُ والتخاذُلُ يغلِبُ عليهم

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

بسبب بُعدهم عن طاعة ربهم، وهجرهم لشريعته، كما يدلّ على أنَّ الجهادَ لا يجب دون حاكم يتولّى أمر المسلمين، ويقودهم إلى الجهاد.

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ فالقتال لدفع الظلم وردّ العدوان قتالٌ في سبيل الله، شرعه تعالى، وأمر به، كما مرّ في قوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وصدق ظنّ نبيّهم بهم:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ وأُجيبوا إلى ما طلبوا، وعيّن لهم نبيّهم بوحي من الله تعالى ملكاً عليهم، أمرهم بالقتال وقادهم إليه.

﴿تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ أي: أعرضوا عن تنفيذ أمره تعالى، إلّا طائفة قليلة منهم، كما سيأتي.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يُعرِضون عن تنفيذ أمره، ويظلمون أنفسهم بمعصيته.

ودلّت الآيات على كمال علمه تعالى، وأنه سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، عَلِمَ تعالى أن أكثرهم لن ينقاد لأمره، ولن يستسلم لشرعه، ومع ذلك استجاب تعالى لطلبهم، وكلّفهم بالجهاد، وهيّأ لهم أسبابه، ابتلاءً لهم، وإظهاراً لفضل الفئة القليلة الصالحة المستسلمة لأمره الشرعي وحكمه القدري جلّ وعلا، كما سيأتي.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾.

فلم يرضوا بحكم الله تعالى، واعترضوا منكرين:

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ فطالوت كان من سبطٍ ما كانت ملوكُ بني إسرائيل منه، إذ كان المُلْكُ بينهم بالتوارث، وكان أيضاً فقيراً مُقِلّاً، وللمال في المجتمع الإسرائيلي المكانةُ الكبرى، ولهذا أكدوا اعتراضهم بقولهم:

﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

فاضطر نبيّهم أن يذكّرهم بأنّ اعتراضهم لا قيمةَ له عند الله تعالى، وأنّ الشروط الشرعية للمُلك متوفرة فيه، وهي قوة العلم بأحكامه الشرعية، وقوّة الجسم التي يحتاج إليها لحمل أعباء الحكم:

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره عليكم، وخصّه بالملك دونكم، فالحكم ما حكم سبحانه، والشرع ما شرع، لا ما تحكمون وتشرعون.

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: ومَنَّ الله تعالى عليه بسَعةِ العلم وقوة الجسم.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ فالأمر منوط بمشيئته تعالى وأمره.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بأحوال خلقه، وما يصلح لهم.

- **السكينة والبركة بآثار الأنبياء:**

ويبدو أن القوم ظلّوا على عنادهم، ولم يذعنوا لحكم الله وشرعه، فاضطر نبيّهم أن يسأل الله تعالى أن يُجري على يديه معجزة محسوسة، تجعلهم ينقادون لحكمه، ويستسلمون لشرعه، فاستجاب لهم تعالى، وحدثت المعجزة:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: إن العلامة التي تدلّ على صحة

ملك طالوت.

﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو صندوق كانوا يضعون فيه قطعاً من ألواح التوراة التي أنزلها الله على موسى، وظلّوا يتوارثونها ويحافظون عليها حتى انتزعها أعداؤهم منهم عندما تغلبوا عليهم، وكانت قلوبهم تسكن وتطمئن، ويستبشرون بالنصر عندما يكون الصندوق معهم، ولهذا قال تعالى في وصفه:

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي: وفيه أيضاً بعض الأشياء المتوارثة من آثار النبيَّيْنِ الكريمينِ موسى وهارون.

وقد ذكر كثير من المفسّرين أنه كان يوجد في الصندوق عصا موسى وثيابه وعمامة هارون، ولاشك أنّ آثار الأنبياء التي باشروها بأنفسهم مباركةٌ، وقد صحّ أنَّ الصحابة ﷺ كانوا يتبرّكون بآثار النبي ﷺ، كوَضوئه، وبصاقه، وشعره، وقدَحه الذي كان يشرب فيه، والأحاديث النبوية الدالّةُ على هذا كثيرةٌ وصحيحةٌ، وقد أخبرنا تعالى في قصة يوسف عن شأن قميصه، وكيف ردّ تعالى بصر يعقوب عندما أُلقي القميصُ على وجهه: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٣][(١)].

﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تأتيكم به الملائكةُ حاملين له، وهي المعجزة الدالّة على صحة مُلكِ طالوت، وصدق نبيّهم فيما أخبرهم به.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وعندما رأوا المعجزة، وجاءهم التابوت، انقادوا لحكم الله، وأذعنوا لأمره، وأقرّوا بالملك لطالوت، وخرجوا للجهاد معه.

- **الاختبار:**

وبعد أن خرجوا للقتال أمر الله تعالى طالوت ـ بواسطة النبيّ الذي كان معه ـ أن يختبر جنوده ليعرف مدى طاعتهم له وتمسكهم بأوامره:

---

(١) انظر: تفسير سورة يوسف (العلم والوحي والنبوّة في سورة يوسف)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج بالجنود، وتوجّه إلى قتال عدوّه، وكان خروجهم في وقت حَرٍّ وعطش شديدين.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي: قال طالوت لهم: إنّ الله مُختبِركم بنهر ستمرّون عليه.

ويمكن أن يكون هذا النهرُ نهر الشريعة الذي يجري بين الأردن وفلسطين.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من جنودي، ولن يقاتلَ معي، فالذي لا يصبر على العطش لا يصبرُ في أرض المعركة، ولا يثبت في وجه العدوّ.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: مَن لم يشرب منه فإنّه من جنودي، وسيقاتل معي.

﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: إلا مَنْ شربَ منه مقداراً قليلاً ملء كفه.

وذكروا أنه تعالى بارك للذين التزموا الأمر بهذا الماء القليل فكفاهم وأرواهم، فالقليل الطيّبُ الحلالُ خيرٌ من الكثيرِ الحرامِ.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: سقط أكثرهم في الاختبار، وشربوا من ماء النهر، وخالفوا الأمر، إلّا طائفة قليلة منهم، ذكرت روايات المفسّرين أنَّ عددهم كان كعدد الصحابة في غزوة بدر، ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً.

وبهذه الطائفة القليلة عبر طالوتُ النهرَ إلى العدو الذي حشد قوته وعُدده في الجهة الثانية من النهر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: فلما اجتاز طالوت النهر هو

والفئة القليلة المؤمنة، الذين أطاعوه، ولم يخالفوا أمره، ورأوا قوّةَ عدوهم، وكثرة جنوده، وقوة سلاحه وعتاده:

﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ أي: قال بعضُهم لبعض: لا قدرةَ ولا قوةَ لنا اليوم على مقاتلة جالوت وجنوده.

وظهر بهذا فضلُ أصحاب النبيّ ﷺ عندما رأوا جيوشَ الأحزاب قادمةً عليهم، قالوا ما أخْبرَه ﷺ عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أي: قال الصفوة الممتازة منهم، الذين كانوا يوقنون بالشهادة، وأنه تعالى سيُكرمهم بلقائه إن قتلوا في سبيله:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بتأييد الله تعالى ونصره لها، فالنصرُ لا يكونُ بكثرة العَدد والعُدد، وإنّما النصر من الله تعالى.

وهذا لا يعني ترك الاستعداد وحشد القوى والطاقات لقتال العدو، فإنّ ذلك مطلوبٌ من المسلمين شرعاً، بصريح قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالواجب على المسلمين أن يعدّوا أقصى ما يستطيعون من أسباب القوّة المادّية، قبل التصدّي لقتال أعدائهم، وعليهم في الوقت نفسه أن يعتمدوا على الله تعالى ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر، ويصبروا عند مواجهة عدوّهم:

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

- **المعركة:**

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وتمّت المواجهة بين الفئتين، الفئة المؤمنة

القليلة بقيادة طالوت، والفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت، توجّه المؤمنون إلى الله تعالى يستغيثون به ويستنصرونه:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: اصْببْ الصبر في قلوبنا، حتى لا يكون فينا جزع أو خوف.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في أرض المعركة، فلا يكون منّا فرار وهزيمة.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فاستجاب الله دعاءهم، فالدعاء عند مواجهة العدو في الميدان دعاءٌ مستجابٌ:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وأمره تعالى.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ وكان داودُ حينئذٍ جنديّاً من جنودِ الفئةِ المؤمنةِ مع طالوت، فأكرمه الله تعالى بعد ذلك بكرامة النبوّة والملك.

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: المُلكَ على بني إسرائيل والنبوّة فيهم، وأعزّ الله بني إسرائيل في عهده وعهد ولده من بعدِه سليمان عليه السلام، وعلوا علوّاً كبيراً.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: علّمه سبحانه من العلوم النافعة المفيدة، والتي أخبر عنها تعالى بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فكان عليه السلام يصنعُ الدروعَ، ويأكلُ من عملِ يده، ويتعفّفُ عن أموال الأمة التي ملّكه الله تعالى عليها.

ثم بيّن سبحانه الحكمة من تشريع الجهاد وتكليف المؤمنين بالقتال فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنَّ الله يدفعُ بعضَ الناس ببعضٍ، ولهذا أمر سبحانه المؤمنين بقتال الكافرين.

﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لانتشر الفسادُ في الأرض، وغلب عليها المفسدون، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالله سبحانه يدفع المفسدين بالصالحين، والكافرين بالمؤمنين، فالجهاد ضروري لدرء الفساد وقمع المفسدين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بتكليف المؤمنين بالجهاد وتأييدهم ونصرهم.

وإن انتصار المؤمنين يؤدّي إلى تطبيق شريعة الله تعالى في الأرض، وينشر العدلَ والسلامَ في ربوعها، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهذا يؤدّي إلى نزول الرحمات، وكثرة الخيرات والبركات، والسعَة والرخاء، وكل ذلك من فضله ﷻ على العالمين.

ولا يخفى الاتّساقُ والاحتباكُ بين هذه القصة، وبين آيات الجهاد المذكورة في السورة في أكثر من موضع، وانسجامها أيضاً مع مرحلة ما بعد الهجرة، التي أُنزلت فيها آياتُ السورة، إذ كان المؤمنون فئة قليلة مكلّفة بمواجهة قوى الكفر والشرك، المسيطرة على جميع الأقطار في العالم، فضلاً عن إبراز آيات القصة لفضيلة الاستسلام لله تعالى، والرضا بحكمه وشرعه.

وفي القصة أيضاً دليل على أنّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، مُنزل على النبي ﷺ؛ فأنّى له ﷺ ـ وهو الأمّيُّ الذي عاش في أُمة أُميّة ـ أن يعرف هذه

الأخبار السالفة، ويطّلع على هذه الأحداث التاريخية القديمة، لولا إعلام الله تعالى له بها، وإخباره عنها.

ولهذا اتجهت الآيات تخاطب النبيّ ﷺ بقوله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الثابت المطابق للواقع، الذي لا شكَّ فيه.

فهذه الآياتُ لا يعلمُها إلّا نبيٌّ مُرسَلٌ، ولهذا قال تعالى بعدها مقرّراً ومؤكّداً:

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

- **التفاضل بين الأنبياء والمرسلين:**

لقد أكرمك الله بصفتي النبوّة والرسالة، كما أكرم بهما سائر المرسلين، ولكنّك تمتازُ عليهم بفضائل وخصائص خصّك الحقُّ بها، فالمرسلون متفاضلون فيها بينهم، وهو ما تابعت الآيات تقريره وبيانه:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بالخصائص والمناقب المتباينة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

ثم بيّن تعالى بعض أوجه التفاضل بينهم فقال:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلّمه الله كموسى عليه السلام.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: ومنهم مَن رفعه تعالى على سائر الأنبياء

بدرجات. ولا شك أنه سيّدنا محمد ﷺ، وأبهم لتفخيم شأنه، كأنّه العَلَم المتعيّن لهذا الوصف، المستغني عن التعيين(١).

قال العلّامة أبو السعود رحمه الله: «والظاهرُ أنّه رسول الله ﷺ، كما ينبئ عنه الإخبار بكونه ﷺ منهم، فإن ذلك في قوة ﴿بَعْضَهُمْ﴾، فإنه قد خصّ بالدعوة العامّة، والحجج الجمّة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور»(٢).

قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياءِ إلّا قد أُعطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ آمنَ عليه البشَرُ، وإنّما كانَ الذي أُوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة**» [رواه مسلم (١٥٢)].

وقال ﷺ أيضاً: «**فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعطيتُ جوامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائِمُ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طهوراً ومَسْجِداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافّةً، وخُتِمَ بي النَّبيُّون**» [رواه مسلم (٥٢٣)].

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغيرهما، مما سبق ذكره.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

• سبب النزاع والاختلاف بين الناس:

فالأنبياء والمرسلون عليهم السلام متفاضلون بالخصائص والمناقب، ولكنّهم متّفقون بالدعوة الواحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته وحده، والإسلام دينُهم جميعاً، كما تقدّم عند قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

---

(١) تفسير البيضاوي والنسفي والخازن: ١/ ٣٩٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ١/ ٢٤٦.

والاختلافُ والاقتتالُ الذي حدث بين الناس، منشؤه من الناس أنفسهم، لا من التفاضل بين الأنبياء ﷺ، وهذا ما بيّنه تعالى بقوله الكريم:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرّسل من الأمم المختلفة.

لأنه تعالى قادر على هداية جميع الناس، وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: ٩٩].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ التي أيّد الله بها المرسلين، والتي تدلّ الناس على الحق وتبيّنه لهم.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: ولكنَّ الناسَ اختلفوا، لأنّه تعالى جعل لهم اختياراً وإرادةً وكسباً، فالاختلاف والتنازعُ نابعٌ من الناس، من اختيارهم وكسبهم:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ أي: صدّقَ بدعوةِ المرسلين، وأسلم لله تعالى.

﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فأعرض عن دعوة المرسلين وجحد وعاند.

وكلّ ذلك بمشيئته تعالى وإرادته، فهو الذي أعطى الإنسانَ المشيئةَ والإرادةَ والاختيار، ولهذا عادتِ الآيةُ لتؤكّد هذه الحقيقة، وهي تمام مشيئته سبحانه، وأنه لا يحدث شيء في ملكه إلّا بإرادته جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وهو العليم الحكيم القادر القاهر، فالحوادث كلها بمشيئته سبحانه، خيراً كانت أو شرّاً، إيماناً أو كفراً، والنزاع والاختلاف بين الناس نابع من إرادتهم واختيارهم، كما سبق به علمه، وتعلّقت به إرادته جَلَّلَهُ.

فلا مسؤولية من دون تكليف، ولا تكليف من دون اختيار وإرادة، وأقرب مثال على ذلك فريضة الزكاة، فلا يُسأل عنها إلّا مَن كُلِّف بها، ولا تكليف من دون مال، والمال في الحقيقة من الله تعالى، ولعلّ هذا هو سبب قوله تعالى بعد ذلك:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ أي: أنفقوا ما أوجبَ عليكم إنفاقه مما أعطاكم.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ هو يوم الحساب والمسؤولية.

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا تقدرون فيه على الإنفاق وتدارك ما فاتكم، لأنّه يومُ الحساب والجزاء، لا يوم العمل والتكليف.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي: ولا مودّة فيه ولا صداقة، فالمسؤولية شخصيةٌ، ولا يتحملُ أحدٌ وزر غيره.

﴿وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ إلّا لمَن أذن له الرحمن ورضيَ له قولاً.

فلا تتّكلوا على غيركم، وأدوا ما كلّفكم به ربّكم، واحذروا أن تظلموا أنفسكم بمعصيته.

﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ العريقون بالظلم، المستحقّون لهذا الوصف، فلا تكونوا مثلهم، تجحدون فضله عليكم، وتستعملون نعمته في غير ما كلّفكم به.

- **آية الكرسي:**

وجاءت بعد ذلك آية الكرسي، بما فيها من صفات جلاله تعالى وكماله، تؤكد هذه الحقيقة، وهي كمال مشيئته تعالى وتمامها، ونفاذها في كل المكوّنات، وقد وُصِفَتْ هذه الآية بأنها أعظم آية في القرآن الكريم، لما فيها من أسمائه تعالى الحسنى وصفاته العليا، تقدّستْ ذاتُه، وتباركتْ أسماؤه، وتسامتْ صفاتُه، جَلَّ جَلَالُهُ.

ففي الحديث النبوي الشريف: عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آيةٍ من كتابِ الله مَعَكَ أعظمُ؟**» قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**يا أبا المنذرِ، أتدري أي آيةٍ من كتاب اللهِ معكَ أعظمُ؟**»

قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾. قال: فضرب على صدري وقال: «**واللهِ ليهنكَ العلمُ أبا المنذر**» [رواه مسلم (٨١٠)].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الله وحده المستحقّ للعبادة، ولا يستحقها غيره سبحانه.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الذي لا يموت ولا يزول ولا يفنى، الباقي أزلاً وأبداً.

﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ القائمُ على الدوام بتدبير خلقه، والقائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، والقائمُ بذاته، فلا يستمدُّ قيامه من غيره سبحانه.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ أي: نعاس، وهو ما يتقدّمُ النومَ من فتور.

﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ فهو سبحانه منزّه عن كلِّ صفاتِ النقص.

والنوم من صفات النقص، يدلُّ على العجز والضعف والتحوّل والتغيّر، يتنزّه الحق سبحانه عن كل ذلك.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ بخمسِ كلماتٍ، فقال: «**إنّ اللهَ عز وجل لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفِضُ القِسْطَ ويرفَعُه، يُرْفَعُ إليهِ عملُ الليلِ قبلَ عَمَلِ النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قبلَ عَمَلِ الليلِ، حِجَابُهُ النورُ، لو كشفَهُ لأحرقتْ سبحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ**» [رواه مسلم (١٧٩)].

قوله: «**حجابه النور**» المراد بالحجاب هنا المانع من رؤيته سبحانه.

وقوله: «**من خلقه**» أي: جميع المخلوقات، لأن بصره سبحانه محيطٌ بهم.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ملكاً وتدبيراً.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ أي: لا أحدَ يشفعُ عنده يوم القيامة إلّا بإذنه، وهو بيانٌ لكمال عزّته وكبريائه جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي: يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وهو بيانٌ لكمال علمه الذي وَسِعَ كل شيء.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أي: لا يحيطون بشيءٍ من معلوماته، فالعلمُ هنا بمعنى المعلوم، وهذا كقول الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين نقر العصفورُ في البحر: ما نقصَ علمي وعلمك من علم الله إلّا كما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر. فهذا وما شاكله راجعٌ إلى المعلومات، لأنّ علمَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الذي هو صفة ذاته، لا يتبعَّض[1].

﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ أن يطلعهم عليه، فكل العلوم التي تعلّمها الأنبياء والرّسل والملائكة والإنس والجنّ بمشيئته سبحانه وتيسيره: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ أي: علمُه، ومنه الكرّاسة، لتضمنها العلم[2]، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ من رواية جعفر بن أبي المغيرة ـ: **كرسيُّه**: علمُه. ورجحه الطبري[3].

أو هو جسمٌ غيرُ العرش، محيط بالسماوات والأرض، دلّ عليه ما أخرجه **ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه**: عن **أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّه سأل النبيَّ ﷺ عن الكرسيِّ فقال: «**يا أبا ذرٍّ ما السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ عندَ الكرسيِّ إلّا**

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ٢٧٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٣٩٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٣/ ٢٧٦.

كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على تلكَ الحلقةِ»[١].

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: ولا يثقله سبحانه حفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ أي: المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال، وعن صفات النقص والعجز أو علو يليق بذاته ﷻ.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عزّه وجلاله، فهو أعلى من كلِّ شيءٍ، وأعظم من كل شيء، ﷻ.

هذه الآية مشتملة على أُمهات المسائل الإلٰهية، فإنّها دالّة على أنه ﷻ موجود، واحد في الألوهية، متّصفٌ بالحياة، واجبُ الوجودِ لذاته، موجِدٌ لغيره، إذ القيّوم هو القائِمُ بنفسِه المقيمُ لغيرِه، منزَّهٌ عن التحيّز والحلول، مبرَّأٌ عن التغيّر والفتور، لا يناسِبُ الأشباح، ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالكُ الملك والملكوت، ومُبدِعُ الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفعُ عنده إلّا مَن أذِنَ له، عالم الأشياء كلها، واسعُ الملك والقدرة، لا يشغله شأنٌ، ولا يؤوده شاقٌّ، متعالٍ عمّا يدركه وَهْم، عظيم لا يحيط به فهم[٢].

• لا إكراه في الدين:

وقرّرتِ الآياتُ بعدَ ذلك حرية الاختيار عند الإنسان في شأن الدين والعقيدة، بقوله تعالى:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام،

---

(١) روح المعاني: ٣/ ٩.
(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٣٩٩.

فإنّه بيّن واضح، جليّةٌ دلائله وبراهينه، لا يحتاجُ إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه[١]. فالجملةُ على هذا المعنى خبرٌ، والمرادُ منه النهيُ.

وقد يكون المعنى: لا يتصوّر الإكراه في الدين، لأنّه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه، والدينُ خيرٌ كلُّه، والجملةُ على هذا المعنى خبر باعتبار الحقيقة ونفس الأمر، فالدينُ ليس فيه إكراهٌ من الله تعالى وقسر، بل مبنى الأمر على التمكين والاختيار، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء، ولبطل الامتحانُ، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم قال تعالى على سبيل التعليل لما تقرّر:

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ أي: ظهر وتميز الحقُّ من الباطل بالدلائلِ الكثيرة، والعاقل مَن يبادِرُ إلى الإسلام دونَ حاجةٍ إلى الإكراه، فالإسلامُ يكرِمُ الإنسانَ، ويحترم إرادته، ويترك له حرية الاختيار، بعد أن يبيّن له الحق من الباطل، ويحمّله مسؤولية اختياره.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: بالشيطان وأعوانه، من دعاة الكفر ورؤساء الضلال.

والطاغوت: من الطغيان، بناء مبالغة، كالجبروت والملكوت، وقد يؤنّث ضميره، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، فهو يشمل كل ما يُطغي الإنسان، ويدفعه إلى مجاوزة حدود عبوديته لله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ مع الاستسلام الكامل لدينه وشرعه، فلا يعبد سواه، فلا بدّ للكافر أن يتوب أولاً عن كفره ويتبرأ منه، ويؤمن بعد ذلك بالله وحده، ويلتزم برسالته.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣١.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالغ بالتمسّك والاعتصام بالحبل الوثيق المحكم.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فالتمسّك بالإسلام هو سلّم النجاة، وساحِلُ الأمان، إذ المخاطِرُ المحيطةُ بالإنسان كبيرةٌ، ولا نجاة له منها إلّا باللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام بحبل دينه، والتمسّك بشريعته، كما قال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

فهو سبحانه وليُّ المؤمنين، يتولّاهم بهدايته ورحمته، إذا اعتصموا بحبله، فلا يضلّون ولا يتيهون.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: متولّي أمورهم، وهذا من فضله تبارك وتعالى عليهم، وقد قرّره سبحانه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والمعاصي والشبه والشكوك إلى نور الإيمان وبرد اليقين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي: من نور الإيمان الفطري الذي جُبلوا عليه، أو من نور البيّنات المتتابعة، المنزلة عليهم بوساطة الأنبياء والمرسلين، وذلك بحرمانهم منها، وجعلهم يُعرِضون عنها.

﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الانهماك بالشهوات، وظلمات الشكوك والأوهام والحيرة والقلق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر واختيارهم له.

- **مناظرة إبراهيم للطاغوت:**

ثم أوردتِ الآياتُ مثالاً على انطماس البصيرة، وانطفاء نور الفطرة، بسبب الانهماك بالمعاصي والآثام، والتكبّر والغرور والطغيان، فعرضت مناظرةً بين نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، وبين طاغيةٍ متجبّرٍ مغرور، حجبته ظلمات طغيانه وغروره عن رؤية الحقائق الواضحة الكبيرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهو كما مرَّ سؤالُ تعليمٍ وتعجيبٍ.

﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: جادل إبراهيم عليه السلام في ربّه، ويبدو أنه كان طاغية متألّهاً متجبراً، كما كان فرعون في زمن موسى عليه السلام.

﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: لأنّ الله تعالى آتاه المُلك والسلطان، أنكر وجحد فضله عليه، وبدل أن يشكره أنكر وجوده تعالى، وأخذ يخاصم ويجادل في ذلك.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ويبدو أنّ إبراهيمَ عليه السلام قال هذا جواباً لسؤالٍ وجّهه إليه الطاغية، كما قال موسى عليه السلام، عندما سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه].

فموسى عليه السلام برهن على وجود الله تعالى بالخلق والهداية، وإبراهيم عليه السلام برهن على وجوده تعالى بالإحياء والإماتة، وكلها من الأدلة الظاهرة والحجج القاطعة، التي لا ينكرها إلّا الذي غشيته الظلمات الكثيفة، وحجبته الحُجب الغليظة.

فما كان من هذا المغرور المتكبّر إلّا أن ادّعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة:

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ وذلك بالعفو عن المجرم الذي يستحق القتل، وقتل البريء.

هكذا بسبب ظلمة الغرور والكبر، التبس عليه الأمر، فلم يميّز بين حقيقة الإحياء والإماتة، وبين إصدار الأوامر الظالمة، التي لا تزيد عن كونها أسباباً لإطالة الحياة أو إنهائها، إذا وافقت قدر الله تعالى ومشيئته.

فما كان من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمامَ هذا الغرور والتكبّر، إلّا أن واجهه بناموس من النواميس الكونية، التي أبدعتها القدرة الإلـٰهية، وتعلقت بها المشيئة الربّانية القاهرة، والتي لا يستطيع أيّ إنسان مهما انطمست بصيرته أن يجحدها وينكرها:

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فهي واقع ملموس مُشاهَد لا يقبل الجدل، وهي حقيقةٌ كونيةٌ تطالِعُ الأنظار والمدارك كل يوم، ولا تتخلّف مرةً ولا تتأخر، وهي شاهدٌ يخاطب الفطرةَ، حتى ولو كان صاحبُها لا يعرف شيئاً(١).

هكذا تمكّن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمنطق الإيمان وقوة حججه ووضوح براهينه، أن يحسم الأمر بحجّة واحدة ملزمة قاطعة، وكانت النتيجة:

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ أي: غُلِب الجاحدُ المغرورُ المتكبِّر، وصار مبهوتاً منقطعاً متحيّراً مغلوباً، بعد أن كان منتفشاً مستكبراً مغروراً.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفّقهم ولا يُخرجهم من ظلمات كفرهم وظلمهم.

- **الحياة بعد الموت:**

حقيقة الموت والحياة بيد الله تعالى، لا يقدر عليهما غيره، تدلّان على

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٩٨.

تمام مشيئته وكمال قدرته، فهو وحده المُحيي والمُميت، ولا تأثير للأسباب التي نراها في الإحياء والإماتة، فهي لا تقيّدُ طلاقةَ إرادته تعالى وقدرته، فهو سبحانه يُحيي ويُميت بأسباب ومن دون أسباب، يتحقّق مراده سبحانه في الإحياءِ والإماتة بصور كثيرة لا تُعدّ، ذكرت الآيات الكريمة التالية بعضها:

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أي: أو أرأيت مثل الذي مرّ على قرية؟! وهو سؤال تعجيب وتعليم، معطوف على ما سبق من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ويبدو أنه نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل، الذين لم تنقطع النبوّة فيهم حتى زمن عيسى عليه السلام، أنجاه الله تعالى مما أنزله ببني إسرائيل على يد البابليين في زمن بختنصّر، سلّطهم الله على بني إسرائيل بسبب فسادهم وفجورهم، فخرّبوا بيت المقدس، وقتلوا كثيراً من أهلها، كما أسروا عدداً كبيراً منهم، مرّ هذا النبيُّ على البلدة.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية من سكانها، متهدمة جدرانها، ساقطة سقوف بنيانها، فوقف متحسّراً محزوناً على ما أصابها:

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: كيف يُحيي الله هذه البلدة بعد موتها؟! قال ذلك استعظاماً لقدرةِ الله تعالى على الإحياء، وذلك لما رأى من

شدّة خرابها وهمودها، فلم يقله على سبيل الشك في القدرة، بل على سبيل الاستبعاد في العادة[١].

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ أي: جعله الله تعالى يموت من دون تقدّم أسباب، واستمر موته بتقديره تعالى مئة عام، حفظ الله تعالى في أثناء ذلك جسده من التعفّن والتآكل، كما حجبه أيضاً عن أنظار الناس والطير والوحش.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: ثم أحياه، وردّه إلى الحياة.

﴿قَالَ﴾ أي: الله سبحانه له بواسطة الوحي:

﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: كم مقدار الزمن الذي مكثت فيه ميتاً؟.

ويبدو أن الله تعالى أماته في أول النهار، وبعثه في آخر النهار، ولهذا:

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقد ظن مثل ذلك أصحاب الكهف، كما حكى الحق عنهم في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٨]، فالموتُ كالنوم، لا يشعر الإنسان في أثنائه بمرور الوقت.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وهي مدة كافية لتبدّل أحوال الناس، مات في أثنائها جيل، ونشأ جيل آخر، وسقطت حضارة، وقامت حضارة، وأعاد الله تعالى البلدة الميتة إلى حياتها، وتجدّد عمرانها وشبابها، حفظه الله تعالى طول هذه المدة من البلى والتعفّن والتفتّت، وحفظ أيضاً طعامه وشرابه، فلم يتغيّر ولم يتعفّن. وأمره تعالى أن ينظرَ إليه، ويراه كما هو، معجزةً محسوسةً مُشاهدةً دالّة على كمال قدرته جلّ وعلا:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير، فلم تغيّره السنون، ولم يتعفّن ولم ينتن.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وكان معه حمار، أماته الله تعالى أيضاً، ولكنّه لم

---

(١) تنوير الأذهان: ١/ ٢٠٣.

يحفظه بعد الموت، فتفرّقت أعضاؤه، وبليت عظامه، وتفتَّتَتْ، فأمره تعالى أن ينظر إليه وهو متفرّق متفتّت، كبرهان محسوس على طول المدة التي مرّت عليه، فيعرف قدرة الله تعالى وفضله عليه، بحفظه من التفتُّت والتآكل، وحفظ طعامه وشرابه من التغيُّر والتعفُّن، بينما تفرّقت عظام الحمار وبليت، في ظروف جوية وأرضية واحدة، وهذا يدلّ على طلاقة قدرته تعالى وإرادته، وأنه سبحانه لا تُقيِّد قدرتَه قوانينُ ولا نواميس، وهو سبحانه خالق القوانين ومقدّر النواميس.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: فعلنا ذلك بك لنجعلك دليلاً مُعجزاً يدلّ على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المُحيي والمُميت، وأنه قادر على الإعادة بعد الموت والتفرّق والتمزّق.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار التي بليت وتفرّقت.

﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نحرّكها ونرفع أجزاءها إلى بعضها ونركّبها.

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ كما كانت قبل الموت والبلى.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي: لما رأى إعادة الحياة وشاهدها عَياناً.

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قرئ: **(أَعْلَمُ)** على قطع الألف مع رفع الميم، على الخبر، أي: أخبر عن نفسه أنه يعلم كمال قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على الإحياء والإماتة.

ودلّت صيغة المضارع ﴿أَعْلَمُ﴾ على أنّ علمه بذلك مستمر، وأنه ما كان شاكّاً بقدرته تعالى، وما حدث ضمّ إليه العلم القائم على المشاهدة والمعاينة، إلى ما كان عنده من علم قائم على الإيمان بالغيب، الثابت بالخبر الصادق.

وقُرِئ: **(اعْلَمْ)** مجزوماً موصولاً على الأمر، يعني: قال الله له: **(اعْلَمْ)**.

- **من علم اليقين إلى عين اليقين:**

وهو ما سأله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بعد أن تتمزَّقَ أجسادُها وتتفتَّتَ.

و﴿كَيْفَ﴾ كما قال ابن عطية، إنّما هو استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرّر، فالسؤال لما وقع بـ (كيف) دلّ على حال شيء موجود مقرّر عند السائل والمسؤول، كما تقول: كيف عِلْمُ فلانٍ؟ فالسؤال في الآية عن هيئة الإحياء لا عن نفس الإحياء(١).

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بقدرتي على الإحياء بعد الموت، ولا شك أنه تعالى يعلم إيمان إبراهيم عليه السلام، ولكنه أراد أن يُظهر علمه للناس على لسان إبراهيم.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: بلى آمنت، ولكن لينضمَّ لي علمُ المشاهدة إلى علم الاستدلال، فذلك أسكن للقلب، وأثبت للنفس.

قال ابن كثير رحمه الله: «أحبَّ أن يترقّى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدةً»(٢).

وهو ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التّكاثر].

وأما ما جاء في الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ إذ قال**: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾» [رواه البخاري (٣٣٧٢)]، فمراد النبيِّ ﷺ نفيُ الشكِّ عن إبراهيم، فكأنه قال: لو كان شك لكنّا أحقّ به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٤١٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣٦.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ من أنواع مختلفة.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أملهن إليك، وقرّبهنّ إليك، وتأمّل بهنّ لتعرف أوصافهنّ، لئلا تلتبسَ عليك بعد الإحياء.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: فرّق أجزاءهنّ بعدَ ذبحهنَّ وتقطيعهنّ، وخلطِ الأجزاء ببعضها، على أربعة جبال.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أي: قل لهنّ: تعالين بإذن الله تعالى.

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: يأتينك مسرعات، بعد أن تنضمّ الأجزاء المتفرقة إلى بعضها، ويرجع كل جزء إلى موضعه من الجسد، بقدرة الله تعالى الكاملة، ومشيئته النافذة في ذرّات الأجسام، وتعود إليهنّ الحياة الكاملة، كما كانوا قبل الذبح والتقطيع والتفريق.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ يفعل ما يريد، لأنه غالب على كل الأشياء.

﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أقواله وأفعاله جَلَّ جَلَالُهُ.

وهكذا رأى إبراهيم منظراً معجِباً مدهِشاً، رأى كيف تتطاير الأجزاء إلى بعضها، وتتلاصق بتناسق وانسجام، ويرجع كل جزء إلى مكانه، وتعود قطرات الدماء المتناثرة إلى موضعها التي كانت فيها عند الذبح، لتستأنف جريانها في عروقها، بعد أن أعاد الله تعالى إليها الحياة من جديد.

وتركتنا **الآيات** محلّقين بخيالنا مع المنظر العجيب المدهش، مع الأعضاء والأجزاء المتناثرة، تطيرُ في الجو إلى بعضها، لتتلاحم وتعود كما كانت، **واستأنفت سيرها** على طريق التشريع وبيان الأحكام، وسبق للآيات أن مهّدت للموضوع التشريعي الذي ستتناوله بالبيان في الآية الكريمة التي مرّت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فالموضوع موضوع الأموال، أو موضوع الاقتصاد كما يسمى في هذا العصر، وبيان أُسسه التي تحدّد كيفية المبادلات المالية والاقتصادية بين الناس، وهو من أخطر الموضوعات،

وأكثرها تأثيراً على حياة الناس، وعلاقاتهم فيما بينهم، على مستوى الأفراد والجماعات، ولعلّ هذا سرّ تأخيره إلى خواتيم السورة.





مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ
حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن
تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟
فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ
يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ
ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن
نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن

سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن
يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم
بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا
كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ
ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ
عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن
تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ
إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ
كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ
وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ
ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا
تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ
أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ

وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

- **السَّنابل السَّبع:**

وفاجأتنا الآياتُ بعد أنْ شرعت تتحدَّث عن موضوع الأموال، بمنظرٍ معجِبٍ مدهش أيضاً، منظر حبةٍ في باطن الأرض، تتحول بقدرة الله تعالى ومشيئته إلى سبعمئة حبة متراكبة تركيباً عجيباً مُعجزاً في سبع سنابل.. في الآية السابقة اجتمعت الأجزاء المتفرّقة، وعادت إلى تلاحمها وتناسقها كما كانت، وهنا الحبّةُ الواحدةُ الضائعةُ في طيّات الثرى تتحول بقدرة الله تعالى إلى سبعمئة حبّة، في سبعِ سنابلَ محمولةٍ على ساق نبتة واحدة!.

إنّ أوّل وأهمّ أُسس النظام الاقتصادي في الشريعة الإسلامية، أنّه **نظام تكافلي اجتماعي تعاوني**، فالواجبُ المفروضُ على أصحاب الأموال أن يخصّصوا جزءاً معلوماً من أموالهم للجانب الضعيف المحتاج في المجتمع، وهو أمر إلزامي في أعلى درجات الإلزام في الشريعة الإسلامية، فهو فرض لازم، وركنٌ أصيل من أركان الإسلام الكبرى.

ولمّا كانت الشريعةُ الإسلاميةُ شريعة رحمة وسماحة، والله سبحانه يعلم شدّة حبّ الإنسان للمال، وأنه شحيحٌ به، يشقّ عليه أن ينفقَ جزءاً منه على غيره، تلطّف سبحانه في تشريع الإنفاق لطفاً كبيراً، وحثّ عليه بأساليب رفيقة ورقيقة، تدلّ على رحمته تعالى بعباده ولطفه بهم، وقد مرّ معنا في هذه السورة بعض هذه الأساليب، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وها هي الآيات هنا تلتزم هذا الأسلوب اللطيف الرقيق، في تربية النفوس على البذل، وتخليصها من الشحّ الذي جُبِلَت عليه، بهذا المثل الرائع:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ينفقون أموالهم التي رزقهم الله إياها، لكي يتقرّبوا إليه تعالى، مستسلمين لأمره، ومنقادين لشرعه.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ بقدرته تعالى ومشيئته.

﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فتبلغ المضاعفة سبعمئة ضعف فضلاً منه تعالى، الذي لا حدّ لفضله وإحسانه.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ على حسب علمه سبحانه بمدى إخلاص المُنفِق.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الغنى والفضل.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بنيّات المنفقين وأحوالهم.

- **الشريعة الإنسانية:**

وتمتاز الشريعة الإسلامية بإنسانيتها، وتقديرِها لعواطفِ الناس ومشاعرِهم، وخاصةً المحتاجين، ولهذا توجّهت الآياتُ الكريمةُ إلى المنفقين من أصحاب الأموال، تحثّهم على احترام عواطف المحتاجين، وتحذّرهم من التعالي عليهم، والظهور أمامهم بمظهر المتفضّل الذي يمنُّ عليهم بما يعطيهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ بأن يعدّد عليه ما أعطاه، ويقول له: أعطيتُك كذا وكذا. أو يعيّره بفقرِهِ، ويكلّمه كلاماً قاسياً، فيه إهانة وإذلال، وكلُّ ذلك محرّم في الشريعة الإسلامية، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضّحى].

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: عند الموت على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا، لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم منها.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: كلام جميل طيِّبُ حسنٌ يُقال للفقير.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: وسترٌ لحال الفقير المحتاج، وترك التشهير به.

﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ كأن يمنَّ عليه، ويفضحَ حاجته وفقره.

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ أي: غني عن طاعة المنّان المؤذي.

﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجله بالعقوبة، لكي يتوب ويرجع عن ذنبه.

ثم بيّنت الآيات أنَّ المنّ على الفقراءِ وتوجيه أيّ أذًى لهم، يضيع ثوابَ الصدقةِ ويُبطله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ فتكونون عندئذٍ:

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: المنفق المُرائي، الذي ينفق ماله لأجل الرياء وحبّ السمعة والشهرة بين الناس.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ولا يريدُ بإنفاقه ثوابَ الله تعالى ورضوانه يوم القيامة، لأنه لا يؤمن الإيمانَ الصادقَ الصحيح بالله واليوم الآخر.

ولكي تقرّب الآيات هذا المعنى المجرّد للنفوس والعقول، مثّلت له بهذا المثال المادّي، فللأمثلةِ دورٌ تربويٌّ كبيرٌ، وتأثير قوي على القلوب والنفوس:

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: مثل المنفق المُرائي بنفقته.

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الصلب.

﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي: تغطيه طبقةٌ من التراب.

﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي: أنزل الله عليه مطراً غزيراً قويّاً، أزال الترابَ عنه وذهبَ به.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: فأصبح الصفوان بعد المطر مجرّداً من التراب، لم يستفد من المطر، فلم ينبت عليه شيء من النبات، بل حدث العكس، أظهر المطرُ حقيقتَه، وبدت قسوته وصلابته، وأنّه لا خير فيه.

وكذلك حال المُرائين بعبادتهم، المانّين على الفقراء بصدقاتهم والمؤذين لهم:

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: لا ينتفعون بشيءٍ من طاعاتهم وعبادتِهم، فلا يجدون لها عند الله ثواباً.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي ذر** رضي الله عنه: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ: المنّانُ الذي لا يعطي شيئاً إلّا مَنَّهُ، والمنفِقُ سلعَتَه بالحَلِفِ الفاجِرِ، والمُسْبِلُ إزارَهُ**» [رواه مسلم (١٠٦)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشركِ، مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غَيْري تركتُه وشِرْكَهُ**» [رواه مسلم (٢٩٨٥)].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدينَ فضله عليهم والمُصرّين على الكفر.

ودلّت الآيةُ على أنَّ الرياءَ والمنَّ والأذى في الإنفاقِ من صفات الكفّار، ولا بدّ للمؤمن أن يتجنّب عنها(١).

وفي مقابل المثل السابق، ضربت الآياتُ مثلاً للمخلصين في صدقاتهم، بقوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنفقوا أموالهم طلباً لرضوان الله تعالى.

﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تثبيتاً لأنفسهم على طريق الإيمان والاستسلام لله تعالى، فإنّ في نفس الإنسان ميلاً فطريّاً إلى المال وتعلّقاً به، فمَن تغلّب على نفسه، وقهر شحّها، وأنفق المال تقرّباً لله تعالى، ثبّتها على طريق الإسلام، وأغلق على الشيطان ثغرة يمكنُ أن يستغلّها لإغوائه وإضلاله، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ويمكن أن يكون ﴿مِّنۡ﴾ للتبعيض، ويكون المعنى: أي مثبتين بعض أنفسهم على الإيمان، فمن بذل ماله لله تعالى فقد ثبّت بعض نفسه، ومَن بذل ماله وروحه لله تعالى فقد ثبَّت كل نفسه.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ أي: كمثلِ بستانٍ بمرتفعٍ من الأرض، حيث تكونُ الأشجارُ أحسنَ منظراً، وأزكى ثمراً.

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٤١٧.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: مطر شديد.

﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أعطت إنتاجاً مضاعفاً مرتين عمّا كانت تعطي في كل موسم.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ وهو المطر الخفيف الليّن.

والمراد بيان أنَّ خيرَ هذه الجنّةِ الطيبة لا يتخلّف في مختلف الأحوال، وكذلك حالُ هؤلاء المنفقين في سبيل الله، لا تضيعُ عند الله نفقاتهم، فلهم ثوابهم، وإن كان متفاوتاً بحسب درجات إخلاصهم لله تعالى، أو كان متفاوتاً بحسب مقدار نفقاتهم، وحرصهم على إيصالها إلى الأقرب والأحوج والأتقى.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فاجعلوا عملكم خالصاً لوجهه تعالى، وابتغوا به رضوانه.

- **أسف وحسرة:**

وأضافت الآياتُ مثلاً آخرَ للذينَ يَحْرِمون أنفسهم ثوابَ أعمالهم، وهم أحوج ما يكونون إليه، وذلك بسبب مُراءاتهم أو إعجابهم بها، والمنُّ بها على الفقراء:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أيحبُّ أحدكم أن يكونَ له بستان من نخيل وأعناب تجري الأنهار فيه؟!.

والاستفهام للإنكار، وتخصيص النخيل والأعناب بالذكر لأنّ ثمرهما من أفضل الفواكه وأكثرها نفعاً، فيهما الغذاء والتفكّه.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: يجني صاحبها من هذه الجنة ثماراً كثيرة.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أصابَ كبرُ الشيخوخةِ والهرمِ صاحبَ البستان، حتى أصبحَ لا يقدر على الكسب.

﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي: وله أولاد صغار ضعاف، لا يقدرون على الكسب أيضاً، فهم يعتمدون في معاشهم على ثمرات جنّتهم.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح قوية تستدير على نفسها، تسمى زوبعة.

وسمّيَ إعصاراً لأنّه يلتفّ كما يلتفّ الثوب المعصور، أو لأنه يعصر الأجسام المارّ بها(١).

﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: يحمل الإعصار ناراً.

﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي: فاحترقت الجنّةُ بنارِ الإعصارِ الذي أصابها.

وتتركنا الآيةُ عند هذه الجملة القصيرة، لنتصوّر مدى الحسرةِ والأسفِ الذي يعصفُ في نفس صاحب الجنّة، وهو يراها تحترق، قبل أن يأتي تعقيب الحق تعالى على المثل بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكّرون بما فيها من عظات وعِبَر، تنتفعون بها.

فَضَرْبُ الأمثالِ في القرآن الكريم أسلوبٌ تربوي، يساعد المخاطبين على فهم المعاني المجردة، ويجعلهم ينفعلون بها.

سأل عمر بن الخطاب ﷺ جلساءه من الصحابة يوماً **فقال**: فِيمَ ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ **قالوا**: الله أعلم. **فغضبَ عمرُ فقال**: قولوا: نعلم، أو لا نعلم. **فقال ابن عباس**: في نفسي منها شيءٌ يا أمير المؤمنين. **قال عمر**: يا ابنَ أخي قل ولا تحقِّرْ نفسَك. **قال ابن عباس**: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل. **قال عمر**: أيّ عمل؟ **قال ابن عباس**: لعملٍ؟ **قال عمر**: لرجل غنيٍّ يعملُ بطاعةِ الله ﷻ، ثم بَعَثَ اللهُ له الشيطانُ فعمل بالمعاصي حتّى أغرق أعماله. [رواه البخاري (٤٥٣٨)].

---

(١) روح المعاني: ٣/ ٣٨.

• **الأموال التي تجب فيها الزكاة:**

هيّأتِ الآياتُ بهذه الأمثال الرائعة، نفوسَ المكلّفين لقبول التكليف والرضا به، فوجّهت إليهم بعدها خطاب التكليف بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: أنفقوا النفقة الواجبة عليكم، من خيار المال الذي اكتسبتموه بعملكم، الذي أحلّه الله لكم، كالتجارة والصناعة.

ففي الآيةِ دليلٌ ظاهرٌ على وجوب الزكاة في كلِّ مالٍ اكتسبه الإنسان، سواء كان من النقودِ أم من عروض التجارة، إذا توفّرت فيه شروط الوجوب المذكورة في كتب الفقه، وأهمُّها: أن يبلغَ المال نصاباً، وأن يحول عليه الحول، وأن يكون المال مملوكاً لصاحبه ملكاً تامّاً، وأن يكون حلالاً طيباً[(١)].

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض، من النبات والثمار والمعادن.

وهذا يدلّ على وجوب الزكاة في المحاصيل الزراعية وفي المعادن، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**فيما سقتِ السماءُ والعيونُ أو كان عَثْرِيّاً العُشرُ، وما سُقِيَ بالنَّضْحِ نصفُ العُشرِ**» [رواه البخاري (١٤٨٣)].

قوله: «**عثريّاً**» أي: يعثر على الماء بنفسه، ولا يتكلّف صاحبه سقيه.

---

(١) انظر: بحث الزكاة، في كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ١/ ٣٥٣ ـ ٣٧٧، ط: دار القلم بدمشق.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصدوا المال الرديء.

﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: منه تتصدّقون، فتعطون الفقراء المال الرديء، وتحتفظون لأنفسكم بالمال الجيد.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: والحال أنّكم لا تأخذونه في حقوقكم.

﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي: إلّا أن تتساهلوا، وذلك لأنّ الإنسانَ إذا رأى ما يكره أغمض عينيه.

وكأنّ الآيةَ تقول لهم: فكيف ترضون لله تعالى ما لا ترضون لأنفسكم؟!.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو مستحق للحمد على نِعَمه، فاشكروه، وتقرّبوا إليه بالطيِّب لا بالخبيث.

وفي هذه الآية أيضاً دليلٌ على إنسانية الشريعة الإسلامية، وحرصها على كرامة المحتاجين والفقراء، وتسويتها بينهم وبين الأغنياء في وجوه الانتفاع بأموال الزكاة كاللباس والطعام والشراب... إلخ.

- **حزب الشيطان:**

مرّ معنا قريباً أنّ الإنسان مفطورٌ على حبِّ المال والشحّ به، وهو نقطة ضعف بشرية يمكن أن يتسلّل الشيطانُ منها إلى الإنسان، ليصدّه عن طاعة الله تعالى، وذلك بأنَّ يخوّفه من الفقر، ويجعله يضنُّ بماله، ويمنع زكاته عن مستحقّيها، وهذا ما حذّرنا تعالى منه بقوله:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يخوّفكم من الفقر إذا أنتم أنفقتم ما أمركم الله تعالى به، ويمهّد بالتخويف من الفقر إلى تزيين البخل.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: ويأمركم بالبخل، ويحسّنه لكم، مع أنّه خصلة ذميمة فاحشة، والفاحش عند العرب: البخيل.

وقد يكون المعنى: ومع نهيه إيّاكم عن الإنفاقِ خشيةَ الإملاقِ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم[١].

ففي الطاعات يأمركم بالبخل، وفي المعاصي يأمركم بالإنفاق والتبذير والإسراف، وهو حال مشاهَدٌ عند كثير من أصحاب الأموال، يبخلون عن أداءِ حقوق الله تعالى، وهي يسيرةٌ قليلةٌ، وينفقون الأموال الكثيرة على المحرّمات والفواحش، مما يدلّ على أن الشيطان استحوذ عليهم، فانقادوا له، وأصبحوا من أعوانه وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

ثم بيّنت الآيةُ ما يترتّب على الإنفاق من فوائد، تؤدّي بالإنسان إلى التغلّب على شحّ نفسه وقهر شيطانه:

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي: مغفرة لذنوبكم ستراً لها، فالحسنات تمحو السيئات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ الصدقةَ لتُطفِئُ غَضَبَ الربِّ، وتدفعُ مِيْتَةَ السوءِ**» [رواه الترمذي (٦٦٤)].

﴿وَفَضْلًاۗ﴾ أي: ويخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، كما مرّ في آية السنابل السبع [انظر: سورة البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا يقتصر إحسان الله وفضله على الشؤون المادية، وإنّما يمتدّ أيضاً إلى الأمور المعنوية الرفيعة والخِصال الحميدة:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٤١.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤتي الإصابة في الأقوال والأفعال مَن يشاء من عباده، ودلّ ورودُ الآية في سياق آيات الإنفاق، على أنَّ للمنفقين في سبيل الله حظّاً كبيراً من الحكمة، ويوفّقهم الله تعالى إلى السداد في الأقوال والأفعال، وهي من الخِصال الكريمةِ التي تؤدّي إلى دفع الشرّ وجلب الخير.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما ينتفعُ بهذه المواعظ إلّا أصحابُ العقول.

ويؤدّي الإنفاقُ في سبيله تعالى إلى معونته وتأييده:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أي: في طاعته تعالى.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ تتقربون به إليه سبحانه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم عليه بمعونته ونصره وتأييده.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وليسَ للذين ينفقون أموالهم في طاعةِ الشيطانِ، من أنصارٍ يمنعونهم من عذابه تعالى وانتقامه.

- **إخفاء الصدقات:**

وبعد أن حثَّتِ الآياتُ على الصدقات، وأداء الواجبات المالية، وبيّنت آثارَها الطيّبة في الدنيا والآخرة، شرعت ببيانِ كيفية الإنفاق وأحسن طرق الأداء:

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾ أي: إن تُظهروا دفعَ مالِ الزكاةِ وغيرِهِ إلى المستحقّين، فنعم ما تفعلون إذا قصدتم التقرّب إليه تعالى.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: إن تعطوها خفية للفقراء في السرّ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ لأنّ في الإخفاء حفظاً لكم من الرياء وحبِّ الظهور والسمعة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإسرارُ أفضلُ؛ لهذه الآية. ولما ثبتَ في «**الصحيحين**»: عن **أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعةٌ يظلّهم الله في ظِلِّهِ، يومُ لا ظِلَّ إلا ظلُّه... ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه**» [رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١)]»[١].

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾ لأنّ الحسنات تمحو السيئات.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم سبحانه ما تخفون من الصدقات وما تُبدون.

ولا شك أن إعطاء الصدقات للفقراء سرّاً أكرم لهم، فالآية تُظهرُ إنسانيةَ الشريعة الإسلامية، التي تحرص على كرامة الإنسان.

وجاءت الآية التالية بعدها تضيف إلى إنسانية الشريعة الإسلامية سماحتها، فالتكافلُ الاجتماعيُّ الإسلاميُّ لا يقتصر على المسلمين فقط، بل يشمل غيرهم من الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، وقد أجازتِ الشريعةُ الإسلاميةُ دفع جزء من صدقات المسلمين عدا الزكاة إلى غير المسلمين، وهذا ما قررته الآيات الكريمة، وهي تخاطِبُ النبيَّ ﷺ بقوله تعالى:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٤٣.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أي: لستَ مكلَّفاً بهدايتهم إلى الإسلام، وإنَّما عليك تبليغهم دعوة الإسلام، كما قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على هدايتهم، وقد أخرجَ **ابنُ أبي حاتم** وغيره: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأمرُنا ألّا نتصدّق إلّا على أهلِ الإسلامِ حتَّى نزلتْ هذه الآيةُ... أي: ليس عليكَ هُدَى مَنْ خالفَكَ حتّى تمنعهم الصدقةَ لأجلِ دخولِهم في الإسلامِ(١).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فالهدايةُ منوطةٌ بمشيئته تعالى وعلمه، وهو سبحانه أعلمُ حيث يجعل هدايته، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

والجدير بالذكر هنا: أنَّ الصدقات التي يجوز إعطاؤها لغير المسلمين، هي **صدقاتُ التطوّع**، أما الصدقاتُ المفروضةُ فلا يجوزُ دفعها لغير المسلمين:

لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «**إنّكَ ستأتي قوماً أهلَ كتابٍ، فإذا جئتَهم فادْعُهم إلى أن يشهدوا ألّا إلـٰه إلا الله، وأن محمَّداً رسولُ اللهِ، فإن هم أطاعوا لك بذلكَ؛ فأخبرهم أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإن هُمْ أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهُمْ أنَّ اللهَ قد فرضَ عليهم صدقةً تؤخَذ من أغنيائهم، فترَدُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لكَ بذلكَ؛ فإيّاكَ وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلومِ فإنَّه ليسَ بينَه وبينَ اللهِ حجابٌ**» [رواه البخاري (١٤٩٦)].

---

(١) روح المعاني: ٣/ ٤٥.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يعود نفعُه على أنفسكم، فلا تَمُنُّوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأنفقوا عليهم، ولو كانوا غيرَ مسلمين، ما دمتم تبتغون بنفقتكم رضوان الله تعالى.

ومن هنا نطّلع على بعض الآفاق السامية السَّمحة الوضيئة، التي يرفع الإسلام قلوبَ المسلمين إليها، ويروّضهم عليها، إنَّ الإسلامَ لا يقرّر مبدأ الحرية الدينية وحده، ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب، إنَّما يقرر ما هو أبعد من ذلك كلِّه، يقرّر السماحة الإنسانية المستمدة من توجيه الله سبحانه، يقرّر حقَّ المحتاجين جميعاً في أنْ ينالوا العونَ والمساعدة، ما داموا في غيرِ حالةِ حربٍ مع الجماعة المسلمة، دونَ نظرٍ إلى عقيدتهم[١].

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يوفّ إليكم مضاعفاً، كما مرّ في آية السنابل السبع [انظر: سورة البقرة: ٢٦١].

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تُنْقَصون شيئاً من ثواب صدقاتكم.

• أفضل مصارف الصدقات:

ثم بيّنتِ الآياتُ أفضلَ مصارفِ الصدقات وأكثرها ثواباً بقوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اجعلوا صدقاتكم للفقراء الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فمنعهم ذلك من الاكتساب وطلب الرزق.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٣١٥.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يستطيعون الانتقال والسفر في الأرض للكسب والتجارة لاشتغالهم بالجهاد.

وتنسحب الآيةُ على الذين عجزوا عن الكسب بسبب الجراحات التي أصابتهم في أثناء الجهاد والقتال، وعلى الذين حبسوا أنفسهم على طلب علم نافع تحتاجُ إليه الأمةُ، فهؤلاء يعطون من أموال الزكاة مقدار ما يحتاجون إليه من النفقات، ما داموا محتاجين.

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء، بسبب تعفّفهم عن المسألة، فهم يتظاهرون بالغنى، ويسترون فقرهم وحاجتهم.

وقد وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «**ليسَ المسكينُ الذي يطوفُ على الناسِ، تردُّه اللقمةُ واللقمتانِ، والتمرةُ والتمرتانِ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يجدُ غنًى يُغنيه، ولا يُفطَنُ به فيُتصدّق عليه، ولا يقومُ فيسألُ الناسَ**» [رواه البخاري (١٤٧٩)].

أما من يستطيع الضربَ في الأرض والاكتساب، فهو واجدٌ لنوعٍ من الغنى، لا يجوز له أن يدعَ العمل والاكتسابَ ويسأل الناس:

ففي الحديث النبوي الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «**ما يزالُ الرجلُ يسألُ الناسَ حتّى يأتيَ يومَ القيامةِ ليسَ في وجهِهِ مزْعَةُ لَحْمٍ**» [رواه البخاري (١٤٧٤)].

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: تعرِفُ حقيقةَ حاجتهم بما ترى من أثر الجهد والحاجة البادي عليهم.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: إلحاحاً، والمعنى أنّهم لا يسألون، وإنْ سألوا للضرورة لم يلحّوا.

فهؤلاء أولى من غيرهم بالنفقة عليهم، وخاصةً إذا كانوا من أقارب المنفق وجيرانه، ولهذا خُتِمَتِ الآيةُ وهي ترغب بالنفقة على أمثال هؤلاء:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

ثم ختمَ اللهُ تعالى آياتِ النفقةِ ببيانِ فضيلةِ المنفقين على وجه العموم، وما لهم عنده من الثواب الجزيل، قال جلّ وعلا:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

- **اقتصاد إسلامي لا ربوي:**

تبيّن لنا من الآيات السابقة أنّ المجتمع الإسلامي مجتمعٌ متكافِلٌ متعاون، ومن الطبيعي في مثل هذا المجتمع أن يكون نظامه المالي نظاماً لا ربويّاً، لأنَّ النظام الربوي يقومُ على استغلال حاجات المحتاجين، وهذا ينافي التكافلَ والتعاوُنَ الذي ظهر لنا من خلال الآيات السابقة، ولهذا حرَّمَ الإسلامُ الربا، وجعلَ أهمَّ طرق الاكتساب المشروعة فيه تقومُ على الجهد والضمان، فالزيادةُ المشروطةُ لرأس المال، التي لا يقابلها جهد ولا ضمان، زيادةٌ غيرُ مشروعةٍ في الإسلام، ولهذا اتجهت الآياتُ في خواتيم سورة البقرة تقرّر تحريم الربا مطلقاً، بجميع أنواعه وأشكاله.

وكما استهلّت الآياتُ الكريمة حديثها عن الإنفاق في سبيل الله، بالمثال المعجِب المدهِش، مثال السنابل السبع ذات السبعمئة حبة [انظر: سورة البقرة: ٢٦١]، استهلت بالمقابل حديثَها عن الربا بهذا الوصف المُخيف المُرعب للمُرابين، وقد انتفخت بطونُهم انتفاخاً كبيراً، حتى اختلّ توازُنُهم، واضطربت أجسامُهم، فأصبحوا كالمصروعين المخبولين، والجزاءُ في الإسلام من جنس العمل.

فالربا هو الوجه الآخر المقابل للصدقة، الوجه الكالح الطالح، الصدقة عطاءٌ وسماحةٌ، وطهارةٌ وزكاةٌ، وتعاونٌ وتكافلٌ، والربا شحٌّ وقذارةٌ، ودنسٌ

وأَثَرَةٌ وفرديّةٌ، الصدقةُ نزولٌ عن المالِ بلا عوضٍ ولا ردٍّ، والربا استردادٌ للدَّينِ ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه[١].

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذون الربا مباشرةً، أو يساهمون بما يؤدّي إلى الربا.

كما جاء في الحديث النبوي الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه قال: **لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ آكلَ الربا ومُؤكله وكاتِبَهُ وشاهِدَيْهِ، وقال: «هُمْ سواءٌ»** [رواه مسلم (١٥٩٨)].

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: إذا بُعثوا من قبورهم يوم القيامة.

﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يصرعه الشيطانُ. وأصل **الخبط** لغةً: الضربُ والوطءُ على غير استواءٍ.

﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: من الجنون، يقال: مُسّ الرجل فهو ممسوسٌ، إذا كان به جنونٌ.

ومعنى الآية: أنَّ آكلَ الربا يُبعَثُ يومَ القيامةِ مثل المصروع الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة، لأنّ الرِّبا رَبا في بطونِهم حتّى أثقلهم[٢].

فالآية تصف حال المُرابين يوم القيامة، عندما يُبعَثون من قبورهم، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسّرين، وذهب إليه أيضاً ابن عطية في تفسيره، إلّا أنّه أضافَ إليه معنًى آخر فقال: يُبعَث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جمعِ

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٣١٨.
(٢) تفسير الخازن: ١/ ٤٣١.

المحشر، ويقوّي هذا التأويل المُجمَع عليه: أن في قراءة عبد الله بن مسعود: (**لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون**)(١).

وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأنّ الطمعَ والرغبةَ تستفزّه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما نقول للمسرع في مشيه، مخلّط من كثرةِ حركاته، إمّا لفزعٍ أو غيره: قد جُنّ هذا(٢).

وهذا المعنى الذي أضافه ابنُ عطية لأقوال المفسّرين، ذهب إلى مثله سيد قطب رحمه الله فقال: «ولقد مضت معظمُ التفاسيرِ على أنَّ المقصودَ بالقيام في هذه الصورة المُفزِعة، هو القيام يوم البعث، ولكنّ هذه الصورة فيما نرى واقعةٌ بذاتها في حياة البشرية في هذه الأرض... إنّهم لا يقومون في الحياة ولا يتحرّكون إلّا كحركة الممسوس المضطرب القلق المتخبّط، الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينةً ولا راحةً»(٣).

ولا مانع من الجمع بين المعنيين ما دام لفظُ الآية يحتملهما، كما رأى ابنُ عطية، فنقول: إنّ الآيةَ تصفُ أحوالهم النفسية في الدنيا، وأحوال قيامهم من قبورهم يوم القيامة، ومَن يشاهدُ أحوالَ المتعاملين بالرِّبا في أسواق التعامل المالي في أيام الأزمات والتقلّبات، يرى أنّ معنى الآية ينسحبُ عليهم تماماً، لكثرة ما يرى من اضطرابهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: هذا العقاب بسبب أنهم جعلوا البيع والرِّبا متشابهين في الحلّ، فكما أن البيع يؤدّي إلى الربح وهو حلال، فكذلك الرِّبا يؤدّي إلى الربح، وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أنّ الفرقَ واضحٌ بين ربح لا يقابله جهد ولا ضمان خسارة، وهو ربح الربا، وبين ربح البيع الذي يقابله ضمان الخسارة المحتملة.

---

(١) هذه القراءة إن صحّت تُحمل على البيان والتوضيح (أي: هي قراءة تفسيرية).

(٢) المحرّر الوجيز: ٢/ ٤٨١.

(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٣٢٥.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ فالحاكميةُ والتشريع لله تعالى وحده، وهو الذي يحلُّ ويحرِّم، والحلال ما أحلّه سبحانه، والحرام ما حرّمه، وعلينا جميعاً الانقياد والرضا لما شرعه لنا.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: مَن بلغه زجرٌ ونهيٌ من ربّه، كالنهي عن الربا.

﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي: فاستسلم لحكم الله تعالى، وانتهى عمّا حرّمه عليه.

﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: فله ما مضى قبل التحريم، والله سبحانه يغفر له، ولا يؤاخذه.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: فيما يأمره وينهاه، ويحلّ له ويحرّم عليه، وليس له من أمر نفسه شيء، فما عليه إلّا التسليم والانقياد لحكم الله وشرعه.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: عاد إلى الربا بعدَ التحريم، وأصرّ على التعامل بالرِّبا مستحلّاً له بعد أن حرّمه الله تعالى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنّهم لم يستسلموا لحكم الله وشرعه، وأصرّوا على عنادهم وجحودهم واتّباعهم لأهوائهم.

- **من أضرار الربا:**

وبعد أن بيّن الله تعالى عقابَ أَكَلَة الرِّبا يوم القيامة، بيّن ما يترتّبُ عليه في الدنيا، فقال:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: ينقصه ويهلكه ويُذهِب بركته.

فالربا لا خيرَ فيه، وعاقبة المال الذي ينمو بالربا إلى البوار، وأقربُ شاهدٍ على ذلك ما تعانيه المجتمعات الربوية من آفاتِ التضخّم المالي، فالأموال الربوية كثيرة، ولكنّ قيمتَها الشرائية تتضاءل يوماً بعد يوم، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه، رَفَعه: «**الربا وإنْ كَثُرَ فإنّ عاقبتَه إلى قلٍّ**»

[رواه ابن ماجه (٢٢٧٩) الحاكم (٢/ ٣٧) واللفظ له وصححه].

وفي مقابل محق الربا:

﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يزيدُ سبحانه ويبارك في الأموال التي ينقاد أصحابها لحكمه تعالى فيؤدّون زكاتها، ويدفعون منها الصدقات الواجبة عليهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أي: شديد الكفر مُصِر على استحلال المحرّمات.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الآثام والمعاصي، مُتمادٍ بها.

فآكل الربا كفّار أثيم، يمقته الله تعالى، ويحجبه عن ساحات فضله ورحمته، ولهذا ترى أكَلَة الربا في همٍّ دائم، وقلق مستمر، بينما ترى المؤمنين المنقادين لشرع الله تعالى يتمتعون بأمن نفسي، وسكينة وطمأنينة وجدانية، بسبب ما يفيضُ الله تعالى على قلوبهم ونفوسهم من آثار رحمته وعنايته.

وإبرازاً لهذا المعنى، التفتتِ الآياتُ تتحدّث عنهم، منوّهة بفضله تعالى عليهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

وذلك بسبب انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، والتزامهم بشرعه.

- **إعلان الحرب على المُرابين:**

ثم توجهتِ الآياتُ بالخطاب إلى المؤمنين، تحثّهم على ترك الربا، إذ كان الربا سائداً في معاملات الناس قبل الإسلام، وقد اهتمّ الإسلامُ اهتماماً كبيراً بتنقية المجتمع الإسلامي من هذه الآفة الخطيرة، وقد نجحَ نجاحاً كبيراً في هذا المجال، كما نجح بتطهيره من سائر الآفات الجاهلية التي كانت منتشرة فيه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بطاعته والاستسلام لأحكام شريعته.

﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أي: اتركوا بقايا الربا التي شرطتموها على الناس، فلا تطالبوهم بها.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقّاً مؤمنين فإنكم تبادرون إلى طاعته وامتثال أمره.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: إن لم تنقادوا لحكمه وتستجيبوا لأمره.

﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: اعلموا واستيقنوا أنكم مُعرّضون لحرب من الله ورسوله ﷺ.

وجاء لفظ (حرب) نكرةً ليفيدَ تعظيم أمر هذه الحرب، فهي حرب عظيمة، لا تعلمون كيفيتها، ولا وقتها، ولا وسائلها، حرب من الله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، حرب في أموالكم وفي أجسامكم، وفي قلوبكم، وعقولكم، ونفوسكم، وفي مجتمعاتكم، وفي تسليط عدوّكم عليكم... حرب مستمرة لا هوادةَ فيها ولا رحمة، حتى تستسلموا لأحكام الله تعالى وشريعته، وتتوبوا عن مجاوزة حدوده.

وخطاب الآية بصيغة الجمع يدلّ على المسؤولية الجماعية للمجتمعات التي ينتشر فيها التعامل بالربا، كما أنّ هذا المستوى المُخيف في التهديد والوعيد، الذي لم تستعمله الآيات إلّا مع أكَلَة الربا، يدلّ على خطورة الربا أولاً، وعلى شدة وقسوة وتحجُّر نفوس المُرابين ثانياً، فلا ينقادون ويستسلمون لأحكام دين الله تعالى إلّا بعد إعلان الحربِ عليهم من الله تعالى ومن رسوله ﷺ.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: وتركتم التعامل بالربا.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: فلكم الحقّ بمطالبة المدينين والمستقرضين

برؤوس أموالكم التي دفعتموها لهم، فالإسلام شريعة الله تعالى، لا يُحابي أحداً على حساب أحدٍ، ولا ينقص حقّاً لأحد مهما كان.

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: لا تَظْلِمونَ بأخذ أيّ زيادةٍ على رؤوس أموالكم.

فالربا حرام سواء كانت الزيادة كثيرة أم قليلة، وسواء كان الاستقراض للاستثمار أم للاستهلاك، فالآيةُ تردُّ على الذين يستحلّون قليل الربا، ويستحلّون الربا الذي يكون في قرض للاستثمار، فكل صور الربا حرام، لأنّ الله تعالى شرع لأصحاب الأموال أن يستردّوا أموالهم فقط دون أيّ زيادة عليها.

وقد نادى النبيُّ ﷺ بتحريمه على الإطلاق في خطبة حجّة الوداعِ، عندما قال فيها: «**ألا وإنّ كلَّ رباً من ربا الجاهليةِ موضوع، لكمْ رؤوسُ أموالكم لا تَظْلِمونَ ولا تُظْلَمُوْنَ**» [رواه أبو داود (٣٣٣٤)].

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: ولا يجوز للمستقرِض أو المَدين أن يردّ أقل مما أخذ، وإن فعل ذلك فهو ظالمٍ، فإذا كان المَدين قادراً على الوفاء، ولم يؤدِّ ما عليه يعدّ ظالماً، ويجبر على الوفاء شرعاً، وإن أصرّ على المماطلة عوقِبَ بالسجنِ، وللقاضي أن يبيعَ أموالَه لوفاء دينه.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**مُطْلُ الغَنِيِّ ظُلمٌ، وإنْ أُتْبِعَ أحدُكم على مليءٍ فليتّبِعْ**» [رواه مسلم (١٥٦٤)].

وبوّبَ الإمامُ البخاريُّ في «**صحيحه**» في **(٤٣)** كتاب الاستقراض، فقال: **(١٣)** بابٌ: لصاحبِ الحقِّ مقالٌ، ويذكر عن النبيّ ﷺ: «**ليُّ الواجدِ يُحِلُّ عقوبتَه وعِرْضَه**».

و**(اللَّي)** بالفتح: المطل. و**(الواجد)** من الوُجْد بالضم، يعني القدرة.

والحديث المذكور وصله أحمد [١٨١١٠] وإسحاق في «**مسنديهما**»،

وأبو داود [٣٦٢٨] والنسائي [٤٦٨٩ و٤٦٩٠] وإسناده حسن، واستدلّ به على مشروعية حبس المدين إذا كان قادراً على الوفاء، تأديباً له وتشديداً عليه[١].

وهذا يدلّ أيضاً على أن نظام الفائدة الربوية المرتبطة بالأجل لا تجوز في الإسلام، والمدين الغني إذا تأخر عن الوفاء يُحبس تشديداً عليه، ولا توضع عليه الفوائد الربوية بسبب تأخّره، كما هو الحال في تعامل الناس مع المؤسسات الربوية في هذا العصر.

• **الأخلاق الإسلامية في المعاملات المالية:**

وأما إذا كان المدين معسراً، لا قدرة له على الوفاء، فإنه يُنْظَر ويُمْهَل حتى يتيسر له الوفاء، وهو ما بيّنه الله تعالى في قوله بعد آيات الربا:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: إن وُجِدَ ذو عسرة فإمهالٌ وتأخيرٌ إلى زمن اليسار، وهو ضدّ الإعسار.

ولا يجوز في هذه الحالة لأصحاب الأموال أن يطالبوا المَدين بفوائد ربوية تقابل إمهاله وإنظاره، كما كان أهلُ الجاهلية يفعلون، يقولون للمعسِر: إمّا أن تقضي وإما أن تُربي. وهكذا حتى تبلغَ الفوائد الربوية أضعاف الدَّين المستقرض، وهو ما تفعله الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرِضة، إنهم باسم المساعدات الاقتصادية الربوية، التي يقدّمونها للشعوب الفقيرة، يمتصّون خيرات وجهد هذه الشعوب الضعيفة، فيزداد الفقراءُ فقراً وضنكاً، ويزدادُ الأغنياءُ جشعاً وشرهاً وسرفاً وترفاً، ولهذا أنزل سبحانه قوله الكريم، يخاطب المُرابين في الجاهلية، الذين كانوا يأكلون الربا أضعافاً

(١) انظر: فتح الباري: ٥/ ٦٢.

مضاعفة بسبب عجز وضعف المدينين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

فالأخلاق في الشريعة الإسلامية لا تنفصل عن الأحكام، ولو كانت في المعاملات المالية، وإنظار المُعسِر خُلُقٌ كريم ألزم الله تعالى به أصحاب الأموال الدائنين، في هذه الآية الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التعاون في المجتمع الإسلامي، القائم ـ كما مرّ ـ على التكافل والتعاون.

ثم ارتفعت الآيات بالإنسان المسلم إلى أُفق خلقي كريم أسمى من الأول، بقوله تعالى:

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بإبراء المعسر عن بعض المال، أو عن كلِّه.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ أي: أكثر ثواباً من الإنظار والإمهال.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ما فيه من خير كبير في الدنيا، والعاقبة الطيبة الحسنة في الآخرة.

وتدلّ الآيةُ على أنَّ إبراءَ المدين أمرٌ مندوبٌ إليه، أمَّا إنظار المعسِر فواجبٌ لازمٌ، وقد حثّ النبيُّ ﷺ في عدد من الأحاديث الشريفة على التجاوز عن المعسر:

منها: ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كانَ رجلٌ يُدايِنُ الناسَ، فكانَ يقولُ لفتاه: إذا أتيتَ مُعْسِراً فتجاوزْ عنه، لعلَّ اللهَ يتجاوزُ عنا، فلقي اللهَ فتجاوزَ عَنْهُ**» [رواه مسلم (١٥٦٢)].

وطلب **أبو قتادة** رضي الله عنه غريماً له، فتوارى عنه ثم وجده، فقال: إنّي مُعْسِرٌ، فقال: آللهِ؟ قال: آللهِ، قال: فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَنْ سَرّه أن ينجيه اللهُ من كُرَبِ يومِ القيامةِ فلينفِّسْ عن معسرٍ أو يضعْ عَنْهُ**» [رواه مسلم (١٥٦٣)].

وحتى تتمكن هذه الأخلاق الكريمة في نفوس المؤمنين، حرصت الآيات الكريمة في السورة ـ كما لاحظنا ـ على ربط الأحكام الشرعية العملية بالتقوى،

وها هي الآن ـ كما عوّدتنا ـ تتوجّهُ إلى المؤمنين، بعد أن حرّمت عليهم التعامل بالربا، تعظهم وتذكّرهم بمسؤوليتهم الكبرى أمام الله تعالى يوم القيامة:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهو يوم المسؤولية والحساب والجزاء.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما صدر عنها من خير أو شر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمون أبداً في ذلك اليوم، فلا تنقص حسناتهم ولا تُزاد سيئاتهم.

والجدير بالذكر: **أنّ هذه الآية هي آخر آيات القرآن الكريم نزولاً على النبي ﷺ، بها خُتم الوحي، وانقطعت النبوّة، وعاش النبيُّ ﷺ بعد نزولِ هذه الآية تسعَ ليالٍ، ثم توفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول**[1].

قال الإمام البخاري في «**صحيحه**»، في **(٦٥)** كتاب التفسير: **(٥٣)** باب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ثم ساق بسنده [٤٥٤٤] عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: آخرُ آيةٍ نزلت على النبيِّ ﷺ آيةُ الربا.

قال ابن حجر رحمه الله: «وجاء عنه من وجهٍ آخر: آخرُ آيةٍ نزلت على النبيّ ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] أخرجه الطبري من طرق عنه، وطريق الجمع بين هذين القولين أنَّ هذه الآية هي ختامُ الآياتِ المنزلة في الربا، إذ هي معطوفة عليهنّ»[2].

- **توثيق الحقوق في المعاملات المالية:**

ثم بيّنت الآيات بمناسبة تحريم الربا وتشريع إنظار المَدين أو إبرائه، أهم الوسائل المشروعة لتوثيق الحقوق وضمان وفائها لأصحابها، بقوله تعالى:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٢.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٢٠٥.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: إذا تعاملتم بالدين.

وحقيقةُ الدَّين عبارةٌ عن كل معاملة، كان أحدُ العوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة ـ مؤجّلاً ـ فإنَّ العينَ عند العرب ما كان حاضراً، والدَّين ما كان غائباً(١).

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة محددة، وهذا يدلُّ على وجوبِ أن يكون أجل الدَّين معلوماً في العقد قطعاً للمنازعة.

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: وثِّقوا عقد التعامل بالدين بالكتابة، سواء كان بيعاً أم سَلَماً أم قرضاً عند القائلين بجواز تأجيل القرض، لأنَّ الكتابةَ تَحْفَظُ الحقَّ، وتدفع النزاع، والشريعة الإسلامية تحرص على حفظ الحقوق، وإزالة أسباب الخلاف والنزاع بين المتعاملين.

والأمر بالكتابة في الآية للإرشادِ والاستحبابِ، لا للإيجابِ، كما سيأتي.

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ٣٧٧.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: لما حرّم الربا أباحَ السَّلَمَ. وقال: أشهدُ أنَّ السلفَ المضمونَ إلى أجلٍ مسمًّى قد أحلّه الله في كتابه وأذِنَ فيه[1].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما أيضاً قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: «**مَنْ أسلفَ في شيءٍ ففي كيلٍ معلومٍ ووزنٍ معلومٍ إلى أجَلٍ معلومٍ**» [رواه البخاري (٢٢٤٠)].

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ أي: ليكتب العقدَ بين الدائن والمَدين كاتبٌ بالحق من غير ميل إلى أحد الجانبين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ أي: ولا يمتنع كاتب أن يكتب كتاب الدَّين.

﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: فكما أنعم الله عليه وعلّمه الكتابة، فعليه أن يسخّرها لفائدةِ الناس عندَ الحاجة إليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وليكن المُملي مَنْ عليه الحقُّ؛ لأنَّه بالإملاءِ يقِرُّ على نفسه بالحق، فالشريعةُ الإسلامية حريصةٌ على حقوق الناس وتوثيقها، ولهذا أوصاه سبحانه بالتقوى.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: وعلى المُملي أن يتّقِ اللهَ الذي هو خالقه ومالكه ومُربيه، فإنَّه مسؤولٌ أمامه، فعليه ألّا يمتنع عن الإقرار بما عليه من حق.

﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾ أي: ولا ينقص من الحق الواجب عليه شيئاً.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: كان مبذّراً للمال مُفسِداً له.

ومَنْ كان كذلك فإنَّ الشريعةَ الإسلامية تمنعه من التصرّف في ماله، وتَحْجُرُ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي: كان ضعيفاً بسبب صغر أو جنون.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٢.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ أي: كان لا يستطيعُ الإفصاحَ والبيان بسبب خرس أو حُبسة في لسانه، كالفأفأة والتأتأة.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: فليملل صاحبُ الحق لأنّه أعلمُ بحقه.

أو: فليملل وليُّ الذي عليه الحق في حال عجزه عن الإملاء بنفسه.

ثم أضافت الآيةُ إلى توثيق الحق بالكتابة، وسيلة ثانية للتوثيق، وهي الشهادة بقوله تعالى:

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: اطلبوا أن يشهد على الحق شاهدان من المسلمين، فلا تُقبَل شهادة الكافر على المسلم، وتُقبَل شهادة الكافر على الكافر فقط.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان.

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين تعرفون أمانتهم وعدالتهم.

ثم بيّنت الآية الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل الواحد في المعاملات المالية، بقوله تعالى:

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: أن تنسى إحداهما، إذ تغلبُ على المرأة عاطفتُها.

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: فتذكّرها الأخرى.

وأفاد التصريح بـ ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ مرة ثانية، والعدول عن الضمير، عدم اختصاص الضلال بواحدة بعينها، والتذكير بالأخرى[١].

فلا يضيع شيء من الحق، لأنّ الإسلام حريصٌ على إيصال الحقوق إلى أصحابها كاملةً، ولهذا جعل شهادةَ المرأتين تعدِلُ شهادةَ رجل واحد، حيطةً للحقوق، وحرصاً عليها، وممّا يؤكد ذلك: أنه تُقْبل شرعاً في الإسلام شهادة المرأة وحدها في الموضوعات الخاصة بالنساء، والتي يكون اهتمامهنّ بها أكثر، ولا يطّلع عليها عادةً غيرهنّ، كالولادة والبكارة والثيوبة.

---

(١) روح المعاني: ٣/ ٥٩.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ أي: ولا يمتنع الشهداءُ عن تحمُّلِ الشهادة وأدائها، فالآية جمعت أمرين على جهة الندب[١].

ثم بيّنت الآيةُ فوائد توثيق الدَّين بالكتابة، وهي توصي المتعاملين به، أن يستمروا على ذلك، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ﴾ أي: لا تملّوا ولا تضجروا من كتابة الدَّين وبيان أجله، سواء كان قليلاً أم كثيراً.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل عند الله تعالى، لأنه سبحانه هو الذي شرعه لكم وحثّكم عليه.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: وأثبت للشهادة، وأعون على إقامتها وأدائها بشكل صحيح.

﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ﴾ أي: وكتابة الدَّين تجعلكم أقرب إلى عدم الشك في مقدار الحق والأجل والشاهد.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتم فيما بينكم يداً بيد من غير تأجيل.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ﴾ أي: فلا حرَج عليكم في ترك كتابتها.

وكما أوصت الآية بكتابة الدَّين والإشهاد عليه، أوصت أيضاً بالإشهاد على البيع:

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾ لأنّ الشهادةَ على البيعِ أحفظُ للحق، وتنفي أسباب الاختلاف والخداع والتنازع.

وكما حرصت الآية على توثيق الحقوق وضمان وصولها إلى أصحابها، حرصت أيضاً على حقوق الكاتب والشاهد، وعدم الإضرار بها، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ أي: لا ينبغي الإضرار بالشاهد والكاتب، بأن

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٥١٤.

يمنع الكاتب من أُجرة كتابته، أو يحرم الشاهد من مؤنة وكلفة حضوره، فذلك إضرار بهما.

ويمكنُ أيضاً حملُ الآية على معنى آخر، وهو: لا يضارّ كاتب بالامتناع عن الكتابة أو تحريفها، ولا يضارّ الشاهد بكتمان الشهادة أو تغييرها.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ﴾ أي: إن تفعلوا ما نُهيتم عنه من الضرار، فإنّه خروجٌ عن الطاعة وإثم لاحِقٌ بكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ بالتزام ما شرع لكم من أحكام، فإنّه تعالى ما شرعها إلا لمصلحتكم.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾.

- **توثيق الحقوق بالرهن:**

ثم شرعت الآيات وسيلة ثالثة لتوثيق الحقوق، وهي الرهن، بقوله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ أي: إن كنتم مسافرين، وتعاملتم بالدَّين، ولم تجدوا كاتباً يكتبه لكم، فخذوا من المَدين رهناً، حتى يؤدّي ما عليه من حق.

ومن المعلوم أنَّ أخذَ الرهن لتوثيق الحق جائزٌ في السفر والحضر، وعند وجود الكاتب والشاهد أو عند عدمهما، وخرج الكلام في الآية مخرجَ الغالب لا الشرط، إذ الغالب أنّ صاحبَ الحقِّ يحتاجُ إلى قبض الرهن ممّن عليه الحق في السفر، حيث لا يجد كاتباً ولا شاهداً، وقد ثبت في [صحيح البخاري (١٤٦١ و٤٤٦٧)]: «**أنَّ النبيَّ ﷺ توفيَ ودرعُهُ مرهونةٌ**».

ثم بيّن تعالى أنَّ وسائل التوثيق هذه، التي شرعها لنا في المعاملات المالية

الجارية بيننا، ليست لازمة واجبة، فعندما تشيعُ الثقةُ بين المتعاملين لا بأسَ أن يتبايعوا ويتعاملوا بالدَّين، من دون كتابة ولا إشهاد ولا رهن، مما يدل على سماحة الشريعة الإسلامية، وأنها لا تضعُ القيودَ على المعاملات بين الناس، إلّا حرصاً منها على حفظ حقوقهم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ولم يستوثق بالكتابة والشهادة والرهن.

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي: ينبغي أن يكونَ المَدينُ عندَ ظن الدائن الذي وثق به، وعليه أن يؤدّي الحق الذي اؤتمن عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فهو سبحان يعلم السرّ وأخفى.

وقد أمرنا الله تعالى بترك الخيانة وأداء الأمانة، ومن الأمانةِ أداءُ الشهادة، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى أدائها، فقد يؤدّي كتمانُها إلى ضياعِ الحق، فيقع كاتمها في الإثم:

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: فإنّه يأثمُ قلبُه، لأنه يكتم الشهادة في قلبه.

وإثمُ القلبِ أخطرُ أنواع الإثم، لأنَّ صلاحَ سلوك الإنسان وفساده متوقف على صلاح القلب وفساده، كما مرّ في الحديث النبوي الشريف: «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مضغةٌ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ، ألا وهي القلبُ**» [رواه مسلم (١٥٩٩)].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

- **إسلام الصحابة لله:**

وجاء في ختام السورة بيان مسؤولية الإنسان الكاملة عن أعمال جوارحه الظاهرة والخفيّة، بقوله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ أي: إن تُظْهِروا ما في أنفسكم من سوء أو تخفوه، فإنّه سبحانه يعلمه ويسألكم عنه.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده بفضله ورحمته.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ بعدله سبحانه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ فمشيئتُه سبحانه نافذةٌ، وقدرته كاملة.

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر الله تعالى أنّ له ملك السماوات والأرض وما فيهنَّ وما بينهنّ، وأنّه المطّلع على ما فيهنّ، لا تخفى عليه الظواهرُ ولا السرائر والضمائرُ وإنْ دقّتْ وخفيت، والآياتُ في ذلك كثيرة جدّاً، وقد أخبر في هذه الآية بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتدَّ ذلك على الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وخافوا منها ومن محاسبةِ اللهِ لهم على جليلِ الأعمالِ وحقيرِها، وهذا من شدّة إيمانهم وإيقانهم»[١].

وما قصده ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاء في الحديث النبوي الشريف:

عن **أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لمّا أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأتوا رسولَ اللهِ ﷺ ثم بركوا على الركب، وقالوا: أيْ رسولَ اللهِ، كُلِّفنا من الأعمالِ ما نطيقُ: الصلاةُ والصيامُ والجهادُ والصدقةُ، وقد أُنزلتْ عليكَ هذه الآية ولا نطيقُها!.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٦.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أتريدونَ أنْ تقولوا كما قالَ أهلُ الكتابين مِنْ قَبلِكُم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سَمِعْنا وأطعنا غفرانَكَ رَبّنا وإليكَ المصير**».

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليكَ المصير.

فلمّا اقترأها القومُ ذلّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخَها اللهُ تعالى، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قال: «**نعم**» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ «**قال: نعم**» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ قال: «**نعم**» ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال: «**نعم**» [رواه مسلم (١٢٥)].

وظهر لنا من هذا أنّ مِنْ أسبابِ يُسْرِ الشريعة الإسلامية وسماحتها، استسلام الصحابة لأمر الله تعالى وانقيادهم لأحكامه بينما كان التشديد في شريعة التوراة بسبب عناد بني إسرائيل وتعنّتهم، وعدم انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، وتقاعسهم عن تنفيذها، كما تقدّم في قصتهم مع البقرة التي أُمروا بذبحها [انظر: سورة البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

وظهر لنا بهذا أيضاً الاتّفاق والاتّساق بين آيات السورة الكريمة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، من أولها إلى آخرها، وأنها حقّاً جاءت لبيان حقيقة الإسلام لله تعالى، وكيف يكون، وبيان أثره في سهولة التشريع وتيسيره، فرضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ؛ فإنّ في إسلامهم لله تعالى، وانقيادهم لأحكامه: أثراً كبيراً في يُسْر الشريعة الإسلامية وسماحتها، فهم حَمَلَتُها والمؤتمنون عليها بعد رسول الله ﷺ، والمجاهدون الأولون في سبيل نشرها بين الأمم والشعوب، وهم أيضاً المُسارِعون إلى تنفيذ أحكامها، والمستسلمون لله

تعالى، والراضون بما رضيه تعالى لهم، رضي الله عنهم وأرضاهم، ولهذا أثنى الله على إسلامهم واستسلامهم بقوله:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾.

قال القرطبي رحمه الله: «مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقّة في أمر الخواطر عنهم، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمّهم وتحميلهم المشقّات، من الذلّة والمسكنة والانجلاء، إذ قالوا: سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان والتمرّد على الله تعالى، أعاذنا الله من نقمه بمنّه وكرمه»(١).

وقوله تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ شهادة ربّانية رفيعة دلّت على صحّة إيمانهم رضي الله عنهم وصدق يقينهم، ذكر الله تعالى فيها إيمانهم معطوفاً على إيمان الرسول ﷺ.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الذين أخبرَ اللهُ سبحانه عنهم، فهم من الغيب الذي دلّ عليه الخبر الصادق، كما مرّ في أول السورة [٣]: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: كتبه التي أنزلها على رسله، وذكرها سبحانه في القرآن الكريم، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: الذين أرسلهم سبحانه إلى عباده، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ أي: لا نفرّق بينهم بالإيمان، فنؤمن ببعضهم ونجحد رسالة بعض، كما فعل اليهود والنصارى، فقد حكم الله عليهم بالكفر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ٤٢٧.

نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النِّسَاء].

أما المسلمون الذين يؤمنون بأن الإسلام لله تعالى هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

ثم أخبرت الآيةُ عنهم أنهم أضافوا إلى إيمانهم وتصديقهم، إعلانهم الانقياد والإذعان لدينه سبحانه وشريعته:

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: نسألك يا ربنا أن تغفر لنا، فنحن مفتقرون إلى رحمتك وإحسانك ومغفرتك، وإنّ مرجعنا يوم القيامة إلى حكمك.

ولا شكَّ أنَّ هذا إقرار منهم بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وبهذا يكونون قد جمعوا أركان الإيمان الأساسية، التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والتي تقدّم ذكرها أيضاً في آية البرّ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ . . .﴾ [البقرة: ١٧٧].

- **التكليف منوط بالوسع:**

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلّا ما تتّسع له قدرتها، ولا تضيق عنه.

فالوسع: اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه[1].

فالإنسان يستطيعُ أن يقومَ بما كُلّف به، وبما هو أكثر منه، وهو مبدأ أساس من مبادئ التكليف في الشريعة الإسلامية، تمتاز به على غيرها من الشرائع الإلٰهية، فهي شريعة رحمة وسماحة، التكليفُ فيها منوطٌ بالوُسْعِ لا بالطاقة، وهي أعلى ما يستطيع الإنسان القيام به.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: لها ثوابُ ما كسبت من الطاعات والحسنات.

﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي: وعليها مسؤوليةُ ما اكتسبت من المعاصي والسيئات.

وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لَهَا﴾ من حيثُ هي مما يفرحُ المرءُ بكسبه ويُسَرُّ بها، فتضافُ إلى ملكه، وجاءت السيئاتُ بـ ﴿عَلَيْهَا﴾ من حيث هي أثقالٌ وأوزارٌ ومتحمّلات صعبة[2].

وأفاد قولُه تعالى في الطاعات: ﴿كَسَبَتْ﴾ شمولها بفضله تعالى لكسب القلب وقصده فعل الخيرات والطاعات، فإنَّ صاحبه يُثابُ عليه ولو لم يفعله، وأمَّا في جانب المعاصي فلا مؤاخذة للإنسان على همّه وعزمه، حتى يباشرها فعلاً، ولهذا قال تعالى فيها: ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ الله تجاوزَ لأمتي ما حدّثتْ به أنفسها ما لم يتكلّموا أو يعملوا به**» [رواه مسلم (١٢٧)].

وقال ﷺ: «**قال اللهُ ﷻ: إذا هَمَّ عبدي بسيئةٍ فلا تكتبوها عليه، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها سيئةً، وإذا هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها فاكتبوها حسنةً، فإنْ عملَها فاكتبوها عشراً**» [رواه مسلم (١٢٨)].

ثم علّمنا سبحانه كيف نلجأ إليه داعين ضارعين، فما أعظمَ رحمته بنا جلّ

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٤٥١.

(٢) تفسير القرطبي: ٣/ ٤٣١.

وعلا! يعلّمنا كيف نسأله، ويجعلنا نقفُ على أبواب فضله ورحمته، ليتفضّل علينا بفيوضات إحسانه وكرمه:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا إن صدر منّا بحكم ضعفنا وقصورنا في حال النسيان والخطأ شيءٌ من المخالفة والعصيان.

وقد فعل سبحانه ذلك، كما مرّ في [حديث مسلم (١٢٧ و١٢٨)]، وقرّره ﷻ في عدد من الآيات الكريمة، كقوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال ﷺ: «**إنّ اللهَ وضعَ عن أُمتي: الخطَأَ، والنسيانَ، وما استُكْرِهُوا عليه**» [رواه ابن ماجه (٢٠٤٥) وابن حبان (٧١٧٥)].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي: ثقلاً في التكليف والتشريع.

وقد فعل سبحانه ذلك، فجاءت أحكام الشريعة الإسلامية سهلة ميسّرة، لا حرج فيها.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ كبني إسرائيل، الذين شدّد الله تعالى عليهم، كما تقدّم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء الشديد، والمِحَن الكبيرة بسبب معاصينا.

وكأنهم سألوه تعالى أن يعاملهم بفضله ورحمته وعفوه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولهذا سألوه بعد ذلك العفو والمغفرة والرحمة:

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ بالتجاوز عن ذنوبنا فيما بيننا وبينك.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ بسترها، فلا تفضحنا فيما بيننا وبين عبادك.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ بحفظنا من الذنوب والمعاصي، وتوفيقنا إلى طاعتك وعبادتك، فلا غنى لنا عن رحمتك.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: متولّي أمورنا وناصرنا، فلا حول لنا ولا قوة إلّا بك.

﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا نصر لنا عليهم إلّا بتأييدك ومعونتك. اللهمّ آمين.

وقد ورد في فضل هاتين الآيتين في خاتمة سورة البقرة، عددٌ من الأحاديث النبوية الشريفة:

مرّ معنا منها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **بينما جبريل قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ سمع نقيضاً منْ فوقِهِ، فرفَعَ رأسَه فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتِح اليومَ، لم يفتحْ قطُّ إلّا اليومَ. فنزلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فقال: هذا مَلَكٌ نزلَ إلى الأرضِ، لم ينزلْ قطُّ إلّا اليومَ. فسلَّمَ وقال: أبشِرْ بنورينِ أُوتيتَهُما، لم يؤتَهُما نبيٌّ قبلَكَ، فاتحةِ الكتابِ وخواتيمِ سورةِ البقرةِ، لن تقرأَ بحرفٍ منهما إلّا أعطيتَهُ.** [رواه مسلم (٨٠٦)].

ومنها أيضاً: حديث **أبي مسعود الأنصاري** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ قرأَ بالآيتينِ مِنْ آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفتاه**» [رواه البخاري (٥٠٠٩)].

وقوله: «**كفتاه**» أي: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن، وقيل: معناه كفتاه كلَّ سوءٍ، وقيل: دفعتا عنه شرّ الإنس والجنّ، وقيل: من الآفاتِ، ويحتمل من الجميع[(١)].

اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) فتح الباري: ٩/٥٦.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

في سَبَب نزول سورة آل عمران

● **وفد نجران:**

أجمع علماءُ التفسير والسيرةِ النبوية الشريفة على أنّ صدر سورة آل عمران نزل بسبب قدوم وفد نصارى نجران(١) على النبيِّ ﷺ في المدينة المنورة، وأنَّ قلْبَ السورة نزل بمناسبة غزوة أحد.

وذكر ابنُ هشام في «السيرة» أمرَ قدومهم، ولكنّه لم يذكر تاريخه، فقد ذكره في سياق مواقف اليهود والنصارى والمنافقين من النبيِّ ﷺ بعد الهجرة، التي ذكرها مجملةً قبل أن يشرع في سرد الأحداث التي جرت بعد الهجرة، فقال: قال ابن إسحاق: وقدم على رسولِ اللهِ ﷺ وفدُ نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثةُ نفرٍ إليهم يؤول أمرهم، وهم:

---

(١) **نجران**: وادٍ يقعُ في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية على حدود اليمن، اشتهر بسبب موقعه وكثرة مياهه وخصبه، ومركزه مدينة نجران التاريخية القديمة.

ـ **العاقب**: أميرُ القومِ، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

ـ **والسيد**: لهم ثمالهم (مرجعهم)، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

ـ **وأبو حارثة بن علقمة**: أحدُ بني بكر بن وائل، أسقُفهم وحَبْرهم وإمامهم، وصاحب مِدْراسهم(١).

وكان أبو حارثة قد شَرُف فيهم، ودرس كتبهم، حتّى حَسُنَ علمُه في دينهم، فكانت ملوكُ الروم من النصرانية قد شرَّفوه وموّلوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات، لِمَا يبلغُهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

قال ابن هشام: وبلغني أنّ رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم، فكلّما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، خُتِمَ على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيسُ الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي، فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعدُ، يريد النبيَّ ﷺ، فقال له أبوه: لا تفعل، فإنّه نبيٌّ، واسمُهُ في الوضائع، يعني الكتب. فلمّا مات لم تكن لابنه هِمّةٌ إلا أن شدَّ فكسر الخواتم، فوجدَ فيها ذكر النبيِّ ﷺ، فأسلمَ فحسن إسلامه، وحجَّ، وهو الذي يقول:

إليكَ تعدو قلقاً وَضِيْنُها(٢)
مُعْتَرِضاً في بَطْنِهَا جَنِيْنُها
مخالفاً دينَ النصارى دينُها

وذكر ابنُ هشام روايةً أخرى تدل على أنّ الحادثة حدثت مع أخيه كرز بن علقمة، وأنّه قال لأخيه عندما سأله عن سبب عدم إسلامه: ما صنع بنا هؤلاء

---

(١) **المدراس**: مدرسة للعلوم الدينية.

(٢) **الوضين**: حزام الناقة.

القوم (الروم)؛ شرَّفونا وموَّلونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منا كلَّ ما ترى، فأسلمَ كِرْزُ بعد ذلك، وحدَّث عنه هذا الحديث.

ولمَّا قدموا على رسول الله ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صلَّى العصر، وعليهم ثياب الحبرات[١]، وجُبب وأردية[٢]، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، فقال بعض الصحابة: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلّون، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**» فصلوا إلى المشرق[٣].

- **تاريخ قدومهم:**

وإغفالُ ابن هشام ذكرَ تاريخ قدومهم جعل بعض المُحْدَثين من المفسرين يرى احتمال قدوم الوفد في وقت مبكر جدّاً من العهد المدني، فقال:

«فرغم ما يبدو لأول وهلة من عدم احتمال ذلك، استناداً إلى ما هو معروف من ظروف السيرة النبوية، ومن كون النبيِّ ﷺ إنّما أرسل رسله وكتبه إلى أطراف الجزيرة وخارجها في السنة السادسة من الهجرة، إلا إذا كان خبرُ انتصار النبي ﷺ على قريش في بدر، قد أدهشَ الناس، وجعل رؤساء نصارى نجران يفدون على النبي ﷺ لاستطلاع النبأ، فإذا صحَّ هذا، وصحَّ معه أنَّ هذا الوفدَ قد قدم إلى المدينة قبل وقعة أحد، فيكون وضع السورة في الترتيب بسبب ذلك.

وإذا صحَّ خبر شهادة أبي سفيان على العهد الذي كتبه النبيُّ ﷺ لنصارى نجران بعد نحو سنة من الفتح المكي، فيكون ذلك حادثاً ثانياً.

وقد ذكرت الروايات أنَّ السنة التاسعة للهجرة كانت سنةَ قدوم الوفود من

---

(١) **الحبرات**: من ثياب اليمن.

(٢) **جبب وأردية**: جمع جُبة ورداء.

(٣) عن سيرة ابن هشام، بتصرف واختصار.

كافّةِ أطراف الجزيرة . . . ومن المحتمل أن يكون وَفَدَ عليه فِيمَنْ وفد جماعة من نصارى نجران، فكتب لهم النبيُّ ﷺ العهدَ المرويَّ»(١).

ولجأ إلى هذا التكلّف صاحبُ «التفسير الحديث» لأنّه بنى تفسيره على أسباب النزول، ولهذا يريد أن يكونَ قدومُ وفد نجران قريباً من غزوة أحد التي أنزل الله فيها ما يقاربُ من ستين آية من آيات سورة آل عمران.

ولا حاجة بنا إلى كل هذا التكلّف، فليس من الضروري أن يكون ترتيب الآيات في السورة تابعاً لترتيب نزولها أو لأسبابه، فكثيراً ما نرى آيات متقدمة في الذكر ومتأخرة في النزول، فترتيب الآيات في السور مستقل عن ترتيب نزولها، ولا مانع أن يكون صدر سورة آل عمران الذي نزل بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران في العام التاسع من الهجرة متأخراً في النزول عما بعدها من آيات نزلت في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة.

المهم وحدة موضوع آيات السورة، والاتساق والاحتباك فيما بينها، رغم اختلاف أوقات نزول الآيات، وتعدد أسبابه. وهذا في الحقيقة، وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإن هذا التفسير ليستهدف إظهار هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني بشكل عملي وموضوعي.

والجدير بالذكر أنّ ابنَ كثير رحمه الله قد أكد أنَّ قدوم وفد نجران كان في سنة تسع، فقال: والفرضُ أن وفودهم كان في سنة تسع، لأنَّ الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدَّى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما نزلت بعد الفتح(٢).

❁ ❁ ❁

(١) انظر: التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة: ٨/ ٧١.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٩.



القرآن والإسلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا
تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا
بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن
لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ
كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم
مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ
﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ
وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا
ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ
﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى
ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا
يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ
أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى
صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ
أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى
يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

- **مَوضُوع سُورة آل عمران:**

برزَ موضوع السورة في أول آياتها، في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ من الحروف المقطعة، ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معانيها، وكثرة الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أنَّ الإنسانَ مهما تدبر كلمات الله في القرآن الكريم، فلن يقف على معانيها كلها، ولن يحيط بأسرارها، ولهذا ذهب أكثرُ علماء التفسير إلى القول بأنّ معاني هذه الحروف ممّا استأثرَ الله تعالى به، فهي من الآيات المتشابهة، التي سيأتي الحديث عنها.

وأما الذين فسروها، فذهب أكثرُهم إلى أنّها ذُكرتْ بياناً لإعجاز القرآن، وعَجْز الخلق عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

ولقد انتصر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة تفسيره لهذا الرأي، فبعد أن ذكره وذكر القائلين به من العلماء، قال: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة؛ مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البَقَرَة]... وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»(١).

ولو أمعنا النظر في آيات سورة آل عمران لوجدنا ما يدل على صحة ما ذكره ابن كثير، فالقرآن الكريم أحد المحاور الرئيسة لموضوع السورة، كما سيأتي معنا.

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

• **الحي القيوم:**

بدأت السورةُ بقوله تعالى على وجه الحزم والجزم:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

فهو سبحانه وحدَه المستحقّ للعبادة والطاعة لا غيره، ووقع الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجاء ما بعده خبراً له، و﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ خبر آخر، أي: هو الحيُّ القيُّوم. ومعنى ﴿ٱللَّهُ﴾ المعبود و﴿ٱلۡحَيُّ﴾ ذو الحياة الحقيقية التي لا موت معها[١].

فحياتُه سبحانه صفةٌ قائمةٌ في ذاته المقدسة، تدل على كماله ووجوده، وهي غير مكتسبة كحياة المخلوقات، وغير مسبوقة بعدم، ولا يلحقها فناء وانتهاء، ولهذا ذهب بعضُهم إلى أنَّ معنى ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيل للموت والفناء عليه[٢].

فهو سبحانه الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، وهو لهذا منزّهٌ عن أن يكون له ولد، لأن الولد يكون لمن يلحقه الزوال والفناء، فيكون الولد امتداداً لوجوده بعد موته وفنائه، والله سبحانه يتنزه عن ذلك، فهو ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ أزلاً وأبداً.

ومعنى ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ القائم بذاته، فلا يحتاجُ ـ جلّ وعلا ـ إلى أحد، والمقيم لغيره، فكل ما سواه قائم به، يستمد وجوده وقيامه منه سبحانه، فجميع المخلوقات مفتقرة إلى الله ﷻ، وهو غني عنها، ولا قيام لها ولا وجود من دون أمره ومشيئته، فهو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية[٣].

وهذا أيضاً ينفي أن يكون له ﷻ شريك، أو صاحبة، أو ولد، لأنه القيوم

---

(١) نظم الدرر: ٤/ ٢٠٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٣٠.

بنفسه والقائم على كل نفس سواه، تقدست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة تدلُّ على أنَّ اسمَ الله الأعظم في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

فعن **أسماء بنت يزيد بن السَّكَن** قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران]: «**إنّ فيهما اسم الله الأعظم**» [رواه أحمد (٦/ ٤٦٢)].

- **الخلْق والأمر:**

وقيامه سبحانه على الخَلْق ليس قاصراً على إيجادهم وإمدادهم، فهو سبحانه قائمٌ عليهم بالأمر أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبلَّغهم سبحانه أمره بوساطة رسله وكتبه، وهو ما أخبر عنه في قوله جل وعلا، في معرض بيان فضله على خلقه، مخاطباً خاتمَ أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نزَّل عليكَ القرآنَ على التدرّج بالحق الثابت الذي لا يتغيّرُ ولا يتبدل، وكل ما يخالفه باطل.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يشهد بصدق ما أنزل الله تعالى قبله من الكتب.

فالقرآنُ الكريمُ هو المرجعُ الذي ينبغي الرجوعُ إليه لمعرفة صحة الكتب التي يُدَّعى أنّ الله تعالى أنزلها، لأنه خاتم الكتب، وقد تكفَّل الله تعالى بحفظه، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلَت].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩][(١)].

وقد جعل الله تعالى القرآن الكريم شاهداً ومؤتمناً على الكتب التي أنزلها قبله، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، فإن اسم **المهيمن** يتضمن معنى الأمين، والشاهد، والحاكم على كل كتاب قبله، وهذا يدل على أن شريعة الإسلام ناسخة لكل الشرائع الإلٰهية التي أنزلها الله تعالى قبلها[(٢)].

وقد شهد القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: أنزلهما لهداية الناس الذين أنزلا إليهم.

فالمرادُ **بالناسِ** بنو إسرائيل، الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل.

- **الفرقان:**

وقال بعد ذلك:

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الكريم، الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فهو الفرقان لقوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: ١].

ودلَّ ذكره مرةً ثانيةً في الآية بهذه الصفة **(الفرقان)** على أنه المرجع لجميع الناس، لمعرفة الدين الصحيح، الذي تعبَّدهم الله تعالى به، ففيه كلمة الفصل بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، ولا يجوزُ بعد نزوله الرجوع إلى غيره من الكتب، فالفرقان في القرآن لا في غيره، بعد أن أنزله الله تعالى مصدِّقاً للكتب

(١) انظر: تفسير سورة الحجر (الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

السابقة ومهيمناً عليها. ولا يقبلُ الله مِنْ أحدٍ ديناً غير دين الإسلام الذي دعا إليه القرآن، وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

فالقرآن ناسخ لكل ما سبقه من الكتب والشرائع الإلـٰهية، ولا يقبل الله إلا دين الإسلام، وشريعته شريعة القرآن، ذلك هو الموضوع الأساس الذي تدور سورة آل عمران في فلكه، كما سيظهر لنا من خلال آياتها الكريمة.

ومن يُعْرِضْ عن رسالة القرآن ويكذِّبْ بآياته فهو كافرٌ، مهما كان الدين الذي يتمسك به:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في القرآن الكريم وفي الكتب المنزلة من قبله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم وإعراضهم عن القرآن.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو سطوة وتسلُّط، يعاقب من يشاء بجنايته.

وأي جناية أعظمُ من تكذيبِ آياته تعالى، ووصفه جل وعلا بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله، ووحدانيته، وقيوميته، وكمال علمه، وقدرته؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾.

فله سبحانه كمال العلم المحيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

- **التصوير في الأرحام:**

وهو سبحانه قائم عليكم منذ بداية وجودكم:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: هو الذي يصوركم وأنتم في أرحام أمهاتكم، فيعطي كل واحد منكم صورته وملامحه المميزة له عن غيره،

كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار].

فصورتك التي أنت عليها، وما تحمل من خصائص وميزاتٍ تميزك عن غيرك، وتبرز هويتك وحقيقتك المتميزة، هي من صنع الله تعالى وحده، الذي يتولى تصوير كل المخلوقات بمحض إرادته، ومطلق مشيئته، فالمصور من أسمائه الحسنى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤] فلا يستحق العبادة غيره:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد مع الحكمة التامة.

وفي هذا رد لشبهات النصارى في عيسى ؑ، فالله هو الذي صور عيسى في رحم أمه مريم، كما صور سائر المخلوقات، فهو مخلوق من خلق الله تعالى، وعبد من عبيده، وليس إلٰهاً أو ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

- **المحكم والمتشابه:**

ثم بيّنتِ الآياتُ بطلانَ الشبهة التي تمسك بها وفد نصارى نجران، وهي وصفُ القرآن الكريم لعيسى بأنّه كلمةُ الله وروحٌ منه، قال ﷻ:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ واضحةُ المعنى، ظاهرةُ الدلالة، محكمةُ العبارةِ، محفوظةٌ من الاحتمال والاشتباه[١].

(١) روح المعاني: ٣/ ٨٠.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هُنَّ الأصل والعمدة في القرآن، فغيرُها يُردُّ إليها في فهم آياته، ويرجع إليها عند الاشتباه[١].

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: وفي القرآن آياتٌ أخرى، تحتِملُ دلالتها موافقة الآيات المحكمة، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد[٢].

فمراد الله تعالى لا يتعارضُ ولا يختلف في كل آيات القرآن الكريم، إن ربي على صراط مستقيم.

ويدلُّ قولُه تعالى في **المحكمات**: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنها تشتمل على كل ما يُحْتَاجُ إليه في الدعوة من أصول الاعتقاد، والعبادة، والحلال والحرام، والأخلاق، والوعد، والوعيد، والأخبار، والقصص، والأمثال، وغير ذلك.

وأمّا **المتشابهات**: ففيها ما استأثر الله تعالى بعلمه، كوقت الساعة وأشراطها، والروح، والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وآيات صفات الذات الإلٰهية، التي يقصُرُ المخلوقون عن الإحاطة بكنهها وحقيقتها، **فنؤمن بثبوتها لله تعالى على المعنى اللائق به ﷻ، دون تعطيل لها، ولا تشبيه لله تعالى بخلقه.**

- **القلوب الزائغة:**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميلٌ عن الحقّ، ومجانبةٌ له.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: يتمسّكون بالمتشابه من آيات القرآن وحدَه، ويتعلّقون به، ولا يردونه إلى ما يطابقه من الآيات المحكمات، كي يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، ويُعْرِضون عن المحكم، لأنّه دافعٌ لباطلهم وزيفهم، وحجة عليهم.

ولهذا بيَّنَ سبحانه أغراضَهم الخبيثة الفاسدة في تمسّكم بالمتشابه، فقال:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٣؛ ومختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٦٤.

(٢) انظر: المختصر: ١/ ٢٦٤.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: طلباً لفتنة الناس عن دينهم.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطلباً لتأويله حسب ما يشتهون من التأويلات الزائفة الباطلة.

وهو ما فعله نصارى نجران، عندما احتجّوا لضلالهم وزيفهم بأنَّ القرآن ذكر بأنّ عيسى كلمةُ الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وأعرضوا عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزّخرُف: ٥٩].

وقوله أيضاً الذي سيأتي معنا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: ٥٩].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٧٢].

وغيرها من الآيات المحكمات الصريحات الواضحات التي تدل على أن عيسى عليه السلام عبد لله تعالى، ورسول من رسله، وخلق من خلقه.

فالواجب رد الآيات المتشابهة إلى المحكمة لفهم حقيقة معناها، والوقوف على مراد الله تعالى منها، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى لا تعارض فيه، يفسر بعضه بعضاً، ويشبه بعضه بعضاً، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وقوله سبحانه عن عيسى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ الآية [النِّسَاء: ١٧١] يشبه قوله جل جلاله في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: ٢٩].

فإضافةُ الروح إلى ذاته المقدسة إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ، مثل: بيتِ الله، وناقة الله، أو إضافةُ اختصاصٍ، لأنه سبحانه استأثر بعلم حقيقة الروح، فلا يعلمُ حقيقتها إلا هو جل جلاله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥].

والمراد من وصفه لعيسى بأنّه كلمته: الكلمة التكوينية التي خلقه الله تعالى بها، دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمرَان: ٥٩].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

- **الراسخون في العلم:**

فلا يستطيع أحد أن يقطع بالمعنى المراد للآيات المتشابهات بمعزل عن الآيات المحكمات، ما دامت الآياتُ المتشابهات تحتمِلُ عِدّةَ معانٍ، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أي: لا يعلم حقيقةَ المعنى المراد من المتشابه استقلالاً وابتداءً إلا الله تعالى.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: الثابتون في العلم، المتمكنون منه، الذين جمعوا في قلوبهم قوة الإيمان ورسوخَ العلم، يقولون: آمنا بالقرآن الكريم.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ أي: كلٌّ من المحكم والمتشابه حَقٌّ وصدقٌ من كلام ربنا جل وعلا، فكل واحدٍ منهما يصدّقُ الآخرَ، ويشهدُ له، وليس شيءٌ من عند الله بمختلف أو متعارض: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

فالراسخون في العلم يردون المتشابه إلى المُحْكَم، ولا يحاولون تأويل المتشابه بمعزلٍ عن المُحْكَم، وإذا لم يجدوا في المحكم ما يبيّنُ المعنى المراد من المتشابه توقفوا عن الخوض في معناه، وقالوا: الله أعلمُ بمراده وأسرارِ كتابه. ولهذا توقّفَ كثيرٌ من علماء التفسير عن الخوض في معاني الحروف المقطعةِ التي في أوائل بعض السور، وقالوا: إنّها من الآيات المتشابهة التي لا يعلمُ حقيقةَ معناها إلا الله تعالى، وكذلك فعل علماءُ السلف في بعض آيات الصفات، فقد صدّقوا بما أثبت الله تعالى فيها لنفسه من الصفات، من غير تشبيهٍ

ولا تعطيلٍ، وأمسكوا عن الخوض لمعرفة حقيقة معناها، واضعين نُصْبَ أعينهم قوله تعالى في الآيات المحكمات: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١]، وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] جَلَّ جَلَالُهُ وتباركت أسماؤه وتعالت صفاته.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ما يعرف هذه الحقائق وينتفع بها إلا أصحاب العقول، الذين يستعملون عقولهم بموضوعية، متجردين عن الهوى والزيغ.

• دعاء وابتهال:

ومن صفات الراسخين في العلم أنّهم لا يغترّون بعلمهم، وإنّما يقبلون على الله تعالى بضراعةٍ وخشوعٍ، يسألونه الهدايةَ والتثبيتَ قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ أي: لا تُملها عن الهدى، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغٌ وإلحادٌ، وثبّتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم القديم.

﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ كثير الهبات عظيم العطايا.

فلا غنى للإنسان عن رحمة الله تعالى وهدايته مهما كان عالماً، وهذا رسولُ اللهِ ﷺ كان كثيراً ما يدعو الله قائلاً: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينك**» [رواه الترمذي (٢١٤٠)].

يفعلُ ذلك ﷺ تعليماً لأمته، وإرشاداً لهم، حتى قالت السيدة **عائشة** رضي الله عنها: بأبي أنتَ وأُمّي يا رسول الله، أتخافُ وأنتَ رسولُ اللهِ؟ فقال: «**يا عائشةُ إنَّ قلوبَ بني آدمَ بينَ أصبعين منْ أصابعِ الرحمن، فَمَنْ شاءَ أن يَقْلِبَهُ مِنَ الضلالةِ إلى الهُدَى، أو مِنَ الهُدَى إلى الضلالةِ فَعَلَ**» [رواه الطبراني، وله شاهد في صحيح مسلم (٢٦٥٤)، وسنن الترمذي من حديث أنس (٢١٤٠)].

وعنها أيضاً: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا استيقظَ من الليلِ، قال: «**لا إلـه إلا**

أنتَ سبحانك، اللهمَّ إنِّي أستغفرُكَ لذنبي، وأسألكَ رحمتَكَ، اللهمَّ زدني علماً، ولا تُزِغْ قلبي بعدَ إذ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ رحمةً، إنَّكَ أَنْتَ الوهّاب» [رواه أبو داود (٥٠٦١)].

ثم يؤكدون دعاءهم بإعلان إيمانهم وتصديقهم بيوم القيامة:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ لا شك فيه، وهو يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، ومن رحمته سبحانه، ولطفه بعباده الصالحين: تعليمهم هذه الدعوات، يستنزلون بها هدايته وتثبيته، ولو لم يكن العبدُ محتاجاً إلى تثبيت الله تعالى وهدايته ما علّمنا سبحانه مثل هذه الدعوات الكريمات.

- **أسباب الزيغ والضلال:**

ومن أكبر أسباب الزّيغ والضلال: الحرصُ على المصالح المادية والمراتب الدنيوية، وهو ما جعل كثيراً من أحبارِ ورهبانِ أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل، ويُعْرِضون عن الحق، ويطمسون معالمه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومرّ معنا في سبب النزول أنّ أسقفَ وفد نجران اعترف بصدق النبي ﷺ، ومنعه من الإيمان به حرصُه على ما كان الروم يقدّمونه له، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بسبب إيثارهم وحرصِهم على الأموال والأولاد والمراتب الدنيوية.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لن تنفعهم أموالُهم ولا أولادُهم، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله يوم القيامة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حطب النار، الذين تُسعَّر بهم يوم القيامة.

وشأن هؤلاء في استحقاق العذاب كشأن فرعون وملئه:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم يعلمون صدقها، وآثروا عليها شهواتهم ومنافعهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم بسبب ذنوبهم.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن أعرض عن آياته وكذب بها.

ويفشو هذا الأمر كثيراً بين المتأخرين من هذه الأمة، قال رسول الله ﷺ: «**بادِرُوا بالأعمالِ فِتناً كقِطَعِ الليلِ المُظْلِم، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً، ويُمْسِي كافراً، ويُمْسِي مؤمناً، ويُصْبِحُ كافراً، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِنَ الدنيا**» [أخرجه مسلم (١١٨)].

- **آية من الله تعالى:**

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يذكّرَ أهلَ الكتاب من يهودِ المدينة المنورة، بما حدث في غزوة بدر، عندما نصر الله تعالى الفئةَ المسلمةَ القليلةَ على الفئة الكافرة الكثيرة، فقال:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئس المهاد جهنم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ (١٣)﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: دليلٌ وبرهانٌ على أنَّ الله تعالى ناصِرٌ رسوله ﷺ، ومعزٌّ دينه، ومظهِرٌ كلمته.

﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ في بدر.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم البدريون من أصحاب الرسول ﷺ، وقد شهد الله تعالى لهم بإخلاص النيةِ في قتالهم ﵃.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش، الذين جاؤوا إلى بدر بطراً ورياء الناس.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي: يرى المشركون المسلمين مثليهم في العدد رؤيةً ظاهرةً في أعينهم، مع أنَّ الحقيقةَ مختلفةٌ عما تراه أعينهم، فقد كان المشركون يقاربون الألف، بينما كان المسلمون ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً.

وكانت هذه الرؤيةُ من أسباب النصر التي أيد الله تعالى بها المؤمنين في بدر، ولا تعارُضَ بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]، فقد حدث هذا في أوّل اللقاءِ، ليكونَ سبباً دافعاً لكلِّ فريق لقتال الآخر ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، ثم بعد بدء القتال قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين، تشجيعاً لهم على قتالهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وتأييداً لهم، وكثَّر المؤمنين في أعين المشركين.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ففي معركة بدر عبرة كبيرة، ودرس بليغ، لكلِّ مَنْ له بصيرةٌ وتعقلٌ، والعاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وُعظ بنفسه.

• **مقارنة:**

ثم عقدتِ الآياتُ مقارنةً بين ما في الدنيا من المتاع واللذائذ والشهوات، وبين ما أعدَّ الله تعالى لعباده الصالحين من النعيم في الجنة، من أجل تشويق المؤمنين إلى نعيم الجنة، ورفع هممهم إليها، وتزهيدهم بمتاع الدنيا الحقير القليل الزائل، ومن أجل بيان خساسة ودناءة أولئك المعرضين عن الحق، المكذبين لآيات الله تعالى، الذين آثروا المتاع الدنيوي الزائل على نعيم الجنة الخالد.

وهذه المقارنةُ أسلوبٌ من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، يبين الله تعالى فيها شدّة تأثير الشهوات المادية على الإنسان، وضعفَ كثير من الناس أمامها، فهي السببُ الرئيس لانحرافهم عن الحق. ومع البيان تحذير من خطر الاستجابة العمياء لها.

وجاء التعبير القرآني محكماً ودقيقاً:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ فهي شهوات محببة للناس، ومزينة لهم، وليست محرمة عليهم.

فالبنية المادية لجسم الإنسان مخلوقةٌ من تراب الأرض، وهو سبب كون هذه الشهوات الأرضية مزينة للإنسان، ومحببة إليه، ففي أصل بنيته الترابية ميلٌ إليها، وانجذابٌ نحوها.

فالآيةُ الكريمةُ تقرّر حقيقةً واقعيةً، ولا تمنع الإنسان من الاستجابة للواقع الذي جُبل عليه ضمن الحدود المشروعة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ

طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة](١).

وقال أيضاً: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

فهي شهواتٌ مستحبّة مستلذة، وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذارها ولا كراهتها(٢).

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فبدأ بالنساءِ، لأن الميلَ إليهنَّ فطري، يتصل بتناسل الناس وتكاثرهم، وبقاء جنسهم، أو لأنَّ الميل إليهنَّ أشدُّ:

فقد ثبت في «**الصحيحين**»: عن النبيِّ ﷺ: أنّه قال: «**ما تركتُ بَعْدِي فتنةً أضرَّ على الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» [رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)].

وإذا كان القصد بهنّ الإعفاف وكثرة الأولاد، فهو أمر مطلوب ومرغوب فيه، ومندوب إليه(٣).

فالزواج بالنساء سُنةٌ نبويةٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨]:

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ مِنَ الدُّنيا النِّساءُ والطّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ**» [أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) والنسائي (٣٩٣٩) والحاكم (٢/ ١٦٠)].

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ الأولاد الذكور، ولم تذكرِ الآيةُ الإناثَ، لأن حبهنَّ ليس

---

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٣٧٤.

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧٠.

مضطرداً عند جميع الناس، والآية تصفُ الواقعَ بقصد التزهيد بمتاع الدنيا، لا بقصد التشريع.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ أي: الأموال الكثيرة.

والتعبير بالقناطير المقنطرة يدلُّ على شدة حب المال عند الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وكما قال أيضاً: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

كما تدل على عدم قناعةِ الإنسان بالقليل من المال؛ قال رسول الله ﷺ: «**لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تابَ**» [رواه البخاري (٦٤٣٧) ومسلم (١٠٤٨)].

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: المطهّمة الحسان، أو المعلّمة بعلامات مخصوصة، تميزها عن غيرها، وتظهر جمالها وأصالتها، كالغرة في وجوهها، والتحجيل في أطرافها. وكان الأغنياءُ ـ ولا يزالون ـ يتنافسون في اقتناء الخيل، كمظهر من مظاهر الوجاهة والأبهة والثراء.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: وهي الإبل، والبقر، والغنم.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ في المزارع، والبساتين، والحدائق.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتع به في الحياة الدنيا، وهي زائلة قصيرة، لا تصفو من كَدَر، ولا تخلو عن غِيَر.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: حسنُ المرجع، والعاقبة الحسنة، كما قال في آخر السورة [١٩٨]: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

- **رضوان الله تعالى:**

وهكذا عرضت الآية الكريمة أهم شهوات الدنيا المادية، عرضتها لتبين قيمتها الحقيقية، بجانب ما أعد الله تعالى للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة، ليرفع هممهم، ويشد عزائمهم، فيتنافسوا في طاعته سبحانه، ويتسابقوا إلى رحمته وفضله:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ المتاع الدنيوي.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم بطاعته واجتناب محارمه.

وشعور التقوى شعور مهذِّب للروح والحس جميعاً، شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهواتُ وأن تنساقَ فيها البهيمية(١).

﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ من غير تعب ولا عناء، ومن غير همٍّ ولا حزن، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لا يهرمون، ولا يموتون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ عما يستقذر من نساء الدنيا خَلقاً وخُلُقاً.

وفوق كل ذلك:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو أعظم من كلِّ ما تقدم، فلا يتم نعيمُ الجنة إلا به، ولا تكتمل سعادةُ أهل الجنة إلا إذا علموا أنَّ الله جلّ وعلا راضٍ عنهم، فهو كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «**إنَّ الله ﷻ يقولُ لأهلِ الجنّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولونَ: لبيكَ ربنا وسعْديكَ، والخيرُ في يديكَ، فيقول: هل رَضِيْتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا وقد أعطيْتَنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقِكَ؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ مِنْ ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعدَه أبداً**» [رواه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩) والترمذي (٢٥٥٥)].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٣٧٥.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عليم بأحوال عباده، فيثيب المحسن بفضله، ويعاقب المسيء بعدله.

● **أساليب وفنون:**

وللقرآن الكريم أساليبُ رفيعةٌ، وفنونٌ رائعةٌ، في عرض مقاصده، وبيان أهدافه، **فبعد أن** عقد هذه المقارنة بين متاع الدنيا الزائل، وبين نعيم الجنة الخالد، فزهَّد النفوس بمتاع الدنيا، وشوَّقها إلى نعيم الجنة، وجعلها تتطلع إليه، وتسمو إليه بقلوبها وأرواحها إلى آفاقه المضيئة، **شرع** يبيّن مقاصده بأسلوب لطيف رهيف، تنشرحُ له الصدور، وتنجذبُ إليه النفوس.

وقبل أن يتساءلَ سامعُ هذه الآيات أو قارئها عن أصحاب هذا النعيم والرضوان، أتاه الجوابُ من العالم بهواجس النفوس، وخطرات القلوب؛ بقوله ﷻ:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ هذا هو المقصد الأساس الأول، الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

فلا يصل إلى نعيم الجنة والرضوان إلا المؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يتوجَّهون إلى الله تعالى بكل هذا الخشوع، والاستسلام لجلاله وكماله، ويسألونه المغفرةَ والسلامةَ، والوقاية من عذاب النار:

﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهو إقرارٌ بذنوبهم، واعترافٌ لله تعالى بتقصيرهم وضعفهم، ومثل ذلك لا يقدح بالتقوى إذا هُدم الذنبُ بالتوبة والاستغفار[١]، وسيأتي معنا ما يؤكد ذلك.

---

(١) نظم الدرر: ٣/ ٢٨٠.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يستدعي الإيمانُ بالله تعالى الصبر على طاعته، والصبر عن محارمه، والصبر عند ابتلائه وامتحانه.

﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ كما يستدعي أيضاً: الصدق والإخلاص في الأعمال والأقوال.

﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ ولا بدّ لهم أيضاً من المداومة على العبادات والطاعات، والثبات عليها، مع التعظيم لله تعالى وخشيته.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ وإنفاق المال في طاعته.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ ثم الإقبال على الاستغفار في أوقات تجلّياته على عباده برحمته، وهي السدس الأخير من الليالي قبل طلوع الفجر، والدعاء في هذا الوقت أقرب للإجابة، والعبادةُ فيه أشقُّ، والنفس أصفى، والقلب أنقى ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذّاريَات: ١٨].

وقد ثبت في «**الصحيحين**»: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ينزلُ اللهُ تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا، حينَ يبقى ثُلُثُ الليلِ الأخير، فيقول: هَلْ مِنْ سائلٍ فأعطيه؟ هل مِنْ داعٍ فأستجيبَ له؟ هَلْ مِنْ مَسْتَغْفِرٍ فأغفرَ له؟**» [رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)].

هؤلاء المؤمنون، الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون في طاعته، والمستغفرون بالأسحار، هم أصحابُ الجنة والرضوان.

ولسيد قطب رحمه الله عند هذه الآيات كلمات لطيفة فيقول: «وهكذا يبدأُ القرآنُ بالنفس البشرية من موضعها على الأرض... وشيئاً فشيئاً يرفُّ بها في آفاقٍ وأضواء حتى ينتهي بها إلى الملأ الأعلى في يسرٍ وهينة، وفي رفق ورحمة، وفي اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها، وفي مراعاةٍ لضعفها وعجزها، وفي

استجاشة لطاقاتها وأشواقها، ودون ما كبت ولا إكراه، ودون ما وقف لجريان الحياة»(١).

- **شهادة التوحيد:**

الدعوةُ إلى توحيد الله تعالى دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكلُّ الكتب التي أنزلها الله تعالى تنادي بها، وتدعو إليها، فهي دعوة التوراة والإنجيل والقرآن، وغيرها من الكتب المنزلة.

والمفروضُ أن يسارعَ أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى إلى قبول هذه الدعوة، التي نادى بها خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، فيؤمنوا بها، ويشهدوا على صحَّتها، وصدقها، ولهذا قال تعالى لهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرَة: ٤١].

ولكنّهم بدل أن يُقبلوا على دعوة التوحيد، ويؤمنوا بها، ويشهدوا على صحَّتها وصدقها، أعرضوا عنها، وكتموا الشهادة التي اؤتمنوا عليها، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، وغيروا وبدلوا الكتب التي أنزلها الله عليهم.

ولن تعدمَ دعوةُ التوحيد من يشهدُ لها، فإذا كتم أهلُ الكتاب شهادتهم لها، فإنّ الله تعالى بجلاله وكماله يشهدُ لها، وأهل سماواته من الملائكة والمقربين، وأولي العلم في أرضه يشهدون لها أيضاً.

إنّها الشهادة التي تغني عن كلِّ شهادة، لأنها أكبرُ وأعظمُ من كل شهادة، إنها شهادة الله لنفسه على وحدانيته وكماله جلّ وعلا، وهي الشهادةُ التي قصد

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٣٧٦.

إليها القاصدون، وسلك من أجلها السالكون، إليها انتهت الإشارةُ، وعندها وقفت العبارة، وهي أنهى المقامات، وأعظم الشهادات، فمن شهد بها فقد شهد شهادة ليس وراءها مرمى، ومن شهد بما دونها كانت شهادته مشهوداً عليها لا شهادة(١)، فمهما غيّرَ الشهداءُ وبدلوا أو كتموا فإنّ شهادة الله تعالى تكشف زورهم، وتفضح تحريفهم وتبديلهم:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فمضمون الشهادة أنه سبحانه المستحق للعبادة والطاعة وحده، فلا شريك له ولا ولد.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يشهدون ويقرّون، فلا يعبدون غيره، ولا يطيعون سواه جل وعلا.

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، فهم العلماء على الحقيقة، والعلم الذي لا يدلك على الله تعالى، ولا يقرّبك إليه، لا يكون علماً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨]، الذين انتفعوا بعلومهم، فعبدوا الله وحده، ونزهوه تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: مقيماً للعدل في جميع أموره، وهو بيانٌ لكماله تعالى في أفعاله إثْر بيان كماله في ذاته، ونُصِبَ على الحال، لأنه سبحانه في جميع أحواله كذلك(٢).

ثمَّ كرَّر سبحانه الشهادة تأكيداً لها، وأضاف إليها اسمين من أسمائه الحسنى، يدلان على صفتين من صفات كماله:

---

(١) نظم الدرر: ٣/ ٢٨٩.
(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٧.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، والملاحظ أنه سبحانه ختم بهذين الاسمين الكريمين عدداً من آيات سورة آل عمران ـ كما مرّ معنا ـ ولا يخفى الاتساق الباهر بين صدر الآية وذيلها.

فالعزيز: القوي القاهر الذي لا يُغلب، ولا يحتاج إلى شريك أو ولد، كما لا يحتاجُ إلى شهادة أحد يشهد على كماله ووحدانيته جل وعلا.

والحكيم: في كل أفعاله وأقواله، وفي قيامه بالقسط والعدل على جميع مخلوقاته.

ويجب على كل مسلم أن يشهد بهذه الشهادة بقلبه ولسانه ووجدانه، كما فعل رسول الله ﷺ فعن **الزبير بن العوام** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو بعرفةَ يقرأُ هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ثم قال: «**وأنا على ذلكَ مِنَ الشاهدينَ**» [رواه أحمد (١/١٦٦)].

- **وديعة عند الله:**

تعالَ يا أخي القارئ نشهد بما شهد الله تعالى به والملائكة وأولو العلم، وبما شهد به سيدنا رسول الله ﷺ، ونستودعُ الله هذه الشهادة إلى يوم القيامةِ، كما كان السلف يفعلون.

روى ابن كثير عن غالب القطان[١] قال: أتيتُ الكوفةَ في تجارة، فنزلتُ قريباً من الأعمش، فلمّا كانت ليلة أردت أن أنحدر[٢]، قام فتهجد من الليل، فمرّ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ...﴾ ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عنده وديعةٌ، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩] قالها مراراً، قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوتُ إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد إنّي سمعتُك تردّدُ هذه الآية، قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا

(١) من رواة السنة.
(٢) أسافر إلى البصرة.

عندك منذُ شهر لم تحدثني، قال: واللهِ لا أحدثك بها إلى سنة، فأقمتُ سنةً فكنت على بابه، فلما مضت السنة، قلت: يا أبا محمد قد مضت السنةُ، قال: حدثني أبو وائل عن **عبد الله** ـ ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاءُ بصاحِبها يوم القيامةِ، فيقول الله ﷻ: عبدي عهدَ إليَّ، وأنا أحقُّ مَنْ وفّى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة**» [رواه الطبراني في «الكبير»][1].

ويؤيده حديثُ البطاقةِ؛ وهو: عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله يَسْتَخْلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجلّاً، كُلُّ سِجِلٍّ مثلُ مَدِّ البَصَرِ، ثم يقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئاً؟ أظلَمَكَ كتبتي الحافظونَ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقول: أفلكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقولُ اللهُ تعالى: بلى إنَّ لكَ عندنا حسنةً، فإنّه لا ظلمَ عليكَ اليومَ، فتُخرجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ لا إلـٰه إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فيقول: احضُر وزنَكَ، فيقول: يا ربِّ ما هذِهِ البطاقةُ مع هذه السجلّاتِ؟! فقال: فإنَّكَ لا تُظْلَمُ. فتوضَعُ السجلّات في كفةٍ والبطاقةُ في كِفةٍ، فطاشتِ السجلّاتُ، وثقُلت البطاقةُ، فلا يثقلُ مع اسمِ اللهِ شَيْءٌ**» [رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي، والحاكم (١/ ٦) وصححه].

- **الإسلام دين الله ﷻ:**

وكما أنّه سبحانه واحدٌ فدينُه أيضاً واحدٌ، دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، إنّه الإسلام القائم على الاستسلام الكامل لله تبارك وتعالى وحده، إنّ الإسلام هو الدين الذي شرعه الله بالقرآن الكريم، وشرعه أيضاً بالتوراة والإنجيل قبل أن يطرأ عليهما التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورى: ١٣].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧٢.

وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر إرميا، الجملة التاسعة منه، ما يلي: «إنَّ النبيَّ الذي تدورُ نبوءاتُه حولَ الإسلامِ (شالوم) عند ورود كلمة النبيِّ، ذلك النبيُّ هو المعروف أنَّه المرسَلُ من قِبَل اللهِ بالحقِّ».

نقل هذه الجملة البروفسور داود بنيامين القسيس في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كتابه: «**محمد في الكتاب المقدس**» وعلّقَ عليها بقوله: «ومن الحقائق المسلّم بها أنَّ كلمة (شالوم) و(سلام) السريانية و(إسلام) كلها من نفس الجذر السامي (شلام)، وتحمِلُ نفس المعنى، وهذا أمرٌ يعترفُ به جميع علماء اللغات السامية، وفعل (شلام) يدل على الخضوع والاستسلام . . . ولا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل وأكثر هيبة وسموّاً من الإسلام، فالدين الحق لله الحق، لا يمكن أن يسمى باسم أيٍّ من عباده، ولا أن يدعى باسم شعب معين أو اسم بلد معيّن»[١].

ولقد قال الله تعالى بأسلوب التأكيد والجزم:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أي: الاستسلام والخضوع لله وحده جل وعلا، مع تنزيهه عن الشريك والولد، هو أساس دين الله، ولا دين عند الله سواه، ولا يقبل الله ديناً لا يقوم على هذا الأساس، وسيأتي معنا قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد يقال: ما دام الدين عند الله الإسلام، وهو الذي دعا إليه جميع الأنبياء، ونزلت به كل الكتبُ الإلـٰهية، فلماذا اختلف أهل الكتاب في الإسلام الذي نزل به القرآن على محمد ﷺ؟.

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص١٢٨.

وجاء الجواب على هذا القول بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ في القرآن الكريم بأن دين الله هو الإسلام القائم على توحيد الله تعالى.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً كائناً بينهم، طلباً للمراتب، وإيثاراً للشهوات.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالتكذيب بها، والإعراض عنها.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

• **كلمة الفصل:**

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يوجه إلى الكافرين من أهل الكتاب وغيرِهم الكلمةَ الفاصلةَ، المميزة بين الإيمان والكفر، فقال:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في الإسلام والتوحيد.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أعلنْ لهم خضوعَكَ للهِ تعالى، واستسلامك الكامل له، لتكونَ القدوةَ الحسنةَ في الإسلام، ولتظهِرَ لهم عدَم تأثرك بكفرهم وإعراضهم، وكثيراً ما كان إبراهيم عليه السلام يفعل مثله، فإنّه كان كلّما جادل قومه، ورأى إعراضهم عن دعوته، ردّ عليهم بإعلان خضوعه واستسلامه لله تعالى، وقد حكى الله تعالى هذا عنه في مواضع متعددة، منها قوله ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وكذلك أسلم وجهه لله تعالى كل من آمن بي واتبعني؛ فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم أمره الله تعالى بعد التخصيص بتعميم الخطاب لجميع الناس:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ من غير أهل الكتاب.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾ متبعين لي كما فعل المسلمون؟ أم أنتم على كفركم؟.

وجاء السؤال على سبيل القطع والجزم بسبب ما تقدمه من الأدلة الكافية.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾ إلى الحق، ونجوا من الضلال.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإسلام وأعرضوا.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ، وقد بلَّغْتَهم، ولن يضرَّكَ إعراضهم.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم.

ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد، وما فيها من تقرير للكسب والاختيار عند الإنسان، وهي من أصرح الدلالات على عموم رسالة الإسلام، وعموم بعثته عليه الصلاة والسلام[١].

• **قتلة الأنبياء والمصلحين:**

وعزّز الله هذا الوعيد، فكشف بعضَ جرائمهم الكبيرة بحقّ الأنبياء والصالحين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم اليهود الذي قتلوا كثيراً من الأنبياء ﷺ، وحاولوا أيضاً قتل إمام الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، فعصمه الله تعالى من كيدهم ومكرهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يبيّنُ شناعةَ وقبحَ جرائمهم، أي: أقدموا على قتل النبيين، وهم يعلمون أنّهم يقتلونهم بغير حق.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٣.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

وفي الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوفِ القتل[١]؛ قال تعالى مقرراً وصيةَ لقمان لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولعل هذا هو سبب انعدامِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، حتى فشت فيها المنكرات وشاعت، وضرب الله قلوبَ بعضِهم ببعض، أو لعنهم على لسان أنبيائهم، كما قال سبحانه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة].

والجدير بالذكر أنّ قتل اليهود للأنبياءِ والصالحين مذكور في كتبهم، وعلى لسان مؤرِّخيهم، ففي الإصحاح الثاني عشر من سفر الملوك الأول، من الطبعة البروتستانتية: أنّ (إيزابيل) زوجة أخاب قتلت أنبياء الرب. وذكر (يوسيفوس) المؤرخ اليهودي القديم من رجال القرن الأول الميلادي: أنّ (هيرودوس الثاني) ملك اليهود قتل كثيراً من علماء اليهود، وقتل (يوحنا بن زكريا) الحبرَ الأعظم[٢].

وهذه الجرائم تدلُّ على غلظة اليهود وقسوتهم، وأنهم لا يتورّعون عن أي جريمة من أجل مصالحهم وشهواتهم.

وجاءت خاتمةُ الآية تحمل لهم التأنيبَ والتوبيخَ على هذه الجرائم بقول الحق جل وعلا:

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع مهين.

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٤٨.
(٢) التفسير الحديث: ٨/ ٨٧.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجرمون.

﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: فسدت في الدنيا، وسقطت في الآخرة.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه، فأعمالهم الدينية ـ التي يزعمون أنّها تقرِّبهم إلى الله تعالى ـ فاسدةٌ باطلةٌ ساقطةٌ.

وكأنّ الآية نزلت في عصرنا الحاضر في هؤلاء الذين يسمون أنفسهم المتدينين من اليهود، أو حزب المتدينين، وهم أخبث اليهود، وأكثرهم شرّاً وإجراماً وظلماً.

• **أكاذيب وأضاليل:**

والعجيبُ أنّهم لم يعرضوا عن القرآن الكريم فحسب، بل أعرضوا أيضاً عن الكتاب الذي أنزل عليهم:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: أعطوا التوراة، وهي جزء من الكتب التي أنزلها الله تعالى، أو أعطوا فهم جزء من العلوم والأحكام في الكتاب الذي أنزله الله عليهم[١].

﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يُدعون إلى التوراة ليحكم بينهم في شأن اتباع النبي ﷺ، والتصديق برسالة القرآن.

فقد ذكر الله تعالى صفات النبيِّ ﷺ في التوراة والإنجيل، وأخبر عن ذلك في القرآن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٠.

عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وسيأتي معنا شواهد من كتبهم تؤكد ذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ وهم أحبارهم ورهبانهم عن قبول دعوة النبي ﷺ.

﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن الانقياد والإذعان لرسالة الإسلام.

وجرَّأهم على مخالفة الحق والإعراض عنه ما يرددون من أضاليل وأكاذيب:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ فهم يزعمون لأنفسهم مكانة خاصّة عند الله، وأنه سبحانه لن يعذّبهم يومَ القيامة في النار إلا مقدارَ الأيامِ التي عبدوا فيها العجلَ.

ومع أنّه كذبٌ وافتراءٌ، رسخَ بعدَ ذلك في اعتقادهم، وتطاول الزمانُ وهم على هذا الباطل، حتى أَنِسُوا به، واطمأنوا إليه، **فما كذّب أحد بحق إلا عوقب بتصديق باطل، وما ترك قومٌ سنة إلا أحيوا بدعة**(١).

وقد أوقعهم هذا في غرور في دينهم، فاستهانوا بعذاب الله، واقترفوا المعاصي والجرائم ولا يزالون، واغتروا بأنفسهم، واستكبروا، وأعرضوا عن الحق، فهم يعتقدون أنَّ النبوة لا تكون إلا فيهم، فأعرضوا عن دعوة النبي ﷺ، وأنكروا نبوته.

﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من أكاذيب وأضاليل.

---

(١) نظم الدرر: ٤/ ٣٠٤.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وهو يوم القيامة.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من عملٍ دونَ نظرٍ إلى أصلها وجنسها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عذاب أو نقص ثواب.

● **مناجاة:**

وتوجّهت الآياتُ بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعلِّمُه كيفَ يناجي ربه جل وعلا بهذه الكلمات الخاشعة، وتحمِلُ له عليه الصلاة والسلام البشارةَ والسلوى؛ **البشارة** بالنصر والغلبة، **والسلوى** عما يلقاه من كيدِ أهل الكتاب وجحودهم، وتردُّ على أولئك الذين يرونَ أنَّ النبوة حِكْرٌ عليهم، لا تكون في غيرهم:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: يا الله يا مالك الملك.

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: أنتَ وحدك المعطي والمانع، والمعز والمذل، فما شئتَ كان، وما لم تشأ لم يكن، فأنتَ المتصرّفُ في خلقك وملكك، الفعال لما تريد.

وكلمة (تنزع) تدل على الشدة والقوة والعنف، وما نزع اللهُ الملكَ من أحدٍ إلا بالشدة والقوة، لأنه سبحانه يعلم شدة حرص الناس على الملك والسلطان.

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي هذه الآية تنبيهٌ وإرشادٌ إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأنَّ الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ﷺ، ونشر أمته في الآفاق،

في مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع»[١].

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ والشر أيضاً خلقاً، ومنَّا تسبباً، وحذف لأنه موضع دعاء ورغبة ومناجاة.

فالآية تعلّمنا أدب مناجاة الله تعالى ودعائه. وتُشيرُ إلى أنَّ أفْعاله تعالى كلُّها خيرٌ، وما يفعله من العدل بعبادهِ وعقوبة المستحق هو خيرٌ محضٌ.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فله سبحانه كمال القدرة.

ومن المظاهر الدالة على كمال قدرته جلّ وعلا ما جاء في قوله:

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ وهي ظاهرةٌ كونيةٌ بارزة لجميع المخلوقات، سواء في تداخل الليل والنهار بطول أحدهما ونقص الآخر، أو في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وكل ذلك يتمّ بمقتضى ناموس كوني محكم، يدل على وجود خالق فاعل مختار، واحد لا شريك له ولا ولد.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ وهي ظاهرة ثانية مبثوثة في جميع الأحياء، تجري بانتظام وتدبير، حتى في داخل أجسامنا في كل لحظة، بانقسام الخلايا وموتها وتجددها، تدل على وجودِ اللطيف الخبير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من غير تقتير ولا تضييق، أو من غير عدد ولا مطالبة.

فهو سبحانه المالك والمدبر لأمور مخلوقاته، فكأن الآيتين تقرران مضمون

---

(١) انظر: المختصر: ١/ ٢٧٥.

ما سبق في قوله تعالى أول السورة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ فقيام المخلوقات كلها بمشيئته تعالى وقدرته، كما أنّ أسلوب الخطاب والمناجاة في الآيتين يبين لنا كيف يكون الإسلام والاستسلام لله ﷻ، وهو الاستسلام الذي أُمر النبيُّ ﷺ بإعلانه فيما مر معنا من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وأن يدعو إليه أهل الكتاب وغيرهم: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠] فلا يكون إسلام إلا بالتحرر الكامل، والانسلاخ التام عن كل حول وقوة، إلى حول الله وقوته وتدبيره، إذ هو وحده المعطي والمانع، والمحيي والمميت، والمعز والمذل، ﷻ.

وهي المرَّة الثانية التي تحملنا فيها آيات سورة آل عمران إلى أبواب فضله تعالى، وساحات جوده وكرمه، وكما جاءت في المرَّة الأولى منسجمة مع سباقها في موضوع الزيغ والضلال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] جاءت في هذه المرَّة أيضاً منسجمة مع إعراض أهل الكتاب ومكرهم وكيدهم، وهي ليست تأسية وتسلية للنبي ﷺ وحده في مواجهته لكيد اليهود ومكرهم، وتعنُّت النصارى وعنادهم، بل هي لكل المكروبين والمهمومين والمحزونين من هذه الأمة المسلمة، وهي تواجه أيضاً كيدهم ومكرهم وعنادهم.

اللهم اجعل القرآنَ الكريمَ نورَ أبصارنا وبصائرنا، وربيعَ قلوبنا ونفوسنا، وجلاء همومنا وأحزاننا.

- **التحذير من موالاة الكافرين:**

ولما كانت موالاة الكافرين تتنافى مع الاستسلام لله تعالى، ومع التجرّد عن كلّ حولٍ وقوة إلَّا حوله تعالى وقوته، حذّرتِ الآياتُ الكريمة المؤمنين من موالاة الكافرين، وبيّنت لهم عواقبها الوخيمة بقوله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتخذ المؤمنون

الكافرين أنصاراً وأصحاباً وأحباباً، فالمؤمنون أولى بهذه الموالاة، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التّوبة: ٧١].

ثم توعّد سبحانه من يواليهم بقوله:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فقد بَرِئَ مِنَ الله.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء: ١٤٤].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: إلا من خافَ في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيَّته، كما قال البخاري [باب (٨٢)]: عن **أبي الدرداء** رضي الله عنه: «إنّا لَنُكَشِّرُ في وجوهِ أقوامٍ وقلوبُنا تَلْعَنُهُمْ».

وقال **ابن عباس** رضي الله عنه: «ليسَ التقيّةُ بالعملِ، إنّما التقيةُ باللسانِ»(١).

ويؤيده كما قال ابن كثير قول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النّحل: ١٠٦].

وفي هذا دليلٌ على جواز مداراة الكفار والفسقة والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم لكفّ أذاهم، وقطع لسانهم، وصيانة العرض منهم، ولا يعدُّ ذلك من باب الموالاة(٢).

ثم قال سبحانه محذراً:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: سطوته، وعذابه، وانتقامه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمنقلب، فيجازي كل عامل بعمله.

وأصلُ **الموالاةِ** ومنبعُها من القلب، والله سبحانه يعلم ما في القلوب وما تكنّه الضمائر والصدور:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧٦.

(٢) روح المعاني: ٣/ ١٢٢.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

والآية مع تقريرها لكمال علم الله تعالى وقدرته، تحمل معنى التحذير والوعيد من موالاة الكافرين، مما يدل على خطورتها وعظم المسؤولية عنها يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ لديها في كتاب أعمالها.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ محضراً أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وحينئذ:

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ أي: تتمنّى كلُّ نفس لو أنَّ بينها وبين هذا اليوم فاصلاً كبيراً، يفصلها عنه من الزمان أو المكان، لشدة أهوال هذا اليوم.

ثم كررت الآيات التحذير من غضب الله تعالى وعذابه، كي تستأصل كل موالاة للكافرين من قلوب المؤمنين، فلا يبقى في قلوبهم أدنى ميل إليهم، أو تعلق بهم:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ وتكرير التحذير والوعيد من رأفته سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فالتحذير من المعاصي، وابتعادهم عنها يقربهم من رحمته سبحانه وإحسانه.

• **طريق الوصول:**

وتستدعي موالاةُ الكافرين محبّتهم والميل إليهم، بينما الإيمان بالله تعالى

يستدعي محبة الله تعالى وطاعته، فكيف تجتمع في قلب المؤمن محبة الله تعالى ومحبة أعدائه؟! هذان نقيضان لا يجتمعان، وضدان لا يتفقان، فلا تجتمعُ محبة الله تعالى إلا مع محبة أحبابه وأوليائه، وأعظمُ الخلق مكانةً ومحبةً عند الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ، ولهذا جعل اللهُ تعالى محبّة رسولِ اللهِ ﷺ واتباعه والتمسك بسنته دليلاً على محبة الله تعالى، فقال ﷻ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، **فليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ**، كما قال بعض العلماء[(١)].

فالتمسّك بسنته عليه الصلاة والسلام، والاقتداء به ومتابعته، توصل إلى مرتبة عالية رفيعة، وهي محبة الله تعالى إياه، فطريقُ الوصول في محبة الرسول ﷺ ومتابعته، وكل طريق سواه مسدود، وكل عمل يخالفه مردود.

ورحم الله ابن كثير عندما قال: «هذه الآيةُ حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع الإسلامي، والدين الإلـٰهي، في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عملاً ليسَ عليهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ**» [رواه مسلم (١٧١٨)]»[(٢)].

وتوصِلُ متابعةُ الرسول ﷺ، إلى مغفرة الذنوب أيضاً:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ إذا تبتم واستغفرتم، فلا بدّ لمن يطلب المغفرةَ من

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧٧.
(٢) المصدر السابق نفسه.

التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وكان ﷺ يحثُّ على كثرة الاستغفار، ويكثر منه، ويقول: «**والله إنِّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ مِنْ سبعينَ مرّةً**» [رواه البخاري (٦٣٠٧)].

ويقول أيضاً: «**يا أيها الناسُ! توبوا إلى اللهِ واستغفروه فإنِّي أتوبُ في اليوم مئةَ مرّةٍ**» [رواه مسلم (٢٧٠٢)].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ويرحم أحبابه المؤمنين المتبعين لسنة رسوله ﷺ.

وفي الآية رد على أهل الكتاب الذين يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فأحباب الله هم أتباع رسول الله ﷺ.

ولا بدّ للمتابعة من الطاعة الكاملة، فالإسلامُ استسلامٌ وخضوعٌ وإذعانٌ، والمتابعةُ لا تكونُ إلا بالطّاعة الكاملة:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ طاعةً مطلقةً عن أي قيد.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا يدل على أن **الإعراضَ عن طاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله ﷺ يعرّض صاحبه للكفر**، كما يدل على أن **ادّعاءَ المحبة الخالية عن الطاعة غيرُ نافعٍ لصاحبه.**

۞ ۞ ۞

الفَصْلُ الثَّانِي

الإنجيل والنصارى

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن
بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ
﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي
لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم

بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ
وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ
لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ
أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ
ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ
﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا
وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ
﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا
نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ
ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ
وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا
وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ
وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

• **تَمْهيد:**

وبعد أن انتهت آياتُ السورة من هذه المقدمة، عن التوراة والإنجيل والقرآن، والحديث عن أسباب الزيغ والضلال، ودعوةِ الأنبياء والمرسلين إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والولد، وأنَّ دينَ الله هو الإسلام، وبعد الرد على الأكاذيب والأضاليل التي يتمسَّكُ بها أهل الكتاب، وبيان طريق الوصول إلى محبة الله تعالى باتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

شرعت الآياتُ بعد كل هذا تبيّن حقيقة عيسى عليه السلام، وكيفية خلق الله تعالى له، ورسالته التي يدعو إليها، والمعجزات التي أيده الله بها، وهذا الجانب من الأهداف الأساسية الكبرى لسورة آل عمران، التي أنزل الله صدرها بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ ومجادلتهم له في طبيعة عيسى عليه السلام كما مرَّ معنا في سبب النزول.

• **الاصطفاء:**

أخبر الله تعالى في بداية قصة عيسى عليه السلام وأمّه مريم أنّه اختار آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران، لمقام النبوّة، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ من بين أولاده الذين أخذوا يتناسلون ويتكاثرون ليكون نبيّاً لهم.

﴿وَنُوحٗا﴾ ليكون نبيّاً يحمل رسالةَ اللهِ تعالى إلى أهل زمانه.

﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الذين اصطفى منهم إبراهيم عليه السلام والأنبياءَ من بعده، واصطفى أيضاً من آل إبراهيم خاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الهاشمي القرشي، الذي يتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ الذين اصطفى الله تعالى منهم مريم لتكون أمّاً لعيسى عليه السلام، كما اصطفى ولدها عيسى ليكون نبيّاً ورسولاً إلى بني إسرائيل.

فعيسى عليه السلام هو عبدٌ لله تعالى، اختاره الله للنبوة كما اختار غيره لها.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم[١].

فكلٌّ واحدٍ منهم اصطفاه الله تعالى وفضَّله على العالمين في زمنه، إلا نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، فقد اصطفاه الله تعالى وفضله على العالمين مطلقاً، إذ اختاره لأكمل رسالة وأعظم أمانة، وهي رسالة الإسلام، الدين الذي رضيه الله لعباده، فأتمه وأكمله، وتعبدهم به، فلا يقبل الله من أحد سوى دين الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ﴾ جعل الله تعالى هؤلاء المصطفين من الأنبياء والمرسلين ذريةً، ينتسب بعضُهم إلى بعض، من لَدُنْ آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، فهو سبحانه أعلم حيثُ يجعل رسالته، وما اصطفاهم إلا لعلمه بأحوالهم الطيبة، وأخلاقهم الرفيعة.

فعيسى عليه السلام فرع من شجرة النبوة المفتتحة بآدم عليه السلام، والمختتمة بسيدنا محمد ﷺ.

- **امرأة عمران:**

بدأت الآيات قصة عيسى عليه السلام بالحديث عن أمِّه مريم، وأمِّها امرأة عمران، حيث بدأت القصةُ في بيت آل عمران من بيوت بني إسرائيل في فلسطين، وهو بيتُ علمٍ وعبادةٍ وصلاح، كما دلّت عليه الآية السابقة، وكانت

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٦٣.

فلسطينُ في ذلك الوقت تحت نير الاحتلال الروماني، وتعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور (أوكتافيوس)، الملقب بأوغسطس قيصر، الذي امتدّ حكمه من سنة (٢٧ ق.م) إلى سنة (١٤م)[١]:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ عندما أحسّت بأنها حامل، ويبدو أنَّ حملها جاء متأخراً، ولهذا نذرته لخدمةِ المعبد في بيت المقدس عندما أحست به.

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عن عمل الدنيا، ليتفرغ للعبادة وعمل الآخرة، فيعمل طول حياته في خدمة الكنيسة[٢].

وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم حالي.

وكانت تأملُ أن يكون الجنينُ ذكراً، فما كان من عاداتهم أن ينذروا الإناث للتفرغ للعبادة وخدمة الهيكل.

- **الوليدة المنذورة:**

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وما قصدَتْ بذلك القولِ الإعلامَ، فعلمُه سبحانه محيطٌ بها، وبما في بطنها، ولكنّها أظهرت التحسُّرَ وخيبة الأمل في عدم ولادة مولود ذكر.

(١) انظر كتاب: المسيح إنسان أم إله.
(٢) انظر: روح المعاني: ٣/ ١٣٤.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ جاءت الجملةُ معترضةً في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودةِ التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدَّر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة.

﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ وهو اعتذارٌ منها لعدم تمكُّنها من الوفاء بنذرها على الوجه الكامل، فللذكر فضيلةٌ ومزيَّةٌ على الأنثى، لكونه أقدر على الخدمة في أماكن العبادة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ وكأنها تتقرّبُ إلى الله تعالى في تسميتها، فإن مريم في لغتهم بمعنى **العابدة**[١].

وختمت الأم الصالحة دعاءها بتعويذ الوليدة المنذورة، وتعويذ ذريتها بالله ﷻ من شر الشيطان الرجيم:

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أي: أجيرها بحفظك ورعايتك.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مولودٍ يُوْلَدُ إلا مسَّه الشيطانُ حِيْنَ يُوْلَدُ فيستهلُّ صارِخاً مِنْ مَسِّه إيَّاهُ، إلا مريم وابنَها**» [رواه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦)].

والحديثُ يدلُّ على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى ﷺ.

ويبدو أنّ والدَ مريم قد توفّي قبيلَ ولادتها، فاستبدادُ الأم بالنذر والتسمية وإغفالِ الآية أيَّ ذكرٍ له يدل على ذلك.

- **في كفالة زكريا:**

وَقبِلَ اللهُ تعالى نذرَ هذه المرأة الصالحة، واستجابَ دعاءها، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٩.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: تقبلها من أمها منذورةً، ولم تُقبَل قبلها أنثى، وأحاطها سبحانه بعنايته ورعايته.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ بما يسّرَ لها من أسباب الرعاية والعناية.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعل كفالتها ورعايتها إلى نبي كريم، هو زكريا ﷺ، وكان زوجَ خالتها، كما ورد [في صحيح البخاري (٣٨٨٧)] في حديث الإسراء والمعراج؛ عندما رأى النبيُّ ﷺ يحيى وعيسى في السماءِ قال: «**فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة**»، ورأى بعضُهم أنّ زكريا كان زوجَ خالة مريم، وبهذا الاعتبار يمكن أن يكون يحيى وعيسى ﷺ ابني خالة.

وهكذا يسر الله تعالى لمريم كلَّ أسباب الصلاح والطهر والعفاف، إذ نشأت في رعاية نبي كريم، خصص لها مكاناً في المعبد خاصّاً بها لتعبد الله فيه، وما كان أحدٌ يدخل عليها غير كافلها وراعيها زكريا ﷺ، دل على ذلك قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو مكان العبادة، ويطلق في اللغة على أكرم موضع في المجلس.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: طعاماً.

مما يدل على أن الله تعالى كان يرزقُها ما تحتاجُ إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاجُ إلى الخروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربها ﷻ المؤونة بما يسَّر لها من المعونة.

وكلمة (**كلَّما**) تدل على التكرار والاستمرار، ممّا يدلُّ على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم.

ويتعجَّبُ النبيُّ الكريم ممَّا يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجّب:

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الطعام، والأبواب مغلقةٌ عليك؟!.

فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جوابَ الواثقة بربها المطمئنة إلى فضله ورحمته:

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فكأنها تقولُ لزكريا عليه وعليها السلام: لا تعجبْ ولا تستبعدْ، ثم أكدت مضمون كلامها بقولها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير، أو بغير استحقاق فضلاً منه سبحانه.

أثارت هذه الفتاةُ الصالحةُ العابدةُ مشاعرَ الأبوة في قلب النبيِّ الكريم، والرجل الكبير زكريا عليه السلام، فتوجَّه إلى الله تعالى بضراعةٍ وخشوعٍ، يسأله الذرية الصالحة الطيبة:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ عند ذلك وفي محرابِ مريمَ، الفتاة الطاهرة العابدة.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

ثم كرر الدعاء والضراعة في جوف الليل، ونادى ربه نداءً خفيّاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم].

وهذا يدلُّ على شدّةِ وعمقِ تأثر نبي الله زكريا عليه السلام بما رأى من صلاح مريم، وإكرام الله تعالى لها.

وقد استدلَّ العلماءُ على مشروعية خلق الله تعالى خوارق العادات على

أيدي الصالحين والصالحات برزق الله مريم من دون وسائط وأسباب، وسمَّوْها: **الكرامات**، بينما سمَّوا الخوارق التي يجريها الله على أيدي الأنبياء: **معجزات**.

- **البشارة بيحيى:**

استجاب الله تعالى دعاء زكريا ﷺ، وأرسل إليه الملائكة تحمل له البشارة:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ في مكان عبادته.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بولدٍ سَيُوْلَدُ لك، اسمه يحيى.

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى ﷺ.

وسمي عيسى بذلك لأنّ الله خلقه بكلمة (كن) من دون توسط أسباب، وكان يحيى أوّلَ من آمن بعيسى، وصدّق بنبوته ورسالته، أو صدّق بكلمةِ اللهِ التي ينزلها الله على عيسى، والمراد بها الإنجيل.

﴿وَسَيِّدًا﴾ بالعلم والتقوى والعبادة.

﴿وَحَصُورًا﴾ عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة[١].

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا من تتمة البشارة وكمالها، أي: ويكون أيضاً نبيّاً معدوداً في عدادهم.

غمرت الفرحة زكريا ﷺ، وأقبل على ربِّه يسأله متعجباً من قدرته ومعظِّماً لها:

---

(١) روح المعاني: ٣/١٤٨.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلام؟!.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: أدركني الكبر، وهو سنُّ الشيخوخة والضعف.

﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ عقيمٌ لا تلد.

وجاءه الجواب من الله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، فهو سبحانه وحده الفعَّال لما يريد، فلا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر.

ثم سأل ربه أن يجعلَ له علامةً يستدل بها على بدء حمل زوجته:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: علامتك التي سألتَها: أن يُحْبَسَ لسانك عن الكلام، فلا تستطيعُ تكليمَ الناس ثلاثةَ أيامٍ، إلا بوساطة الإشارة والإيماء.

ثم أمره ربُّه بكثرةِ ذكره وتسبيحِه في هذه الحالة، شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه وأعطاه:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ آخر النهار.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وأوَّله.

- **الاصطفاء الأول والثاني:**

جاءت ولادة يحيى عليه السلام من أم عاقر، ووالدٍ شيخٍ كبيرٍ، مقدمةً وإرهاصاً لمعجزة أكبر منها، وهي ولادةُ عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى بينهما بالذكر في موضعين من القرآن الكريم، أولُهما هنا في **سورة آل عمران**،

وثانيهما في **سورة مريم**، فبعد الحديثِ عن البشارة بيحيى عادت الآياتُ إلى مريم العابدة الصالحة الطاهرة تخاطبها بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارك بما خصّك من أنواع الكرامة والفضل، مما سبق الحديثُ عنه.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ خَلْقاً وخُلُقاً عن كل ما يعيبُ النساءَ ويُستقذَرُ منهن.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويبدو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكونَ أمّاً لعيسى من غير أبٍ، وجعلها وولدَها عيسى آيةً للعالمين، وبهذه الميزة تمتازُ مريم على جميع نساء العالمين، والقول به أولى من القول بالتكرار للتأكيد[1].

ثم كررت الملائكة نداء مريم، تأمرها أن تزيد من عبادتها وطاعتها لربها، توطئةً للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها:

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي: أديمي العبادة والطاعة لربك.

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ففي الصلاةِ عونٌ من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة، والمهمات الجسيمة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرَة: ٤٥].

وأمر الله تعالى النبي ﷺ في أوائل نزول الوحي عليه أن يكثر من صلاة الليل، بسبب المهمة الثقيلة التي كلف بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل].

---

(١) روح المعاني: ٣/ ١٥٥.

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة العذراء البتول[١] في القرآن الكريم، حتّى ذهبَ بعض علماء التفسير إلى القول بنبوتها، وهو ما ذهب إليه الإمام القرطبي في تفسيره، إلا أنّ جمهورَ العلماء لا يقرونه على ذلك، ولا يرون نبوتها، لأنَّ النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله تعالى وصفها بصفة الصديقة، في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وصورتها أيضاً في السُّنَّة الشريفة كريمة وضيئة:

فعن **علي** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**خيرُ نسائها مريمُ بنتُ عمران، وخيرُ نسائِهَا خديجةُ بنتُ خُويلد**»، وأشار الراوي إلى السماء والأرض. [رواه البخاري (٣٨١٥) ومسلم (٢٤٣٠)].

وعن **أنس** رضي الله عنه: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**حسبُكَ من نساءِ العالمين: مريمُ بنتُ عمران، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ، وآسيةُ امرأةُ فرعون**» [رواه الترمذي (٣٨٧٩) وأحمد (٣/ ١٣٥)].

- **مصادر قصة مريم وعيسى:**

هذه الأخبارُ من المغيّبات، التي لا سبيلَ للنبي ﷺ أن يعرفها لولا وحي الله تعالى الذي أُنْزِلَ عليه، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ﴾، فهي تؤكد صدق النبي ﷺ، وأنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى أوحي به إلى النبي ﷺ.

(١) المنقطعة للعبادة.

فهذه الأخبار من المغيبات التي ما كان النبي ﷺ يعلمها، وما كان يعلمها أيضاً غيرُه، ولا حتى أهلُ الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل، فالأناجيل التي في أيديهم اليوم لم تذكرها، ولم تتحدّث عنها، فليس في الأناجيل التي يتداولها النصارى أي ذكر لدعاء امرأة عمران ونذرها، واقتراع الأحبار على كفالتها ـ الذي سيمر معنا في هذه الآية ـ وكذلك لم تذكر الأناجيلُ أيضاً كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، مع أنّه من المعجزات الكبرى، التي أجراها الله على يديه، وفيها تبرئة مريم من افتراءات اليهود عليها، واتهامهم إياها بالزنى، ولا بد أن تكون الأناجيل التي كانت في عصر نزول القرآن كذلك خالية عن هذه الأخبار، وإلا ما عدها الله تعالى من أخبار الغيب في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾.

ولا أدري ما الذي حمل صاحب «التفسير الحديث» أن يقول: «ومنه ما لم يرد فيها ـ أي: الأناجيل ـ مثل دعاء أم مريم، ونذرها ما في بطنها لله، والاقتراع على كفالة مريم، وكفالة زكريا لها، وعناية الله بها، وكلام المسيح في المهد، ونعتقد أنّ هذا مما كان يتداوله النصارى في عصر النبيِّ ﷺ وبيئته، استناداً إلى قراطيس كانت في أيديهم لم تصل إلينا»[١].

وهو اعتقادٌ عجيبٌ من مثل هذا الكاتب، ومستنكَر، ولا يقوم على أي أساس علمي، فالتحريفُ دخل على الإنجيل قبل نزول القرآن الكريم بزمن طويل، فبعد رفع عيسى عليه السلام بزمن قليل ظهر بولس، وأدخل التحريفَ على عقيدة التوحيد، التي كان عيسى عليه السلام يدعو إليها، ولا شك أنه أدخل أيضاً التحريفَ على الإنجيل، ليتفق مع العقيدة الجديدة المحرفة التي دعا إليها.

ثم إنّ الإمبراطور الروماني قسطنطين اضطهد النصارى الموحدين، ودعا أكثر من ألف من رجال الكنيسة إلى نيقية، حيث عقد المؤتمر المشهور الذي قرر عقيدة التثليث، وكان ذلك نتيجة لضياع كثير من نصوص الإنجيل الحقيقي، أو

---

(١) انظر: التفسير الحديث: ٨/ ١٠٣.

تحريفها، فلو كان الإنجيلُ الحقيقيُّ موجوداً لما تمكنوا من إدخال هذه العقائد الباطلة على عقيدة التوحيد.

فليس ثمةَ مصدرٌ يُعتمد عليه ويوثق به في قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام سوى مصدر واحد، هو القرآن الكريم، فاليهود اتهموا السيدة مريم بالزنى، ورموها بأقبح الصفات، بينما شهد الله تعالى في القرآن الكريم بعفَّتها وطهرها، وأنها كانت من العابدات الصالحات الصِّدِّيقات، فلا ثقة بمروياتهم وما يأتي عن طريقهم.

والأناجيل التي يتداولها النصارى متعارضة ومتناقضة، بل إنَّ في بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم، فإنجيل (متَّى) وإنجيل (لوقا) عندما تحدثا عن نسب عيسى عليه السلام ذكرا أنّ عيسى هو ابن يوسف النجار، فهما وإن اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح، إلا أنهما متفقان على أنَّ يوسف النجار هو آخرهم في سلسلة النسب لعيسى عليه السلام[(١)]؛ فما معنى هذا؟! أليس فيه تأكيد لافتراءات اليهود على مريم، مع أنَّ القرآن الكريم لم يذكر لمريم علاقةَ زواجٍ بأي رجل، بينما الأناجيل ذكرت أنَّ يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وأنه بعد ذلك تزوجها، وولدت منه أولاداً آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى عليه السلام.

وهذا التباين بين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها، وطهرها وعفتها، وبين ما في الأناجيل، يردُّ على مزاعم كثير من المستشرقين بأن قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبس من كتب النصارى واليهود، كما يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو المصدر الوحيد الموثِّق لحقيقة مريم وعيسى عليهما السلام وحقيقة دين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لكل الناس، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

---

(١) انظر: المسيح إنسان أم إله.

- **إلقاء الأقلام:**

ثم ذكرت الآية حادثةً كمثالٍ على الغيب الذي أوحاه الله تعالى إلى النبي ﷺ، ما كان ﷺ يعلمها، ولا يوجد ذكْرٌ لها في الأناجيل، وهي تبيّن المكانة الكبيرة لمريم وللبيت الذي ولدت فيه، فقال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت مع الأحبار والرهبان عندما اختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريد أن يكفلها ويشرف بكفالتها ورعايتها، وذلك عندما جاءت إليهم امرأةُ عمران تقدّمها منذورة للعبادة والطاعة في الهيكل، وهذا يدل على أنَّ مريم ولدت في بيت عُرف بينهم بالصلاح والعلم والعبادة، حتى قالوا: إنَّ والدها عمران كان له مكانة دينية كبيرة عندهم.

واتفق الأحبارُ بعدَ الاختلاف على الاقتراع، ليظهر المستحق لشرف وبركة كفالتها ورعايتها، وألقوا أقلامهم في النهر، فحمل تيار الماء أقلامهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلم زكريا عليه السلام، فعرفوا أنَّ الله تعالى أراد أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سر قوله تعالى ـ الذي مر معنا ـ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عِمرَان: ٣٧] أي: جعل الله كفالتها لزكريا عليه السلام، فأمرُ كفالتها تمَّ بمشيئة الله تعالى وحده، فهو سبحانه الذي أحاطها بعنايته ورعايته في كل مراحل حياتها، وأظهر لزكريا هذا الأمر الخارق للعادة تكريماً له ولهذه البنت المنذورة.

- **البشارة بعيسى:**

ثم جاءت البشارةُ بعيسى عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي: بولدٍ يكونُ وجودُه بكلمة من الله، وهي الكلمة التي يكوِّنه بها، فيقول جل وعلا: كن، فيكون.

﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ والمسيح لقبه ﷺ، وهو من الألقاب المشرفة له، ومعناه: المبارك[١].

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي: يدعو الناس إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له حالَ صغرِهِ معجزةً وآيةً، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه[٢].

ولم تذكر الأناجيل معجزةَ كلامِهِ في المهد، مع أنه من المعجزات الكبرى لعيسى ﷺ، وجاء كلامه في المهد دفاعاً عن أمه ضد افتراءات المفترين عليها، ولعلّ سبب إغفال الأناجيل لهذه المعجزة أن فيها إقراراً من عيسى ﷺ بعبوديته لله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٣٠].

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ويكون من الصالحين في قوله وعمله.

- **العذراء البتول:**

ولما سمعت مريم البشارة بعيسى ﷺ، توجّهت إلى ربها سبحانه تناجيه:

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ أي: كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لستُ بذات زوج؟!.

ويدل سؤالها على أنها ما كانت مخطوبة لأحد، خلافاً لما ذكرته الأناجيل

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٣٧. **قلت**: انظر كتاب: العلم الأعجمي في القرآن مفسّراً بالقرآن، للأستاذ رؤوف أبو سعدة: ٢/ ٢٦٦، وهو كتاب جديرٌ بالقراءة. (الناشر).

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٣.

التي يتداولها النصارى، وأنها أيضاً ما كانت تفكر في الزواج، وإلا لو كان في نيتها الزواج، أو كان لها خطيبٌ اسمه يوسف النجار، ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى:

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقول: كيف يوجَدُ هذا الولدُ مني، وأنا لستُ بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغيّاً، حاشا لله»[1].

فهي العذراء البتول، التي أحصنتْ فرجَها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التّحريم: ١٢]، وبقيت كذلك طول حياتها، وستكون زوجة للنبي ﷺ يوم القيامة في الجنة:

ففي الحديث النبوي الشريف: أنّه ﷺ قال لخديجة: «**أما شعرتِ أنَّ الله** ﷻ **قد زوجني في الجنَّة مريمَ بنتَ عمرانَ**» [رواه الطبراني].

ومرّ معنا أنها كانت تعيشُ في محراب عبادتها وحدها، ولا يدخلُ عليها أحد غير نبيِّ الله زكريا، وأنَّ الله تعالى قد كفاها مؤونة طلب الطعام والرزق، وأخبرنا سبحانه أيضاً أنه جعل لها بعد ولادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مأوى، فيه كل ما يحتاجان إليه من الطعام والماء، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وبهذا نجّاها الله تعالى من سماع كلمات الطعن بها والافتراء عليها، ومن نظرات المرتابين بها.

وما ذكر في الأناجيل أنها كانت مخطوبةً ليوسف النجار من الناصرة، وأنه تزوَّجها بعد ذلك، وأولدها أولاداً، غيرُ صحيحٍ ولا أصلَ له، وهو من الأكاذيبِ التي أدخلوها على الإنجيل؛ فالحقُّ في القرآن، وفيه الفرقان الفاصل بين الكفر والإيمان، وبين الحق والباطل.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فمشيئتُه سبحانه طليقةٌ لا تتقيَّدُ بنواميس وأسباب، فهو خالق النواميس والأسباب.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٧.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقضى الله تعالى أن يخلق عيسى من أم بلا أب، فكان كما أراد الله تعالى وقضى.

- **المعجزات:**

وتابعت الآيات الكريمة تبين من خلال البشارة بعيسى عليه السلام ما أكرمه الله تعالى به من أنواع التكريم والنعم:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: يعلِّمُهُ ربُّه الكتابة والقراءة، والحكمة في الأقوال والأفعال، كما يعلّمه التوراة والإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فرسالته عليه السلام خاصة ببني إسرائيل، يقول لهم فيها:

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بمعجزة تدل على صحة نبوته وصدق رسالته.

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ أي: أصنع لكم.

﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره ومشيئته سبحانه وتعالى.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد وهو أعمى.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المصاب بمرض البرص، وهو تغير في لون الجلد.

﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره ومشيئته أيضاً.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فكان عليه السلام يخبرهم بما في بيوتهم من الطعام، وما أكلوا منه وما أخفوا وادخروا فيها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ففي هذه المعجزات ما يكفي مريدَ الحق لمعرفة الحق والإيمان بنبوة عيسى عليه السلام ورسالته.

فكلُّ هذه المعجزات تمّت بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولا استقلال لعيسى عليه السلام بها، فهي تدل على نبوته ورسالته، ولا تدل على ألوهيته كما زعم النصارى، وقد أجرى الله تعالى مثل هذه المعجزات على يد غيره من الأنبياء عليهم السلام، ولم يقل أحد بألوهيتهم، فالعصا كانت تتحول إلى ثعبانٍ مبينٍ على يد موسى عليه السلام، ومع ذلك لم يقل أحد من أهل الكتاب بألوهيته.

• **الصراط المستقيم:**

وممّا تضمنته رسالةُ عيسى عليه السلام التصديقُ بالتوراة، وأنّ الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: لما أنزل الله قبلي من التوراة.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة التوراة، فقد شدّدَ الله تعالى في شريعة التوراة بعض الأحكام على بني إسرائيل، بسبب عنادهم وعدم انقيادهم لأنبيائهم.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدة على صحة رسالتي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له ولا ولد.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: الإقرار بأن الله ربي وربكم، وإفراده وحده بالعبادة، هما الصراط المستقيم الذي يوصل إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وانتقلت الآيات في **سورة آل عمران** مباشرة من الحديث عن البشارة بعيسى وعن نبوته ورسالته إلى بني إسرائيل، إلى آخر حلقاتِ المواجهة بين عيسى عليه السلام وبين بني إسرائيل، وتركت الآياتُ تفاصيلَ حمل مريم بعيسى، وولادتها له، ومواجهتها لقومها وهي تحمله، إلى **سورة مريم**؛ فهناك تتمة قصة مريم وعيسى عليهما السلام.

والملاحظُ أنَّ آيات **سورة آل عمران** ركزت على شخصية مريم، وعناية الله تعالى بها منذ أن كانت جنيناً في رحم أمها، كما بيّنت المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام، ومضمون الرسالة التي أُرسل بها إلى بني إسرائيل.

وهذه الجوانب تتفق أولاً مع موضوع السورة الأساس، وهو بيان أنّ القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدق للتوراة والإنجيل، فكل ما في التوراة والإنجيل مما يخالف القرآن الكريم لا صحّة له ولا أصل، بل هو نتيجة التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما.

وتتفق أيضاً مع سبب نزول هذه الآيات، وهو احتجاج وفد نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام بالمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه تبياناً لصحّة نبوّته ورسالته.

- **أنصار الله:**

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: لما شعر عيسى عليه السلام بإصرار بني إسرائيل على الكفر برسالته، والإعراض عن دعوته، وأنهم

يمكرون به، ويريدون قتله، كما فعلوا بكثير من الأنبياء قبله، قال: من أنصاري في الدعوة إلى طاعة الله وعبادته وحدَه؟.

وحال عيسى عليه السلام في هذا كحال النبيِّ ﷺ عندما كان يطوف على الناس في مواسم الحج قبل الهجرة، ويقول: «**مَنْ رجلٌ يؤويني حتّى أُبَلِّغَ كلامَ ربِّي، فإنَّ قريشاً قد منعوني أَنْ أُبَلِّغَ كلامَ ربي**»، حتى وجدَ الأنصارَ، فآووه ونصروه، وهاجر إليهم، فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وهكذا عيسى ابن مريم انتَدَبَ له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به وآزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزل معه[1]. ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم:

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وسُمّوا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام والمخلصين في محبَّته وطاعته.

وفي «الصحيحين»: أن النبيَّ ﷺ لما ندبَ الناسَ يومَ الأحزابِ، انتدبَ الزبير رضي الله عنه، فقال ﷺ: «**لِكُلِّ نبيٍّ حواريٌّ، وحواريَّ الزُّبَيْرُ**» [رواه البخاري (٢٩٩٧) ومسلم (٢٤١٥)].

إلا أنّ نصر الحواريين لعيسى عليه السلام يختلِفُ عن نصر الأنصار لرسول الله ﷺ، فالأنصار جاهدوا مع رسول الله ﷺ، وقاتلوا أعداءه، أمّا أنصار عيسى عليه السلام فما جاهدوا معه، لأنّه لم يؤمر بقتال، وما عُرف عنه عليه السلام ذلك، واستنصاره بالحواريين كان على نشر دعوته والإيمان به.

وقد يقول قائل: ولكنّه سيقاتل الكفار ويجاهدهم عند نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة، كما جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة.

وأقول: نعم سيقاتِلُهم ويقتلُ الدجال، ويكسِرُ الصليب، ويضعُ الجزيةَ، في ظل شريعة الإسلام والقرآن، فلا نبوّةَ بعد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ولا دينَ غير دين الإسلام المستمدّ من القرآن والسُّنَّة المطهرة؛ وهو ما سبق في

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٥.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، وسيأتي أيضاً تأكيده في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

ومعنى قول الحواريين: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون لله تعالى وحدَه، منقادون لأمره وشرعه؛ وهو الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء عليهم السلام.

ثم بعد أن أعلنوا استجابتهم لدعوة عيسى عليه السلام، واستعدادهم للقيام بنصرته ومساعدته في تبليغ رسالته، توجهوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ في الإنجيل.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسلت، وهو عيسى عليه السلام.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾، الذين شهدوا لك بالوحدانية، وشهدوا بصدق الأنبياء والمرسلين.

أو اكتبنا من أمّةِ النبيِّ محمد خاتم الأنبياء ﷺ، الذي بشّر به عيسى عليه السلام، وأخذ على جميع الأنبياء الميثاق أن يؤمنوا به ويصدقوا برسالته إن أدركوا زمانه ـ كما سيأتي معنا ـ لأن أمته عليه الصلاة والسلام هي خير الأمم، ولها مقام الشهادة على الناس يوم القيامة.

قال تعالى يبين فضله على هذه الأمة المسلمة: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقَرَة: ١٤٣].

وكذّب عامةُ اليهود عيسى عليه السلام رغم كل المعجزات الحسية التي أيده الله

تعالى بها، ومكروا به، وحاولوا قتله، كما فعلوا بكثيرٍ من الأنبياء قبله، فأحبط الله مكرهم، ونجّاه من كيدهم، وأخبر سبحانه عن هذا في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾.

ومكر اليهود بعيسى وأرادوا قتله، فأنجاه الله منهم لأنه سبحانه يحبط مكرهم، ويبطل كيدهم.

- **الرفع إلى السماء:**

ثم بيّن سبحانه كيف نجّاه من كيدهم ومكرهم برفعه إلى السماء:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي: إني متوفيك وفاة النوم ورافعك إلي.

فالوفاة في الآية تعني النوم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله أيضاً: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُّمر: ٤٢].

وأصل التوفي: أخذ الشيء وافياً، ولهذا فسر بعض علماء التفسير معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك ورافعك.

قال القرطبي: «قيل: هذا يدل على أنّ الله ﷻ توفّاه قبل أن يرفعه، وليس

بشيءٍ، لأنّ الأخبار تظاهرت برفعه، وأنّه في السماء حيٌّ، وأنه ينزل ويقتل الدجال، وإنما المعنى: فلمّا رفعتني إلى السماء»[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمر: ٤٢]، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يقول إذا قام من النوم: «**الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشورُ**» [رواه مسلم (٢٧١١)]»[٢].

وجمهور العلماء على أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمت، وأنّه حي في السماء، وأن اليهودَ لم يقتلوه ولم يصلبوه، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النِّساء].

ولو كان مرادُ الله من الوفاة الموتَ المُنْهِيَ للحياة ما رفعه إلى السماء، لأنه قدّر رجوع الأجساد إلى الأرض بالموت، وبعثهم يوم القيامة منها؛ فموت عيسى يكون في الأرض بعد نزوله من السماء.

هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده في موضوع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والآية الأخيرةُ تشير إلى حياته، وأنّه لم يمت بعد.

وقد صرحت الأحاديث الشريفة الكثيرة بأنه سينزلُ قبل قيام الساعة، ويقتلُ الدجالَ، ويكسِرُ الصليبَ، ولا يبقى أحد من كفار أهل الكتاب إلا يؤمن به الإيمانَ الصحيحَ بأنه عبدُ الله ورسوله، وقد بلغت الأحاديث التي أخبرت عن نزوله مبلغ التواتر لكثرتها؛ حتى إنَّ بعض العلماء أفردها في التأليف[٣].

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٦٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٦.

(٣) من أجلّ ما أُلف فيها كتاب: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للمحدث الهندي =

منها: [ما رواه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥) والترمذي (٢٢٣٣)]: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ ليوشكنَّ أنْ ينزِلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فيكسِرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتّى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها**»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٥٩].

والقول بأنّ أحاديثَ نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض أخبارُ آحادٍ لا تفيدُ العلم القطعي قولٌ باطلٌ، يدل على جهلِ قائليه بالسُّنَّة النبوية، وهو ما ذهبَ إليه بعض المتأخِّرين من المفسرين:

قال في «التفسير الحديث»: «لرشيد رضا ـ وهو صاحبُ «تفسير المنار» ـ في صدد ذلك كلامٌ طويلٌ يفيدُ أنَّ التوفي بمعنى الموت، والرفع بمعنى التكريم، وأنَّ الأحاديثَ النبويةَ هي أحاديثُ آحادٍ في أمورٍ غيبيةٍ لا يؤخذُ فيها إلا بالقطعيِّ المشهور، وأنّ نفيَ صلْبِهِ وقتله وكونه شُبِّهَ عليهم لا ينفي موته موتةً عادية . . . ولا تخلو هذه الأقوال من وجاهة»(١).

ولكنّ هذه الأقوال أمامَ التحقيق العلمي لا وجاهةَ فيها، بل هي محضُ الخطأ والضلال، لأنَّ الأصلَ أن يُحْمَلَ الكلامُ على حقيقته، والآية تصرِّحُ بالرفع لا بالتكريم، والأحاديث الشريفة تؤكد المعنى الحقيقي، فما الذي يجعلنا ننصرف عن المعنى الحقيقي، ونؤول الرفع بالتكريم، ونترك الأخذَ بالأحاديث الشريفة الصحيحة المتواترة؟! إن ذلك محض الضلال والخطأ.

ثمَّ أكَّد سبحانه رفع عيسى إلى السماء حيّاً بقوله:

= محمد أنور الكشميري رحمه الله، وقد زاد عدد الأحاديث التي ذكرها على خمسين حديثاً، وذكر معها سبعين أثراً عن الصحابة، وقد زاده فوائد ودرراً محققه العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

(١) انظر: التفسير الحديث: ٥/١٠٨.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء(١).

- **أتباع عيسى** عليه السلام:

وأخبره تعالى بتأييده لأتباعه حتى تكونَ لهم الغلبةُ والظهورُ على أعدائهم، فقال:

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم المؤمنون بأنّ عيسى عليه السلام عبد لله تعالى ونبي من أنبيائه، وهم المسلمون الموحدون، الذين ينزهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

قدَّر الله تعالى أن تكون لهم الغلبةُ على أعدائهم من الكفار كلما التقوا بهم في ميدان المناظرة بالحجة والبرهان، أو في ميدان القتال بالسيف والسنان، ما داموا مؤمنين بالله حق الإيمان، ومتمسكين بدينه وملتزمين شريعته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وشواهدُ التاريخ القريب والبعيدِ أكبرُ دليل على ذلك.

فلا دليلَ ولا برهانَ لمن يزحزح عيسى عن مقام عبوديته لله تعالى، ويصفه ببعض صفات الألوهية، أو يصف الله تعالى بأن له ولداً أو صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

لقد ناظر النبيُّ ﷺ وفدَ نصارى نجران، وأقام عليهم الحجَّة، ثم دعاهم إلى المباهلة، كما سيأتي، فنكصوا على أعقابهم خائبين.

وشهدت العصورُ المتأخرة مناظرات ومجادلات بين المسلمين الموحدين وبين الكافرين، فكان النصر والفوز للموحدين المسلمين أتباع عيسى عليه السلام.

ومن أشهر هذه المناظرات تلك المناظرة التي حدثت في الهند، في أثناء الاحتلال البريطاني، بين العالم المسلم (رحمة الله الكيرانوي) الهندي (١٢٣٣ ـ ١٣٠٨هـ) وبين القس البريطاني المشهور (فندر)، ومعه القس (وليم كلين)، حول خمس قضايا؛ هي:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٨٦.

١ ـ التحريف في الكتاب المقدس.

٢ ـ وقوع النسخ.

٣ ـ التثليث.

٤ ـ نبوة محمد ﷺ.

٥ ـ صدق القرآن الكريم.

وأسفرت عن اعتراف (فندر) بوقوع التحريف في ثمانيةِ مواضعَ من الإنجيل، وانقطعَ عن متابعة المناظرة في اليوم الثالث[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: فلمّا بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض. . . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واجتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوهما كنوزهما، وأُنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم ﷺ عن ربهم ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾ [النُّور: ٥٥]، فلهذا لمّا كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقّاً سلبوا النصارى بلاد الشام، وألجؤوهم إلى الروم. . ولا يزال الإسلام فوقهم إلى يوم القيامة[٢]، ما داموا متمسكين بدينهم، ومطبقين أحكام شريعته، وما أُتي المسلمون إلا من إعراضهم عن شريعة ربهم، وتركهم سنة نبيهم ﷺ.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وحينئذ يكون الحساب والجزاء.

---

(١) انظر: مقدمة كتاب: إظهار الحق، التي كتبها أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٦.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾.

وهو ما حدث لمن كفر بعيسى عليه السلام من اليهود، أو غلا فيه من النصارى، وستكونُ الغلبة عليهم للمسلمين إن شاء الله في العصر الحاضر، إذا عاد المسلمون إلى دينهم، وطبَّقوا شريعة ربهم، وسنَّة نبيهم ﷺ، والمعركة مستمرةٌ، ولم تنته بعد، والأيامُ دولٌ، وهو سبحانه المعز والمذل، والمعطي والمانع، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦].

وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٦].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾ في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالثواب الجزيل والجنة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- **المباهلة:**

بهذا أنهت الآياتُ الكريمةُ قصةَ مريم وولدها عيسى عليه السلام، والتفتت بعد ذلك إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾.

فهو الفرقانُ المميز بين الحق والباطل، أنزله الله تعالى عليك، وأظهرَ فيه حقيقةَ عيسى عليه السلام، وأزالَ ركامَ الأباطيل والأكاذيب التي نُسجت حوله.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ في الخلق من دون تقدم أسباب.

﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فكما خلق الله تعالى آدم، خلق عيسى عليه السلام، بل إنّ خلق آدمَ من غير أب ولا أم أعجبُ من خلق عيسى من أم بلا أب.

وهكذا ظهر الحق فلا شكَّ ولا افتراء:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: الشاكين.

ولا يكونُ من النبيِّ ﷺ أدنى افتراء وشك، وجاء الخطابُ له على سبيل الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت(١)، وبيانِ خطورةِ الشكّ في هذه الحقائق الناصعة الواضحة، فلا يُعْذَرُ من يعتريه شك في عبودية عيسى عليه السلام لربه وصدق نبوّته.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي: جادلك في شأن عيسى عليه السلام.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي سبق بيانه في السورة، فهو حقّ واضح أفاد العلم القطعي بأنّ عيسى عليه السلام عبدٌ لله تعالى، ونبيٌّ مرسل يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: نُحضرهم.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهل، ويدعو كلُّ فريق الله تعالى، ويسأله أن ينزلَ لعنتَه على الكاذبين.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٤٦.

﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في أمر عيسى عليه السلام.

وجَّه النبي ﷺ دعوة المباهلة إلى وفد نصارى نجران، فأبوا الاستجابةَ لها، ورضوا بدفع الجزية، وظلُّوا متمسِّكين بعقائدهم الفاسدة.

ففي [صحيح البخاري (٤٣٨٠)]: **عن حذيفة** رضي الله عنه قال: جاء العاقِبُ والسيّدُ صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدُهما لصاحبه: لا تفعل، فواللهِ لو كان نبيّاً فلاعناه لا نفلحُ نحنُ ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنّا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعثْ معنا إلا أميناً، فقال: «**لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حَقَّ أمين**» فاستشرفَ لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «**قم يا أبا عبيدة بنَ الجراح**» فلما قام، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هذا أمينُ هذه الأمة**».

ثمَّ عقَّب الله تعالى على قصة عيسى وأمِّه بقوله الكريم:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد ﷺ، في شأن عيسى وأمه، هو الحق الثابت.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرضوا عن هذا الحق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الإعراضَ عن الحق يؤدي إلى الفساد في الاعتقاد والسلوك والأخلاق.

- **كلمة العدل:**

وأمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يدعوَ أهل الكتاب إلى كلمةِ حقٍّ وعدلٍ وإنصافٍ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كلمةِ عدلٍ وإنصاف، نستوي نحنُ وأنتم فيها، وهي:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والولد.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ في العبادةِ والطاعةِ، أو في صفة من صفات كماله جل وعلا.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا يطيعُ بعضنا بعضاً في معصية الله تعالى، فالحكمُ لله تعالى وحده، والتشريع له ﷻ، فلا حلالَ إلا ما أحلّه الله، ولا حرامَ إلا ما حرّمه، ولا دينَ إلا ما شرعه.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التّوبة: ٣١].

ولما كان عديٌّ بن حاتم نصرانيّاً ودخل على النبي ﷺ وهو يتلو هذه الآية، فقال معترضاً: إنّهم لم يعبدوهم، فقال النبيُّ ﷺ: «**بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلالَ، وأحلّوا لهم الحرامَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتُهم إيّاهم**» [رواه الترمذي (٣٠٩٥) وحسّنه].

وقد عوّدتنا الآيات الكريمة أن يكونَ موقفُ المسلمين عند إعراض الكافرين عن دينهم أن يعلنوا إسلامهم لله تعالى، واستسلامهم لشرعه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والجدير بالذكر: أن النبيَّ ﷺ ذكر هذه الآية في كتابه الذي أرسله إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِهِ إلى هِرَقل عظيم الرُّوم، سلامٌ على مَنِ اتّبعَ الهُدَى، أمّا**

بعدُ: فإنِّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ، أسلمْ تسلَمْ، وأسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجركَ مرّتينِ، وإنْ توليتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيين[1]، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ . . .﴾ الآية» [رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له].

- **الإسلام دين إبراهيم عليه السلام:**

وبعد أن بيّنتِ الآياتُ حقيقةَ عيسى عليه السلام وأمِّه، رجعت إلى ما قبل عيسى عليه السلام بقرون طويلة، إلى والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام لتبين حقيقة الدين الذي كان يدعو إليه، وأنّه دينُ الإسلام لله تعالى وحده، لأن النصارى يدّعون أن إبراهيم كان نصرانيّاً، واليهود يدّعون أنه كان يهوديّاً، فأنزل الله قوله الكريم فرقاناً بين الحق والباطل:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾.

وقد يقول قائلٌ منهم: نحن نعلم أنَّ التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم بزمن طويل، لكنّ هذا لا يمنعُ أن يذكر الله تعالى فيهما الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

والجواب: أنّ الله تعالى لم يذكر في التوراة والإنجيل دين إبراهيم عليه السلام، بينما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وذكر أنّه عليه السلام كان موحداً مسلماً لله تعالى، حنيفاً عن كل ملل الشرك والكفر، بل أُمر النبي ﷺ باتباع ملَّته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النّحل].

ولهذا قال تعالى لهم على سبيل التبكيت والتقريع:

---

(١) عامة الناس من رعاياك. **قلت:** انظر: معنى الأريسيين في كتاب: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص٣٠٦ ـ ٣١٠؛ ط: دار القلم بدمشق. (الناشر).

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، فيما تدَّعونه بشأنهما.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كإبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما أنزل في كتبه.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام، الدين القائم على الاستسلام الكامل لله وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كل ملل الشرك والكفر.

﴿مُّسْلِمًا﴾ لله تعالى وحده.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والمسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في الإعراض عن الشرك والكفر، والاستسلام لله تعالى وحده.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ محمد ﷺ الداعي إلى التوحيد الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من هذه الأمة المسلمة الموحدة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله الواحد الأحد وبرسالة جميع الأنبياء والمرسلين.

❁ ❁ ❁

الفَصۡلُ الثَّالِثُ

التوراة واليهود

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ
بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ
مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا
دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ
يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ
وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ
لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ
ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ
وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ
ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم
بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ
وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ
عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ
بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ
ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ
فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾
۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ
بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا
وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا

حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ
يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا
يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ
عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا
يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً
مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ
مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

• **تحذير:**

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان فيها عدد كبير من اليهود، أعرض أكثرهم عن دعوة النبيِّ ﷺ، ومكروا به، وألّبوا المشركين عليه، وحاولوا قتله، مع أنهم يعلمون أنّه النبيُّ الذي بَشّرَ به أنبياءُ بني إسرائيل، وذُكرت نُعُوتُه وصفاته في التوراة.

وقبل أن توجِّه الآياتُ الخطابَ إليهم حذَّرتِ المسلمينَ من مكرهم وكيدهم، قال تعالى:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهم اليهود.

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي: يبعدونكم عن الإسلام، قيل: إنها نزلت في اليهود حين دعوا حذيفةَ وعماراً ومعاذاً من الصحابة إلى اليهودية.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعودُ وبالُ ذلك إلا على أنفسهم.

وهذا يدل على قوّة إيمان المخاطبين في الآية، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم(١).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بأن ضرر الإضلال يعود عليهم.

• **أهل الكتاب:**

ثمَّ وجهتِ الآياتُ الخطابَ إليهم مباشرة، بقوله تعالى:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٤٩.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ ونداءُ القرآن الكريم لهم بهذه الصفة يدل على ميزة كبرى يمتازون بها على غيرهم، فهم يملكون بالكتاب الذي أُنزلَ عليهم الدلائل والبراهين الدالّة على صدق النبي ﷺ وصحّةِ رسالته أكثر من غيرهم، ولهذا أنكر الله عليهم كفرهم وإعراضهم عن الإيمان فقال:

﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي أنزلها الله في التوراة والدالة على نبوَّته عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي: وأنتم تشاهدون هذه الدلائل وتعرفونها.

وعلى الرغم من التغيير والتبديل في التوراة، وخاصة ما يتعلق بصفات النبيِّ ﷺ، فلا يزال فيها بعض الإشارات إلى النبي ﷺ، حتى إنّ أحد قسس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية البروفسور (داود بنيامين الكلداني)، ألّف كتاباً في هذا الموضوع، عنوانه: «محمد في الكتاب المقدس»، وقد أسلمَ بعد ذلك، وتسمّى باسم عبد الأحد داود، وقد ذكر فيه استناداً إلى خبرته باللغات الآرامية والعبرانية والسريانية القديمة، كثيراً من النبوءات على لسان الأنبياء، لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ:

منها: ما في الإصحاح الثاني من سفر حجّي: «وسوف أزلزلُ كلَّ الأمم، وسوف يأتي حِمَدا (Himade) لكلِّ الأمم، وسوف أملأُ هذا البيتَ بالمجد»[١].

ومنها: ما في الإصحاح التاسع والأربعين في سفر التكوين: «لا يزولُ صولجانٌ من يهوذا، أو مشرّع من بين قدميه حتى يأتي (شَيْلوُه) ويكون له خضوع الشعوب»[٢].

ورأى المؤلف أنّ هذه النبوءة لا تنطبق على عيسى عليه السلام، لأنه لم يترك

(١) انظر: محمد في الكتاب المقدس.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

قانوناً مكتوباً، ولم يحلم أبداً بصولجان ملكي، بل إنّه نصحَ اليهودَ أن يكونوا مخلصين لقيصر، وأن يدفعوا له الجزية . . . وجاء محمد ﷺ بالقوة العسكرية، والقرآن يحلّ محلّ الصولجان اليهودي القديم البالي، والشريعة القديمة غير العملية[١].

ثمَّ يؤكِّد المؤلّفُ أنّ معنى شَيْلوُه: شيلوا ح، وتكون عندئذٍ مرادفة تماماً لرسول ياه، وهو نفس اللقب المعطى لمحمد وحده (رسول الله)[٢].

ثم ذكر للكلمة معنى ثانياً ذا أهمية لصالح محمد ﷺ وهو: هادئ، مسالم، أمين، وديع، وكان ﷺ يلقب بالأمين[٣].

ويرى المؤلف أيضاً أنّ كلمة (برناشا) الواردة في نبوءة النبي دانيال، ومعناها ابن الإنسان، الذي يحطِّمُ الوحش الرابع، والمراد به الإمبراطورية الرومانية، لا ينطبق إلا على محمد ﷺ[٤].

كل ذلك يبّينُ لنا سرَّ نداء الله تعالى لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فهم يعلمون مدلول هذه الكلمة، وما فيها من إلزام قاطع لهم بالإيمان بالنبي ﷺ، ولهذا تابعت الآيات الكريمة تناديهم بهذا النداء:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: تسترونه به، أو تخلطونه به.

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ وهو نبوة محمد ﷺ.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنه نبي الله حقّاً.

---

(١) انظر: محمد في الكتاب المقدس.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه، فصل: محمد ابن الإنسان.

● **من خداع اليهود ومكرهم:**

ثمَّ كشفت الآياتُ الكريمةُ بعضَ خداعهم ومكرهم:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ فهي مكيدة أرادوها ليلبِّسوا على الضعفاء من الناس أمرَ دينهم، فاتفقوا فيما بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاةَ الصبح، فإذا جاءَ آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلةُ من الناس: إنّما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين(١)، ولهذا قالوا:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم.

وقد قطع النبيُّ ﷺ على أمثالهم طريق الإيمان خداعاً ومكراً، عندما شرع ﷺ قتل المرتد عن الإسلام، فقال: «**مَنْ بَدَّلَ دينه فاقتلوه**» [رواه البخاري (٦٩٢٢) وأبو داود (٤٣٥١) والنسائي (٤٠٥٩ و٤٠٦٥) والترمذي (١٤٥٨)].

فصان عليه الصلاة والسلام بهذا حرمة الإسلام، ومنع من اتخاذِ الدخول في الإسلام للاستهزاء والاحتيال.

وكانوا يتواصون فيما بينهم قائلين:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وهذا يدل على شدة تعصبهم لباطلهم، وأنّهم لا يثقون إلا ببعضهم، فاليهودي لا يطمئن إلا ليهودي مثله.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٩١.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فالهداية بيده سبحانه، فلا تأثيرَ لمكرهم وخداعهم، ثم عادت الآية تحكي تتمة كلامهم لبعضهم:

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، حتى لا يتعلموه منكم، ويتخذوه حجَّة عليكم في الدنيا والآخرة.

وعادت الآية تنقضُ قولَهم هذا مرةً ثانية بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فهو المعطي والمانع، يعطيه من يشاء، ويمنعه عمن يشاء، وفضله سبحانه يسع جميع خلقه، كما أنَّ علمه سبحانه وسع كل شيء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

وقد خصَّ الله تعالى هذه الأمة المسلمة برحمته العظمى ومنَّته الكبرى، وهي بعثة خاتم الأنبياء ﷺ فيهم، وقد شاء سبحانه أن يجعل الرسالة والكتابَ في غير أهل الكتاب بعدما خاسوا بعهدهم مع الله، ونقضوا ذمَّة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وعرفوا الحق ولبَّسوه بالباطل.

- **استحلالهم لأموال الناس:**

وتابعت الآياتُ الكريمةُ تكشِفُ أكاذيبهم وتفضح قبائحهم:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وهذا تقرير للحقيقة والوقائع،

فبعضهم أصحابُ أمانةٍ وتقوى، يحفظون الأمانة، ويؤدونها لأصحابها، ولو كانت مالاً كثيراً، وهؤلاء **قليل فيهم.**

وأما أكثرهم فيستحلّون أكلَ أموال الناس بأي وسيلة كما قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وهذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى ألا يؤديه إلى صاحبه ومستحقه.

فللمالِ مكانةٌ كبيرةٌ في قلوبهم، وحبُّهم له حمَلَهم على الكذبِ على الله تعالى فقالوا:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا في ديننا حرج ومسؤولية في أكل أموال غير اليهود.

حيث إنَّ اليهودَ يعدون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وأنه سبحانه سلَّطهم على أموال الأرض وخيراتها. قال الرابي ألبو: سلّطَ الله اليهودَ على أموال باقي الأمم ودمائهم.

وجاء في وصايا التوراة: «لا تسرق مالَ القريبِ».

وقال علماء (التلمود)[١] مفسرين هذه الوصية: إنّ الأميَّ ليس بقريبٍ، وإنَّ موسى لم يكتبْ في الوصيةِ: «لا تسرقْ مال الأمي» فسلبُ ماله لم يكن مخالفاً للوصايا[٢].

وقال ممياند مفسراً لما جاء في الوصية المذكورة: «لا تسرق»: إن السرقة

(١) معناه: كتاب تعليم ديانة وآداب اليهود، وهو عبارة عن حواشٍ وشروح للتوراة وتكملة للشريعة على حسب ما يدّعون. وهو عندهم أفضلُ من التوراة، لأنّهم يعتقدون بعصمة الحاخامات عن الخطأ، وأنّ كل ما قالوه جزءٌ من شريعة موسى. انظر: الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

غير جائزة من الإنسان أي من اليهود، أما الخارجون عن دين اليهود فسرقتهم جائزة[١].

وقريب اليهودي هو اليهودي فقط، وباقي الناس حيوانات في صورة إنسان، هم حمير وكلاب وخنازير، يلزم بُغضهم سرّاً[٢].. تلك بعض أقوال حاخاماتهم في التلمود.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إنّهم يكذبون عليه سبحانه.

ثمَّ بيّن سبحانه أنّ أحبابه هم أهل الأمانة والوفاء والتقوى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

- **أيمانهم الكاذبة:**

ومن افتراءاتهم أنّ أحبارهم أحلّوا لهم الحَلِفَ زوراً وكذباً في تعاملهم مع غير اليهود. وقد جاء في (التلمود): لا تُعَدُّ اليمينُ التي يقسِمُ بها اليهوديُّ في معاملاته مع باقي الشعوب يميناً، لأنّه كأنَّه أقسمَ لحيوانٍ، والقسمُ لحيوانٍ لا يُعَدُّ يميناً... ولا يخطئ اليهودي إذا حوّلَ اليمينَ لوجهة أخرى.

وقد حلف الرابي (يوحنان) يوماً لامرأةٍ على ألا يبوحَ بسرِّها قائلاً لها: إني لا أبوحُ بهذا السر أمام الله، ففهمت المرأةُ أنَّ الحاخامَ يحلِفُ لها بالله على كتمان السر مطلقاً، مع أنّه حوَّله بالكيفية الآتية: أحلفُ أنْ لا أبوحَ بهذا السرِّ أمامَ اللهِ، ولكنّي سأفشيه لبني إسرائيل[٣].

ولهذا قال تعالى في سياق الآيات التي تكشف مخازيهم وأكاذيبهم:

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ فهو قليل مهما كان كثيراً بسبب جرأتهم على استحلال اسم الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظَّ لهم منها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنهم محجوبون عنه سبحانه.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ نظر رحمة وإحسان.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ من الذنوب والآثام، فلا يغفرها لهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي ذر** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ، ولا ينظرُ إليهم يومَ القيامةِ، ولا يزكّيهم، ولهمْ عذابٌ أليمٌ**» قلت: يا رسول الله من هم؟ خسروا وخابوا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرّاتٍ: «**المُسْبِلُ [إزاره]، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ، والمنَّانُ**» [رواه مسلم (١٠٦) وأبو داود (٤٠٨٧) والنسائي (٨/ ٢٠٨) والترمذي (١٢١١) وابن ماجه (٢٢٠٨)].

و(**المسبل**) معناه: المتكبر. و(**المنَّان**) أي: بالصدقة.

- **تحريف الكتاب:**

ثمّ دمغتهم الآياتُ بالجريمةِ الكبرى، جريمةِ تحريف كتاب الله تعالى، الذي أُنزِلَ على نبيّهم موسى عليه السلام، وهو التوراة، بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا الفريقُ هم الأحبار، الذين

كانوا مؤتمنين على حفظ التوراة، فكانوا يُمِيْلون ألسنتهم عن المنزَّل إلى المحرَّف(١).

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل، بل هو من افترائهم وكذبهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يكذبون على الله تعالى.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً.

بَيَّن البروفسور (داود الكلداني) صورةً من صور تحريفهم للتوراة فقال: «لقد كان اليهودُ دائماً وأبداً على غيرة من إسماعيل عليه السلام، لأنّهم يعرفون جيداً بأنه كان يجسّدُ ويمثّلُ «العهد»، وبختانِه أُبرم وخُتم هذا العهدُ، وإنّه بدافعٍ من ذلك الحقد وتلك الضغينة قامَ النُّسَّاخُ وفقهاءُ الشريعةِ عندَ اليهودِ بتحريفٍ وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة، فشطبوا اسمَ إسماعيل من العبارات: الثانية والسادسة والسابعة من الفصل الثاني والعشرين في كتاب سِفْرَ التكوين، ووضعوا اسم إسحاق بدلاً منه، وقاموا أيضاً بحذف الوصف الخاصّ بإسماعيل: ولدك الوحيد، وذلك إنكاراً لوجود إسماعيل»(٢).

وقد امتلأت التوراةُ ـ نتيجة التحريف ـ بالافتراءات والأكاذيب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فوصفوهم بأقبح الصفات، ونسبوا إليهم أفحشَ الأعمال، وهم منها براء، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فهم الأطهارُ الأخيارُ الذين اختارهم الله تعالى من صَفْوة خَلْقه لنبوته وحمل رسالته، انظر كيف نزّه اللهُ ساحتهم عن الكذب، وشهد بصدقهم وأمانتهم، بقوله تعالى:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/٥١.

(٢) محمد في الكتاب المقدس.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: اعبدوني من دون الله تعالى، فالأنبياءُ عليهم السلام لا يقولون مثل هذا القول أبداً، ولكنّهم يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: كونوا شديدي التمسّك بعبادة ربكم وطاعته.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: بسبب كونكم عالمين بالكتاب ومعلِّمين له.

ففائدةُ العلم بالعمل به، والعالِمُ الذي لا يَعْمَلُ بعلمه أقبح من الجاهل.

ولهذا كان ﷺ يستعيذُ من علمٍ لا ينفعُ؛ فعن **زيد بن أرقم** رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، ومَنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُستجابُ لها**» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ فالرسولُ ﷺ لا يأمر بعبادة أحدٍ غير الله تعالى؛ لا نبي مرسل، ولا مَلَك مقرب، ومن دعا إلى عبادة غير الله تعالى، فهو داعيةُ كفر وشرك، والرسل والأنبياء منزّهون عن ذلك.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟! وحاشا لنبيٍّ أن يفعلَ ذلك، والمراد من الاستفهام الإنكار والنفي.

فالآياتُ الكريمةُ تشهدُ ببراءة الأنبياء والمرسلين عن الافتراءات والأكاذيب التي نسبها أهل الكتاب إليهم، وخصوصاً ما نُسب إلى عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

• **ميثاق النبيِّين:**

ومن الأمانات التي ائتمنَ الله تعالى عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخذ عليهم الميثاقَ من أجل حفظها وأدائها، ما أخبر عنه في قوله الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: مهما أعطى الله تعالى أحدكم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قال **علي وابن عباس** رضي الله عنهما: **ما بعثَ اللهُ نبيّاً من الأنبياءِ إلا أخذَ عليه الميثاقَ: لَئِنْ بَعَثَ اللهُ محمّداً ﷺ وهو حيٌّ ليؤمنَنَّ به ولينصرنَّه، وأمَرهُ أن يأخذَ الميثاقَ على أُمّتِهِ: لَئِنْ بُعثَ محمَّد ﷺ، وهم أحياءٌ ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّه**(١).

وهذا يدلُّ على أنَّ رسالة القرآن الكريم ـ وهي الإسلام، التي دعا إليها النبيُّ ﷺ ـ هي أكمل الرسالات وأتمها، كما يدل على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام، فهو إمامهم وخاتمهم.

قال العلَّامة الآلوسي رحمه الله: «وَأَخْذُ الميثاقِ من النبيينَ له ﷺ، مع علمه سبحانه أنهم لا يدركونَ وقته، فيه من التعظيم له ﷺ والتفخيمِ ورفعةِ الشأنِ، والتنوية بالذكرِ، ما لا ينبغي إلا لذلكَ الجناب»(٢).

وقال ابنُ كثير رحمه الله: «فهو الإمامُ الأعظمُ الذي لو وجد في أي عصر، لكان هو واجب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم»(٣).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٩٦.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢/ ٢١٠.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٩٦.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي.

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على إقراركم، فهو ميثاق جليل وخطير، الله ﷻ شاهد عليه.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ عن هذا الميثاق.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله تعالى، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ كانَ مُوْسَى حيّاً بين أظهركُمْ ما حَلَّ له إلا أن يتّبعني**» [رواه أبو يعلى].

ويقول أيضاً: «**والذي نفسي بيدِهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذِهِ الأمةِ، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ، ولم يؤمنْ بالذي أُرْسِلْتُ به؛ إلا كانَ مِنْ أهلِ النَّارِ**» [رواه مسلم (١٥٣)].

- **الاستسلام لله تعالى:**

فمسؤولية أهل الكتاب عن النبي ﷺ جسيمة وخطيرة، وإعراضُهم عن التصديق برسالة النبيّ ﷺ إعراضٌ عن دين الله تعالى، الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء والمرسلين، ولهذا قال تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي: أيطلبون ديناً غير دين الله تعالى، وهو دين الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: ولله سبحانه استسلمَ وخضعَ مَنْ في السمواتِ والأرض، لأنّهم تحتَ التسخيرِ والقهرِ، وفي قبضةِ قدرته ومشيئته سبحانه، فمَنْ لم يستسلم لأمرِهِ التكليفي، انقادَ وخضعَ

لأمره التكويني القدري، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥].

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنّه تحتَ التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالَف ولا يُمانَع[1].

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ ومرجعهم ومصيرهم بعد الموت إلى أمره وحكمه جَلَّ جَلَالُهُ.

- **الإيمان بجميع الأنبياء:**

ولا بدّ مع الاستسلام لله تعالى وحدَه من التصديق بنبوة جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولهذا أمرَ الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يعلنَ هذه الحقيقة في وجوه أهل الكتاب الذين يفرّقون بين الأنبياء ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المتّصف بكل صفات الجلال والكمال، والمنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم بطونُ بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ في التوراة والإنجيل.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وهذا يعمُّ جميعَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ مستسلمون له سبحانه وحده.

فالمسلمون يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٩٧.

أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا هو الإسلام الذي دعا إليه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وأنزله الله تعالى في القرآن، ولا يقبل الله تعالى ديناً غيره:

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ في الدنيا، وهو ردٌّ عليه مهما كان المصدر الذي يدَّعيه لهذا الدين.

﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بسبب إعراضه عن دين الإسلام.

- **كتمان الحق:**

ثمَّ بيَّنت الآيات شدَّة هذه الخسارة بالنسبة للمرتدين عن الإسلام، وتردُّ بهذا البيان على اليهود الذين كانوا يؤمنون أوّل النهار، ويكفرون آخره، كما مرَّ معنا، وتردُّ عليهم أيضاً لأنّهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ قبل أن يُبعث، فلمّا بُعث من غيرهم كفروا به:

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾؟ والمراد من الاستفهام النفي، أي: لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، وهم أهلُ الكتاب الذين رأوا نعت النبيِّ ﷺ في كتابهم، وأقروا وشهدوا بأنّه حق، فلمّا بُعِثَ من غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه، وكفروا بعد إقرارهم(١).

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ﴾ وهو محمد ﷺ.

(١) روح المعاني: ٢/٢١٦.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الدلائل الواضحة على صدقه وصحَّة نبوَّته في كتبهم المنزلة عليهم، وفي القرآن الكريم المنزل عليه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجاحدين للحق والمعرضين عنه.

ثمَّ بيَّنت الآيات جزاء ظُلمهم وجحودهم بقوله جل وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

بسبب كتمانهم للحق وجحودهم له مع معرفتهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فكتمانُ الحقِّ جريمةٌ كبرى، فما بالك إذا انضم إليه الجحود والإنكار؟!.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ توعّدَ كاتمَ العلم عن المحتاج إليه بلجام من نار يوم القيامة، فقال: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ علمٍ فكَتَمُه؛ أُلْجِمَ يومَ القيامةِ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ**» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩)].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار، أو في اللعنة.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فلا تخفيفَ للعذاب عنهم ولا تأخير.

ومن رحمته سبحانه أنه فتح باب التوبة للمذنبين مهما كانت ذنوبهم كبيرةً، وهو من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، فلا ينبغي لمذنبٍ أن يصرَّ على ذنبه يأساً من رحمة الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا، فأظهروا الحق الذي كتموه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. تباركتَ ربِّي ما أعظمَ رحمتك وأوسعَ مغفرتك!.

• **الإصرار على الكفر:**

فعليهم أن يسارعوا إلى التوبة قبل نزول الموتِ بهم، لأنَّها لا تُقْبَلُ عندئذ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وهم اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وبالإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم.

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا حضرهم الموتُ وعاينوا العذاب.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن طريق الحق والنجاة، بسبب تأخير التوبة والإصرار على الكفر.

ولو أنّهم بادروا إلى التوبة قبل نزول الموت بهم لَقبلَ الله تعالى توبتهم، أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: أصرّوا على الكفر، وتمسكوا به، حتى ماتوا عليه.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فمن مات كافراً لا يَقْبَلُ الله تعالى منه أي فداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً، فهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وذِكْر الذَّهب في الآية تعريضٌ بأولئك الذين كفروا بمحمد ﷺ وكتموا

الحق من أجل الذَّهب ـ كما مرّ معنا ـ وذَهَبُ الأرضِ كله لا ينفعهم يوم القيامة إن ملكوه وأحضروه معهم.

عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يقول الله تعالى لأهونِ أهلِ النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صلبِ آدمَ: أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيتَ إلا أن تشرك بي**» [رواه البخاري (٦٥٥٧) ومسلم (٢٨٠٥)].

وهؤلاء أخذ الله عليهم العهدَ بواسطة أنبيائهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء محمد ﷺ، إنْ أدركوا زمنه، وبيّنَ لهم نعوته وصفاته، فلمّا أدركوا زمنه، وعرفوه بصفاته ونعوته، كفروا به، وجحدوا نبوته ورسالته، من أجل مصالحهم المادية، ومراكزهم الدينية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينقذونهم من العذاب ويمنعونهم منه.

- **بذل المحبوب:**

الحقُّ أعلى من الذهب والرُّتَب، ولا يجوزُ أن يعرِضَ الإنسانُ عن الحق ويجحده من أجل الذهب والرُّتَب، كما فعل أحبارُ اليهود، عندما كتم أكثرُهم الحق، وجحدوا نبوة سيدنا محمد ﷺ، من أجل مصالحهم الدنيوية ومراتبهم الدينية، وكان عليهم أن يعلنوا الحقّ، ويظهروه للناس، وينقادوا له، فيؤمنوا برسالة الإسلام، ولو كلّفهم ذلك أن يفقدوا امتيازاتهم ورتبهم، وما تدرّه عليهم من ربح ومكاسب. فالحقيقةُ غاليةُ الثمنِ، ولا بدَّ أن يُضحُّوا من أجلها بما يحبون، وهو ما قرره سبحانه بقوله:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فلن يصل الإنسان إلى الخير والإحسان والسعادة والجنة حتى يبذلَ في سبيلها ما يحبُّ.

وكلمة ﴿تُنفِقُواْ﴾ تدل على المال، فهو المحبوبُ الذي يجب بذله من أجل

الوصول إلى رضوان الله تعالى والجنة، فالبِرُّ غالي الثمن، عزيزُ المنالِ، لا بد أن تضحي من أجله بما تحبُّ لتصلَ إليه، فالمراد بالإنفاق مطلقُ البذل، وفيه من الإيذانِ بعزّةِ منال البرِّ ما لا يخفى(١).

والآية الكريمة، وإن كانت خطاباً لأهل الكتاب، تقرر مبدأً عامّاً لكل الناس، ولهذا بادر كثير من الصحابة ﷺ إلى إنفاق أحب أموالهم في سبيل الله تعالى، فأنفق **أبو طلحة الأنصاري** ﷺ بَيْرُحاء: بستاناً له قُرْبَ المسجد، وكانت أحبَّ أمواله.

وأنفق **عمر بن الخطاب** ﷺ سهمَه في خيبر، وقال: يا رسولَ اللهِ لم أصبْ مالاً قطُّ هو أنفسُ عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به، فقال: «**احبس أصلها وَسَبِّل ثمرتها**» [رواه البخاري (٢٧٦٤) ومسلم (١٦٣٣)].

وعمد **زيد بن حارثة** ﷺ إلى فرسٍ يقال له: سَبَل، وكان أحبَّ مالِه إليه، فجعلَه في سبيل الله.

وأعتق **ابن عمر** ﷺ نافعاً مولاه بعد أَنْ أُعطِيَ فيه ألفَ دينارٍ...(٢).

هكذا كانوا ﷺ إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

على هذا الدرب سار الكثيرون منهم، يلبّون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البرِّ كلِّه يوم هداهم إلى الإسلام، ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات، ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء(٣).

- **التحدي بالتوراة:**

حَرّم إسرائيل ـ وهو يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ ـ أحبَّ الطعام

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٤/ ١٣٢.
(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٢٢٥.

والشراب إلى نفسه تقرّباً إلى الله تعالى، وكان أحب طعامٍ وشرابٍ إلى نفسه لحوم الإبل وألبانها، وكانت قبله حلالاً.

ولمّا بحث يهود المدينة المنورة عن شيءٍ يعترضون به على النبي ﷺ وقعوا على موضوع لحوم الإبل وألبانها، فأتوا إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: إنك تزعمُ أنك على مِلّةِ إبراهيم، وكان إبراهيمُ لا يأكل لحومَ الإبل وألبانها، لأنّها محرمةٌ عليه! فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حلالاً لهم.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾، فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها ما حرم إسرائيل على نفسه، وحرم عليهم أيضاً فيها بعض الطيبات من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، عقوبة لهم وتشديداً عليهم[١].

ولما أنكروا ذلك أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يتحداهم بالتوراة:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وهذا من أعلام نبوته ﷺ أن يتحدَّاهم بكتابهم التوراة؛ وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

فبُهتوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة استجابة للتحدي، ونكصوا على أعقابهم خاسرين، فأنزل تعالى فيهم:

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ فزعم أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة.

---

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، وهو جزء من هذا التفسير.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين لا ينقادون للحق ولا يعملون به.

وبهذا أظهر ﷻ أن القرآن الكريم هو كلامُه، وأنَّ فيه الفرقانَ بين الحق والباطل، كما أظهرَ صِدْقَ النبيِّ ﷺ وصحَّة نبوته ورسالته، وأثبتَ سبحانه أيضاً بهذه الواقعة إمكانَ حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلٰهية، ونقضَ بهذا مزاعمَ اليهود بعدم حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلٰهية، كي يتوصّلوا إلى القول بثبات العمل بشريعة التوراة، وعدم إمكان نسخها.

وإيراد الآية الكريمة: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٣] في سياق قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢]؛ فيه تعريضٌ بأحبار يهود، الذين لم يفعلوا ما فعل إسرائيل ﵇ الذي ينتسبون إليه، فقد ترك أحبَّ طعام وشرابٍ إلى نفسه تقرّباً إلى الله تعالى؛ فلو كانوا حقّاً يقتدون به ويسيرون على خطته، لتخلّوا عن تعصبهم لأنفسهم ومراتبهم الدينية ومصالحهم المادية، وانقادوا للحق، وآمنوا برسالة القرآن الكريم، وأقرّوا بصدق النبي ﷺ، الذي أُمر أن يقول لهم أيضاً:

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهي عقيدة التوحيد والاستسلام لله تعالى وحده، مع الإعراض عن كل ما سواه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كان إبراهيم ﵇ من المشركين أبداً في أي وقتٍ من الأوقات، بل كان موحِّداً مائلاً عن كل دين باطل.

- **البيت الأول:**

ظهر لنا من خلال الآيات مدى التوافق والاتساق بين آيات السورة، فكلُّ آية تُتمّم سابقتها، وتمهِّد لما يأتي بعدها، فقد قررت الآيات السابقة وقوعَ النسخ في الأحكام، ومهَّدت بهذا الموضوع لنسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة باستقبال بيت الله الحرام، وهو من القضايا التي احتجَّ بها اليهود على النبي ﷺ،

إذ بقي عليه الصلاة والسلام ستةَ عشرَ شهراً، أو سبعةَ عشرَ شهراً بعد الهجرة، يستقبل في صلاته بيت المقدس، ورغب عليه الصلاة والسلام أن يتحوَّل إلى بيت الله الحرام قبلةَ إبراهيم ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

وأنزل الله تعالى في سورة آل عمران الآيات التالية، يبيّن فيها فضل المسجد الحرام، وصلته بإبراهيم ﷺ، وبهذا تتضح قوةُ الوشائج التي تربط بين الإسلام وملَّة التوحيد التي كانت ملّة إبراهيم والأنبياء بعده:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ليعبد فيه الناسُ ربَّهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وكلمة ﴿وُضِعَ﴾ تدل على قِدَم البيت الحرام، وأنه كان موجوداً قبل إبراهيم ﷺ[(١)]. وقد أعاد بناءه برفع قواعده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٧].

ويبيّن سبحانه مكان البيت بقوله:

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: البيت الذي بمكة، وسميت مكّة المكرَّمة ببكة، لأنّها تبكُّ أعناقَ الظَّلَمة والجبابرة الذين يريدونها بسوء، ولأنَّ الناسَ يزدحمون فيها بسبب كثرة الوافدين عليها للعبادة.

---

(١) نظم الدرر: ٥/٦.

﴿مُبَارَكًا﴾ كثيرَ الخيرِ.

ومن بركاته: مضاعفةُ ثواب الطاعاتِ فيه، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**صلاةٌ في مَسْجِدي هذا خيرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سِوَاهُ مِنَ المَسَاجِدِ إلا المَسْجِدَ الحرام**» [رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤)].

وفي روايةٍ ثانيةٍ بزيادة: «**وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مئةِ صلاةٍ في مسجدي هذا**» [رواه أحمد (٤/ ٥) وابن حبان في صحيحه (١٦١٨)].

ومن بركته أيضاً: ما يحصلُ للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ يهتدون به إلى جهة صلاتهم، وفيه بُعِثَ خاتمُ الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأُنزل عليه القرآن الكريم لهداية العالمين.

● **بلد السلام:**

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: علاماتٌ واضحاتٌ على حرمته ومزيد فضله، منها:

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحَجَرُ الذي كان إبراهيمُ يقف عليه عندما رفع قواعد البيت الحرام، وفيه آثارُ قدميه منطبعةٌ داخلَ الصخر، ولا تزالُ باقيةً حتى الآن.

ثمَّ أخبر سبحانه عمَّا أوجبَ من أمْنٍ وسلامٍ لمن دخل أرض الحرم، فقال:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فمكَّة المكرَّمة بلد الأمن والسلام، وأرضُها أرضٌ حرامٌ، حرَّمها الله تعالى؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنّ هذا البلدَ حَرَّمَهُ اللهُ يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يحل القتالُ فيهِ لأحدٍ قبلي، ولم يحل لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ تعالى إلى يومِ القيامةِ، لا يُعْضَدُ شوكُهُ، ولا يُنفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَته إلا مَنْ عَرَّفها**،

ولا يُخْتَلى خلاه» قال العباسُ: يا رسول الله إلا الإذخر، فقال ﷺ: «**إلا الإذخر**» [رواه البخاري (١٥٨٧) ومسلم (١٣٥٣) وأبو داود (٢٠١٨) والنسائي (٥/ ٢٠٣)].

ومعنى «**لا يعضد**»: لا يقص. «**لايختلى خلاه**»: لا يرعى الكلأ النابت فيه. «**الإذخر**»: نبات طيب الرائحة.

● **الحجّ إلى بيت الله الحرام:**

ثم بيّن الله تعالى ارتباط البيت الحرام بركن هامٍّ من أركان الإسلام، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

فالبيتُ رمزٌ لتوحيد المسلمين ووحدتهم، فهو قبلَتُهم في صلاتهم، ويؤدّون فيه مناسكَ حجِّهم، وتأتيه وفودُهم من شتّى بقاع الأرض، منذُ أعلن إبراهيمُ ﷺ دعوته سبحانه الناسَ لأداءَ مناسك الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: ٢٧][١].

فيجب على كلّ إنسانٍ يستطيعُ الوصولَ إلى بيت الله الحرام أن يأتيه لأداء مناسك الحج، فهو لكلِّ الناس ـ كما مرّ معنا ـ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الحَجّ: ٢٧].

واليهود والنصارى من الناس، فهم مكلّفون بالحجِّ إلى بيت الله الحرام لا إلى غيره، فإن جحدوا فضله وأعرضوا، فالله سبحانه غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم وحجهم:

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى: **(ومن كفر)** بدل **(ومن لم يحج)** يدلُّ على أهمية الحج، وأنَّ مَنْ تركه جاحداً له كفر، وقوله أيضاً: **(غني عن العالمين)** مكان **(عنه)** يدل على كمال غنى الله تعالى، كما يدلّ على شدّة سخطه تعالى على المنكرين لفريضة الحج وفضل البيت الحرام[٢].

---

(١) انظر: تفسير سورة الحج (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج)، وهو جزء من هذا التفسير.

(٢) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ١/ ٥٤٩.

ولمّا كان أهلُ الكتاب أكثرَ الناس إنكاراً وجحوداً لفضل المسجد الحرام والتوجه إليه في الصلاة، التفتت الآياتُ الدالة على صدق النبي ﷺ وفضل بيت الله الحرام تخاطبهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على صدق النبي ﷺ وفضل بيت الله الحرام.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ من التحريف والجحود والكتمان.

- **الصدُّ عن سبيل الله:**

ثمَّ أمرت الآيات بمواجهتهم بجريمة صدّ الناس عن الإسلام:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ باللهِ الواحدِ الأحدِ، وصدّق برسله.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تطلبون الزيغَ والميلَ عن سبيل الله تعالى.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أنَّ محمداً ﷺ هو رسولُ اللهِ حقّاً وصدقاً.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من صدٍّ عن سبيله، ومحاولة إحداث الفتن بين المسلمين.

وقد نزلت هذه الآية في رجلٍ من اليهود اسمه (شأس بن قيس)، مرَّ على نفر من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتًى من اليهود أن يجلسَ معهم، ويذكّرهم بيوم بُعاث، وما تقاولوا فيه من الأشعار، وهو يومٌ من أيام الجاهلية، اقتتلت فيه

الأوسُ والخزرجُ، ففعل، فتكلّم القومُ عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلانِ منهم فتقاولا، وقال أحدُهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعةً (أي: عدنا إلى ما كان بيننا من قتال)، فغضبَ الفريقانِ وقالوا: قد فعلنا، موعدُكم الظاهِرةُ (أي: الحَرَّةُ) السلاحَ السلاحَ، فخرجوا إليها.

فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ، فخرجَ إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتّى جاءهم، فقال: «**يا معشرَ المسلمينَ اللهَ اللهَ، أبدعوى الجاهليةِ وأنا بَيْنَ أَظْهُرِكُم بَعْدَ أَنْ هداكُمُ الله للإسلامِ، وأكرمكُم بهِ، وقَطَعَ بهِ عنكم أمرَ الجاهليةِ، واستنقذَكم به مِنَ الكُفْرِ، وألَّفَ به بين قلوبِكُم؟!**».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول اللهِ ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله (شأس بن قيس)، وأنزل الله هذه الآية وما بعدها[1]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فأهلُ الكتابِ عامةً، واليهودُ خاصةً، حريصون على إحداثِ الفتن بين المسلمين، وإبعادِهم عن دينهم، بسبب الحقدِ والحَسَدِ اللذين يملأان قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩].

فهم يعلمون أنّ قوةَ المسلمين ووحدتهم في تمسُّكهم بدينهم، ولهذا يبذلون جهودَهم لفتنةِ المسلمين عن دينهم، حتى قال أحدُ كبار رجال التنصير[2]: «ليس المهم أن نُدْخِلَ المسلمينَ في المسيحيةِ، إنّما المهمُّ أنْ نخرجهم من الإسلام».

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/١٤٧، بتصرف واختصار.

(٢) هو سيِّئ الذكر (زويمر).

ولا عصمةَ للمسلمينَ من كيدِهِم ومكرِهم إلا بالتمسّك بكتاب الله تعالى وسُنة النبيِّ ﷺ، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾؟ وهو إنكارٌ وتعجيبٌ لكفرهم في حال اجتمعت لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفر(١).

والخطاب وإنْ كانَ خاصّاً بالصحابة رضي الله عنهم من الأوس والخزرج، فهو عام لكلّ المسلمين في أيِّ زمان ومكان، ويدلُّ على عمومه أنه سبحانه قال: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ فلم يسند تلاوة الآيات إلى رسول الله ﷺ.

• **الاعتصام بالله تعالى:**

والقرآن الكريم محفوظٌ بحفظ الله تعالى له، ولا تزالُ آياتُهُ تتلى على المسلمين كأنّها تتنزل ساعةَ تلاوتها، وكذلك سُنَّة الرسول ﷺ أيضاً حُفِظَتْ ومُحِّصَتْ، وهي تقومُ مقامه عليه الصلاة والسلام بعد وفاته.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ بالتوكل عليه والتمسُّك بهَدْي كتابه وسُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المؤدّي إلى رضوانه تعالى والجنَّة.

فالكتاب والسُّنَّة هما الحصن الحصين للمسلمين من الضلال والاختلاف، وهما المصدران الأساسيان للإسلام وشريعته، وكان رسول الله ﷺ يحثُّ على التمسُّك بهما، ويغضبُ إذا رأى أحَدَ أصحابه ينصرفُ عنهما إلى غيرهما.

ولمّا جاء **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ،

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٥٥٢.

إنِّي مَررْتُ بأخٍ لي من قُرَيْظَةَ، فكتبَ لي جوامعَ من التوراةِ، ألا أعرضُها عليكَ؟ تغيَّر وَجْهُ رسولِ اللهِ ﷺ، حتّى قال عبد الله بن ثابت: ألا ترى ما بِوَجْهِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقال عمر: رضينا باللهِ ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً، فسُرِّيَ عن النبيِّ ﷺ وقال: «**والذي نفسي بيدِهِ لو أصبحَ فيكم موسى عليه السلام ثمَّ اتبعتموه وتركتموني لضللتُم، إنّكم حَظِّي من الأممِ، وأنا حظُّكُم من النبيينَ**» [رواه أحمد (٣/ ٤٧١)].

● **حبل الله:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

ويستدعي الاعتصام بالله تعالى أمرين اثنين:

أولهما: تقوى الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: كما يجب أن يُتقى، على قدر طاقة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التّغابُن: ١٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: كونوا على الإسلام، واثبتوا عليه، حتى ينزلَ بكم الموتُ وأنتم على الإسلام.

فلا يدري الإنسانُ متى يحضره الموت، ولهذا عليه أن يكونَ مداوماً على التقوى، فهو الرباط الذي يربطه بالإسلام ويشدُّه إليه.

وثانيهما: الاعتصام بحبل الله تعالى:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي: تمسَّكوا بدين الإسلام مجتمعين عليه.

وكلمة (**الحبل**) تدلُّ على وجود الخطر، فإنَّ مَنْ خشي التردي والسقوط

يتمسك بالحبل. **وحبل الله**: دينُه وشريعته، فالإسلام كهفُ الأمان والسلام للمسلمين يحميهم من شرور أنفسهم، ومن كيد عدوهم، ولا نجاة لهم إلا به.

- **المسؤولية جماعية:**

وكلمة (**جميعاً**) تدل على أنَّ التمسُّكَ بحبل الله يجب أن يكون عامّاً شاملاً جميعَ المسلمين، فالخطرُ يُحْدِقُ بالأمةِ المسلمةِ كلِّها، والتبعات جسام، والمسؤولية جماعية، وإنَّ استرخاءَ بعض السواعد عن التمسك بحبل الله يعرِّض الأمَّة كلّها للخطر، فكلمةُ (**جميعاً**) تدل على المسؤولية الجماعية للأمة على التمسك بدين الله تعالى والتزام شريعته، وقد أكّدَ هذه المسؤوليةَ الجماعية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] ولهذا شرع الله الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، كما سيأتي قريباً.

وعدم التمسك الجماعي بحبل الله تعالى يؤدّي إلى التفرُّق والاختلاف، وهو ما نهى عنه سبحانه بقوله:

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فالفرقة خذلان وضعف، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثمَّ ذكّرهم سبحانه كيف كانوا متفرّقين مختلفين في الجاهلية؛ ليعرفوا قدر نعمة الله عليهم بالإسلام:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بهدايتها إلى الإيمان، واجتماعها على القرآن.

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ في الدين والعقيدة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

وقال ﷺ: «**المُؤْمِنُ للمؤمنِ كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بعضُه بعضاً**» وشبك بين أصابعه. [رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)].

وبيَّن النبيُّ ﷺ الثمراتِ الطيبةَ لأُخوة الإيمان في المجتمع الإسلامي،

فقال: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثلُ الجَسَدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسهر والحمى**» [رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)].

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: كنتم على وشك الوقوع في نار جهنم، بالموت على الكفر.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ بالإسلام، فقد أتاهم بخيري الدنيا والآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ التي تدلُّكم على الدين الحق.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

ثمَّ شرع الله سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً للمسؤولية الجماعية التي سبق الحديث عنها، وبهذا التشريع أصبحَ كلُّ مسلم مسؤولاً عن حماية دين الله تعالى، وحارساً لشريعته، فقال:

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: والمقصود من هذه الآية، أن تكونَ فرقةٌ من هذه الأمَّة متصديةً لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كلِّ فردٍ من الأمة بحسبه، كما ثبت في [صحيح مسلم (٤٩)]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رأى مِنْكُم منكراً فليغيّره بيدِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ، فإنْ لم يَسْتَطِع فبقلبِهِ، وذلك أضعفُ الإيمانُ**»[1].

فللأمر بالمعروف والنهي عن المنكرِ أثرٌ كبيرٌ في وحدة الأمَّة، وسلامتها من الاختلاف والفرقة والهلاك، وما أجملَ المثلَ الذي ضربه النبيُّ ﷺ لبيانِ أثر

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٠٦.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلامة المجتمع، ووقايته من أسباب الهلاك، بقوله: «**مَثَلُ القائِمِ على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها، كَمَثَلِ قومٍ اسْتَهَمُوْا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلِها إذا استَقَوْا مِنَ الماءِ مرّوا على مَنْ فوقَهم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نؤذِ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا جميعاً**» [رواه البخاري (٢٤٩٣)].

ونظراً لخطورة الاختلاف والتفرُّق على المسلمين عادتَ الآيات تحذِّرهم منهما بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ كاليهود والنصارى، فإنّهم اختلفوا حتى كفّر بعضُهم بعضاً، وسفك بعضهم دماء بعض.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات والحجج المبيِّنة للحق، والموجبة للاتفاق.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة بسبب اختلافهم وتفرقهم.

روى الإمام أحمد [في مسنده: ٤/ ١٠٢]، وأبو داود [في سننه (٤٥٩٧)]: عن أبي عامر عبدِ اللهِ بن يحيى قال: حججنا مع **معاويةَ بنِ أبي سفيان**، فلمّا قدمنا مكّة، قام حينَ صلّى صلاةَ الظهر فقال: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنّ أهلَ الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتينِ وسبعينَ مِلّةً، وإنَّ هذِهِ الأمةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ مِلّةً، كلُّها في النارِ إلا وَاحدة، وإنّه سيخرجُ في أُمتِي أقوامٌ تتجارى بهمُ الأهواءُ كما يتجارَى الكَلَبُ بصاحبِهِ، لا يبقى مِنْهُ عِرْقٌ ولا مِفْصَلٌ إلا دَخَلَهُ، واللهِ يا معشرَ العربِ! لئن لم تقوموا بما جاءَ به نبيُّكم ﷺ، لَغيرُكم من الناسِ أحرى أن لا يقومَ بِهِ**».

فاتباع الأهواءِ من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف، ولهذا توعَّدتهم الآية

بالعذاب العظيم يومَ القيامةِ، عندما يميِّزُ الله تعالى بين المؤمنين المتمسكين بالحق، وبين أصحاب الأهواء الضالّين المضلّين:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فلكلِّ فريقٍ سِمَتُه المميّزةُ له، يُظْهرُها سبحانه على وجوههم كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عَبَسَ].

ثُمَّ بيّن الله تعالى مصير كل فريق، فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم:

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؟ على جهةِ التوبيخِ والتعجيب.

والمقصودُ أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله ﷺ قبل بعثته، فلمَّا بُعِثَ كفروا به كما مرَّ معنا، وكذلك الذين أسلموا، ثمَّ ارتدوا، وماتوا على الكفر.

ففي [البخاري (٦٥٧٦)]: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أنا فَرَطُكُم** (سابقكم) **على الحوضِ، وليُرْفَعَنَّ رجالٌ مِنْكُم، ثم ليختلجُنَّ دوني، فأقولُ: يا ربِّ أصحابي، فيُقَالُ: لا تدري ما أحدثوا بعدَك**».

وقوله: «**ليختلجُنَّ دوني**»: ليبعدون عني.

ويقال لهم أيضاً:

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ويقابلهم الفريق الآخر:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجنة.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن لا يدخل الجنة إلا برحمته

تعالى، ولو استغرق عمره في طاعته لله تعالى، فطاعة الله تعالى لا تكفي لشكر نعمةٍ من نِعَمِهِ سبحانه.

أكَّد ذلك قوله ﷺ: «**لن ينجي أحداً منكم عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سَدِّدوا وقاربوا، واغْدُوْا ورُوْحُوْا، وشيئاً من الدُّلجةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوْا**» [رواه البخاري (٦٤٦٣)].

وأراد النبيُّ ﷺ أن يبيّن لهم أيضاً التوسط في السلوك والمنهج بين العبادة والعمل، فلا يكون منهم غلو وتشديد على أنفسهم، فالإسلام دين اليسر.

ثمَّ اتجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هذه الآيات نقرؤها عليك بواسطة الوحي بالصدق والعدل في جميع ما أخبرت به ودلَّت عليه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يكون منه سبحانه ظلم أبداً، لأنه مالك الملك ذو الكمال والجلال.

ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

فيجازي المكلَّفين على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم.

- **المسلمون وأهل الكتاب:**

وفي الآيات تثبيتٌ للنبيِّ ﷺ في مواجهته لضلال النصارى وكيد اليهود، وقد استمرّت هذه المواجهةُ بعده بين المسلمين وأهل الكتاب على مدى التاريخ الإسلامي، ولا زالت مستمرةً حتى العصر الحاضر، وازدادت مع مرور الأيام

عُمقاً وشراسةً، وأخذت في كلِّ عصر أبعاداً جديدة، وخاصة في عصرنا الحاضر.

إنَّ أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في تاريخهم الطويل كانت في خلال المواجهة مع القوى الصليبية الحاقدة، واليهودية الماكرة، وإنّ القوى الصليبية واليهودية تقف في خندق واحد في مواجهة الأمة المسلمة، وشواهد التاريخ البعيد والقريب أكبر دليل على ذلك.

ولن تنتهي المواجهةُ ويتوقف الصراع حتى ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض ـ كما مرّ معنا ـ فيكسرَ الصليب، ويقتلَ الخنزير، ويضع الجزية.

وبلادُ الشام كانت ولا تزالُ بؤرةَ الصراع، ومركزَ المواجهة، ففي [مسند الإمام أحمد (٤/١٢٧)]: عن **أبي أُمامة**: قلتُ: يا رسولَ اللهِ ما كانَ أول بَدْءِ أمرِكَ؟ قال: «**دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى بي، ورأتْ أُمِّي أنّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشَّام**».

قال ابنُ كثير: والمرادُ أنَّ أوَّل من نوَّه بذكره وشَهَرَهُ في الناس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يزل ذكرُه في الناسِ مشهوراً سائراً، حتى أفصحَ باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦].

وتخصيصُ الشامِ بظهورِ نورهِ إشارةٌ إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشامُ في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم في دمشق على المنارة البيضاء الشرقية منها، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «**لا تزالُ من أُمّتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرُّهم مَنْ خَذَلَهُم، ولا مَنْ خالفَهُم، حتّى يأتيهم أَمْرُ اللهِ وهم على ذلك**» [رواه البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧)]. وفي البخاريِّ: «**وهم بالشام**»(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٢٩.

• **خير الأمم:**

ودل على استمرار المواجهة مع أهل الكتاب أنّ الآيات الكريمة تحوّلت بعد توجيه الخطابِ إلى النبيّ ﷺ إلى توجيه الخطاب للمسلمين، تثبّتهم، وترفع معنوياتهم، وتبيّن مكانتهم بين الأمم، بقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ والخطاب ليس خاصّاً بأصحاب الرسول ﷺ الذين شهدوا عصر التنزيل، كما ذهب بعضُ المفسرين، بل هو عامٌّ لكلِّ المسلمين في كل زمان ومكان.

ويؤيد ذلك ما أخرجه الإمام أحمد [١/٩٨]: عن أبي الحسن **علي بن أبي طالب**، كرّم الله تعالى وجهه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أعطيتُ ما لَمْ يُعْطَ أحدٌ من الأنبياءِ: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُعْطِيْتُ مفاتيحَ الأرضِ، وسُمِّيْتُ أَحْمَدَ، وجُعِلَ الترابُ لي طهوراً، وجُعِلَتْ أمتي خيرَ الأُمم**»(١).

فالمسلمون خيرُ الأمم، وأنفعُ الناس للناس، لأنّهم يحملون للناسِ أكرمَ رسالةٍ، وأعظمَ أمانةٍ، وهي رسالة الإسلام.

وصيغةُ الإخبار بالماضي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تدل على أنّ هذه الصفة ملازمة لهم منذ وجودهم، وهي أظهرُ ما تكون في الجيل الأول من أجيال الأمة المسلمة، وهو جيلُ الصحابة ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ الناسِ قرني، ثُمَّ الذين يَلُوْنَهُم، ثم الذين يَلُوْنَهُم**» [رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣)].

ومعنى قوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: أُظهرت وأوجدت لخير الناس

---

(١) انظر: روح المعاني: ٤/ ٢٧.

ومصلحتهم بمشيئة الله وقدرته وحكمته وعلمه، فهذه الأمةُ رحمةٌ من الله للناس، تحمِلُ لهم رسالةَ الإسلامِ، رسالةَ السعادةِ والسلام.

• **شَرْط الله تعالى:**

وشَرَط سبحانه على المسلمين لينالوا هذه المكانة الرفيعةَ بين الأممِ شَرْطاً، بيّنه بقوله:

﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر إيماناً بالله تعالى، وإظهاراً لدينه(١).

والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّيان إلى نشر الإسلام، وتطبيق أحكامه، فالمعروف كلُّ ما أمر الله به وشَرَعَهُ، والمُنْكَرُ كلُّ ما نهى الله عنه وحَرَّمَهُ، ولهذا قال **أبو هريرة** رضي الله عنه: كنتم خيرَ الناسِ للناسِ، تأتون بهم في السلاسل، فتدخلونهم في الإسلام. [رواه البخاري (٤٥٥٧)].

فما دام المسلمون يعملونَ على نشر الإسلام بين الناس، فهم خيرُ الأمم، فبالإسلام شرُفت أُمتهم، وبدعوتهم إليه نالوا هذه المرتبة الرفيعة بين الأمم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: مَنْ سَرَّهُ أن يكونَ مِنْ تلكُم الأمة، فليؤدِّ شَرْطَ اللهِ فيها(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «وإنّما حازت هذه الأمةُ قصبَ السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنّه أشرفُ خلق الله، وأكرمُ الرسل على الله، وبعثه الله بشرعٍ كاملٍ عظيمٍ، لم يُعطَهُ نبيٌّ قبله، ولا رسولٌ من الرسل»(٣).

وقال سيد قطب رحمه الله: «فهي خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملةٍ أو محاباةٍ، ولا عن مصادفةٍ أو جُزافٍ ـ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ـ وليس توزيع اختصاصات، كما كان أهل الكتاب يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/٥٦٦.
(٢) روح المعاني: ٢/٢٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٠٨.

[المائدة: ١٨] كلا، إنّما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية عن المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر»[١].

- **دعوة أهل الكتاب:**

ثمَّ قال تعالى:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: لو آمنوا برسالة الإسلام، وصدّقوا نبوَّة سيدنا محمد ﷺ، لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الإسلام خيرُ الدنيا والآخرة.

وتخصيصُ أهل الكتاب بالذكر، مع أنّ دعوة الإسلام عامة لهم ولغيرهم، لأنّ آيات سورة آل عمران نزلت بسببهم، ومواجهةُ المسلمين معهم أكثرُ من المواجهة مع غيرهم ـ كما مرّ معنا ـ.

وقد استجاب بعضُهم للنبيِّ ﷺ، فأسلموا، وشهدوا شهادة الحق، ودخل في الإسلام كثيرٌ منهم بعد فتح بلاد الشام، ومصر، والأناضول، والأندلس، وبلاد البلقان.

ويشهد العصرُ الحاضِرُ إقبالاً على الإسلام، واهتماماً به من بعض علماء النصارى ومثقفيهم، ولهذا قال تعالى:

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى ودينه وشرعه.

ولو تمكَّن المسلمون اليوم أن يحسنوا دعوتهم، فيبرزوا لهم حقائق الإسلام وجوهره، ومدى تقديره للإنسان وتكريمه له، واحترامه للعلم والعلماء، لدخلوا في الإسلام أفواجاً.

فالقوم محجوبون عن حقائق الإسلام بِرُكام الأكاذيب والافتراءات التي صدرت عن القُسُس والرهبان والحاخامات، على المدى الطويل للمواجهة مع الإسلام والمسلمين، كما أنهم يعانون في العصر الحاضر من فراغ روحي كبير

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٤٧.

لا يملؤه إلا الإسلام، ومن قلق نفسي عميق لا ينكشف عنهم إلا بسكينة الإيمان وبرد يقينه.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ بعد الحديث عن مكانة الأمة المسلمة بسبب دعوتها إلى الإسلام وحملها لرسالته، يُبرز مسؤولية الأمة المسلمة في نشر الدعوة، وخاصة بين أمم وشعوب أهل الكتاب.

- **أمة الرسالة:**

وتابعت الآياتُ تشدُّ أزرَ المسلمين في مواجهتهم مع أهل الكتاب وترفعُ من معنوياتهم، بقوله تعالى:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أي: لن يتمكَّنوا من إيقاع ضرر كبيرٍ بكم، رغم شدّةِ مكرهم، وقوة كيدهم، ولكنّهم يستطيعون إيصال الأذى إليكم.

فالمسلمون أمةُ الرسالة التي قدّر الله تعالى بقاءها إلى قيام الساعة، ولن يتمكّنَ أهلُ الكتاب من يهود ونصارى أن يتسلّطوا على المسلمين تسلُّطاً كاملاً، مهما بذلوا من جهود، وحشدوا من طاقات وإمكانات. قد يكون لهم تسلط جزئي في بعض الأوقات والأماكن، بسبب ضعف المسلمين وبُعدهم عن دينهم، ولكنّ الغلبة في النهاية للمسلمين بعد أن يعودوا إلى دينهم، ويتمسكوا بشريعتهم.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ وأنتم متمسِّكون بدينكم.

﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: ينهزموا أمامكم، وينصركم الله عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يجدون ناصراً ينصرهم عليكم.

لقد استمرت الحروب الصليبيةُ قرابةَ مئتي عام، ثمَّ انتهت بنصر المسلمين، وهزيمة الصليبيين، بعد أن عاد المسلمون إلى دينهم ووحدتهم، وقد هُزمنا أمام اليهود في فلسطين من أرض الشام هزيمةً منكرةً، لأننا قاتلناهم ونحن بعيدون

عن الإسلام، وتحت راياتٍ غريبةٍ عن الإسلام ومعاديةٍ له، وستكون لنا الغلبة عليهم بإذن الله عندما نعود حقّاً إلى ديننا وشريعتنا.

هكذا قدر الله تعالى للأمة المسلمة، أن تكون قوّتها وعزّتها ونصرها بالإسلام، وضعفها وتخلفها وهزيمتها ببُعدها عنه، كما قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه عند أسوار بيت المقدس: **نحنُ قومٌ أعزّنا الله بالإسلامِ، وإن نبتغِ العزّةَ بغيرِه يُذِلَّنا اللهُ**.

- **حبل الناس:**

وألقت الآيات الكريمة بعضَ الأضواء على تاريخ اليهود ومصيرهم، وما قَدَّرَ الله تعالى عليهم بسبب فسادهم وجرائمهم، بقوله تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: ألزمهم الله تعالى الذلة والصَّغارَ أينما كانوا، فهم مكروهون محتقرون من قبل جميع الشعوب والأمم.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بعهدٍ من الله، وهو عقد الذمة وعهده، الذي عاشوا بمقتضاه آمنين مطمئنين في ظل الحكّام المسلمين.

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وعهد من الناس.

هكذا فهم علماءُ التفسير الآية الكريمة، وهو فهمٌ صحيحٌ على ضوء الحقائق التي كانت في زمنهم، وأظهرَ الواقعُ المعاصِرُ معنًى آخر للآية، يدل على الإعجاز في كلام الله تعالى، الذي لا تنتهي معانيه، ففي كلِّ عصرٍ تظهر معانٍ جديدة لكلمات الله تعالى، لا تتعارض مع المعاني السابقة.

فحبلُ الناس في العصر الحاضر، معناه: المعونات المادية والسياسية

والعسكرية، التي تُقَدَّمُ لليهود من الدول النصرانية الكافرة في الشرق والغرب، ولولا هذه المعونات ما تمكن اليهودُ من إقامة كيان لهم في فلسطين.

وهذه المعونات لا تُقَدَّمُ لهم محبةً بهم، وإنما تقدَّم لهم كيداً للمسلمين ومكراً بهم، فلا زالت المواجهةُ بين المسلمين وأهل الكتاب قائمةً لم تتوقف ـ كما سبق معنا ـ والحروبُ الصليبيةُ لم تنتهِ بعدُ، والمعونات التي تقدمها الأمم والحكومات الصليبية لليهود في فلسطين مظهرٌ من مظاهر الحرب الصليبية المستمرة.

والحبل في اللغة: السببُ والصِّلَةُ، والمعونات: أسباب وصلات، والحبل أيضاً: العهد، والمعونات المقدمة لهم نتيجة العهود المبرمة بين اليهود من جهة، وبين الدول الكافرة التي تقدمها لهم.

- **المغضوب عليهم:**

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حَلُّوا بغضب الله، ومكثوا فيه[1]، فهم المغضوب عليهم، بسبب جرأتهم على الله تعالى، وتحريفهم لكتابه، وقتلهم لأنبيائه.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الشعور بالفقر والمهانة، فاليهودي مهما كان غنيّاً يتظاهر بالفقر والضعف، ولهذا تراهم يلجؤون إلى أقذر الوسائل لجمع المعونات والمساعدات.

ولعلَّ ما نسمعُ ونقرأ عن الأساليب الخبيثة القذرة التي يستعملونها لجمع التبرعات والهبات في أمريكا وغيرها من الدول، أكبر شاهدٍ على الذلَّة والمسكنة التي ضربها الله تعالى عليهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة في التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بل بسبب الكِبْرِ والبغي والفساد.

(١) تفسير الخازن: ١/٥٦٨.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكل ذلك بسبب عصيانهم وفجورهم، ومجاوزتهم للحدود التي شرعها سبحانه لهم.

• المؤمنون من أهل الكتاب:

استجاب بعضُ اليهود لدعوة النبي ﷺ، فأسلموا، وانقادوا لدعوة الحق، ومع أنَّ عددهم كان قليلاً فقد أخبرَ الله تعالى عنهم في كتابه الكريم، وشهد لهم بالصدق والصلاح، وهذا يدل على أنّ الحق والعدل في كلام الله تعالى المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: لمّا أسلمَ عبدُ اللهِ بن سلام، وثعلبة بن سَعْنَة، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلمَ من يهود، فآمنوا وصدَّقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبارُ يهودٍ وأهلُ الكفر منهم: ما آمن بمحمّدٍ ولا تبعَهُ إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﷻ في ذلك قوله[(١)]:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: ليسوا كلهم على حدٍّ سواء، فمن أهل الكتاب جماعةٌ قائمةٌ بأمر الله، مطيعةٌ لشرعه، متبعةٌ نبيّه ﷺ، فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾ يعني مستقيمة على أمر الله[(٢)].

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يكثرون تلاوة القرآن في صلاتهم في ساعات الليل.

ثمَّ شهدت الآياتُ بصدق إيمانهم، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي السمة التي يمتازُ بها المسلمون على غيرهم:

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ١٧٠.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣١٢.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وهكذا ألحقتهم الآياتُ بالأمّةِ المسلمةِ التي هي خير الأمم، فأصبحوا جزءاً منها، فقد وصفتهم بصفاتٍ لا توجدُ في اليهود، الذين هم منحرفون عن الحقِّ، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، واصفون اليومَ الآخِرَ بخلاف صفته، مداهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات[١]. وسيأتي معنا في آخر السورة شهادة ثانية من الله تعالى في المؤمنين من أهل الكتاب.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله جزاؤهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

- **سعي ضائع:**

وبالمقابل فإنّ سعي الكافرين سعي ضائع لا ينفعهم، ولا يُغني عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة، وهو موجَّهٌ إلى شؤون الدنيا المادية من أموال وأولاد، ولهذا عادت الآياتُ الكريمةُ فذكرت ما سبقَ تقريرُه في أوائل السورة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

ثمَّ ضربت الآياتُ مثلاً لسعيهم الضائع بقوله ﷻ:

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٥٧٠.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على شهواتهم، للمكر والكيد بالمسلمين.

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: برد شديد.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ زرع قوم.

﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم وفجورهم.

﴿فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ ولم تبقِ منه شيئاً، وبهذا ضاع سعيهم وجهدهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسوء كسبهم واختيارهم للكفر والفجور، وإعراضهم عن دعوة النبي ﷺ.

فما أعظم الفرق بين هؤلاء الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وبين المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ﴾ [آل عِمرَان: ١١٥]!.

• **التحذير من بطانة السوء:**

وختمت الآيات حديثها عن أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، بتحذير المسلمين من موالاتهم، واتخاذهم أصحاباً وأعواناً، وتقريبهم بحيث يطَّلعون على أسرار المسلمين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من غيركم، من أصحاب الملل والنِّحل المخالفةِ لدينكم.

وبطانة الرجل: خاصته الذين يطّلعون على أحواله وأسراره، سُمُّوا بطانةً لشدَّة قربهم منه وصلتهم به، كقرب بطانة الثوب منه واتصالها به.

وجاء ذكر البطانة في قول الرسول ﷺ: «**ما بَعَثَ اللهُ من نبيٍّ ولا استخلفَ من خليفة، إلا كانتْ له بطانتانِ: بطانةٌ تأمرُهُ بالخير وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمرُهُ بالسوءِ وتحضُّهُ عليهِ، والمعصومُ مَنْ عَصَمَ الله**» [رواه البخاري (٧١٩٨) والنسائي (٤٢٠٢)].

ثمَّ بيّن سبحانه علَّة النهي فقال:

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصّرون في فسادكم وغشكم وإلحاق الشر والضرر بكم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يودون عَنَتَكُم، وهو ما يشقُّ عليكم من الشرِّ والضرر، فالعداوة في الدين عداوةٌ عميقةٌ وقويةٌ، تجعلُ قلوبهم ممتلئةً ببغضكم والحقد عليكم.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ظهرت البغضاءُ التي في قلوبهم عليكم فيما يبدو من كلماتهم، وفلتات ألسنتهم، فمهما صانعوكم وداهنوكم فلا بدَّ في يوم ما أن تظهر سرائر قلوبهم على فلتات ألسنتهم.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يظهر على ألسنتهم، وفي بعض تصرفاتهم، فالحقد عميقٌ في قلوبهم ونفوسهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ التي تكشف لكم حقيقتهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تحسنون فهمها، وتعملون بهديها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رجالٌ من المسلمين يواصِلُونَ اليهودَ، لما بينهم من القرابةِ، والصداقةِ، والحِلْفِ، والجوارِ، والرَّضاعِ، فأنزلَ اللهُ ﷻ هذه الآيةَ، ونهاهم عن مباطنتهم خوفَ الفتنة عليهم[١].

وكان عمر رضي الله عنه ينهى عُمّالَه وولاتَه أن يستعملوا أهلَ الذمَّةِ، ولمّا علمَ أنَّ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استكتبَ ذميّاً، كتب إليه عمر رضي الله عنه يعنّفه، وقال له: لا تُدْنِهِم وقد أقصاهم اللهُ، ولا تُكرِمْهُم وقد أهانَهُم اللهُ، ولا تَأْمَنْهُم وقد خوّنهم الله.

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٥٧٣.

وقيل لعمر رضي الله عنه: إنَّ هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة، لا أحدَ أكتبَ منه، ولا أخطَّ بقلمٍ، أفلا يكتبُ عنك؟ فقال: لا آخذُ بطانةً من دونِ المؤمنينَ[١].

ثمَّ عقدت الآيات مقارنةً بين سلامةِ قلوبِ المسلمين وطهارتها، وبين الحقد والغشّ الذي يملأُ صدورَ اليهود، تأكيداً لمضمون الآية السابقة، قال تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من جوار وصداقة.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ فلا يبادلونكم حبّاً بِحُبٍّ.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: تؤمنون بكلِّ كتاب أنزله الله تعالى كالتوراةِ والإنجيل، بينما هم يكفرون بالقرآن الكريم، ويظهرون لكم خلاف ما يبطنون.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: وإذا خلـوْا إلى بعضهم أظهروا حقدهم عليكم وغيظهم منكم.

فالأناملُ: أطراف الأصابع، **والعضُّ** عليها كنايةٌ عن شدّة الحقد والغضب والحسد.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ بسبب حقدكم وحسدكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيفضحُ ما في صدوركم من حقدٍ وحسدٍ، ويجازيكم عليه.

وما مِنْ شكٍّ أنَّ هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب لأهل الكتاب، المجاورين للمسلمين في المدينة، يبصّر المسلمين بحقيقة الأمر، ويوعّيهم من كيد أعدائهم الذين لا يخلصون لهم أبداً، ولا تغسل أحقادَهم مودةُ المسلمين وصحبتهم وجوارهم في أرضٍ، ومشاركتهم في وطن، ولم يجئ هذا التحذير ليكونَ مقصوراً على فترة تاريخية معينة ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ فهو

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ١٧٩.

حقيقة واقعة ملموسة، ويعيشها المسلمون في العصر الحاضر واقعاً مشاهداً في كل بلادهم[(١)].

• **شماتتهم بالمسلمين:**

وممّا يؤكِّدُ شدَّةَ عداوتهم لكم أنه:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إن أصابكم خيرٌ أو منفعةٌ أو نصرٌ على عدوكم، يُحزنهم ذلك ويحسدوكم، ويتمنَّوْا زوالها عنكم، فلا يريدوا لكم أي خير.

لقد أدخل انتصارُ المسلمين في بدرٍ حُزناً شديداً على يهودِ المدينةِ، ذكر ابنُ هشام: «أنّ كعبَ بن الأشرف، وكان من كبار اليهود وشعرائهم، قال عندما بلغه مصاب قريش في بدر: هؤلاءِ أشرافُ العربِ وملوكُ الناس، واللهِ لئن كان محمّدٌ أصابَ هؤلاءِ القوم لَبطنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرها. فلمّا تيقَّن عدوُّ اللهِ الخبرَ، خرج حتى قدم مكة، وجعل يحرِّضُ على رسولِ اللهِ ﷺ وينشدُ الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر»[(٢)].

ولمَّا جمع رسولُ اللهِ ﷺ يهودَ بني قَيْنُقاع بعدَ غزوةِ بدر، وقال لهم: «**يا مَعْشَرَ يهودٍ، احذروا مِنَ اللهِ مِثْلَ ما نَزَلَ بقريشٍ من النِّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا، فإنَّكُم قد عَرَفْتُم أنِّي نبيٌّ مُرْسَلٌ، تجدونَ ذلك في كتابِكُم وعهدِ اللهِ إليكم**» قالوا: يا محمد؛ لا يغرنَّكَ أنَّكَ لقيتَ قوماً لا عِلْمَ لهم بالحربِ، فأصبتَ منهم فرصةً، إنّا واللهِ لئن حاربناك لتعلمَنَّ أنّا نحنُ الناسُ[(٣)].

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي: وإن تصبكم مصيبةٌ في أموالكم

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٥٢.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٨.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥.

وأنفسكم، أو في تسلُّط العدو عليكم ونيله منكم ـ كما حدث في غزوة أحد ـ سرّهم ذلك وفرحوا به، وأظهروا الشماتةَ بكم.

وقد فعل اليهودُ ذلك بعد غزوة أحد ـ كما سيأتي ـ ويفعل أهل الكتاب هذا كلّما حلّت بالمسلمين مصيبةٌ، أو نزلت بهم نازلة في العصر الحاضر.

ومع ذلك لا يزال كثير من المسلمين يفتحون لهم قلوبهم، ويجاملونهم حتى في عقيدتهم ومنهج حياتهم، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «وتبلغ بنا المجاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية، أن نجاملهم في عقيدتنا، فنتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا، فلا نقيمه على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمسِ معالمه، كي نتقي فيه ذكر أيِّ صدامٍ كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربِّصين، ومن هنا يحلّ علينا جزاء المخالفين عن أمر الله، ومن هنا نذلُّ ونضعف ونستخزي، ومن هنا نلقى العنتَ الذي يودُّهُ أعداؤنا لنا، ونلقى الخَبال الذي يدسُّونه في صفوفنا»[١].

والسبيل إلى النجاة من كيدهم ومكرهم بيّنه تعالى بقوله:

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تلزموا أنفسكم بالصبر على المكروه، وتتقوا الله تعالى بطاعته واجتناب معاصيه.

﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ لأنّكم في حفظِ اللهِ ورعايته، وهذا تعليمٌ من الله تعالى، وإرشادٌ إلى أن يُستعانَ على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردتَ أن تكبتَ من يحسدك فازدد فضلاً في نفسِكَ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ أي: عالم بجميع أعمالهم ومجازيهم عليها.

❁ ❁ ❁

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٥٣.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ٥٧٥.

الفصل الرابع

غَزْوَةُ أُحُد

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ
مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ
فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ
إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا
اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن
يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ
نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ
أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن
قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾
فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ
مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ
أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى
ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا
يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ
يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ
لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ

بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا
قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن
قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ
قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ
مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ
تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ
ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ
مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ
أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ
أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ
قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ
لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا
تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ
وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ

﴿ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥ وَلَا
يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ
مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾.

- **تَمْهيد في الحديث عن غزوة أحد:**

حدثت غزوةُ أُحُدٍ في يوم السبت الموافق منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، أي بعدَ غزوة بدرٍ بما يزيدُ قليلاً على سنةٍ، وانتصر فيها المسلمون في أول الأمر، مع أنّهم كانوا أقلّ بكثيرٍ من المشركين، فقد كان عددُ المسلمين سبعمئة، بينما كان المشركون ثلاثة آلاف.

وبعد ذلك تحوّلَ وجهُ المعركةِ لصالح المشركين، بسبب مخالفةِ أكثرِ الرُّماةِ الذين كانوا على الجبل (جبل عَيْنين) لحماية ظهر المسلمين، فإنّهم لما رأوا المشركين يتراجعون أمام المسلمين وينهزمون، ظنوا أنَّ النصرَ قد تحقق، وأنَّ المعركةَ قد انتهت، فتركوا مواقعهم، ونزلوا لجمع الغنائم من المنهزمين.

وانتهز فرسانُ المشركين فرصةَ انكشاف ظهر المسلمين، فَكَرَّ خالدُ بنُ الوليد وعكرمةُ بنُ أبي جهل بفرسان المشركين على المسلمين من خلف جبل الرماة، وعاد المنهزمون، ووقع النبيُّ ﷺ في حُفْرةٍ أعدَّها أبو عامر الفاسق من قبلُ، وحدث اضطرابٌ في صفوف المسلمين، وقُتِلَ مصعبُ بنُ عمير حامِلُ لوائهم، ونادى منادي المشركين: إنَّ محمَّداً ﷺ قد قُتِلَ، فغلبَ الوَهْنُ على كثيرٍ من المسلمين، وتركوا أرضَ المعركة، حتّى وصلَ بعضُهم إلى المدينة المنورة،

وثبَتَ رسول الله ﷺ في أرض المعركة مع قِلّةٍ من أصحابه ثبتوا معه حتى انتهى القتال.

وكان مصابُ المسلمين في أُحُدٍ كبيراً، إذ استشهد سبعون رجلاً، منهم حمزة بن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ، وأصيبَ النبيُّ ﷺ في وجهه الشريف، وكُسِرَت رباعيته(١)، ودخلت حلقتا المِغْفَر في وجنتيه، ومثَّلَ المشركون بجثثِ أصحابِهِ، وبقروا بطن حمزة ﷺ، وأخرجوا كبده، بينما قُتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً.

وتفصيل ما وقع في أحد ليس من شأننا هنا، فمحلُّ ذلك كتب التاريخ والسِّيَر(٢)، وسيأتي مزيد من التفصيل من خلال الآيات الكريمة التي أنزلها الله تعالى بهذه المناسبة، والتي بلغت قرابة ستين آية، إنما الذي يعنينا هنا أن نبين صلة هذه الآيات بما قبلها وما بعدها من آيات السورة، وموقعها منها.

واتصالُ الآياتِ واضحٌ ظاهر بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٠]، فكما استاء اليهود وحزنوا بسبب انتصار المسلمين في بدر، فقد فرحوا بمصاب النبي ﷺ والمسلمين في أحد، وأعلنوا شماتتهم بالنبي ﷺ، وأخذوا يشيعون الإشاعات الكاذبة عنه، ويقولون: الآن بطل سِحْرُ محمد. ثمَّ تجرؤوا عليه، فمكروا به، وحاولوا قتله، عندما جاء ﷺ إلى بني النضير، يستعين بهم في دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري.

ولآياتِ غزوةِ أُحُدٍ صلةٌ أيضاً بما مرّ معنا من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، وما قلناه ثَمَّةَ من تقريرِ الإسلامِ للمسؤوليةِ الجماعيةِ على جميعِ أفرادِ المجتمعِ الإسلاميِّ، فإنَّ أيَّ مخالفةٍ تصدر

---

(١) السن الرابع من مقدمة الفم.

(٢) انظر: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للمؤلف، ص ٣٥٣ ـ ٣٧٦، ط: دار القلم بدمشق.

عن بعض الأفراد تنعكس آثارُها على جميع المسلمين، وقد ظهر هذا بشكل واقعي في غزوة أُحد، فقد انعكس أثرُ المخالفة التي ارتكبها الرماةُ على أفرادِ جيش المسلمين جميعاً، ولم يسلمْ منها أحدٌ، حتى النبيّ ﷺ أصيبَ بما أصيبَ به ﷺ بنفسه وبمن قُتل من أصحابه، وفيهم عمه حمزة رضي الله عنه.

كما ظهر في أُحدٍ بشكل عملي، ما يترتَّبُ على التفرُّق والاختلافِ من ضعف وخُذلان، وهو ما حذَّر منه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ الآية [آل عِمرَان: ١٠٥]، والمسلمون في صراعٍ دائمٍ ومواجهةٍ مستمرّة مع الصليبية الحاقدة واليهودية الماكرة، كما تشيرُ آياتُ السورة، وهم في أشدّ الحاجةِ إلى دروس أُحد وعظاتها في مواجهتهم وصراعهم مع قوى الكفر.

وفضلاً عن ذلك، فما حدث في أُحدٍ يؤكّدُ بشريةَ النبيِّ ﷺ، وعبوديته لله تعالى، وأنّه يجوزُ على الأنبياء أن يصابوا، كما يصابُ عامّةُ البشر، وبهذا استدل هِرَقْلُ ملك الروم على صِدْقَ نبوته ﷺ، وكان من كبار رجال الدين عند النصارى؛ فعندما أتاه كتابُ النبيِّ ﷺ ـ الذي سبق ذكره ـ يدعوه فيه إلى الإسلام، دعا هِرَقْلُ نفراً من قريشٍ كانوا في تجارةٍ لهم هناك، وكان فيهم أبو سفيان، وكان لا يزالُ على شِرْكِهِ، لم يُسْلِمْ بعدُ، فسألهم هرقل عن النبيِّ ﷺ أسئلةً كثيرةً، منها: «قال: فهل قاتلتموه؟ قلتُ ـ القائل أبو سفيان ـ: نعم، قال: كيفَ كانَ قتالُكُم إيّاه؟ قلت: تكونُ الحربُ بيننا وبينه سجالاً، يصيبُ منا ونصيبُ منه. وعلّقَ هِرَقْلُ بعد ذلك على هذا فقال: وسألتُكَ: هل قاتلتموه؟ فزعمتَ أنَّكُم قاتلتموه، فتكونُ الحربُ بينكم سِجَالاً، ينالُ منكم وتنالونَ مِنْهُ، وكذلك الرسلُ تُبتلى ثمَّ تكونُ لهم العاقبة» [رواه البخاري (٧)].

وهناك جوانبُ أُخرى، تُظْهِرُ صلةَ آياتِ أحد بموضوع سورة آل عمران ستنكشف لنا إن شاء الله من خلال الحديث عن الآيات.

- **الطريق إلى أُحُد:**

كانت تصرُّفاتُ النبيِّ ﷺ في أُحدٍ أفضلَ ما ينبغي أن تكونَ عليه تصرُّفاتُ

القائد العسكري، ولهذا لم تتوجّه الآياتُ بأيّ عتابٍ إلى النبيِّ ﷺ عن المصاب في أحد، ولم تحمِّلْه أيَّ مسؤوليةٍ عمّا حصل، بل أبرزت مواقِفَه ﷺ في أُحد في الوقت الذي وَجَّهَتِ اللومَ والعتابَ لأصحابه.

وشرعت الآياتُ في مستهل حديثها عن غزوة أُحد تبيّنُ ما فعله النبي ﷺ قبل بَدْء المعركة، فقد قام النبيُّ ﷺ بتنظيم جنوده، وتوزيعهم في المواقع التي تتناسب مع طبيعة ميدان المعركة، وطبيعةِ القتالِ والأسلحةِ في ذلك الوقت. قال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: اذكر إذ خرجتَ غُدوةً من أهلك بالمدينة المنورة ـ وكان النبي ﷺ في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها ـ إلى أُحد، تنزّل المؤمنين في أماكن القتال، وتعيّنُ لكل منهم مكانه في الميدان.

فجعل النبي ﷺ ظهرَ جيشِه إلى جبل أُحد، وتعبَّأ ﷺ، ومشى على رجليه في أرض المعركة، وجعل يصفُّ أصحابه، وأمَّرَ على الرماةِ ـ وهم على جبل عَيْنين ليحموا ميسرة الجيش ـ عبدَ الله بن جُبير رضي الله عنه، وقال: «**انْضَحِ الخَيْلَ عنّا، لا يأتونا مِنْ خَلْفِنا، إنْ كانَ علينا أو لنا، فاثبتْ مكانَكَ لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ**»[١].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وهما بنو سَلِمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي جيش المسلمين، ومعنى ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن تضعفا وترجعا إلى المدينة، وذلك أنّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ إلى أحدٍ في ألف رجل، فلمّا بلغوا الشوط ـ وهو مكان في الطريق ـ انخذل عبدُ اللهِ بن أُبيٍّ زعيمُ

(١) انظر: روح المعاني: ٤/ ٤٢.

المنافقين بثلثِ الجيش، ورجعَ إلى المدينة، وقال: علامَ نَقْتُلُ أنفسَنا وأولادَنا؟ واحتجَّ بأنَّ النبيَّ ﷺ أطاعَ الوِلْدَان وخالفه.

وكان عبد الله بن أُبي من الذين أشاروا على النبي ﷺ بالبقاء في المدينة، والتحصّن في بيوتها، إلا أنَّ شباب الصحابة، وخاصة الذين لم يحضروا غزوة بدر، أشاروا على النبي ﷺ بالخروج إلى لقاء المشركين في أحد. ولما انصرف ابنُ أُبيٍّ همَّت طائفتان من المؤمنين بالانصراف معه، فعصمهم الله وثبتوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أضمروا أن يَرْجِعُوا، فعزمَ اللهُ لهم على الرشد، فثبتوا، فذكَّرهم الله عظيم نعمته عليهم[١].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ يدلُّ على صراع كبير كان قائماً في دخائلهم، بين الرجوع إلى المدينة وبين الثبات مع رسول الله ﷺ، وجعلتهم ولايةُ الله تعالى لهم ينتصرون على أنفسهم، ويثبتون مع نبيهم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال سبحانه يبين سبب ثباتهما:

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي: متولي أمرهما بالتوفيق والتثبيت.

وكان جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما يقول: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا...﴾ الآية، نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما يسرُّني أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾. [رواه البخاري (٤٠٥١)].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليتوكلوا عليه سبحانه وحده، ولا يتوكلوا على غيره.

- **الإمداد بالملائكة:**

ثم ذكّرتهم الآياتُ بنعمته سبحانه عليهم في غزوة بدر:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ﴾ أي: وأنتم قِلّة، فقد كانوا ثلاثمئة وبضعة

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/ ٥٧٨.

عشر رجلاً، بينما كان عدوهم من كفار قريش زهاءَ ألفِ رجلٍ، ومعهم سلاحٌ كثيرٌ، وعتادٌ وفيرٌ.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في هذا اليوم بالثبات مع رسول الله ﷺ وطاعته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم نعمة ربكم عليكم، فَشُكْرُ اللهِ تعالى يكونُ بطاعته وتقواه.

ومن نعمه سبحانه عليهم أنّه أمدهم بالملائكة، وبشّرهم النبيُّ ﷺ بهذا المدد الإلٰهي:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: بأمره تعالى ومشيئته.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: بلى يكفيكم هذا الإمدادُ، ومع ذلك فإنّكم إنْ صبرتم واتقيتم اللهَ تعالى بطاعتِهِ وطاعةِ نبيّه ﷺ فإنّه سبحانه يزيدُ في إمدادكم بالملائكة:

﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: ويأتِ المشركون لقتالكم على الفور مسرعين.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مرسلين، أو معلَّمين بسمةِ القتالِ وشارتِهِ.

- **الصبر والتقوى:**

واختلف المفسّرون في هذا الوعد بالإمداد بالملائكة، هل كان في بدر أم في أُحد؟ وهو أمرٌ غيرُ مهم، المهم أنّه سبحانه حثّهم على أمرين اثنين هما أعظم أسباب استنزالِ معونته سبحانه وتأييده ونصره، وهما: **الصبر، والتقوى.**

وقد مرَّ معنا من قريبٍ قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] وبهذا تظهر لنا صلة جديدة أخرى لآيات غزوة أحد بسباقها من آيات السورة؛ **فالصبر والتقوى** كهفُ السلامةِ، وسلّمُ العافيةِ لكلِّ مبتلًى وممتحَن، أدرك هذه الحقيقةَ الأنبياءُ والصالحون من خلال تجاربهم، فهذا نبيُّ الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يستخلصُ من قصته ومعاناته الطويلة في حياته هذه النتيجة، فيقول لإخوته عندما عرّفهم بنفسه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٠].

وهذا نبيُّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينصحُ بني إسرائيل وهو في المحنةِ مثبّتاً، فيقول: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعرَاف: ١٢٨].

وكي تبقى قلوبُهم معلَّقةً بالله تعالى وحده، فلا يكون منها التفاتٌ إلى الأسباب، وتبقى متوجهةً إلى مسبب الأسباب وحده، قال ﷻ:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: ما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا بشارة بالنصر، وتطميناً لقلوبكم.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا يكونُ نصرٌ إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته، فهو سبحانه قادرٌ على نصركم من دون إمدادكم بالملائكة.

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: ذو العزَّة والقهر والغلبة، وذو الحكمة في كل ما يقدِّر من أقدار ويشرِّع من أحكام.

ومن حكمته سبحانه في تشريع الجهادِ وتكليفِ المؤمنين بالقتال، ما بيّنه بقوله:

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾.

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: ليهلكَ فريقاً من الكافرين.

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم.

﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ فيرجعوا خاسرين غير ظافرين.

• **ليس لك من الأمر شيء:**

وتأكيداً لهذا المعنى التفتتِ الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تخاطبه بقوله ﷻ:

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، فالأمرُ كلُّه لله تعالى وحده، هو المالك والمدبر ﷻ، وسيدنا محمد ﷺ صفوةُ خلقه سبحانه، وأقربُ المقربين إليه، ليس له من الأمر شيءٌ، فهو عبدٌ للهِ تعالى، والنبوةُ والرسالةُ والزُّلْفَى عندَ الله تعالى كلٌّ ذلك لم يزحزحه عن مقام عبوديته لله تعالى، فكيف رفع النصارى عيسى عليه السلام بزعمهم عن مقام عبوديته لله تعالى؟! وكيف رفع اليهودُ أيضاً عُزَيراً بزعمهم عن مقام عبوديته لله ﷻ؟!.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ هو الفرقان الحق الذي يدلُّ على صدق النبي ﷺ وصحَّة رسالته، والذي يدلُّ أيضاً على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه؛ فالخَلْقُ كلُّهم ملكه، والأمرُ فيهم له وحده ﷻ، لا يشاركه فيه نبيٌّ مرسل، ولا مَلَكٌ مقرَّبٌ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَباعيتُه (من أسنانِهِ) وشُجَّ في رأسِهِ، فجعلَ يَسْلُتُ الدمَ عنه (يزيله) ويقول: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قومٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم، وكَسَرُوا رَباعيتَه، وهو يدعوهم إلى اللهِ تعالى؟!**» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾. [رواه البخاري في المغازي باب (٢٢)، ومسلم (١٧٩١)].

﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ فالله سبحانه مالك أمرهم، إما أن يتوب عليهم إن أسلموا، أو يهلكهم بسبب ظلمهم.

ثمَّ أكد سبحانه ذلك بقوله:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

وكأنّ نهايةَ الآيةِ تُشْعِرُ بتغليب جانب المغفرة والرحمة، فلمّا رأى رسول الله ﷺ بعد المعركةِ جُثَثَ أصحابه من الشهداء متناثرة في الميدان، وقد مثَّلَ المشركون بها، فقطعوا الآذانَ، وجدعوا الأنوفَ، وبقروا البطونَ، وخاصّةً جثة حمزة رضي الله عنه، إذ أَخْرَجَتْ زوجةُ أبي سفيان كبدَه فلاكتْها ثمَّ لفظتْها، غضب رسول الله ﷺ، وقال: «**لولا أَنْ تَحْزَنَ صفيّةُ** (عَمَّتُهُ عليه الصلاة والسلام) **ويكونَ سُنَّةً مِنْ بعدي، لتركتُه حتَّى يكونَ في بطونِ السِّباعِ، وحَوَاصِلِ الطيرِ، ولئنْ أظهرني اللهُ على قريشٍ في مَوْطِنٍ مِنَ المواطنِ لأمثلنَّ بثلاثينَ رجلاً منهم**»، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النّحل]. فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلَة[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فَأَحْسِنوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنوا الذَّبْحَ، وليُحِدَّ أحدُكُم شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيْحَتَهُ**» [رواه مسلم (١٩٥٥)].

- **تحريم الربا:**

الصبر والتقوى هما عُدّةُ المسلم في شؤون حياته كلها، في المحنة والشدَّة، وفي الرخاء واليسر، فلا ينبغي للمسلم أن ينفكَّ عنهما في أحواله جميعاً، وخاصة في مجال معاملته مع الناس في الشؤون المالية.

فالإنسانُ بفطرته يحبُّ المال، وللمال سلطانٌ كبير على الإنسان، فلا بدَّ للمسلم أن يتحلّى **بالصبر والتقوى**، ليكون ملتزماً في معاملاته المالية حدودَ شريعة الله تعالى، ولهذا الْتفتَتِ الآياتُ الكريمةُ، وهي في خِضَمِّ حديثها عن

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٠.

غزوة أُحد، إلى المؤمنين، تذكّرهم بتقوى الله تعالى، وتنهاهم عن الأموال المحرمة المكتسبة بالوسائل غير المشروعة كالربا، بقوله ﷻ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾.

فمعرفةُ الله تعالى بطاعته وتقواه في الرخاء تؤدّي إلى نصره ومعونته في الشدة، وكلّما كان المالُ المكتسب المحرّم كثيراً، كان الصبرُ عنه أكبر، ومجاهدةُ النفس للإعراض عنه أعظم وأكبر، ولهذا جاء وصفُ الربا بالأضعاف المضاعفة، لأنَّ الإعراضَ عنه في مثل هذه الحالة وتركه يحتاجُ إلى درجةٍ عاليةٍ من الصبر والتقوى.

وكان المرابون في الجاهلية يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فكلّما عجزَ المدين عن الوفاء في أجَلِهِ، أنظروه إلى أجَلٍ آخرَ، وضاعفوا عليه الربا حتى يصبحَ أضعافاً مضاعفة، كما تفعل الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرِضة، فكلّما عجزت عن تسديد ديونها في الأجل المسمى لها، أنظروها إلى أجل آخر، وضاعفوا نسبةَ الفائدةِ، حتى أصبحت فوائد الربا أكثر بكثيرٍ من أصل الدين.

نشرت الصحفُ منذُ زمن تصريحاً لمدير البنك الإسلامي في جدَّة، ذكر فيه أنّ فوائد ديون الدول الإسلامية تضاعفت (١٨٠٪) في خلال سبع سنوات.

فالربا المضاعف أضعافاً لا يزال سائداً بين المجتمعات البشرية كما كان في الجاهلية، ولا تزالُ حفنةٌ من البشر تستغلُّ حاجةَ الناس والمجتمعات أبشعَ استغلالٍ بواسطة الربا المضاعف! ويقولون: إنهم يقدّمون هذه القروض الربوية على شكل مساعدات! فالآيةُ الكريمةُ تصفُ الواقعَ الذي كان عليه أهلُ الجاهلية، ولا يزال سائداً في العصر الحاضر.

وليست الأضعافُ المضاعفةُ شرطاً يتعلّق به الحكمُ كما زعم بعضُهم، والنصُّ الذي في **سورة البقرة** قاطعٌ في تحريم الربا على الإطلاق، قليلاً كان أو

كثيراً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

فلا حُجّةَ في قوله تعالى: ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ لمستحلّي قليل الربا، الذين يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلفَ هذا النص، ويتداروا به، ليقولوا: إنَّ المحرّمَ هو الأضعاف المضاعفة، أمّا الأربعة في المئة، والخمسة، والسبعة، والتسعة في المئة، فليست أضعافاً مضاعفةً، وليست داخلةً في نطاق التحريم[2].

لقد قرر سبحانه تحريم الربا مطلقاً بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البَقَـرَة: ٢٧٥]، وأعلن الحرب على أكَلَة الربا إذا أصرُّوا عليه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البَقَـرَة: ٢٧٩]، وأمر المرابين إذا تابوا عن الربا أن يستردّوا رؤوس أموالهم فقط دون أي زيادة: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَـرَة: ٢٧٩].

ونادى رسولُ اللهِ ﷺ في خطبة حجَّة الوداع بتحريم الربا، وإلغاء كلِّ ربا كان في الجاهلية سواء كان قليلاً أم كثيراً، فقال: «**ألا إنّ كُلَّ ربا في الجاهلية موضوعٌ، لكم رؤوسُ أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ**» [أخرجه أبو داود (٣٣٣٤)].

ولعن رسول الله ﷺ آكلَ الربا وموكلَه وكُلَّ من يساعِدُ عليه، فعن **ابن مسعود** رضي الله عنه قال: «**لعن رسولُ اللهِ ﷺ آكلَ الربا وموكلَه وشاهديه وكاتبه**» [رواه أبو داود (٣٣٣٣) والنسائي (٥١٠٤)، ورواه مسلم (١٥٩٧) من دون قوله: «وشاهديه وكاتبه»].

وفي إيراد آية تحريم الربا في سياق آيات غزوة أُحد إشارةٌ إلى سبب هام من أسباب النصر، فالأمة التي ينتشر بين أبنائها التعامل بالربا، لا يؤيدها الله تعالى

---

(١) انظر: الربا في منظور التشريع الإسلامي، للدكتور محمد عبد الله درَّاز.
(٢) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٤٧٣.

على عدوِّها ولا ينصرها، فهي أمةٌ محاربة لله تعالى، ولم تصبر عمَّا حرّمه عليها، ولم تتقِ الله في معاملاتها.

- **المسارعة إلى التوبة:**

وتقوى الله تعالى في الحقيقة اتّقاء لسخطه وغضبه وعذابه والنار:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾.

فالنار أُعِدَّتْ في الأصلِ وهُيّئتْ للكافرين، ويمكن أن يعذَّبَ بها الفسّاقُ والفجّارُ من المؤمنين، وخاصة أكلة الربا، المُصِرِّين على معاصيهم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في جميع الأوقات، في السلم والحرب، وفي الرخاء والشدَّة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

ويلاحَظُ أنَّ الآيات الكريمة تتبع أساليب متنوعة في التربية والتأديب، فتجمعُ بين التهديد والترغيب، بين التهديد بالعذاب والنار، وبين الترغيب بالرحمة والجنة:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: بادروا وسابقوا إلى مغفرة من ربكم، بالتوبة عن ذنوبكم.

فالمغفرةُ أمرٌ مطلوبٌ يستدعي المسارعة والمبادرة، إذ الإنسان لا يدري متى تنتهي حياته، ويحضره أجله، فكأنّه في سباقٍ مع الموت، فعليه أن يبادِرَ

إلى التوبةِ قبلَ أن يقطعه الموتُ عنها، وقد سبق مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: وإلى جنةٍ واسعةٍ كبيرةٍ، عرضها عرض السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، فالمرادُ وصفُ الجنةِ بالسعة على طريقة التمثيل، فُشبِّهَتْ بأوسع ما علمه الناس من خلقه(١).

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هُيِّئت لهم، والآية تدلُّ على أنّ التقوى يمكن للمذنبين أن يحصِّلوها بالتوبة والاستغفار.

ثمَّ بيّنتِ الآياتُ بعضَ الخصال الطيبة الحسنة التي يتصف بها المتقون، على سبيل الحث على الاتصاف بها، بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: ينفقون مالهم في حالتي الرخاء والشدة.

وهذه الصفةُ تدلُّ على صدق توبة آكل الربا، لأنّه قبل توبته لا ينفِقُ ماله لمساعدة الناس، بل يقدِّم ماله ليستغل حاجتهم وعسرهم، فيربو ماله على حساب عُسرهم وشقائهم.

• **العفو عند المقدرة:**

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ أي: الذين يكظمون غيظهم، فلا ينساقون وراء غيظ نفوسهم للتشفي والانتقام، بل يعفون عمّن ظلمهم واعتدى عليهم.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ١/ ٥٧٨.

وهما خصلتان رفيعتان من خصال الخير، لا يتحلّى بهما إلا أقوياء الإرادة والعزيمة؛ قال رسول الله ﷺ: **«لَيْسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَه عندَ الغَضَبِ»** [رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)].

و(**الصرعة**) الذي يصرع غيره بقوة جسده.

وقال ﷺ أيضاً: **«مَنْ كَظَمَ غَيْظاً، وَهُوَ قادِرٌ على أَنْ يُنْفِذَهُ دعاهُ اللهُ سبحانه على رؤوسِ الخلائقِ حتّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُوْرِ العِيْنِ ما شاء»** [رواه أبو داود (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

ومر معنا منذ قريبٍ أنَّ النبيَّ ﷺ غضب مما فعله المشركون بجثث أصحابه من شهداء أُحد، وكيف كظم عليه الصلاة والسلام غيظه، ونهى عن المُثْلَة. وهذا يبيّن لنا الاتساق والاحتباك القائم بين الآيات الكريمة في السورة، فاختيارُ هذه الصفات لم يأتِ جُزافاً، إنّما جاء تتميماً لمعانٍ سبق الحديث عنها في السورة.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون إلى الناس بمساعدتهم عندما يكونون محتاجين، وبالعفو عن المسيء منهم عند القدرة على الانتقام.

- **عدم الإصرار على الذنوب:**

ومن صفات المتقين أيضاً: عدم الإصرار على الذنب، والمبادرة إلى التوبة، ومهما كان الإنسانُ صالحاً تقيّاً فهو غيرُ معصوم عن الذنوب، وشأنُ المؤمن التقي إذا ما ضعف أمام نفسه، واقترفَ ذنباً، أن يتنبَّه إلى خطره، ويستشعرَ أثره السيِّئ في نفسِه وقلبه، فيبادر إلى التوبة والاستغفار بعد أن يقلعَ عن ذنبه، ويندم على فعله، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: فعلة بالغة القبح كالزنى.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأي ذنب.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ وأنه سبحانه قائم عليهم، مراقب لأعمالهم، وأنه سيحاسبهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وهذا يدلُّ على أنَّ شعلةَ الإيمانِ لا تنطفئُ بالذنبِ، فهي لا تزالُ في قلوبهم حيّةً نديةً.

وذكْرُ الله تعالى يدفعهم إلى الاستغفار والتوبة:

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾: أي لأجل ذنوبهم.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا يغفرُها أحدٌ سواه جلَّ وعلا.

فالتائبُ من الذنب هو عند الله سبحانه كمن لا ذنب له، بل إنّه سبحانه يبدّل السيئاتِ حسناتٍ فضلاً منه ورحمةً، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: لم يقيموا على الذنوب، بل سارعوا إلى التوبة والاستغفار، وهذا حثٌّ على المسارعة إلى التوبة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله تعالى يغفِرُ الذنوبَ جميعاً، فهم على رجاءٍ كبيرٍ برحمته تعالى ومغفرته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

ثمَّ بيّنَ تعالى جزاءَ المتصفين بهذه الصفات الحسنة الرفيعة فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقدَّمَتِ الآياتُ ذكرَ المغفرة، لأنّها التي تتطلع إليها قلوبُ التائبين، وهي مغفرةٌ من ربهم لا مِنْ غيرِهِ، فلا يستطيعُ أحدٌ المتاجرةَ بالمغفرةِ كما كان القُسس والرهبانُ يفعلون.

ولهم مع المغفرة:

﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ في طاعته تعالى، والمقبلين على فضله ورحمته.

● **وأنتم الأعلون:**

وعادت الآياتُ ـ بعد هذا التوجيه التربوي الرفيع إلى غزوةِ أُحد ـ تواسي المؤمنين في مصابهم، وتمسحُ جراحهم، وتشدُّ على عزائمهم، بقوله تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: قد جرى نحوُ هذا على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، ثمَّ كانت العاقبةُ لهم، والدائرةُ على أعدائهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فآثارهم لا زالت باقية تدلُّ على شدَّة قوَّتهم، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، وإعراضهم عن دعوة ربهم.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا القرآنُ بيانٌ للناس، يبيِّنُ لهم الحق من الباطل.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفيه هداية وعبرة للمتقين، فالتقوى تجعل القلب ينفتحُ للنور والهداية والموعظة.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على الشهداء.

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فالإيمانُ يستوجِبُ الثقةَ بالله تعالى، وبوعده بنصر أوليائه على أعدائه، ويمكن أن نقول أيضاً بقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن كنتم مؤمنين حقّاً فأنتمُ الأعلونَ، إن كنتم مؤمنينَ حقّاً فلا تهنوا ولا تحزنوا،

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٨٠.

فإنّما هي سُنَّةُ اللهِ أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ بشارةٌ كبيرةٌ لهم بالنصر والغلبة. أو: وأنتم الأعلون شأناً، لأنّ قتالكم لله، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأنّ قتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار[٢].

ولعلَّ في الآية ردّاً على قائد جيش المشركين آنذاك أبي سفيان عندما وقف بعد المعركةِ على جبل أُحُدٍ، وصاح قائلاً: أنْعَمتَ فِعال، وإنّ الحرب سِجال، يومٌ بيوم، اعلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «**قُمْ يا عُمَرُ فَأَجِبْهُ فقل: اللهُ أعلى وأجلُّ، لا سواء، قتلانا في الجنَّةِ، وقتلاكم في النار**»[٣].

وأُضِيفُ أيضاً في معنى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ ما ذكره سيد قطب رحمه الله بقوله: عقيدتكم أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه، ومنهجُكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهجٍ من صنعِ اللهِ، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودورُكم أعلى، فأنتم الأوصياءُ على البشرية كلِّها، الهداةُ لهذه البشرية كلِّها، وهم شاردون عن النهج، ضالّون عن الطريق[٤].

- **مداولة الأيام:**

وتابعت الآياتُ مواساةَ المؤمنين في مُصابهم، وهذا يدل على مكانتهم الرفيعة عند الله تعالى:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: إن أصابتكم جراحٌ وقتلٌ

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٥٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٨.

(٣) في ظلال القرآن: ١/ ٤٨٠.

في أُحد، فقد أصاب أعداءكم جراحٌ وقتلٌ في غزوة بدر، فيومٌ لكم ويومٌ عليكم.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بعلمه سبحانه ومشيئته وحكمته. كما سبق في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمران: ٢٦].

ولله سبحانه في ذلك حِكَمٌ كثيرة، فالحياةُ في الدنيا ابتلاءٌ واختبارٌ، ولهذا قال جل وعلا:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم متصفون بالصبر والإيمان في حقيقة الأمر والواقع، كما سبق بذلك علمه.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ يكرمهم بالشهادة في سبيله، عندنا يبذلون أرواحهم في مرضاته.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فتسليطهم على المؤمنين في بعض الأوقات لا يعني أنه سبحانه يحبهم، ولكنه تعالى قدَّر ذلك تمحيصاً للمؤمنين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليطهرهم وينقِّيهم من ذنوبهم، ويرفع درجاتِهم بصبرهم على مُصابهم.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم شيئاً فشيئاً، حتى يطهّرَ الأرضَ من فسادهم وظلمهم.

• لا تتمنَّوا لقاء العدو:

وطريقُ الجنَّةِ محفوفٌ بالمكاره، ولابدَّ من الابتلاء والاختبار للوصول إلى رضوان الله والجنة، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد.

ولا شكَّ أنّه سبحانه يعلم المجاهدين والصابرين قبل الابتلاء، ولكنّه سبحانه أرادَ وقوعَ الجهادِ والصبر، فيكون التطابق بين العلم والمعلوم.

ونصبت ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بإضمار (أن) و(الواو) للجمع، وقُرِئَ بالرفع، على أنَّ (الواو) للحال، كأنه قال: ولمّا تجاهدوا، وأنتم صابرون[١].

وقد تكرر هذا المعنى في عدَّة آيات، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

وكان بعضُ الصحابة الذين لم يشهدوا بدراً يتمنَّون لقاء العدو، لينالوا شرف جهادهم مع رسول الله ﷺ، فأشهدهم الله يوم أُحد، فلم يثبتوا إلا مَنْ شاء الله، فأنزل الله:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي: كنتم تمنَّون أسبابَ الموتِ، وهي القتالُ والجهادُ من قبل أن تشهدوا يومَ أُحدٍ.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم ما كنتم تتمنَّون.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: تشاهدون قتْل من قُتِلَ من إخوانكم[٢].

فالآيةُ تدلُّ على كراهة تمنّي لقاء العدو، فقد لا يثبتُ المتمنِّي عند اللقاء، كما حدث في أُحدٍ، ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عن تمنّي البلاءِ بالشدائدِ ولقاءِ العدو، فقد يضعفُ الإنسانُ ولا يصبرُ، فقال: «**لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وَسَلُوْا اللهَ العافيةَ،**

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٥٩٦.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ٥٩٧.

فإذا لقيتموهُ فاصبروا، واعْلَمُوْا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظلالِ السيوفِ» [رواه البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢)].

وعاد رسول الله ﷺ رجلاً قد جُهدَ حتّى صار مثل الفرخ، فقال له: «**أما كنتَ تدعو؟ أما كنتَ تسألُ ربكَ العافيةَ؟**» قال: كنتُ أقولُ: اللهمَّ ما كنتَ معاقبي به في الآخرةِ فعجِّلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحانَ اللهِ! إنَّكَ لا تُطِيْقُهُ ـ أو لا تَسْتَطِيْعُهُ ـ أفلا كنتَ تقولُ: اللهمَّ آتنا في الدنيا حَسَنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ**» [رواه مسلم (٢٦٨٨)].

- **إشاعة كاذبة:**

عندما خالف الرماةُ أمر النبيِّ ﷺ، وترك أكثرُهم مواقعهم، واستغلَّ فرسانُ المشركين خُلُوَّ جبل الرماة (عَيْنين)، وحملوا على المسلمين مِنْ خلفِهم، ووقعَ الاضطرابُ في صفوف المسلمين، وأُصيبَ النبيُّ ﷺ، ووقع في الحفرة ـ كما مرَّ معنا ـ تمكّن أحدُ المشركين، وهو عبد الله بن قمئة، مِنْ قتلِ مصعبِ بن عُمير رضي الله عنه حاملِ راية المسلمين، فسقطتْ على الأرض، وصاحَ: إنِّي قتلْتُ محمَّداً، فنظر الصحابةُ إلى النبيِّ ﷺ، فلم يروه، لوقوعه في الحفرة، فوقع الضعفُ والوهنُ في عزائمهم، وتراجعَ أكثرُهم عن القتال، إلا قليلاً ثبتوا حول رسول الله ﷺ، حتى كشفوا معه عليه الصلاة والسلام جَمْعَ المشركين، وأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ﴾ أي: مضت الرسلُ من قبله، فهو ﷺ ليس بِدْعاً بينهم، ويمكنُ أن يصابَ بالقتلِ أو الموتِ مثلهم.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ أي: رجعتم القهقرى منهزمين أو مرتدين.

فما كان ينبغي لهم أن ينهزموا ولو قتل رسول الله ﷺ، فالنبوةُ لا تدرأُ الموتَ عن الأنبياء، والدِّينُ لا يزولُ بموتهم. وقد ثبتَ بعضُ الصحابة عندما سمع هذه الإشاعة الكاذبة، وقاتلوا حتى استشهدوا رضي الله عنهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على مَنْ قَتَلَهُ النبيُّ ﷺ في سبيل اللهِ، اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على قومٍ دَمَّوا وَجْهَ نبيِّ الله ﷺ**» [رواه البخاري (٤٠٧٤)].

وفشا في الناس أنَّ محمداً ﷺ قد قُتِلَ، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي فيأخذَ لنا أماناً من أبي سفيان، وجلسَ بعضُ الصحابة وألقوا بأيديهم.

وقال أناسٌ من المنافقين: إن كان محمَّدٌ قد قُتلَ فالحقوا بدينكم الأول.

وقال أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم! إنْ كانَ محمَّدٌ قُتِلَ فإنَّ ربَّ محمَّدٍ لم يُقتَلْ، وما تصنعون بالحياةِ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ؟! فقاتلوا على ما قاتلَ عليه، وموتوا على ما ماتَ عليه.. ثمَّ قال: اللهمَّ إنِّي أعتذرُ إليكَ مما يقول هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثمَّ شدَّ بسيفه فقاتل حتى قُتل. [رواه البخاري (٤٠٤٨)][(١)].

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل يَضُرّ نفسه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه[(٢)].

فالهداية إلى الإسلام من أعظمِ النعم، والشكرُ على هذه النعمةِ بالتمسّك بها والثبات عليها.

- **شجاعة الصدِّيق وثباته:**

كان نزولُ هذه الآية بسبب غزوة أُحُد رحمةً من الله تعالى بالصحابة رضي الله عنهم،

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/ ٥٩٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٦٠٠.

وسبباً لتثبيتهم عندما نزل بهم هذا الحادثُ الجللُ الذي زلزلهم زلزالاً شديداً، وهو موت رسولِ اللهِ ﷺ، فما نزل بالإسلام حادثٌ أعظم منه.

وكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أشجعَهم قلباً، وأثبتَهم نَفساً. قال القرطبيُّ رحمه الله: «هذه الآيةُ أدلُّ دليل على شجاعةِ الصدّيق وجرأته، فإنَّ الشجاعة والجرأة حدُّها ثبوتُ القلبِ عند حلولِ المصائب، ولا مصيبةَ أعظمُ من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعة أبي بكر وعلمه، قال الناس: لم يمتْ رسولُ اللهِ ﷺ، منهم عمر، وسكت عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمرُ، فكشفه الصديق بهذه الآية»[1].

عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: لمّا قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ، وأبو بكر عند امرأته ابنةِ خارجةَ بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يَمُتِ النبيُّ ﷺ، إنّما هو بعض ما كان يأخذُه عندَ الوحي، فجاءَ أبو بكرٍ، فكشفَ عن وجهه، وقبَّلَ بينَ عينيه، وقال: أنتَ أكرمُ على اللهِ أن يُمِيْتَكَ مرَّتينِ، قد واللهِ ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ. وعمر في ناحيةِ المسجد يقول: واللهِ ما ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولا يموتُ حتى يقطعَ أيدي أناسٍ من المنافقينَ كثير، وأرجلهم، فقام أبو بكرٍ فصعد المنبر، فقال: مَنْ كانَ يعبدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ، ومَنْ كانَ يعبدُ محمَّداً، فإنَّ محمَّداً قد ماتَ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ الآية [آل عِمرَان: ١٤٤]، قال عمر: فلكأنِّي لم أقرأها إلا يومئذ. [رواه البخاري (١٢٤١ و٤٤٥٤)].

- **فهْم خاطئ:**

وقد أحسن سيد قطب رحمه الله عندما قال: «وكأنما كان الله سبحانه يُعِدُّ الجماعةَ المسلمةَ لتلقي هذه الصدمة الكبرى ـ حين تقع ـ وهو سبحانه يعلم أنَّ

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٢٢.

وَقْعَها عليهم يكادُ يتجاوزُ طاقتهم، فشاء أن يدرّبهم عليها هذا التدريبَ، وأنْ يصلهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبدّ بهم الدَّهشُ والذهول»[١].

ولكنّه ﷺ أخطأ الفهمَ، وابتعدَ عن الصواب بُعداً كبيراً عندما قال: «وكأنّما أراد الله سبحانه بهذه الحادثة، وبهذه الآية أن يفطمَ المسلمين عن تعلُّقهم الشديد بشخص النبي ﷺ، وهو حيٌّ بينهم، وأن يصلهم بالنبع، النبع الذي لم يفجّره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومئَ إليه، ويدعو البشرَ إلى فيضه المتدفق، كما أومأ إليه مَنْ قبلَه مِنَ الرسل، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه»[٢].

وليته ـ غفر الله له ـ لم يستنتج مثل هذا الاستنتاج الباطل من الآية، كيف تجرَّأَ على الله تعالى، وزعم أنّه سبحانه يريدُ أن يفطم المسلمين عن تعلُّقهم الشديد بشخص النبي ﷺ؟! مع أنه سبحانه أمرنا في كثير من آياته القرآنية، وفي ما كلّفنا به من الأعمال والعبادات أن نتعلّقَ برسولِ اللهِ ﷺ حبّاً له عليه الصلاة والسلام، وطاعةً لأوامره، واقتداءً بسُنته، وإكثاراً لذكره بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه، ألم يأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وقرن ذكره بذكره سبحانه في الشهادتين والأذان؟! وكلّفنا بالصلاة والسلام عليه ونحن بين يديه تعالى في الصلاة؟! ألم يقل الله تعالى في **سورة آل عمران**: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١]؟!.

إن محبة رسول الله ﷺ عبادةٌ يُتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، وكلّما ازداد المسلم حبّاً له ﷺ ازداد قُرباً من الله تعالى، بصريح قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٤٨٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

- **الكتاب المؤجل:**

جعل الله تعالى لموت كلِّ مخلوق حيٍّ أجلاً معيناً، لا يتأخَّرُ ولا يتقدَّمُ فقال ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ أي: لا يموتُ أحدٌ إلا بقدرٍ قدّره الله تعالى في سابق علمه وكتبه، وفي هذا تشجيعٌ للجبناء، وترغيبٌ لهم في القتال، فإنّ الإقدام والإحجام لا ينقِصُ من العمر ولا يزيدُ فيه.

ولقد كان هذا المعنى ماثلاً في قلوب الصحابة في حروب الفتح، وله أثر كبير في شجاعتهم وإقدامهم ﭫ، فعندما وصلوا بعدَ القادسيةِ إلى شاطئ دجلة، ترددوا في عبوره إلى الشاطئ المقابلِ لفتح المدائن، فقال رجل من المسلمين، وهو حِجْرُ بنُ عدي: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو إلّا هذه النطفة، ـ يعني دجلة ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.. ثمَّ أقحمَ فرسَهُ دجلةَ، فلما أقحم، أقحم الناس، فلما رآهم العدو هربوا[(١)].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من أراد بجهاده وطاعته الدنيا نؤته منها ما نشاء.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: نجعل ثوابه فيها.

فالأمرُ منوطٌ بنية الإنسان، فإن كان يريدُ بعمله الدنيا، فليس له جزاء إلا فيها، وإن أراد بعمله الآخرة، فجزاؤه أيضاً فيها، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشّورى: ٢٠].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٢٣.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء].

وفي الآية تعريض بالرماة الذين تركوا مواقعهم من أجل الغنائم. ثمَّ قال تعالى هنا في ختام الآية.

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ كما في خاتمة الآية التي قبلها، ودلّ ذلك على أنّه لا بدّ للشكر من الثبات على الإسلام مع إخلاص النية لله تعالى وحده والتجرد عن الدنيا.

• **الصبر والنصر:**

ولابدّ لإحراز النصر من الصبر، ولهذا حثّهم الله تعالى عليه، وذكر لهم كيف كان أسلافهم من أتباع الأنبياء يصبرون على شدائد القتال وآلامه، فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: كم من نبيٍّ قاتلَ معه جماعاتٌ كثيرة، أو قاتل معه أبرار أتقياء.

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصبروا، وما عجزوا ولا جبنوا بسبب ما أصابهم في سبيل الله من القتل والجراح.

﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ وما فتروا عن القتال، ولا انقطعوا عن الجهاد.

وفي هذا تعريضٌ بالذين ضعفوا عن القتال في أُحد، وهو أسلوبٌ رفيعٌ، يؤدِّبُ الله تعالى به أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ﴾ أي: وما ذلّوا لعدوهم، وما خضعوا له.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ الذين يصبرون على شدائد القتال في سبيل الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾.

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ﴾ في مثل هذه المواطن.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ أي: وتجاوُزَنا حدَّ العبودية بمعاصينا.

قَدَّموا في دعائهم الاستغفارَ من الذنوب والتذللَ للهِ تعالى، ثمَّ سألوه بعد ذلك الثباتَ والنصرَ فقالوا:

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ في مواجهة الأعداء.

﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فاستجاب الله تعالى دعاءهم بسبب إخلاصهم وثباتهم وصبرهم:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو النصر والغنيمة.

﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ وهو الجنة وما فيها من نعيم، ووصفه بالحسن، لأنه دائم لا زوال له ولا انتهاء، ولا تعتريه المنغّصات والمكدّرات.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين يكونون مثلهم في الصبر والثبات والإخلاص.

لقد كان لهذا التوجيه الرباني أكبر الأثر في جهاد الصحابة ﷺ، في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته، حتى تمكنوا ﷺ من النصر والظفر في حروب الفتح على أعظم الدول وأقوى الجيوش.

• **الرعب من جنود الله تعالى:**

حاول اليهود والمنافقون في المدينة المنورة استغلال مُصابِ المسلمين في أُحُد، لزعزعة صفِّ المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، فأنزل الله ﷻ قوله الكريم يحذر المسلمين منهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ﴾ إلى الكفر.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ فترجعوا إلى الكفر وقد خسرتم خير الدنيا والآخرة.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: متولي أموركم، وهو سبحانه سينصركم.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فلا تنصرفوا إلى غيره تعالى، وتمسكوا بحبله واعتصموا بدينه.

ثمَّ أخبرهم سبحانه أنّه سخَّر لهم جنديّاً من جنوده، وهو الرعبُ الذي سلطه على قلوب أعدائهم:

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَـٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ أي: الخوف والفزع.

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَـٰنٗاۖ﴾ بسبب إشراكهم بعبادته آلهة ما أنزل الله فيها حجَّة وبرهاناً يدل على استحقاقها للعبادة.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ يوم القيامة.

﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ **والمثوى**: مكان الإقامة، أي: وبئس المكان الذي يقيمون فيه، وهو جهنم. أعاذنا الله منها.

ولقد نصر الله تعالى بالرعب النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ في كثير من المشاهد والمعارك، فبعد غزوة أحد وارتحال المشركين إلى مكَّة، ندموا في أثناء

الطريق، وهموا بالرجوع إلى المدينة، وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يَبْقَ إلا الشريد تركناهم، ارجعوا نستأصلهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم حتى رجعوا عما هموا به[1].

ونصرهم الله تعالى بالرعب على يهود بني قريظة عندما تحصّنوا بحصونهم المنيعة بعد غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

ولما جمع الرومُ جيوشهم في تبوك للهجوم على المسلمين في المدينة المنورة، ليقضوا على الإسلام والمسلمين، استنفر النبيُّ ﷺ أصحابه، وخرج إليهم، ولمّا سمعوا بخروجه خافوا وتراجعوا، ونصر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالرعبِ من مسيرةِ شهرٍ؛ قال ﷺ: «**أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوْراً، وأُحِلّتْ لي الغنائمُ، وأُعْطِيْتُ الشفاعةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامة**» [رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١)].

• **عتاب المنهزمين:**

اكتفت الآياتُ السابقةُ التي مرّت معنا بتعريضٍ غير مباشر بالصحابة ﵃، وركّزت على مواساتهم في مُصابهم، وتثبيتهم، ورفع معنوياتهم، فلم تبادِرْ إلى لومهم وعتابهم، بل بادرت إلى مواساتهم وتثبيتهم. وهذا يدلّنا **أولاً** على المكانة الرفيعة لهم عند الله تعالى ﵃. ويدلّنا **ثانياً** على الأسلوب الذي ينبغي اتِّباعه في مثل هذه الأحوال، فلا ينبغي المبادرةُ إلى لومَ المنهزمين وتوبيخهم، فإنَّ هذا يزيدُ من ضعفهم وتخاذلهم، ويعمِّقُ آثارَ المصيبة، ويضاعفُ آلامَ الجراح، ويساعِدُ العدو ويقويه، ويزيد من استفادته فيما أوقعه في المصابين.

وبعد التثبيت والمواساة وتضميد الجراح، شرعت الآياتُ الكريمةُ باللوم والعتاب والكشف عن أسباب الخسارة الكبيرة التي حلّت بهم، فهو أمرٌ لا بدّ

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٣٢.

منه للأمة التي تريد أن تنهضَ من كبوتها، وتستفيدَ من عثرتها، لا بد من إظهار المسؤولين عمّا حدث، ومواجهتهم بأخطائهم مهما كانت مراتبهم ومكانتهم، فالسكوتُ على الخطأ دونَ التعريف به ليُحْذَرَ خطأٌ أكبر.

وهو أمر واقع في كثير من المجتمعات الإسلامية، وهو من أهم أسباب تخلّف المسلمين ومعاناتهم، لماذا لا يحاسِبُ المسلمون أنفسَهم، ويواجهون المخطئين بأخطائهم، كما يفعل كثيرٌ من الكفار في مجتمعاتهم؟! ولهذا تتكرّر الأخطاء وتتراكم في المجتمعات الإسلامية، بينما تبقى المجتمعات الكافرة يقظةً حذرةً، تحاسب المخطئ، وتحمّله نتيجةَ خطئه، فلا يتكرّرُ الخطأ كما يتكرّر في مجتمعاتنا.

فلننظر إلى الآيات القرآنية الكريمة كيف واجهت الصحابة هذه المواجهة الصريحة، وكيف حمّلتهم المسؤولية عمَّا حدث في أُحد، مع ما لهم ﵃ من مكانةٍ رفيعةٍ وسبْقٍ إلى الإسلام والجهاد.

● **إلى قلب المعركة:**

عادت الآيات إلى قلب المعركة تخاطِبُ الصحابة ﵃، وتصف الأحداث وتحلّلها، وتواجههم بمواقفهم فيها، وبدأت تذكّرهم بفضله سبحانه عليهم عندما نصرهم على أعدائهم في أوّل المعركة، قبل أن يخالفَ الرماةُ أمر الرسول ﷺ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر والتأييد بشرط التقوى والصبر.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم بمشيئته تعالى وقدرته.

فعن **البراء** رضي الله عنه قال: لمَّا لقيناهم هربوا حتى رأيتُ النساءَ يشتددْنَ في الجبل، رفعنَ عن سوقهنَّ، قد بدت خلاخلهنَّ. [رواه البخاري (٤٠٤٣)].

وعن **الزبير بن العوام** رضي الله عنه قال: واللهِ لقد رأيتُني أنظرُ إلى خَدْمِ هندٍ[١] وصواحباتِها مشمّرات هواربَ، ما دون أخذهنَّ كثيرٌ ولا قليلٌ، ومالت الرماةُ إلى العسكرِ حين كشفْنا القومَ عنه، يريدونَ النهب، وخلّوا ظهورنا للخيل، فأوتينا من أدبارنا، وصرخ صارخٌ: ألا إنّ محمداً قد قُتِلَ، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحابَ اللواءِ حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: طرأ عليكم الفشل، وهو الجبن والضعف بسبب الاختلاف والعصيان.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم في تنفيذ أمر النبي ﷺ، والمراد: الرماة الذين كانوا على الجبل.

﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: خالفتم أمر الرسول ﷺ.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من هزيمة عدوكم وانتصاركم عليهم.

والمتأمل للآية لابدّ أن يلاحظَ توجيه الخطاب لجميع الصحابة، وتحميلهم جميعاً المسؤولية، مع أنّ الذين عَصَوْا وخالفوا هم الرماة فقط، فالمسؤولية إذاً جماعيةٌ، ولهذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما مر معنا.

ثمَّ واجهتهم الآية بما كانوا يضمرونه في داخل أنفسهم، وكشفت حقيقة مقاصدهم، بقوله تعالى:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في الغنيمة حين رأوا هزيمة المشركين في أول الأمر.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ في جهاده وقتاله.

---

(١) هي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان. **والخَدْمُ**: الخلاخل.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٢٦.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ثمَّ كفَّكم عن المشركين بعد أن كنتم مسلّطين عليهم ليختبركم، وتحوّلَ وجهُ المعركةِ لصالحِ المشركين.

وهذا يدلُّ على تمامِ مشيئته تعالى وقدرته ﷻ، ويدل أيضاً على ما للنوايا الطيبة الحسنة من أثرٍ في استنزال معونته تعالى ونصره، وما للنوايا السيئة من أثرٍ في الخذلان والهزيمة.

وبعد أن بيّنت لهم الآيةُ سبب تحول المعركة لصالح المشركين، وواجهتهم بالحقيقة، وحمّلتهم مسؤولية ما حدث، أخبرتهم بعفوه ﷻ عنهم تكرمةً لهم ﵃، وإظهاراً لفضله سبحانه عليهم:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: غفر لكم ما صنعتم من المخالفةِ والمعصيةِ وتركِ القتالِ والفرارِ من وجه العدو.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم وصفت الآياتُ أحوالهم بعد المخالفةِ والمعصيةِ، بقوله تعالى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: تمضون في الأرض منهزمين.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تعرّجون وتقفون على أحد، ولا يلتفت بعضُكم إلى بعض، وهذا يدلُّ على شدَّة الخوف والاضطراب الذي أصابهم.

• **شجاعة النبي ﷺ وثباتُه:**

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: من ورائكم.

فقد بقي رسول الله ﷺ في موقفه من أرض المعركة ثابتاً لم يتزعزع ولم يتزحزح، وهو يدعو أصحابه ليرجعوا إلى القتال؛ قال **ابن عباس** ﵄ وغيره: كان مِنْ دعاءِ النبيِّ ﷺ: **«أيْ عبادَ اللهِ ارجعوا»**.

وهذا يبيّن لنا مدى شجاعته ﷺ وثباته، فلقد فرّ عنه أكثر أصحابه، حتى لم يبق معه غير اثني عشر رجلاً كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[١].

وذكرت بعض الروايات: أنّه لم يبق بجانب النبي ﷺ في بعض الأحوال سوى اثنين من أصحابه، هما طلحةُ بن عُبيدِ الله، وسعدُ بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصيبَ طلحةُ وشُلَّتْ يدُه، وهو يقي رسولَ اللهِ ﷺ. [رواه البخاري (٤٠٦٣)].

وكان سعدٌ يرمي دونَهُ ﷺ، والنبي ﷺ يناوله السهامَ، ويقول: «**ارمِ فداكَ أَبِي وأُمِّي**» [رواه البخاري (٤٠٥٩) ومسلم (١٧٤٨)][٢].

فالنبيُّ ﷺ لم يُهْزَمْ في أُحدٍ، وظل ثابتاً في وجه المشركين، يقاتلهم بِمَنْ ثبتَ معه من أصحابه، حتى تركوا أرض المعركة، وانصرفوا عن القتال، والقول بأن رسول الله ﷺ هُزم في أحد خطأٌ فادح مجانب للصواب، وفيه سوءُ أدبٍ مع الرسول ﷺ الذي ما تراجعَ أمام عدوٍّ، ولا هُزِمَ في معركة.

وما أصابه ﷺ من جراح في المعركة، وما نزف من دمائه، ومصابه فيمن استشهد من أصحابه، لم يؤثّر على قوة قلبه، ورباطة جأشه، حتى إنّه ﷺ لمَّا وقف بعض المشركين في أعلى الجبل ندب أصحابه لإنزالهم قائلاً: «**لا يَنْبغي لهؤلاءِ أن يَعْلُوْنَا**»، ولمّا صاحَ أبو سفيان مفتخراً متباهياً: اعلُ هُبَل، أمرهم ﷺ أن يردّوا عليه قائلين: «**اللهُ أعلى وأجلُّ**»، ولمّا قال: العُزّى لنا ولا عُزّى لكم، أمرهم ﷺ أن يقولوا له: «**اللهُ مولانا ولا مَوْلى لكم**» [رواه البخاري (٤٠٤٣)].

وخرج رسول الله ﷺ في اليوم الثاني بأصحابه في أثرِ المشركين ليرُدَّهم عن المدينة المنورة، إنْ حدَّثَتْهم أنفسُهم بالهجوم عليها، حتى بلغ حَمْراءَ الأسد.

وكلُّ ذلك يؤكِّد لنا أنَّ أحداث أُحد ومصابه ﷺ فيها لم يَنَلْ من عزيمته، ولم يؤثّر على معنوياته ﷺ.

وتابعت الآياتُ مواجهة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقوله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٤٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٢٧.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: فجازاكم همّاً وحزناً على ما فاتكم من نصرٍ وغنيمةٍ، متصلاً بهم، وحزنٍ بسبب ما أصابكم من جراح وقتل.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لكي يكونَ ذلك لكم درساً وعبرةً وتجربةً، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافع.

﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من المضار(١).

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

• نعاس وأمن في الميدان:

ومن لطفه سبحانه بأصحاب النبيِّ ﷺ، وفضله عليهم، بعد أن أُصيبوا، ما أخبر عنه بقوله الكريم:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ حتى نام أكثرُهم، وشعروا بهذا بالأمن، فسكنت قلوبُهم، واطمأنّت نفوسُهم، فإنّما ينعسُ من يأمنُ، والخائِفُ لا ينام.

وقد حدث مثل هذا في بدر، إلا أنّه كان قبل القتال، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ الآية [الأنفال: ١١].

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ٦٠٨.

قال أبو طلحة الأنصاري: كنتُ فيمن تغشّاهُ النعاس يومَ أُحدٍ، حتّى سقطَ سيفي من يدي مراراً. [رواه البخاري (٤٠٦٨)].

﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡۖ﴾ وهم المؤمنون المخلصون.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ لم يغشهم النعاسُ بسبب خوفهم على أنفسِهم، فلا همَّ لهم إلا أنفسهم، وهم المنافقون، الذين كان لهم وجودٌ كبير في مجتمع المدينة المنورة، وقد أظهرَ كثيرٌ منهم نفاقهم بعد غزوة أُحد.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يسيئون الظن بالله تعالى، وهو أنه سبحانه لا ينصر نبيه ﷺ وأصحابه.

﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ أي: كظن أهل الجاهلية.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ﴾؟ وهو استفهام إنكار ونفي، أي: ما لنا أمرٌ يُطاع، يعرِّضون بالنبي ﷺ عندما استشار أصحابه قبل الخروج من المدينة، فأشار عليه زعيمُ المنافقين ابن أُبيٍّ بالبقاءِ فيها، والتحصُّنِ في بيوتها، لكنّه ﷺ أخذ برأي شباب الصحابة، وخرج إلى أُحد ـ كما مر معنا ـ.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ أي: البقاء أو الخروج، والنصر أو الهزيمة، والحياة أو الموت، كلّها بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته جلَّ وعلا.

﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ فسريرتهم تخالفُ علانيتهم، يخفون الكُره والحِقْدَ على النبيِّ ﷺ خلاف ما يُظهرون من المودّة والمحبة.

﴿يَقُولُونَ﴾ بعضهم لبعض.

﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ أي: لو أنَّ محمداً ﷺ أطاعنا، ولم يخرج من المدينة، ما قتل من قتل منّا.

﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ فقدرُ الله تعالى واقعٌ لا محالة، والموتُ الذي قدّره سبحانه لابد منه، كما قال سبحانه: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ الآية [النّساء: ٧٨].

فلو لم يخرج النبيُّ ﷺ إلى أُحدٍ لخرج الذين قدّر الله تعالى موتهم إلى

مصارعهم ليموتوا فيها، فلا رادَّ لقضائه جلّ وعلا، ولا معقّب لحكمه، وما حدث في أُحدٍ قضاه الله تعالى وقدّره ابتلاءً وتمحيصاً.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من إخلاص أو نفاق.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ليكشفَ ما فيها، فالتمحيصُ هنا الكشفُ والتمييز[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو سبحانه لا يحتاجُ إلى الابتلاء، ولكنّه قدّره بحكمته إظهاراً لحال المنافقين، وتمييزاً لهم عن المؤمنين.

- **العفو عن المنهزمين:**

وأكدتِ الآياتُ مرّةً ثانيةً عفوه سبحانه عن الصحابة الذين تركوا ميدان المعركة في أُحد وانهزموا، بعدما ذكرت من شأن المنافقين، وكأنّها تحثّهم وتشجّعهم على ترك النفاق، وتحسين الاعتقاد، حتى يشملهم عفو الله تعالى ومغفرته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ في أُحد.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: تمكّن الشيطان من إيقاعهم بالزلل، وهو المخالفة والمعصية.

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب في مخالفة أمر النبيِّ ﷺ بالثبات، فجرّهم ذلك إلى الهزيمة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهذا يقوّي رجاءَ المذنبين في عفو الله تعالى،

---

(١) انظر: روح المعاني: ٤/ ٩٧.

ويشجّعهم على التوبة، وتحسين الظن به سبحانه، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفِرُ الذنوب، ولا يعاجِلُ المذنبين بالعقوبة، كي يرجعوا إلى الله، ويتوبوا ويستغفروا.

فما أعظم العبر والدروس المستفادة من غزوة أُحد!..

• **أثر الإيمان بالقضاء والقدر:**

ويحسُنُ بعدَ فضح المنافقين تحذير المؤمنين من التشبه بهم، والتأثر بأقوالهم وإشاعاتهم التي كانوا يشيعونها في المدينة المنورة. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المنافقون.

﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: قال المنافقون في حقِّ إخوانهم ولأجلهم.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا.

﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ جمع غازٍ، أي: كانوا غزاة مجاهدين، فأصابهم موت أو قتل.

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ أي: لو كانوا مقيمين عندنا ما أصابهم موت وقتل.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا تقولوا مثل هذا القول، فإنّه يؤدّي إلى الحسرة والألم في القلوب.

وهذا يبين لنا الآثار الطيبة للإيمان بالقضاء والقدر في نفوس المؤمنين؛ ففيه تخفيف لآلام المصابين وأحزانهم، فالرضا بقضاء الله وقدره يزيل عن القلوب والنفوس أمثال الجبال من الهموم والأحزان، ويضع مكانها راحةً

وسكينةً، لا يحسّ بها ويتذوقها إلا المؤمنون بالله تعالى، المستسلمون لقضائه وقدره.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله مِنَ المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ باللهِ ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أنّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدّرَ اللهُ وما شاءَ فعل، فإنّ (لو) تفتحُ عملَ الشيطان**» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ فالحياة والموت بيده سبحانه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ منكم، فله كمالُ القدرةِ والعلمِ، ﷻ.

ويجعل الإيمان بالله تعالى وقضائه وقدره نظرَ المؤمن إلى الموتِ مختلفاً عن نظر الكافر إليه، فالموتُ في نظر المؤمن رحمةٌ ومغفرةٌ، وانتقالٌ إلى دار هي خيرٌ من دار الدنيا، بينما الموتُ في نظر الكافر انتهاء وانقطاع عن الدنيا ومتاعها، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

من حطام الدنيا الفانية.

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

فالإنسان لا ينتهي بالموت، بل هو البداية لما بعده من حساب وجزاء ومسؤولية.

- **خُلُق النبي ﷺ:**

وبعد بيان كل هذه الفوائد والعبر والدروس، التفتت الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تبين له كيف يعامِلُ أصحابه بعد غزوة أُحُد، وتذكره بفضل الله تعالى عليه بما جعل في قلبه الشريف من شفقة على عباد الله ورأفة بهم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ فقد جبَلَه الله تعالى على الرحمة والسماحة واللطف، هذه حقيقة جوهره الشريف، ومعدنه الكريم ﷺ.

فأخلاقه الكريمة لا تكلُّفَ فيها ولا تصنُّعَ، بل هي فطرةٌ فطره الله تعالى عليها، وجبلَّةٌ جُبل عليها، وهي من الله ﷻ لا من غيره، قال الحسن البصري رحمه الله: هذا خلقُ محمّدٍ ﷺ بعثه الله به[١].

وهذا الخلق الكريم هو السبب الرئيس لتعلّق الصحابة به ﷺ وشدة محبتهم له رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وكانت أخلاقه الكريمة سبباً لهداية الكثير منهم للإسلام. وصدق الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: خشناً في كلامك ومعاملتك.

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ جافي الطبع قاسي القلب.

﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لابتعدوا عنك، وأعرضوا عن دعوتك، وما تعلقوا هذا التعلق الشديد بك.

فقد كانوا رضي الله عنهم شديدي المحَبة له ﷺ والتعلُّق به، وبلغوا الغايةَ في هذا الأمر، حتى قال **عروة بن مسعود** الثقفي عندما أرسلته قريشٌ ليكلِّمَ النبيَّ ﷺ، وهو في الحُدَيبيةِ: **والله لقد وفدتُ على الملوكِ، ووفدتُ على كسرى وقيصرَ والنجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ ملكاً قطّ يعظِّمُه أصحابُه ما يعظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمداً ﷺ، واللهِ إنْ يتنخمُ نخامةً إلا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وَجْهَهُ وَجِلْدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأَ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظرَ إليه تعظيماً له.** [رواه البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣١.

وتدلُّنا الآية على أن الداعي إلى الله ينبغي أن يكون رحيماً بالناس، لطيفاً بهم، يتحبَّبُ إليهم بلين الكلام والمعاملة الحسنة، ويتجاوزُ عن أخطائهم، ويتحمّل جفوتهم وقسوتهم، وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه عندما يرسلهم لدعوة الناس بقوله: «**يَسِّروا ولا تعسِّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا**» [رواه مسلم (١٧٣٤)].

وفي رواية أخرى له [١٧٣٢]: «**بشِّروا ولا تنفّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا**».

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: عما صدر منهم في حقك يوم أُحد، عندما فرّوا عنك، وتركوك تواجه خطر المشركين.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: وادعُ الله تعالى ليغفرَ لهم، فدعاؤك مُجَابٌ لا يُرد.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ تطييباً لنفوسهم، وتشريعاً لمبدأ الشورى في الأمة.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على أمرٍ بعد الشورى فأمْضِهِ دون تردُّد.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاءِ أمرك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه وحده سبحانه، ويوفقهم ويسددهم.

والعجيبُ أنّ هذه الصفات الكريمة التي وُصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم قد ذكرت في التوراة والإنجيل قبل طمسها وإخفائها.

ففي أثناء حروب الفتح لبلاد الشام ومصر، وقع في يد **عبد الله بن عمرو** بن العاص زاملةٌ ـ أي صرةٌ ـ فيها نُسَخٌ عن التوراة والإنجيل التي كانت متداولة بين أهل الكتاب، وكان عبدُ اللهِ أحياناً يحدِّثُ الناس عما وجد فيها. ولمّا سأله عطاء بن يسار قائلاً: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراةِ؟ قال: أجل واللهِ، إنّه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفته في القرآنِ: **يا أيُّها النبيُّ إنا أرسلناك شاهِداً ومبشّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأُميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكِّلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخّابٍ بالأسواقِ، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَهُ الله حتّى يقيمَ به المِلّةَ العَوْجاءَ، ويفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً**. [رواه البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨)].

ولا شك أنّ هذه الآية الكريمة عندما وجهت النبيَّ ﷺ هذا التوجيه

الكريم، أمرته أن يفعلَ ما يجعل أصحابه يزدادون حبّاً له، وتعلُّقاً به ﷺ، فالعفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، مع اللين واللطف بهم، كلُّ ذلك يجعلهم يزدادون تعلقاً به ﷺ، وحُبّاً له، وإقبالاً عليه، خلافاً لما استنتجه سيد قطب غفر الله له ـ كما مر معنا ـ.

والتوكّل يجبُ أن يكونَ على الله تعالى وحده لأنَّ الأمرَ بيده، والنصرَ بمشيئته وقدرته:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويمنع عنكم تأييده ونصره.

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي: لا أحدَ ينصركم بعد أن منع الله عنكم النصر.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مع الأخذ بأسباب الوقاية والسلامة، فالتوكل على الله تعالى لا يمنعُ من الحذر والحيْطَةِ والأخذ بالأسباب المؤدِّية إليهما.

- **تحريم الغلول:**

ويبدو أنّ الرماة عندما تسرّعوا بترك مواقعهم من أجل الغنيمة، كانوا يظنون أنَّ النبيَّ ﷺ سيحتفظ بشيء من الغنيمة لنفسه، وأنّه لن يقسمها بينهم، فأنزل الله تعالى قوله الكريم يبرِّئُ النبيَّ ﷺ من الاحتفاظ بشيء من الغنيمة لنفسه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ أي: وما صحَّ لنبيٍّ أن يخونَ من الغنيمة، فإنَّ النبوةَ تنافي الخيانة[١].

(١) انظر: البيضاوي والنسفي: ١/ ٦١٥.

وشأنه ﷺ أعلى من ذلك وأعز.

ثمَّ بيّن سبحانه عقوبةَ مَنْ يأخذ شيئاً من الغنيمة لنفسه من دون حق، ومن يأخذ شيئاً من الأموال العامة لنفسه من دون حق أيضاً، فقال:

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُحشر يوم القيامة وهو يحمل الشيء الذي غلَّه لنفسه.

فعن **أبي هريرة** ﷺ قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ يوماً فذكر الغلولَ، فعظَّمَه وعظَّمَ أمرَهُ، ثم قال: «**لا ألفينَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ بعيرٌ له رُغاءٌ، فيقولُ: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقولُ: لا أملكُ لكَ مِنَ الله شيئاً، قد بلّغتُكَ. لا ألفينَّ أحدَكُم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتِهِ فرسٌ لها حَمْحَمةٌ، فيقولُ: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقولُ: لا أَمْلِكُ لكَ مِنَ اللهِ شيئاً، قد بلَّغْتُك. لا ألفينَّ أحدَكم يجيءُ يومَ القيامةِ على رقبتهِ صامتٌ، فيقول: يا رسولَ اللهِ أغثني، فأقول: لا أملكُ لك من اللهِ شيئاً، قد بلّغتُكَ**» [رواه البخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١)]. **الصامت** من المال: الذهب والفضة.

فالمسؤولية عن الأموال العامة كبيرة، وشأنها عند الله خطير، وعلى من اؤتمن عليها أن يكونَ وقّافاً فيها عند الحدود المشروعة، لا يتصرّفُ فيها إلا بما يُرْضِي الله تعالى، وإلا حُشِرَ يومَ القيامة وهو يحمِلُ ما أخذ لنفسه، وما استأثر به دون غيره من الناس، ثم يكونُ بعدَ ذلك الحساب، فيخاصِمُه كلُّ مَنْ كان له حقٌّ في المالِ الذي أخذه لنفسه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فحقوقُ العبادِ لا يضيعُ منها شيءٌ عند الله تعالى، وهو أحكم الحاكمين.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

ولا يستوي عند الله الأمينُ والخائنُ:

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بطاعته، فحفظ ما اؤتُمن عليه، وأدّى الحقوق إلى أصحابه.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أتى يوم القيامة وهو يحمِلُ آثار خيانته التي تعرّضه لغضب الله تعالى.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: ثُمَّ مأواه بعد فضيحته في أرض المحشر جهنم، وبئس المصير.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: يكون الناس يوم القيامة متفاوتين في المراتب والمنازل، لتفاوتهم في الطاعات وحفظ الأمانات.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

• **المنَّة الكبرى:**

وبعد هذه الشهادة الربانية ببراءة النبيِّ ﷺ من كل ما يمكن أن يقع في الأوهام والظنون، بيّن الله تعالى حقيقة المقام الرفيع العالي الذي أكرمه الله تعالى به بالنسبة لعبادة المؤمنين فقال ﷻ:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فالرسول ﷺ منَّة الله الكبرى على المؤمنين، بعثه الله تعالى لهدايتهم إلى الإسلام، وتعليمهم الحلال والحرام، وتطهير قلوبهم ونفوسهم من الآثام.

أدّبه الله تعالى وكمّله وجمّله، ليكون القدوة الطيبة الحسنة لهم، في أقواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، واختاره تعالى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته

ومجالسته، والانتفاع به ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التّوبة: ١٢٨].

وخَصَّ سبحانه المؤمنين بالذكر ـ مع أنه ﷺ رحمةً لكل العالمين ـ لأنّهم الذين انتفعوا به ﷺ بالإيمان به، واتِّباع سُنَّته، فالمنّةُ عليهم أعظمُ والنعمةُ في حقّهم أتمُّ وأكمل.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: آيات القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهِّرهم من دنس الكفر والفساد وسوء الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن والسُّنَّة.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثته ﷺ.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شك فيه.

هذا البيان الإلٰهي لما ترتب على بعثته ﷺ من خير كبير للمؤمنين، يجعلهم يزدادون محَبة للنبيِّ ﷺ، وتعلُّقاً به، واتباعاً لسُنَّته ﷺ.

- **مواجهة صريحة:**

وأخيراً توجّهت الآياتُ الكريمةُ تخاطِبُ الصحابة ﷺ بهذه المصارحة والمكاشفة، حول السبب المباشر لمصابهم في أُحد، بقوله الكريم:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أحد.

﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في بدر، عندما قتلتم من المشركين سبعين، وأسرتم سبعين.

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: تساءلتم: من أين هذا المصاب ونحن مسلمون، وفينا رسولُ اللهِ ﷺ، وقد وعدنا سبحانه بالنصر؟.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بسبب مخالفتكم أمر الرسول ﷺ ومعصيتكم له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يحكم ما يشاء، ويفعلُ ما يريدُ.

فمصابكم، وإن كان من الله تعالى وبمشيئته وقدرته، إلا أنّ سببه من أنفسكم وعصيانكم، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى: ٣٠] فلا يكون شيءٌ إلا بإذنه تعالى ومشيئته.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فلا تأثير للأسباب في الإيجاد والإعدام، إنَّما المؤثِّر في الحقيقة هو الله تعالى وحده، وله سبحانه حِكَمٌ كثيرة فيما قدَّر عليكم في أُحد، منها:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي: ليميِّز سبحانه بين المؤمنين والمنافقين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي: ادفعوا الكفار بتكثير جيش المسلمين.

﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾، وهو ما حدث قبل القتال، فعندما رجعَ عبدُ اللهِ بن أبيٍّ ابن سلولٍ زعيمُ المنافقين، بثلثِ الجيش إلى المدينة المنورة، وخذل النبيَّ ﷺ والمسلمين، كلَّمهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: يا قوم أذكّركم اللهَ أن تخذِلوا نبيَّكم وقومَكم عندما حضرَ مِنْ عدوكُم، قالوا: لو نعلمُ أنَّكُم تقاتِلُونَ ما أسلمناكم، ولكنْ لا نرى أنْ يكونَ قتالٌ[١].

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ بسبب خذلانهم النبيَّ ﷺ والمؤمنين، أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان[٢].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣٥.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٦٢١.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يبطنون.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من كُفر ونفاق.

ويؤكد كفرهم أنّهم ما كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر، وما كانوا يردُّون ما حدث في أُحد إلى علمه ومشيئته سبحانه وتقديره، بل كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: عن إخوانهم في النسب الذين استشهدوا في أحد.

﴿وَقَعَدُوا﴾ وهم قاعدون عن القتال.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أطاعونا، فتركوا القتال، وقعدوا عنه مثلنا، ما قُتلوا.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: ادفعوا عن أنفسكم الموتَ عندما يحضركم في أجَلِكم المقدَّر لكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّ القعودَ سببٌ للنجاة من الموت.

وسبق ومرَّ معنا مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

• **حقيقة القتل في سبيل الله:**

تميّزت سورةُ آل عمران بتصحيح كثير من التصورات المنحرفة، والمفاهيم الخاطئة، فالقتْلُ في تصوُّرِ الناس مَوْتٌ، ولكنّه إذا كان في سبيل الله تعالى فهو حياةٌ وكرامة، جاء هذا التصحيحُ لحقيقة القتل في سبيل الله في سياق تكريم الله تعالى لشهداء أُحد، وتأسيةً لأهلهم وإخوانهم الذين أصيبوا بقتْلهم، وردّاً على المنافقين الذين قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ﴾ فلا يُعَدُّ القَتْلُ في سبيل الله مَوْتاً.

جاء هذا التقرير بأسلوب النهي عن تصوّرِ القتْل في سبيل الله موتاً، ووُجّه الخطابُ إلى النبيِّ ﷺ مواساة له ﷺ وتسليةً له عن مصابه بأصحابه في أُحُد، فكأنّه وحده المصاب، وهذا يدلُّ على شِدّةِ حزنه ﷺ على مَنْ قُتِلَ من أصحابه في أحد، وخاصّةً عمّه حمزة رضي الله عنه سيد الشهداء. حتى إنّه ﷺ أذن للنساء أن يبكينَ على شهداء أحد، فلم ينكر عليهنّ عندما سمع بكاءهنّ، ولكنّه تأثر ﷺ عندما لم يسمع باكية تبكي عمَّه حمزة رضي الله عنه، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لمّا رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ من أُحدٍ، سمع نساءَ الأنصار يبكين، فقال: «**لكنَّ حمزةَ لا بواكيَ له**» فبلغ ذلك نساء الأنصار، فبكين حمزةَ، فنام رسولُ اللهِ ﷺ ثمَّ استيقظ، وهنّ يبكين، فقال: «**يا ويحهنَّ ما زلْنَ يبكينَ منذُ اليوم، فليبكينَ، ولا يبكينَ على هالكٍ بعدَ اليومِ**» [أخرجه أبو يعلى بسندين (٦٨٢ و٦٨٧) رجال أحدهما رجال الصحيح].

وتحدَّثت الآياتُ عن حياة الشهداء مرّةً ثانيةً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٤]، فللشهداء حياة برزخية خاصة بهم:

﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

ولمّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن هذه الآية قال: «**أرواحُهم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعَرْشِ، تَسْرَحُ من الجَنَّةِ حيثُ شاءتْ، ثم تأوي إلى تلكَ القناديل، فاطّلعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟ قالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي، ونحنُ نسرحُ من الجنَّةِ حيثُ شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرَّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يُتْرَكُوا مِنْ أن يَسْأَلُوا، قالوا: يا ربِّ نريدُ أن تردَّ أرواحنا في أجسادِنا حتّى نقتلَ في سبيلكَ مرّةً أُخرى، فلمّا رأى أنْ ليس لهم حاجة تُرِكُوا**» [رواه مسلم (١٨٨٧)].

• فرحة الشهداء واستبشارهم:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من أنواع النعيم والتكريم.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يفرحون ويُسَرُّون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا وهم يجاهدون، لأنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثل ما نالوا، فهم بذلك يستبشرون.

وقيل: إنَّ الشهداء سألوا الله ﷻ أن يخبرَ إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة، ليرغبوا في الجهاد، فأخبرهم الله ﷻ بما أنزل على النبي ﷺ، ففرحوا بذلك واستبشروا(١).

ففرحُ الشهداءِ واستبشارُهم إنما هو باستمرار المسلمين على طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى واللحاق بهم في الجنة، وهم يتمنّون العودة إلى الحياة الدنيا ليجاهدوا ويُقْتَلوا كما مرّ معنا في الحديث.

وجاء أيضاً: عن **أنس بن مالك** ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أحدٌ يدخلُ الجنَّةَ يحبُّ أن يرجعَ إلى الدنيا، وله ما على الأرض، إلا الشهيدُ يتمنّى أن يرجعَ إلى الدنيا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مرّاتٍ، لما يرى من الكرامةِ**» [رواه البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧)].

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد القتل والاستشهاد.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا، فما عند الله خير وأبقى.

وكما يستبشر الشهداءُ بإخوانهم المجاهدين، يستبشرون أيضاً لأنفسهم بما أنعم الله عليهم:

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/ ٦٢٦.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

سواء كانوا من الشهداء أم من غيرهم، فالله سبحانه لا يضيعُ أجرَ المجاهدين الذين لم يستشهدوا؛ قال رسول الله ﷺ: «**تضمَّنَ الله تعالى لِمَنْ خرجَ في سبيلِهِ، لا يخرِجُهُ إلا جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتصديقٌ برسلي، فهو عليَّ ضامِنٌ أَنْ أدخله الجنَّةَ، أو أرجعَه إلى مسكنِهِ الذي خرجَ مِنْهُ نائلاً ما نالَ مِنْ أجر أو غنيمةٍ**» [رواه البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦)].

- **الجهاد بعد غزوة أحد:**

وبِفَضْلِ هذا التوجيه الرباني الكريم، والأسوة الصالحة بالنبيِّ القائد العظيم ﷺ، استمرّ الصحابةُ رضي الله عنهم على طريق الجهاد، فلم يَهِنوا، ولم يفتروا، رغم ما أصابهم في أُحد، وشهد الله تعالى بفضل جهادهم، واستجابتهم لدعوة النبيِّ ﷺ عندما دعاهم إلى الجهاد، بقوله الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: ما أصابهم في أُحد من قتل وجراح وآلام.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهو ثناءٌ كريمٌ على الصحابة رضي الله عنهم، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من أحد في أثر المشركين، رغم ما أصابهم من جراح وآلام، وقد أراد رسول الله ﷺ بهذا أن يرعبَ المشركين، ويريهم أنَّ المسلمين لا زالوا بخير وقوة، ولم يأذن ﷺ لأحدٍ أن يخرجَ معه سوى من حضر وقعة أحد إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الذي استشهد أبوه في أحد، أذن له لقوله رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: إنَّ أبي كان خلّفني على أخوات لي سبعٍ، وقال: يا بنيَّ إنَّه لا ينبغي لي ولا لكَ أن نتركَ هؤلاءِ النسوةَ، لا رجل فيهنَّ، ولستُ بالذي أوثرك بالجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ على نفسي، فتخلَّفْ على أخواتِكَ. فتخلفتُ عليهنَّ.

قال ابن هشام بعد أن ذكر خبر جابر: وإنّما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ مُرْهِباً للعدو، وليبلّغهم أنّه خرج في طلبهم، ليظنُّوا به قوَّة، وأنّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وروى ابن إسحاق... أنَّ رجلاً من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهدَ أُحداً مع رسول الله ﷺ قال: شهدتُ أحداً مع رسولِ اللهِ ﷺ، أنا وأخٌ لي، فرجعنا جريحينِ، فلمّا أذّن مؤذّنُ رسولِ اللهِ ﷺ بالخروج في طلبِ العدوِّ قلتُ لأخي، أو قال لي: أَتفوتنا غزوةٌ مع رسولِ اللهِ ﷺ؟! واللهِ ما لنا مِنْ دابّةٍ نركَبُها، وما مِنّا إلا جريحٌ ثقيلٌ.. فخرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ، وكنتُ أيسرَ جُرْحاً، فكان إذا غُلِبَ حملتُه عُقبةً، ومشى عُقبةً، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون(١).

وبلغوا **حمراء الأسد** على ثمانيةِ أميالٍ من المدينة المنورة، وكان المشركون قد أجمعوا الرجعةَ ليهجموا على المدينة، ويستأصلوا المسلمين، فلمّا علموا بخروج النبيِّ ﷺ مع أصحابه، ألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم ـ كما مرَّ معنا ـ فانصرفوا عما أجمعوا إليه، وعادوا إلى مكّة المكرَّمة.

● **بدر الآخرة:**

عندما وقف أبو سفيان بعد معركة أحد على الجبل يصيحُ: اعلُ هبل، قال للنبيِّ ﷺ وأصحابه: موعدُكُم موسم بدرٍ القابل، ولبدرٍ موسمٌ سنوي يجتمعُ الناس فيه للبيع والشراء، فلمّا اقتربَ الموعدُ خرج أبو سفيان مع المشركين من قريش، فألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم فرجعوا، واستأجر أبو سفيان بعضَ التجارِ المسافرين إلى المدينة، ليثبّطوا المسلمين عن الخروج، ويشيعوا بينهم أنّ قريشاً خرجت بجمع كبير لا طاقةَ للمسلمين به، ولم تؤثّر هذه الشائعاتُ على معنويات المسلمين، بل زادتهم إيماناً بالله تعالى، وثقةً بتأييده ونصره، فخرجوا مع النبيِّ ﷺ متوكلين على الله تعالى وحده، وأنزل سبحانه مثنياً عليهم قوله الكريم:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٤.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ المستأجَرين من قِبَل أبي سفيان.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: قريش.

﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فلم يلتفتوا إلى هذه الأقوال، ولم يتأثروا بها.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بالله تعالى، ويقيناً بنصره وتأييده.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: إنَّ الله هو الذي يكفينا أمرهم، ونعم الكافي هو جَلَّاله.

وهي الكلمة التي قالها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما ألقي في النار، عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ. . .﴾ [رواه البخاري (٤٥٦٣)].

وهذا يدلُّنا على أنّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ استفادوا من دروس أُحُد، وعرفوا أنَّ النصر من الله تعالى بطاعته وتقواه، وأنَّ الخذلان من المعاصي والمخالفة.

وكانت نتيجة خروجهم متوكِّلين على الله تعالى مستجيبين لأمر النبي ﷺ، أنهم حضروا موسم بدر، بينما تخلّف أبو سفيان والمشركون، وتناقل الناسُ ذلك فازداد احترامهم وتقديرهم للنبيِّ ﷺ وأصحابه، وانفردوا في سوق بدر، فباعوا واشتروا وربحوا، ثمَّ رجعوا إلى المدينة المنورة بالسمعة الطيبة والربح الوفير، ونالوا فوقَ ذلك رضوان الله تعالى وثناءه الخالد عليهم بقوله الكريم:

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: لم يصبهم أي مكروه يسوءهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ بما أعطاهم وأنعم عليهم.

ثمَّ بيّن سبحانه مصدر هذه الشائعات وحقيقتها، فقال:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي: إن ذلكم المخوِّفُ والمثبِّطُ عن الخروج هو الشيطان، يخوّف بوسوسته أولياءه الذين يوالونه ويتأثرون بوسوسته.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي: لا تخافوا من أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، كما قال في **سورة النساء**: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حقّاً بالله تعالى، فينبغي أن تخافوا منه سبحانه، بطاعته واتباع سُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام.

- **ملاحظة هامة:**

إنّ المتدبِّر للآيات الكريمة السابقة التي أنزلت في غزوة أحد يلاحِظُ أنّها اشتملت على كثيرٍ من العتاب والمواساة، وأنّ الآيات التي يغلب عليها العتاب خاطبت الصحابةَ ﷺ، بينما الآيات التي يغلبُ عليها معنى المواساة خاطبت النبي ﷺ.

وهذا يدلّ دلالةً قاطعة على أنّ الله تعالى لا يحمّل النبي ﷺ أي تبعةٍ عمّا حدث في أُحد، فلا مسؤوليةَ على النبيِّ ﷺ عمّا أصاب المسلمين في أُحُد، ولم تُدخله الآيات حتى في إطار المسؤولية الجماعية، كما أدخلت عامّةَ الصحابةِ فيها ـ كما مرّ معنا ـ.

وما فعله ﷺ قبل خروجه إلى أحد من مشاورته لأصحابه، ثم قراره بالخروج إلى أُحُد، وتنظيم أصحابه قبل المعركة حسب طبيعة أرضها، وما أوصاهم به من الثبات والطاعة، وشجاعته عليه الصلاة والسلام وثباته في موقعه أثناء اشتداد القتال، وفرار أكثر أصحابه عنه، ثمَّ ما فعله بعدَ المعركة من

الخروج في أثر المشركين، هو ما ينبغي أن يفعله أمهرُ القواد العسكريين، وأكثرهم إخلاصاً وشجاعةً، ودرايةً وخبرةً بشؤون القتال، وقيادة الرجال.

والعجبُ كلُّ العجبِ من الذي لا يدرك هذه الحقيقة، رغم تدبُّره للآيات الكريمة وما كتبه في ظلالها، حتى قال: «لقد كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرّضت لها، وهي بعدُ ناشئة، ومحاطة بالأعداء من كل جانب، والعدو رابضٌ في داخل أسوارها ذاتها، نقول: كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنِّبَ الجماعة المسلمة تلك التجربة المُرَّة التي تعرَّضت لها، لو أنَّه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه الصادقة، وفيها ما يشيرُ إلى أنَّ المدينة دِرْعٌ حصينة، ولم يستشر أصحابه»[1].

كان على الكاتب ـ وهو سيد قطب ـ غفر الله له، أن يتذكّر حقيقةً هامّةً، وهو انتصاره ﷺ على المشركين في أول المعركة، وقد سجَّل الله تعالى هذا النصر وخلّده بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] ـ كما مرَّ معنا ـ فخروجُه ﷺ كان فيه خيرٌ ونصرٌ، ولم يكن سببَ المصاب الذي حدث بعد ذلك، والذي حدث بسبب الخلاف والمعصية، كما ذكره الله سبحانه وأكَّده في عدَّة مواضع من الآيات الكريمة التي نزلت بسبب غزوة أحد.

والرؤيا التي أشار إليها سيد قطب رحمه الله ذكرها بعضُ كتّاب السِّيَر والمفسرين كأنّها كانت قبل خروجه ﷺ إلى أحد، وأما المحدّثون، فقد روَوْها بألفاظ تدل على أنّه قد قَصّها بعدَ غزوة أحد، وهي في [البخاري (٧٠٣٥) ومسلم (٢٢٧٢)] باللفظ الآتي:

عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**رأيتُ في المنام أنِّي أهاجِرُ مِنْ مكّةَ إلى أرضٍ بها نَخْلٌ، فذهبَ وَهلي إلى أنَّها اليمامةُ أو هَجَرُ فإذا هي المدينةُ يثرب، ورأيتُ في رؤياي هذه أنِّي هززتُ سيفاً، فانقطَعَ صدرُه،**

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٥٣٢.

فإذا هو ما أُصيبَ به المؤمنون يَوْمَ أُحدٍ، ثمَّ هززتُه أُخرى فعادَ أحسنَ ممّا كانَ، فإذا هو ما جاء اللهُ به من الفتحِ واجتماعِ المؤمنينَ، ورأيتُ فيها أيضاً بقراً، واللهُ خيرٌ، فإذا هم النفرُ من المؤمنين يومَ أُحدٍ، وإذا الخير ما جاء الله تعالى به من الخَيْرِ وثوابِ الصدقِ الذي آتانا اللهُ بعدَ يوم بدرٍ» [ورواه ابن ماجه في سننه (٣٩٢١) بهذا اللفظ أيضاً].

[وفي مسند أحمد (١٣٨٦١)]: من حديث أنس ﵁: «**رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنِّي مردفٌ كبشاً، وكأنّ ظُبةَ سيفي انكسرت، فأوَّلْتُ أني أقتل صاحب الكتيبة، وأنَّ رجلاً من أهل بيتي يُقْتَلُ**» وفي سنده علي بن زيد، وهو ثقة سيِّئ الحفظ، وليس فيه ذكرٌ للدرع الحصينة.

وليس في رواية «**الصحيحين**» أنّه ﷺ أدخلَ يَدَهُ في درعٍ حصينةٍ، وأنَّه أولها المدينة المنورة. وينبغي التعويلُ على رواية «**الصحيحين**» لأنّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ ووحيٌ، ولا يُعْقَلُ أن يوحي الله تعالى إلى النبيِّ ﷺ بواسطة الرؤيا، بالبقاءِ في المدينة المنورة، والتحصُّنِ فيها، ثمَّ يخالِفُ النبيُّ ﷺ ما أوحى الله إليه بالرؤيا ويخرج إلى أُحُد.

• المسارعون في الكفر:

ونعودُ بعدَ هذه الملاحظة الهامة إلى سياق الآيات الكريمة التي توجّهت بالخطاب إلى النبيِّ ﷺ تواسيه، وتخفف من همه وحزنه، بسبب ما أظهره المنافقون واليهود، من شماتةٍ بالنبي ﷺ والمسلمين بعد مصابهم في أُحُد:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ أي: لا يحزنك الذين يقعون في الكفر سريعاً، وهم المنافقون واليهود.

﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ بمسارعتهم إلى الكفر، لأن الله غني عنهم وعن إيمانهم وطاعتهم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: نصيباً في ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ولذلك خذلهم، ولم يوفقهم للإيمان.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثمَّ بيَّنَ سبحانه سببَ خذلانه لهم، وعدمَ هدايتهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان، وآثروا الكفر على الإيمان بسوء اختيارهم وكسبهم.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ إنّما يضرون أنفسهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لأنه عذاب عظيم، فلا بد أن يكون أليماً.

وإمهالُ اللهِ تعالى لهم، وتأخيرُه العذابَ عنهم، مكرٌ بهم، واستدراجٌ لهم:

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ بسبب إصرارهم على كفرهم ومعاصيهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ فيه ذلَّة ومهانة.

- **التمييز بين الخبيث والطيب:**

ثمَّ بعد هذا التهديد الشديد بالعذاب العظيم والأليم والمهين، توجّهتِ الآياتُ بالخطابِ المباشر للكفار من المنافقين واليهود، تبيّنُ لهم الحكمة من مصاب المسلمين في أُحُد، ثمَّ تدعوهم إلى الإسلام، وترغبهم فيه، بقوله تعالى:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، فلا يتركُكم الله مختلطين بالمؤمنين، لا يُعرَفُ الصادقُ من الكاذبِ، والمخلصُ من المنافقِ، لا بدَّ أنْ يميِّزَ الله بينهم، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بالامتحان والاختبار، أو بأن يطلعكم الله تعالى على ما ستره عنكم من الغيب، ولا سبيل لكم إلى هذا.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ لأنّه سبحانه استأثر بعلم الغيب، فلا يطلعُ عليه إلا مَنْ شاء من رسله، ولهذا قال جل شأنه:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار سبحانه من رسله من يشاء، فيطلعه من الغيب على ما يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجنّ].

وقد أطلعَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ على المنافقين، فكان ﷺ يعرفهم بأسمائهم، لكنّه ﷺ كان يعاملهم بحسب ظاهرهم، ويكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى.

ثمَّ دعتهم الآيةُ إلى الإيمان، والدخول في زمرة المؤمنين:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فالإيمانُ يقتضي التصديقَ بجميع الرسل دون تفريقٍ بينهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٤].

ثمَّ رغّبتهم بالثواب الجزيل والأجر الكبير إن آمنوا:

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في مقابل العذاب العظيم والأليم والمهين.

❁ ❁ ❁



مع أهل الكتاب مرة ثانية

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا
بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ
قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ
(١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ
قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ
نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ
الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا
تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ
فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ

ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا
وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ
أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى
ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ
ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

- **تمهيد:**

وبعد هذه الوقفة الطويلة المتأنية لآيات سورة آل عمران عند غزوة أحد، وبيان ما فيها من عبرٍ بليغةٍ، وعظاتٍ نافعةٍ، ودروس مستفادةٍ، عادت الآيات إلى موضوعها الأساس الأول، وهو المواجهةُ مع أهل الكتاب، ودعوتهم إلى دين الإسلام القائم على التوحيد، والاستسلام الكامل لله تعالى الواحد الأحد، المنزّه عن الشريك والصاحبة والولد، وهو الدين الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبيان الانحراف الذي أدخلوه على عقائدهم، والتغيير والتبديل الذي أحدثوه في التوراة والإنجيل، وتصديق القرآن الكريم لنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام، وما فيهما من صفات النبي ﷺ والبشارة به.

وغلب على الآيات أسلوبُ التهديد والوعيد، بعد أن استعملت أساليب المجادلة والمناظرة، بسبب أنَّ السورةَ أوشكت على النهاية، فلا بدَّ من اتباع أسلوب الحسم والجزم.

• **طوق من نار:**

سبق معنا أنّ سورةَ آل عمران تميّزت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة والمفاهيم المنحرفة، وفي الآية التالية تصحيحٌ لتصوّرٍ خاطئ لأحبار أهل الكتاب ورهبانهم، قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ وهم الأحبارُ والرهبان الذين بخلوا بما علموا من صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، فكتموها عن الناس.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنّما نزلت في أهلِ الكتابِ، وبخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعةٌ من أهل العلم(١).

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأنّه تعالى سيعاقبهم على ذلك أعظمَ عقاب، بيّنه بقوله:

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: سيحملون عقاب ما بخلوا به.

فهو من الطاقة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ الآية [البَقَرَة: ١٨٤]، وليس من التطويق، أو من الإلزام، أي: سيلزمون أعمالهم كما يلزمُ الطوق العنق، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الآية [الإسرَاء: ١٣]، وقال إبراهيم النخعي: معنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوقٌ من النار(٢).

والبخلُ في اللغةِ: أن يمنعَ الإنسان الحق الواجب عليه.

وقد كتم أهلُ الكتاب صفات النبيِّ ﷺ ونعوته المذكورة في التوراة والإنجيل،

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٩١.

(٢) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٩٢.

وبيانُها واجبٌ عليهم، أوجبه الله عليهم عندما أخذ عليهم العهد والميثاق، الذي مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ الآية [آل عِمرَان: ٨١].

وهو ميثاق أخذه الله على أنبيائهم، وسيأتي معنا أنه سبحانه أخذه على عامة أهل الكتاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الآية [آل عِمرَان: ١٨٧].

ويحتمل لفظُ الآية معنًى آخر، وهو البخلُ بالمال، وتكون الآيةُ بهذا المعنى في مانعي الزكاة، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين، واستدلوا له بقول النبي ﷺ: «**مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فَلَمْ يؤدِّ زكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتانِ، يطوَّقُهُ يومَ القيامةِ، يأخذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ** (يعني شِدْقَيْهِ) **ثمَّ يقولُ: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ**» ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ...﴾ الآية. [رواه البخاري (١٤٠٣)]. **والشجاع الأقرع**: الثعبان الذي لا شعر له.

ولكنّ المعنى الأول يتّفقُ مع سياق الآية وسباقها أكثر من هذا المعنى، ولا مانعَ من القول: إنّ معنى الآية ينسحبُ أيضاً على مانعي الزكاة، كما ورد في الحديث الشريف، وهو في الأصل في علماء أهل الكتاب الذين كتموا صفات النبي ﷺ التي كانت في التوراة والإنجيل، وقد مرَّ معنا في الحديث الشريف أيضاً أنّ كاتِمَ العلمِ عمَّنْ يحتاجُ إليه يُلْجَمُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لله سبحانه كلُّ ما في السماوات والأرض مما يتوارثه الناس، سواءٌ كان عِلْماً أو مالاً أو غيرهما.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

• **جرأتهم على الله تعالى:**

ولم يكتفوا بجريمةِ البُخْل، وكتم شهادة الحق التي اؤتمنوا عليها، بل تجرَّؤوا على الله تعالى، فوصفوه بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وجلاله وغناه سبحانه، منها ما حكاه الله تعالى في قوله:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ذلك بعضُ اليهود عندما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمّد، افتقرَ ربُّك فسألَ عبادَه القرضَ.

وقالوا أيضاً لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، عندما دخلَ بيتَ المِدْرَاس ـ وهو المكانُ المخصّص لتعليم علوم دينهم ـ فوجد فيه رجلاً من أحبارهم، يقال له: فنحاص، فقال له: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فواللهِ إنَّكَ لتعلمُ أنَّ محمّداً رسولٌ من عند الله، قد جاءكم بالحقِّ من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: واللهِ يا أبا بكر ما بنا إلى اللهِ من حاجةِ فقرٍ، وإنَّه إلينا لفقيرٌ، ما نتضرّعُ إليه كما يتضرَّعُ إلينا، وإنّا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيّاً ما استقرضَ منا كما يزعمُ صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناهُ، ولو كان غنيّاً ما أعطانا الربا.

فغضبَ أبو بكر رضي الله عنه، فضربَ وَجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهدِ لضربتُ عنقك يا عدوَّ اللهِ، فأكذبونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين، فذهبَ فنحاصُ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّدُ أبصرْ ما صنعَ بي صاحِبُكَ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما حَملكَ على ما صنعتَ يا أبا بكْرٍ؟**» فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، يزعمُ أنَّ اللهَ فقيرٌ وأنهم أغنياء، فلمّا قال ذلك غضبتُ للهِ ممّا قال فضربتُ وجهه! فجحد فنحاص ذلك، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ...﴾ الآية[١].

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فكما تجرَّؤوا على الله تعالى

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٢.

فوصفوه بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وغناه، تجرؤوا من قبل على أنبيائه فقتلوهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذاب.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: جزاء على الجرائم الكبيرة التي صدرت عنكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

- **دعوى كاذبة:**

وتابعتِ الآياتُ تكشِفُ جرائمهم، وتفضح أكاذيبَهم، مع التهديد والوعيد عليها:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ وهم اليهود:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أي: أوصانا.

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: حتّى يقرِّبَ قرباناً، فتنزل نارٌ من السماء فتأكله.

وهو كذبٌ وافتراءٌ على الله تعالى، فالمعجزاتُ التي أيد الله تعالى بها الأنبياء لم تكن متشابهة، فالعصا واليد البيضاء من معجزات موسى ﷺ، والناقةُ معجزةُ صالحٍ ﷺ، وإحياءُ الموتى وإبراءُ المرضى من معجزاتِ عيسى ﷺ... إلخ. ولهذا ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات المختلفة الدالة على صدقهم.

﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: وجاء بعضهم بالقربان الذي تأكله النار كما ذكرتم.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ ولم تؤمنوا بدعوتهم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

وبادرتِ الآياتُ بعد كشف هذه القبائح والأكاذيب إلى مواساة النبي ﷺ، بقوله تعالى:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين القاطعة الدالة على صدقهم.

﴿وَالزُّبُرِ﴾ والمواعظ والزواجر، أصلها من الزبْر، وهو الزجر.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الذي يبين الحق، ويرشد إلى الصراط المستقيم.

- **الواعظ الصامت:**

ثمَّ هدّدهم الله تعالى، وتوعَّدهم بالموت وما بعده من حسابٍ وعقابٍ، وهو واعظٌ صامتٌ، ومع صمته فهو أبلغ واعظ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ والله سبحانه هو وحده الحي الذي لا يموت، كما سبق بيانه في أول السورة، وكما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمٰن].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: ٨٨].

فالموتُ أمرٌ محتَّم لازم لكل الأحياء، قهر اللهُ ﷻ به القياصرةَ والأكاسرة، وأذلَّ به أعناق الجبابرة، فانتقلوا به من سعة القصور إلى ضيق القبور.

والذوق: إدراك الطعم ومعرفته.

وما عَرَفَ طعمَ الموتِ إلا الأمواتُ، ولو قدر الله لبعضهم أن يعودوا، ويتحدَّثوا عن طعم الموت لمات الأحياء خوفاً وغمّاً وهمّاً. أسأله سبحانه أن

يرحمنا، ويخفف عنا سكرات الموت، ويثبتنا على الإيمان[١].

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: تُعْطَوْنَ جزاءَ أعمالكم تامّاً وافياً يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: أُبْعِد عن النار.

وكلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ تدل على صعوبة النجاةِ من النارِ، إذ حُفَّتْ بالشهوات التي تجذبُ الناس إليها، وتقرّبهم منها.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفضل الله تعالى ورحمته ـ كما مرَّ معنا ـ.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ الفوز الحقيقي الذي لا يعادِلُه فوزٌ آخر، ونجا النجاة التي لا خطر بعدها.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فالتمتع بالدنيا قليل وحقير، والغرور بها ـ وهو الاغترار والانخداع ـ كثيرٌ.

- **مآسٍ ونكبات:**

لا بدّ أن يصاب المسلمون في مواجهتهم الطويلة المستمرة مع أهل الكتاب ببعض الخسائر في أنفسهم وأموالهم، ولهذا توجّهتِ الآياتُ تخاطبُ المسلمين بقوله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: ستصابون ببلاء يقع على أموالكم بما تتعرَّضُ له من نهبٍ وسلبٍ، ويقع على أنفسكم بما يصيبكم من جراح وقتل.

واللام في ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لام القسم، والنون الثقيلة لتأكيد مضمون القسم، الذي يأتي لتأكيد أمر في المستقبل.

---

(١) انظر: حياتنا والموعد المجهول.

فالآيةُ تتحدّثُ عما يقع في مستقبل الأمة المسلمة، وجاء الحديثُ عنه بعد الحديث عن مصاب المسلمين في أُحد، فكأنّ المصابَ في أُحدٍ البدايةُ لسلسلة طويلة متعاقبة من المآسي والمحن في الأموال والأنفس، تمتدُّ امتدادَ تاريخ هذه الأمة، بسبب المواجهة والصراع القائم بينها وبين أهل الكتاب خاصةً، والكفار عامةً، دلَّ عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ وما أكثر ما سمع المسلمون، ولا زالوا يسمعون من أذى يوجَّهُ إليهم من إذاعات اليهود والنصارى ووسائل إعلامهم، التي تبث سمومها في الليل والنهار بمختلف لغات العالم.

ونظرة إلى تاريخ المسلمين الطويل تدلُّ على صدق قوله تعالى، فتاريخُهم حافلٌ بالمآسي والنكبات التي حلّت بأموالهم وأنفسهم، وأكثرها فداحة كان بسبب المواجهة مع القوى الصليبية الحاقدة واليهودية الماكرة.

وقد يقول قائل: لقد نُكِبَ المسلمون على أيدي المغول والتتار الذين اجتاحوا مشرق العالم الإسلامي أكثرَ ممّا نُكبوا به عندما اجتاح الصليبيون مغرب العالم الإسلامي.

أقول: اجتياحُ المغول والتتار كان لفتراتٍ محدودةٍ، ثمَّ توقّف وانتهى بدخول المغول والتتار في الإسلام، بينما الاجتياح الصليبيُّ لا يزالُ مستمرّاً لم يتوقف بعدُ، وإنّ الدارسَ لأحداث التاريخ يجد أصابعَ الصليبية تقفُ وراء الاجتياح المغولي لمشرق العالم الإسلامي.

وبعد أنْ أخبرَ سبحانه المسلمين عمّا ينتظرهم من بلاء في أموالهم وأنفسهم، بيّن لهم سبحانه أسباب النجاة والسلامة المعنوية بقوله:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ممّا يجبُ العزمُ عليه من الأمور.

وهذا حثٌّ لهم على الصبر والتقوى، وهو ما ركزت عليه آياتُ السورة في

عدَّة مواضع، مرّ معنا بعضها في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله أيضاً: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

- **الميثاق العام:**

وكما أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ إنْ أدركوا زمانه، وأن ينصروه، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ الآية [آل عمران: ٨١][1]، أخذ الله الميثاق على علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يبينوا أمر النبيِّ ﷺ للناس كما ذُكِر في التوراة والإنجيل، فقال جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وهذا يدل على أنه سبحانه علم أنهم سيكتمون أمره، وهو ما أخبر عنه بقوله:

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: طرحوا الميثاقَ وراء ظهورهم، ولم يراعوه ويلتفتوا إليه أصلاً، فإنَّ النبذَ وراء الظهر تمثيل واستعارة لترك الاعتداد وعدم الالتفات، وعكسه جعل الشيء نصب العين ومقابلها[2].

﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ﴾ أي: وأخذوا بدله من حطام الدنيا الفانية.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ فبئسَ ما أخذوا من الدنيا.

قال ابنُ كثير رحمه الله: هذا توبيخٌ من الله وتهديدٌ لأهل الكتاب، الذين أخذ الله

---

(١) أستميح القارئ عذراً لكثرة تذكيره بما سبق في الكتاب، فما قصدتُ إلا إبراز الوحدة الموضوعية للسورة، وبيان الاتفاق والاحتباك بين آياتها التي بلغت المئتين.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤/ ١٤٩.

عليهم العهدَ على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوِّهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبةٍ من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك[1] من أجل المراتب الدينية التي كانت لهم، والتي استغلّوها أقبحَ استغلالٍ لجمع المال وكنزه، وكما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكانوا يتظاهرون أمام الناس بغير حقيقتهم، يظهرون أمامهم بمظهر الورع والتعفُّف والزهد، بينما الطمعُ والجشعُ يملأان قلوبهم ونفوسهم، وقد فضحهم الله تعالى لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم بقوله:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ أي: يفرحون بكتمان ما في التوراة والإنجيل من صفات النبيِّ ﷺ، وتحريفِ ما فيهما.

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ أي: يحبون أن يثنيَ عليهم الناسُ، ويصفونهم بصفات التقوى، والورع، والزهد، والتقديس، والتطهير.

حتى إنّهم ابتدعوا ألقاباً لأنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وهم في حقيقتهم أبعد الناس عن هذه الأعمال والصفات التي يَدَّعونها، وكم سمعنا ولا زلنا نسمعُ عن فضائح وقبائح لكثير منهم يندى لها الجبين.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ فلا نجاةَ لهم من عذاب الله تعالى.

وبعدَ نفي النجاة من العذاب أثبته لهم بقوله:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٥.

• **مناجاة ودعوات:**

وبعد أن طال السُّرى، وامتدت المواجهة، وتضاعفتِ الهمومُ، وازدادت الكروبُ، وأُثخنت الأبدان بالجراح، وظَمِئتِ الأرواحُ إلى الراح، جاءها النداء من الله تعالى يدعوها إلى واحةِ فضله ورحمته، وظلالِ أمنه وأُنْسه، فقد آن للمتعبين المكدودين أن يستريحوا، وللمهمومينَ المكروبينَ أن ينفّسوا عن قلوبهم، ويبثوا همومهم، ويخفِّفوا أحزانهم، آن للمجروحين أن يضمِّدوا جراحهم، ويمسحوا دماءهم.

لقد عوَّدنا الله تعالى في سورة آل عمران أن يأخذَ بأيدينا ـ كلّما ألمّت بنا الخطوبُ وتكاثرت الهموم والكروب ـ إلى ساحة رحمته وفضله، وأن يوقفنا على أبواب جوده وكرمه، بآيات كريمة، يعلمنا بها كيف نناجيه وندعوه، ونبثه همومنا، ونسأله سبحانه السلوى عن أحزاننا ومعاناتنا.

إنّ هذه الدعوات مفاتيح الفضل الإلٰهي والجود الصمداني، تفضّل الله تعالى بها على عباده المؤمنين في التنزيل الحكيم، ليستفتحوا بها أبواب فضله وجوده وإحسانه، ويستمطروا بها شآبيبَ رحمته، ويستنزلوا بها معونته ومدده ونصره، جَلَّ جَلَالُهُ، وتقدّست ذاته، وتسامت صفاته، ولا إلٰه غيره.

وهيأت الآيات الكريمةُ النفوس والقلوب لمناجاة ربها، والوقوف في ساحة فضله ورحمته، بتذكيرها بفضل الله سبحانه، المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، فخزائنُ جودِه وكرمه مليئةٌ، لا ينقصها جوده وعطاؤه، وخزائنه سبحانه مقدوراته، وهو قادر على كل شيء:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

فلا تستعظموا المسألةَ، اسألوه كلَّ شيءٍ، وأنتم موقنون بالإجابة، مصدِّقون بكمال قدرته وسعة رحمته.

• تفكُّر وتذكُّر:

وقبل التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، أرشدتنا الآياتُ لنتفكر في بعض مخلوقاته، وننظر نظر التدبُّر والتأمل في بعض مقدوراته، لنزداد إيماناً به سبحانه وتعظيماً:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بتعاقبهما، وما يحدثُ فيهما من تبدُّلٍ في الطول والقِصَر حسب الناموس الدقيق الذي أحكمته القدرة الإلٰهية لهما.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لَدلائل واضحة، وبراهين قاطعة، على وجود الله تعالى وجوده، ووحدانيته وكماله وغناه، لأصحاب العقول والمنتفعين بعقولهم.

فالعقلُ هو لبُّ الإنسان، وأفضلُ شيءٍ في بُنيته وتكوينه إن أحسن صاحبه الانتفاع به.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

والإيمانُ بالله تعالى الواحد الأحد، ومعرفةُ عظمته وقدرته بالتفكُّر في مخلوقاته، يدفعُ الإنسان إلى ذكره في كل أحواله:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: يُكثرون ذكر الله تعالى فلا يفترون ولا يغفلون، تتغيّرُ أحوالهم، ويتقلّبون في أعمالهم، وتبقى قلوبُهم وسرائِرُهم عامرةً بذكر ربهم، تتذوق بذكره رَوْحَ الإيمان وبرْدَ اليقين، ولذَّة الحضور، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨].

وكيف لا تطمئن بذكره تعالى، وهو يذكرهم: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؟!.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يَذْكُرُ الله ﷻ في كلِّ أحيانه. [رواه مسلم (٣٧٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها].

وينبغي أن يكونَ مع الذكر تفكُّرٌ:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتفكرون في الخلق لا في الخالقِ، لأنّه جلّ وعلا لا تحيطُ به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، وأنّى للمخلوقِ أن يحيطَ بالخالق جل جلاله؟!.

• **تنزيه الخالق سبحانه:**

ويؤدّي التفكّرُ في المخلوقات إلى تعظيم خالقها، والاستسلام والانقياد لحكمه، والإقرارُ بحكمته جلّ وعلا في إيجادها وإبداعها:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ تتنزه عن العبث والباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

أما المؤمنون فيقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ينزّهون الله تعالى ويسألونه الوقاية من عذاب النار.

وفي اقتران الذكر بالتفكّرِ إشارةٌ إلى محدودية العقل الإنساني، وقصوره عن إدراك الحقائق كلّها، فلابدَّ له من نور الذكر وهدايته.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: أذللته وأهنته وأهلكته.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمنعون عنهم الخزي والعذاب، فالتفكّر يجعلُ الإنسان يؤمن بالحياة الثانية يوم القيامة، وأنّه سبحانه ما خلقَ هذا الخلقَ وأبدعه هذا الإبداع للّعب والعبث والظلم، فلابدَّ إذاً من حياةٍ ثانيةٍ يُظهر الله تعالى بها عدله وفضله وحكمته.

• **منادي الإيمان:**

ولا يصح الإيمان إلا بالتصديق برسالة النبي ﷺ واتباعه:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فهو المنادي للإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى:

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي هو خالِقُكم ومالِكُكُم ومدبّر أمركم.

فدعوته عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى لا إلى نفسِه، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب]، فدعوته إلى الله بأمر الله تعالى.

﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ فصدّقنا بدعوته، واستجبنا لرسالته.

ولا يخفى ما في الآيةِ من تعريضٍ بالمُعرضين عن دعوة النبي ﷺ، وخاصةً من أهل الكتاب الذين فرّقوا بين الرسل، فآمنوا ببعضهم، وكفروا ببعض.

ثمَّ بعد أن أعلنوا استسلامهم الكامل لله تعالى وحده، واستجابتهم لدعوة رسوله ﷺ، تقدّموا إلى الله تعالى يسألونه قائلين:

﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التي أسلفناها.

﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ بتوفيقنا إلى العبادات والطاعات المكفِّرة للسيئات، كالصلاة والصيام والحج والعمرة.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: ألحقنا بالصالحين الأخيار، فهي أمنيةُ الأنبياءِ والصالحين، وقد جاء في دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ في الدنيا.

﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسنة رسلك من النصر والتأييد والعزَّة.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بعذابك.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ الذي وعدتنا بإجابة دعائنا، عندما قلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وهكذا علّمنا الله تعالى بهذه الدعواتِ أن نسأله خيرَي الدنيا والآخرة.

وقد ثبت أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقرأُ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام في الليل لصلاةِ التهجّدِ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **بتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدّث رسولُ اللهِ ﷺ مع أهلِهِ ساعةً، ثمَّ رقدَ، فلمّا كانَ ثلثُ الليلِ الآخرِ قعدَ، فنظرَ إلى السماءِ، فقال:** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ...﴾ **الآيات، ثمَّ قام فتوضّأ واستنَّ، ثمَّ صلّى إحدى عشرة ركعة.** [رواه البخاري (٤٥٦٩)]. وقوله: (استنّ) أي: مرر السواك على أسنانه.

- **استجابة الدعاء:**

ثمَّ أخبر سبحانه عن استجابته لهذه الدعوات بفضله ورحمته فقال:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، وأعطاهم ما سألوه، وأثابهم على عبادتهم، لأنّ الدعاء عبادةٌ، ولا يضيعُ عندَ الله ثوابُ أيِّ عبادةٍ أو طاعةٍ إذا كانت خالصةً لله تعالى وحده.

﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أي: سواء كان الداعي ذكراً أو أنثى.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ في الدين والنصرة والموالاة، وفي الثواب والمسؤولية.

ثمَّ ذكرت الآية بعضَ العبادات التي يُتَقرّب بها إليه تعالى، واختارت ما يناسب موضوع السورة، والمواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أجل دينهم وعبادة ربهم.

﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ أي: أجبروا على الخروج من ديارهم ظُلماً وعدواناً من أجل دينهم وعقيدتهم.

وهو من أشد أنواع الظلم التي يتعرّضُ لها الإنسان، حتى جعلها الله تعالى سبباً لمشروعية الجهاد بقوله الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الآية [الحجّ][١].

وهو ظاهرة فاشية في المجتمعات البشرية المعاصرة، فما أكثر المشرّدين عن بلادهم وأوطانهم ظلماً وعدواناً، من أجل أفكارهم ومعتقداتهم.

﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي: تعرّضوا للأذى بالضرب والسجن والتعذيب، وغير ذلك من ضروب الأذى المبتكرة مع مرور الأزمان من أجل إعانة الظالمين على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَقَاتَلُوا﴾ في سبيل الله، لدفع الظلم، ورد البغي.

﴿وَقُتِلُوا﴾ في جهادهم، ولحقوا بقافلة الشهداء.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتجاوز عنها وسترها وتطهيرهم منها.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثمَّ بعدها يكرمهم الله بدخول الجنات.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ كل ذلك بفضله تعالى ورحمته.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ فهو سبحانه المختص به، ولا يقدر عليه غيره.

- **المتاع القليل:**

إنّ مواجهةَ المسلمين لقوى الكفر والشرك مستمرّةٌ مع الزمان، وتوالي الأيام والأعوام، والأيام دُوَل، يومٌ لك ويومٌ عليك، يومٌ تُساء، ويومٌ تُسر، وهو

(١) انظر: تفسير سورة الحج (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج) في هذا التفسير.

سبحانه الذي يعزّ ويذلّ، ويعطي ويمنع، كما أنه هو الذي يقلّبُ الليل والنهار، فلا ينبغي الاغترارُ بتغلُّبِ قوى الكفر، وتمكُّنها في الأرض لبعض الفترات، بسبب ضعف المسلمين وبُعْدِهم عن دينهم، والاختلاف والتنازع القائم بينهم.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾.

لقد أنزل الله قوله الكريم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ على النبي ﷺ، والأمةُ المسلمة في بواكير ظهورها ونموّها، فكان سلطانها محدوداً في المدينة المنوَّرة، وكانت قوى الشرك والكفر تتحكّم في أرض العرب.

ومن وراء أرض العرب كانت الدولتان الكافرتان الفارسية والرومية تتحكَّمان في معظم بلاد المعمورة، كما هو الحال في القوتين الكبيرتين للدولتين الكافرتين روسية وأمريكة.

ففي نزول هذه الآية تثبيتٌ كبير للمسلمين، ورفع لمعنوياتهم، وكأني بها في هذا العصر تخاطب المسلمَ الذي بَهَرَتْه قوة الدول الكافرة، وشدة تسلطها على الدول الصغيرة الضعيفة، يسخّرونها في مصالحهم، ويزجّون بها في صراعاتهم.

وكلمة ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ تدلُّ على السعة والرخاء، وقوة التمكُّن الذي يجعلهم يتردَّدون بحرية في طول البلاد وعرضها، كما هو الواقع المشاهد في عصرنا الحاضر.

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

فلا تغترَّ أيها المسلمُ بظاهر ما ترى فإنه ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ لن يطولَ، وكل آتٍ قريبٌ، والأمرُ بيد الله تعالى الذي مرَّ معنا قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمران: ٢٦].

ويقيني لو عاد المسلمون إلى دينهم، ووحدوا كلمتهم، ما تقلَّبَ الكفّار في البلاد، وتحكموا في العباد.

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهَّدوا لأنفسهم ببغيهم وظلمهم. وبالمقابل:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ أكرمهم الله به، فأنزلهم في جنته ومستقر رحمته.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ لأنه لا ينقصُ ولا يزولُ ولا ينتهي، وهو خيرٌ مما يتقلَّب فيه الكفرة الفجّار.

- **مضاعفة أجر مؤمني أهل الكتاب:**

وتعود الآيات إلى موضوعها الأساس مع أهل الكتاب، لتبيّن ثوابَ الذين استجابوا منهم لدعوة رسول الله ﷺ فآمنوا وأسلموا، فلهم فضلهم في الإسلام، ومكانة بين المسلمين:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بعضهم.

﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد.

وجاءت كلمة ﴿يُؤْمِنُ﴾ لتدلَّ على أن إيمان بعض أهل الكتاب مستمر ومتجدد في كل زمان ومكان.

فعلى المسلمين أن يتفهّموا مراد الله تعالى في كلماته، ويبادروا إلى دعوتهم

إلى دين التوحيد، دين الإسلام، الذي لا يقبل الله غيره، عليهم أن يزيحوا العوائق التي تعوق أهل الكتاب عن الإسلام، والتي خلفتها المواجهة الطويلة معهم، فَثمّةَ عوائقُ كثيرة من الافتراءات والأكاذيب التي اخترعها القُسُسُ والرهبان والحاخامات، والتي حاولوا فيها تشويهَ حقيقة الإسلام، وسيرة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ليصدوهم عن الإسلام، ويبعدوهم عنه، فإن استجابتهم للإسلام ممكنة وقريبة إن أحسنًا دعوتهم وتعريفهم بحقيقة الإسلام.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ في التوراة والإنجيل قبل التحريف والتبديل.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين له سبحانه وحده.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ كما فعل المجرمون من الأحبار والقسس والرهبان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ وهو أجر مضاعف، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وسرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء ووصول الثواب.

- **الصبر والمصابرة والمرابطة:**

ثمَّ جاءت الآية الأخيرة في سورة آل عمران على رأس المئتين، تأمر المسلمين بالتزام عِدّة النصر المعنوية التي سبق ذكرُها في عدد من الآيات، نظراً للمواجهة المستمرة مع أهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ بالثبات على طريق الجهاد، والاعتصام بدين

الله تعالى، فإنكم على الحق الواضح المبين.

والأمرُ بالصبر لا يعني الاقتصارَ على معناه السلبي، وحبس النفس على المكروه فقط، بل الواجبُ مع الصبر المصابرة:

﴿وَصَابِرُواْ﴾ وهي بذل المجهود لمجاوزة المكروه، والتغلب على الصعاب والعقبات.

فالمصابرةُ عمل إيجابي يقتضي العمل وبذل الجهد للتغلب على الشدائد، وهو أمرٌ مطلوب، ولا يتعارض مع الصبر، فاحتمال المكروه شيء، والعمل على الخلاص منه بمعاناة أسباب النجاة والسلامة شيءٌ آخر، وكلاهما مطلوبٌ ومشروع، والأمة المسلمة مكلفة بهما، ومرّ معنا ما فعل النبي ﷺ بعد مصابه في أُحُد.

﴿وَرَابِطُواْ﴾ بمراقبة عدوكم، ورصد حركاته ومخططاته التي يرسمها للعدوان عليكم، فلا تغفلوا عنه، ولا تأمنوا جانبه، ولا تنشغلوا بمصالحكم الشخصية الدنيوية عن مراقبته ورصد حركاته وسكناته، فهو يتربّص بكم الدوائر، ولا يألو جهداً لينال منكم، وما حدث في أُحد عبرة بليغة للمسلمين في كل عصر ومصر.

وأصلُ **المرابطةِ** لغةً: المكثُ في الأماكن القريبة من العدو لمراقبته والمبادرة إلى التصدي له عند مهاجمته لبلاد المسلمين.

وهي نوع من أنواع الجهاد، وعبادةٌ من أعظم العبادات وأكثرها ثواباً؛ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**رباطُ يومٍ في سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدنيا وما عليها**» [رواه البخاري (٢٨٩٢)].

وإذا مات المسلم وهو مرابط أجرى اللهُ له ثوابَ المرابطة إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ ميتٍ يُخْتَمُ له على عملِهِ إلّا المرابط في سبيلِ اللهِ، يُجْرَى عليه عَمَلُهُ حتى يُبْعَثَ، ويأمنَ الفتّانَ**» [رواه أحمد (٤/ ١٥٠)] وقوله: «**الفتان**» السؤال في القبر بعد دفنه.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهر وقيامه، وإنْ ماتَ جرى عليه عملُه الذي كان يعملُه، وأجري عليه رزقُهُ وأَمِنَ الفتّانَ**» [رواه مسلم (١٩١٣)].

ولهذا كان كثيرٌ من العلماء والصالحين يحرصون على الإقامة في المدن الواقعة على الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد الكفار، لينالوا فضل وثواب المرابطة في سبيل الله.

والجديرُ بالذكر أنَّ تطور أساليب الحرب وأنواع الأسلحة جعل بلاد المسلمين معرضة للخطر مهما كانت بعيدة عن بلاد الكفار، وأصبحَ كلُّ مسلمٍ في أي موقع من مواقع عمله في رباط، إنْ عزمَ عليه ونواه، وقصدَ بعمله وجه الله تعالى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم وأحوالكم وأعمالكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين، ويسدّدنا لما يحبه ويرضاه(١).

والحمد لله أولاً وآخراً.



---

(١) كان الفراغ من كتابة تفسير سورة آل عمران في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك للعام الثامن بعد الأربعمئة والألف من هجرة النبي ﷺ، في بلد الله الحرام مكة المكرمة، حماها الله تعالى وصانها وبلاد المسلمين.

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الفاتحة

الثَّناء والدُّعاء في سورة الفاتحة

تفسير سورة البقرة

الإسلام لله تعالى في سورة البقرة

تفسير سورة آل عمران

التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران

